مكتبة | 258

فرناندو بيسوا

كواريشما فكّاك الرموز

روايات بوليسية قصيرة

المركز الثقافي العربي

فرناندو بيسوا

كْواريشْما، فكّاك الرموز

مكتبة الرمحي أحمد

للمزيد والجديد من الكتب والروايات

تابعوا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمخي أحمد

telegram @ktabpdf

فرناندو بيسوا

كْواريشْما، فكّاك الرموز

روايات بوليسية قصيرة

(تحقيق: آنا ماريا فريتاش)

ترجمة: سعيد بنعبد الواحد

المركز الثقافي العربي

مكتبة الرمحي أحمد

الكتاب

كُواريشْما، فكّاك الرموز

تأليف

فرناندو بيسوا

ترجمة

سعيد بنعبد الواحد

الطبعة

الأولى، 2018

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-875-6

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 - 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت - لبنان

ص.ب: 5158 - 113 الحمراء

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 - 01 352826

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

مقدِّمة[1]

- 1 -

تلقيتُ قبل بضعة أشهر، وأنا أتصفّحُ جريدة الصباح، في آخر صفحة من زاوية الوفيات، المفاجأة الأليمة لخبر وفاة مواطن برتغالي، الدكتور أبيليو كْواريشْما، في نيويورك «حيث كان في رحلة عابرة». لم يذكر الخبر سبب وفاة الدكتور أبيليو كْواريشْما، ولم يشر أيضاً إلى تاريخ وفاته. كان، بكل تأكيد، خبراً توصّلَت به مصالح القنصلية وأرسلته إلى الجرائد عبر وزارة الشؤون الخارجية.

ولم يكن سبب هذه المفاجأة الأليمة يرجع إلى أنني كنتُ أرتبط بعلاقة صداقة مع المرحوم، ولا لأن قلة المعلومات التي جاءت في نبأ وفاته كانت تنطوي على شيء مشبوه؛ ما صدمني في اقتضاب الخبر، في الغياب التام للمعلومات حول المرحوم -خبر لم يأتِ على ذكر ولو منقبة واحدة من مناقبه-، هو أن الوطن لم يفقد رجلاً بهذه القيمة فحسب، وليس فقط أنه لم يكن معروفاً لدى الجمهور،

---

(1) تشكِّلُ هذه المقدمة التي كتبها فرناندو بيسوا جزءاً من تصوّره لهذه السلسلة من الروايات البوليسية القصيرة، وكيف كان يُخطِّط لكتابتها ونشرها. (المترجم)

مكتبة الرمحي أحمد

بل حتى زوايا الوفيات في الجرائد، المهمة أحياناً حين تُذكّرنا بواسطة صيغ المبالغة والتمجيد بالأشخاص المرموقين الذين رحلوا أخيراً -لشجاعة بعضهم، وغرابة أطوار البعض الآخر-، والتي تكون أشياء تثير إعجابنا، وقد يكونوا أيضاً أشخاصاً كانت تحيط بهم هالة، طالهم النسيان أو خبت شعلتهم بعد ذلك، فلا نعلم أنهم كانوا لا يزالون أحياء إلا عندما يصلنا خبر وفاتهم. هذه الزوايا الصحفية نفسها لم تضف ولو كلمة واحدة إلى عُري النبأ الذي نعى الجمهور خبر وفاة الدكتور كْواريشْما.

أن لا يحظى رجل من طينة كْواريشْما ولو بيوم واحد من الشهرة كان أمراً ملأ نفسي مرارة. أعرف أنه لم يسعَ قط إلى الشهرة، هو الذي كان دائماً رجلاً حالماً، منغلقاً في إدمانه المصرّ على الخمر وفي استدلاله الذي صار تلقائياً تقريباً. لكن العدل كان يقول لي، دون أن يكون صوته ملحّاً في السرِّ، إن هذه الشهرة من حقّه، وأنه إن لم يسعَ إليها أمر لا علاقة له مع أنه من العدل أن ينالها، وأن من واجبي، أخيراً، أن أبلغ الجمهور، بأوضح طريقة ممكنة، بأكبر عدد من القضايا التي استطعتُ الاطّلاع عليها وكان لقدرات الدكتور كْواريشْما نصيب مهم في حلّها.

لهذا ألقيتُ على عاتقي مهمة نشر وتجميع، من كل ما استطعتُ من أرجاء العالم، كل القضايا التي اطّلعتُ عليها، والتي لعبَ فيها استدلال كْواريشْما دور أوديب أمام أبي هول مجرم[1]. وسرعان ما

---

(1) اعتمدنا في هذه الترجمة على الصيغة التي نشرت محقّقة سنة 2008 من طرف الباحثة البرتغالية آنا ماريا فريتاش:

Fernando Pessoa: *Quaresma, decifrador. As novelas policiárias* (Edição de Ana Maria Freitas), Assírio & Alvim, Lisboa, 2008.

تلقّيتُ مساعدةً أدين بها لأشخاص برتغاليين وأجانب، قصدتهم للحصول على المعطيات الضرورية لتجميع هذا الكتاب. فضّلتُ أن يحكي كل واحد منهم شخصياً «القضية» التي دارت أحداثها أمام عينيه ومن خلال تجربته، كما أحكي من جانبي ما حدث في حضوري. تمكّنتُ إلى حدِّ الساعة من تجميع اثنتي عشرة واقعة رائعة من حياة الدكتور كْواريشْما الاستدلالية[1]. سوف أقدِّمها للقراء، واحدة تلو الأخرى، بعد تدوينها بعناية، أو ترجمتها بكل دقة، بحسب ما إذا كانت موجَّهة إلى القراء البرتغاليين أو غيرهم من الأجانب. وستَبرز منها، لا محالة، شخصية كْواريشْما، البسيطة والمعقّدة في الآن نفسه، لتنوير الجمهور وتثقيفه. وقد وفّرت على نفسي عناء المهمة الصعبة لوصفه، لأن ذلك يمثِّل عملاً مستحيلاً لا يستطيع القيام به سوى الدكتور كْواريشْما نفسه.

بما أنه لا يوجد رابط بين واقعة وأخرى، فإنه لا وجود لعلاقة زمنية بين الوقائع، ولا يهم أن نعرف أي واقعة حدثت أولاً، ولا الواقعة التي تليها. وكما توصلتُ بها أولاً بأول، هيّأتها للنشر؛ وبقيت وفق هذا الترتيب[2].

= لكن هذه الطبعة لا تمثّل صيغة نهائية للنصوص التي نترجمها هنا نظراً إلى الصعوبات والثغرات الموجودة في المسودات التي تركها الكاتب. لذا نقلنا إلى العربية بعض الجمل والفقرات ناقصة كما جاءت في الأصل الذي بين أيدينا، ويشير القوسان المعقوفان [. . .] إلى هذه الفراغات التي تمثّل كلمات، أو جملاً، أو فقرات ناقصة في الأصل البرتغالي. (المترجم)

(1) في واقع الأمر، تضمُّ الصيغة الأصلية لهذا الكتاب 13 رواية قصيرة، لكن نظراً إلى الطابع غير المكتمل لبعض النصوص فقد اخترنا عدم ترجمة ثلاثة منها. (المترجم)

(2) اعتمدنا في هذه الترجمة ترتيباً مختلفاً للنصوص. وقد وضعنا رواية الرقّ

مكتبة الرمحي أحمد

سأبدأ بالواقعة التي أستطيع أن أحكيها أحسن من أي شخص آخر.

إن رواية مختلف القضايا الجنائية، أو شبه الجنائية، التي ساهمَ كُواريشْما في حلها كلّياً أو جزئياً، تندرج بالطبع ضمن ثلاث فئات مختلفة. إن رواية **قضية فارغاش** الشهيرة، والتي لم تكن أول قضية اجتهد كُواريشْما في حلّها فحسب، بلّ كانت أول قضية قدَّم لها حلّاً أمام العموم، وهي الأولى التي علمت الشرطة من خلالها (وبأية طريقة!) بوجود كُواريشْما، لا تشكِّل موضوعاً يمكن سرده في أقل من مجلد واحد، نظراً إلى تعقّد وفرادة الاستدلال الذي قاد كُواريشْما إلى تفسيرها.

أما القضايا الأخرى التي فسّرها كُواريشْما فلا تستوجب تحريراً مطوّلاً. بعضها، مع ذلك، قد تكون أحداثها مبتورة ورواية تفسيرها ناقصة لو اختزلنا الحكاية في نوع من ملخّص للأحداث. وثمة، رغم ذلك، قضايا أخرى، كهذه التي تشكِّلُ هذا المجلد، وقد تشكِّلُ مجلدات أخرى في المستقبل، ربما تكون روايتها قصيرة دون أن تفقد شيئاً، وحيث الاستدلال، المركّز كما لو أن الأمر يتعلق بحلٍّ سريع وحاسم، لا يمكن أن يكون إلا موجزاً.

= **المسروق** في البداية لأنها تقدِّم صورة واضحة عن كُواريشْما، الشخصية الرئيسة التي تشكِّلُ خيطاً رابطاً بين كل الروايات. ونظراً إلى ما تتميز به رواية **قضية فارغاش** من طول نسبي، مقارنة مع النصوص الأخرى، فقد اخترنا وضعها في نهاية هذه المجموعة، وقد ذكر بعض الدارسين أن بيسوا نفسه كان ينوي نشرها مستقلة عن باقي هذه الروايات البوليسية القصيرة. (المترجم)

وسأبدأ بهذه الأخيرة لأحكي تفسيرات أبيليو كْواريشْما.

وبما أنني أكتب هذه الروايات بصورة متتالية وفق ما أحصل عليه من معطيات كاملة حول كل واحدة منها، لا أتخذ، فيما يتعلق بترتيبها، أي تسلسل معيّن، زمنياً كان أو غير ذلك. تتعلق كلها بتحقيقات مستقلة، لذا لا يهم أن تأتي هذه الرواية قبل الأخرى أو أن يُقلب الترتيب. ولا سيما أن كْواريشْما، حين برز في المشهد العمومي، أو بالأحرى الاجتماعي، كان فكره قد تشكَّلَ منذ مدة طويلة؛ حتى أنه لا يجب أن ننتظر القيام بدراسة تطوره من خلال هذه الروايات.

إن الموت القريب العهد لصديقي القديم، الدكتور أبيليو كْواريشْما، أحيا فكرة طالما راودتني منذ مدة، لكني لم أجد أبداً الفرصة لعرضها عليه. أبيليو كْواريشْما، «طبيب غير ممارِس وفكّاك ألغاز»، كما كان يُعرّف نفسه بكل بساطة ودقة، سنحت له الفرصة ليتدخل ويجد الحل لعدة ألغاز من ألغاز الحياة الواقعية، التي دائماً ما تكون أكثر غرابة، وغالباً ما تكون أكثر ذكاء من ألغاز **روزنامة الذكريات**، الذي كان أحد كُتُبه المفضّلة. إن موت كْواريشْما يعفيني، لأسباب مختلفة، من استشارته بخصوص هذه النقطة. وبعد أن ناقشت مطوّلاً المسألة مع المفوَّض غيديش، عن الشرطة الجنائية، وهو صديق لكْواريشْما أيضاً، قررتُ أن أصوغ كل هذه الروايات بأدقّ طريقة متاحة، وأن أحكي هذه المغامرات الفكرية التي صنعت من كْواريشْما كائناً استثنائياً في نظري.

وكانت المهمة التي ألقيتُها على عاتقي، لأجمع مختلف «القضايا» التي تشكِّلُ حياته الوحيدة كطبيب ممارس، بما أنه لم

مكتبة الرمحي أحمد

يمارس الطب قط، طويلةً وشاقةً. سأروي هذه القضايا كلما تبلورت نهائياً في ذهني من خلال ما أقوم به من أبحاث. لكن إعادة البناء التي سأقدِّمها ستكون علمية بكل دقة. لن أُدخل في هذه الروايات عنصراً آخر غير تلك العناصر التي توجد فيها، لأعرض الوقائع. سوف تُقدَّم الروايات مرتبة كلما أتممتها، دون مراعاة أي ترتيب زمني، وهو ما قد يكون من باب التشاؤم التافه، لأنني لا أنوي دراسة تطور فكر كْواريشْما، بل أريد أن أسجِّل مختلف تمظهرات هذا الفكر بعد تشكله. بالنسبة إلى بعض هذه القضايا، سوف يتكلّف بتقديم الحكايات أكثر الشهود قدرة، نظراً إلى شخصيتهم وذكائهم، على حكي الأشياء كما وقعت؛ لكن تيقظي الأدبي، ومعرفتي الشخصية لكْواريشْما، ستكون دائماً حاضرة لتعدِّل الرواية، ليس لتجعلها أكثر إثارة، بل فقط لتكون أكثر مطابقة للواقع فعلاً. وبالنسبة إلى القضايا الأخرى، فقد ارتأيت، بعد الحصول على كل المعطيات، أن أكتب حكاياتها بنفسي، بكل موضوعية، على طريقة الروائيين. لكن، سواء تعلّق الأمر بهذه القضية أو تلك، أؤكد من جديد، دون تردّد ولا تواضع، دقة الحقيقة التاريخية لما أسرده.

من واجبي أن أشكر مختلف كتّاب الروايات الذين لا أعرفهم تماماً، وأن أنوِّه بالمساعدة التي قدّموها لي في كتابتها، والشرف الذي حظيت به حين سمحوا لي دون تحفُّظ بمراجعتها وتصحيحها.

أما المفوَّض مانويل غيديش، الذي تشكِّلُ ذاكرته المدهشة أحد مصادر هذه الروايات، فلست في حاجة إلى شكره، لأنه يقدِّر ذكرى الدكتور كْواريشْما كما أقدِّرها؛ وكلانا لا يقوم سوى بتكريمه من خلال نشر مساهماته في تاريخ الفكر التطبيقي.

وبخصوص المخطوطات التي تركها الدكتور كْواريشْما، والتي كُلِّفتُ بنشرها، مع التحفظ بألا أقوم بهذا الأمر إلا إذا تأكدت من جدوى إنجازه، فتلك مسألة سأهتمُّ بها لاحقاً، عندما سأعود مباشرة إلى تلك المخطوطات.

ألغاز وأحاجي، مسائل شطرنجية، لعب مركّبة هندسية ورياضية، كان يتغذّى على كل هذه الأشياء ويعيش معها كمن يعاشر امرأة. ويشكِّلُ الاستدلال التطبيقي متعته المجردة. تلك الغرفة في شارع فانكيروش، التي كان وفياً لها بقدر زهده في الحياة، شهدت قصوفاً من الإدارك ومن الحلول التي قد لا يضاهيها أي منغمس في التهتُّك الشهواني.

لكنه لا يفقد الصبر أبداً، لا رفيق له، حزين نوعاً ما، مع شيء من الحنو القصي وطريقة شاردة في النظر إلى الأطفال، والاستماع إلى البسطاء، وفسح الطريق للمتسولين. من دون مآسي، ولا مسرحيات، لكن مع فقدان الأحاسيس، ونسيانها، وإسكاتها، لتمّحي وتفسح المجال للتفكير...

من دون أي ذوق جمالي، إلا الذوق الذي يمنحه الاستدلال نظراً إلى التوازن الذي ينشأ عن ممارسته. ولا أي ذوق علمي أو فلسفي: لا مبالاة الفكر أمام نوائب الدهر.

عجز يكاد يكون تامّاً عن الكتابة شيئاً ما، لأن الكتابة خاضعة للأشياء، وتحتاج إلى الورق، والمداد، وإلى قلم ينظم نتيجتها.

إن الروح الإنسانية لها تكلُّفات عاطفية غريبة. إنني متأكد أن

مكتبة الرمحي أحمد

شركة التبغ، عندما لم تعد تنتج السيجار من نوع «بيرالتا»، قد ساهمت بطريقة ما في ظهور السعال الجُثّي الذي هلك بطل مسرحيات العقل هذه.

يمكن أن نحب نوعاً من السيجار. هناك من الناس من يقاتل ويموت من أجل أفكار مجردة، لا يزيّنها أي طوق؛ لكن سجائر «بيرالتا» تحيط بها الأطواق.

غريب كيف أن بعض المواضيع يمكن أن تشكِّلُ فكرنا وفق طبيعتها. كنتُ فعلاً صديقاً لكْواريشْما؛ يؤلمني غيابه؛ لكن، وأنا أكتب عنه، أعتمد، دون رغبة أو ندم، كما أفعل دائماً، برودة من يلهمني، ولا أستطيع أن أذرف ولو دمعة نثرية. إن شخصية كْواريشْما تتسلُّل إلى ما أكتب: يأبى أسلوبي إلا أن يكون بارداً.

والأغرب من هذا كله أن هذا الفرد الباهت والمغمور، وهو يعيش حياة ذاتية من مسائل موضوعية، كان يكتسب طاقة جديدة وخارقة عندما يحل مسألة ما، خصوصاً إذا كانت مستعصية. إن الدكتور كْواريشْما، العادي، كان إضافة هزيلة للإنسانية؛ لكنه ما أن يحل لغز مسألة حتى يصعد فوق تمثال داخلي، يلتهب بقوى مجهولة، فينأى عن الضعف البشري: يصير هو قوة الاستنتاج. لم يكن يتحول -لن أقول شيئاً كهذا-، بل كان يتغيّر دون أن يتحول. كان هو كْواريشْما نفسه، لكنه ينال مجد الدخول في روزنامة ذكريات العام الموالي، بعد أن يفكّ كل الألغاز.

قد تبدو هذه العبارات جافة، بسيطة، ومن دون حياة. قد يُقال إنني لا أحب كْواريشْما. إنني أقدّره، لكن، وأنا أتحدث عنه في هذه

اللحظة، لا أثني عليه -أعرف ذلك- وأخوض في وصف من أراه مثل آلة سينمائية تبعد صفة الكتابة.

كمن يتأمَّل الواقع، ويخطِّط لما تمَّ إنجازه، كان استدلاله، في حركة سريعة للغاية، يجرّد وقائع قضية ما من من كل حوادثها، فيبرز هيكل ما حدث في صورة شعاعية أُخرجت فجأة من حوض التحميض.

- 2 -

وجدتُ كُواريشْما غارقاً في أريكته وهو في حالة وهن. ربما لم يكن سكران -ربما كان بعض الشيء- لكنه كان كذلك بالأمس. استقبلني وهو ينهض ببطء نزق، يبذل مجهوداً متوتِّراً، كما لو أن مجيئي قد أيقظه، بينما كان يحلم. وبنبرة لم يستطع أن يسيطر تماماً على حدّتها، أشار لي إلى كرسي، ثم عاد إلى وضعيته الرخوة، وظلَّ يمس ذقنه [. . .][1]. وفي تلك الفترة القصيرة الفاصلة بين لحظة جلوسي ولحظة كلامي، فحصتُ هيئته العامة. كان ذا قامة تفوق المعدل، نحيفاً، بعظام صغيرة بارزة، وكتفَين متهدلتَين، وساقَين مرتخيَين، ما يعطي انطباعاً فورياً وعاماً عن جسم ضعيف زادت من ضعفه رذيلة من الرذائل. شكل مظهره، ونظراته، والارتعاشة الخفيفة التي تطال كل النقط السطحية من جسده تشي بأن الرذيلة هي السكر. اللون المصفرّ للحيته وشاربه ذي اللون الكستنائي الفاتح والمائل إلى الرمادي، والشكل المتّسخ لإبهامه وسبابة يديه اليمنى واليسرى (بشكل

(1) تستعمل محقّقة النص، آنا ماريا فريتاش، القوسَين المعقوفَين [. . .] للإشارة إلى وجود فراغ أو كلمات غامضة في مسوّدة النص الأصلي. (المترجم)

أقل)، كان يشي علناً بالتدخين. وفعلاً، كان يدخّن دون انقطاع [. . .] بيده اليمنى، وحين يكون منتبهاً باليسرى، وهو يمسُّ ذقنه باليمنى، كما فعل في هذه اللحظة حين حوّل نحوي بداية انتباهه.

شَعر متناثر، ومشعّث نحو الخلف. كان يمرر يده باستمرار على شعره ولحيته، سريعاً أحياناً، وبطيئاً أخرى، وغالباً ما كان ذلك يستوجب منه حركة سريعة ومضطربة، أو بطيئة وتأمُّلية. وباستثناء المهام المترتبة عن هاتين الرذيلتَين، يبدو أنه لم يكن مقصِّراً في نظافته.

قلة العناية بالنفس [. . .] كانت ظاهرة للعيان. كانت تعمُّ الغرفة فوضى صارخة. على طاولة طويلة (بسيطة، تكاد تكون فقيرة) كانت في ركن من الغرفة، على يسار أريكته، الواقعة بين الطاولة والنافذة، بحيث تتلقى الضوء القادم من اليمين، كانت تتراكم مختلطة الجرائد، والرسائل، وبعض الكتب التي أساء معاملتها، وقد ظلت كلها مفتوحة عند هذه الصفحة أو تلك، لكن أوراقها كانت مُفرّقة إلى مستوى معيّن. وفوق كل هذا كان الرماد، وأوراق مدعوكة أو قسائم كان يجب وضعها في السلّة لكنها رُميت فوق الطاولة.

كل هذا كان يشي عن عصبية واضطراب ولا مبالاة ربّ البيت.

كان رجلاً متوسط القامة، أو يفوق المتوسط بقليل، نحيفاً وضعيفاً دون أن يكون معتلّاً، ويبدو، بمظهره المتواضع بطبيعته، وسيماً لأنه ليس قبيحاً، دون أناقة ولا تميُّز.

وما أن نراه حتى ندرك أنه ما من جهد متواصل، ولا من شجاعة جسدية، ولا من اندفاع عاشق يمكن أن ينبع أو يستقر في

جسد توقّف عن الحركة والنشاط. لقد كان كائناً مسالماً، بأقوى المعاني السلبية للكلمة.

على المستوى الذهني، لم يكن له أي تفرُّد، ولا أي خيال، لكنه كان يملك شيئاً وحيداً، وهو ما يستنزف كل جوهر روحه... كان يملك استدلالاً بارداً ومسترسلاً يستطيع أن يتجاوز أوعار الواقع وهو يرسمها بخطٍّ خفيف، بشكل يكاد يكون لا إرادياً.

ينجح في أشياء لا ينجح في القيام بها إلا بعض الأفراد: رؤية الواقع في مجمله، تمييزه عن العارض والثانوي، ثم فجأة، وبوقاحة مضاعفة، تثبيت كل تفاصيل المرئي، كما لو كان وميض برقٍ.

كان دائماً سعيداً بلقائي: لم أعرف أبداً إن كان صديقي، تائهاً وسط الألغاز والمسائل مثل طفل وسط اللعب، كان دائماً يرفع نحونا عينَين بريئتَين وصافيتَين كأنهما عينَي من ينهض متوتِّراً أمام الخادم الذي دخل للتو.

إن الوضوح الذهني المكتسب من خلال ممارسة التفسير والشرح، والذي، حين يتساءل حول الواقع، إما يخلط كل شيء، وإما يفهم كل شيء، دون أن ينطوي، مثل استقامة التنبُّه، على تسوية أو حدّ وسط.

كان يقف أعزل أمام الواقع والحياة. ولولا ألطاف القدر لمات جوعاً، لأنه كان عاجزاً عن القيام بأدنى مجهود [...]. كان الواقع بالنسبة إليه حائطاً أبيض، لا يراه من فوقه حتى لو تمكّن من رؤية الواقع اليومي. لكن إذا ما حصل، بالصدفة، أن شكّل الواقع مسألة قد تجد مكاناً لها في استدلاله، حينئذ يسقط حزنه فجأة، مثل قناع، ويضع كل شيء تحت نفوذه كأنه مَلَك مُنزل. يجب ألا يُساء فهمي:

مكتبة الرمحي أحمد

لم يكن كْواريشْما المتواضع يختفي؛ وكان الاستدلال يتوجّه مثل هالة.

رأيت نفس الطبع مرات عديدة لدى المحاسبين، وروّاد محلات بائعي الكتب القديمة الذين يقلبون الرفوف، والمتقاعدين الذين يعانون من هوس الاعتراف، ولدى هواة جمع الطوابع البريدية المولّعين بالهوامش المسنّنة، والمؤرِّخين المدقّقين في تفاصيل ماضي العالم، ومُشرِّحي الأمور التافهة.

ظهر كْواريشْما لأول مرة بشكل متواضع في «قضية فارغاش» المشهورة وقتها، والتي طبعت لقاءه مع المفوَّض (الذي كان مفتشاً وقتئذ) مانويل غيديش. وقد جاء فكّاك الألغاز في هذه الحالة، يحمله اندفاع مفاجئ، ليميط اللثام عن قضية سايكولوجية من أعقد ما أنتجه الواقع. لم يفارقه مانويل غيديش أبداً منذ ذلك الحين. ويرجع الفضل إلى مجهود هذا المفتِّش النبيل، الخشن، المتنبِّه، الشجاع والودود -يجب الاعتراف بذلك- في تمكُّننا من تدوين كل عمليات حل الرموز التي أنجزها كْواريشْما.

لقد لامسَ الوضوحُ الفكري لديه الهذيان.

هكذا كان، كما رأيته وكما عرفته، أبيليو فرنانديش كْواريشْما، طبيب غير ممارِس وفكّاك ألغاز، ولد في تانكوش سنة 1865 وتوفي في لشبونة[1] في هذه السنة الجارية، 1930.

---

(1) يتردد الكاتب بخصوص مكان وتاريخ وفاة شخصية كْواريشْما؛ إذ إنه قال في بداية هذه المقدِّمة إنه توفي في نيويورك عندما كان في رحلة عابرة ولم يحدِّد تاريخاً معيّناً. انظر الفقرة الأولى من هذه المقدمة. (المترجم)

الرَّقّ المسروق

مكتبة الرمحي أحمد

الفصل الأول

رواية أحداث السرقة والظروف المنزلية لصاحب البيت الذي تعرَّض للسرقة. . . إلخ. ينبغي أن ينتهي الفصل بإشارة واضحة إلى اللغز، وسرد كل التفاصيل المثيرة لهذا اللغز، باستثناء تلك التي يستحسن أن تكون جزءاً من الاستجواب (الذي يتم في الفصل الثالث) الذي يجريه كْواريشْما مع جاسينتو كورِّيّا.

قليلة هي القضايا التي تميّزت بقدرتها على مخادعة تحقيق الشرطة مثلما فعلت قضية الرَّقّ المسروق من بيت جاسينتو كورِّيّا. وقليلة هي القضايا المناسبة لتبيُّن كيف يمكن لتحقيق أن يخطئ بسهولة دون أن يلحق ذلك أدنى ضرر بسمعة المحقق. وقليلة هي القضايا التي يمكن أن تبرز قدرات الدكتور كْواريشْما في الاستدلال وثقابة الفكر. حتى تكون لهذه الواقعة كل الأهمية التي يمكن أن تنطوي عليها، رأيتُ من المستحسن أن يقوم بسردها كارلوش دوميسيانو سانتوش، كاتب السيد جاسينتو كورِّيّا نفسه. لذا، أعطيه الكلمة، وبما أنه شهد الواقعة من أولها إلى نهايتها، يمكنُه، أكثر من أي شخص آخر، ليس فقط أن يسردها بالترتيب، بل أن يبرز أيضاً الدور الرائع الذي لعبه الدكتور كْواريشْما في أحداثها.

مكتبة الرمحي أحمد

رواية كارلوش دوميسيانو سانتوش

سوف أبدأ من البداية، وأسرد الظروف التي كنتُ أشتغل فيها كاتباً في بيت السيد جاسينتو كورّيّا، عندما وقعَت، في شهر يناير من سنة 1908، تلك السرقة المثيرة التي تدور حولها روايتي.

أولاً، سوف أتحدث عن نفسي وكيف أصبحت كاتباً لدى السيد جاسينتو كورّيّا. ثم سوف أتحدث عن السيد جاسينتو كورّيّا، عن قاطني البيت وظروف أخرى منزلية؛ وهو ما سيقدِّم للقارئ، منذ البداية، فكرةً واضحة عن الوسط الذي حدثت فيه الواقعة التي تقف وراء هذه الرواية.

في يونيو من سنة 1905، سألني صديق قديم للمرحوم والدي إن كنتُ أرغب في أن أصبح كاتباً خاصاً لشخص صديق له كان عندئذ في حاجة إلى كاتب، وأخبرني أنه بحكم معرفته الكبيرة بي مستعد ليُزكّيني لديه ما دمتُ أنني من القلائل الذين يستجيبون لشروط تلك الوظيفة.

وحصلت على الوظيفة دون صعوبة بفضل تلك التزكية. وكانت صعوبة الحصول على الوظيفة تتعلق بالثقة الكبيرة التي كان السيد جاسينتو كورّيّا في حاجة إلى أن يضعها في كاتبه. ولم يكن ذلك من باب التقاليد فقط، بل لأسباب أخرى. والسبب الأول أن الأعمال التي كان يديرها تتطلب أكثر من غيرها تحفُّظاً كبيراً، وسرّية خاصة ودقيقة. والسبب الثاني أن السيد كورّيّا كان هاوياً كبيراً بجمع التحف القديمة وشخصاً يثير الشبهات بسهولة، وكان يريد أن يكون على ثقة بأن داخل أسوار البيت، على الأقل، لا يوجد غير أشخاص يمكن أن يشعر معهم بالثقة بخصوص القطع النفيسة التي يضمُّها المنزل.

ولم يمنعه ذلك، رغم كل شيء، من أن يحيط تلك القطع النفيسة بتدابير احتياطية مبالغة، لكنها مبرّرة. ومن الشروط التي كان يطلب توفرها في كاتبه، طبعاً، ألا يكون له اهتمام كبير بالأشياء القديمة، بما أن استقامة هواة جمع القطع الأثرية، كما نعرف، غير مؤكّدة ومشكوك فيها في إطار ما يجمعه من قطع.

وبما أنه قد تمّت تزكيتي كشخص كَفء يناسب الوظيفة، جِدّي، لديه معرفة بالأشياء القديمة لكنه مجرّد من أي رغبة في امتلاكها، فقد اجتمعت في -أقول ذلك بكل تواضع- عدة صفات ضرورية لمزاولة وظيفة الكتابة. لذلك، وباعتماد تام على التزكية التي حظيت بها، حصلت دون عناء يذكر على وظيفة كاتب لدى السيد جاسينتو كورِّيا. وشغلت تلك الوظيفة من شهر يوليو 1903 إلى غاية وفاته، التي حدثت في يوليو من سنة 1913.

ولا داعي إلى أن أتحدث عن مهام وظيفتي، لأنها ليست ذات أهمية. يكفي أن أقول إنني كنتُ على علاقة جيدة بمشغّلي، وإنني لن أجد، حتى إن أردت ذلك، شيئاً مهماً أحكيه له علاقة بتلك الوظيفة غير هذا الحادث الذي يشكِّلُ أساس روايتي. لكن أهمية هذا الحادث تُغني بكثير عن غياب أحداث أخرى.

كان في البيت أشخاص قليلون. شخصان فقط من العائلة: ربّ البيت وابن أخيه، الدكتور جوليو كورِّيا غيديش، الذي يشغل اليوم منصب كاتب عام لدى حاكم الموزمبيق[1]. وأثناء العطل، كان يسكن هناك أيضاً ابن أخ آخر للسيد كورِّيا، يدرس في السنة الثانية من تخصص الحقوق بجامعة كويمبرا، الذي لن أتحدث عنه أكثر من

---

(1) كانت الموزمبيق مستعمرة برتغالية وقتئذ. (المترجم)

مكتبة الرمحي أحمد

هذا، بما أنه كان في تلك المدينة عند وقوع السرقة، ولا علاقة له بهذه القصة. كانت هناك أيضاً قيّمة على البيت، هي السيدة غلوريا، ثلاث خادمات، خادمان، بستاني والسائق. دون الحديث عن نفسي، طبعاً.

كانت زيارات البيت قليلة جداً، لأن الدكتور كورِّيّا غيديش نادراً ما كان يستعمل بيته الخاص مكاناً للقاء أصدقائه أو الاجتماع معهم؛ أما السيد جاسينتو كورِّيّا فلم يكن يعاشر غير بعض الأصدقاء القدامى، وكلهم تقريباً من هواة جمع القطع مثله، وكانوا، على قلّتهم، لا يترددون على البيت إلا لماماً. وكان أربعة منهم مواظبين على زياراتهم، ومن بين هؤلاء كان اثنان يزوران البيت يومياً تقريباً: القائد رانجل فييرا والفارس سامبّايّو فييغا، شخص غني جداً، جمع ثروة في البرازيل، وصديق طفولة لربّ البيت.

كانت التحف والأشياء النفيسة التي تشكل مجموعة السيد كورِّيّا متفرِّقة في قاعات مختلفة من البيت، لكن الأساسية منها، تلك الأكثر قيمة، كانت في قاعة تُدعى المتحف. كانت هذه القاعة التي توجد في الجهة الخلفية من البيت، في الطبقة السفلى، عبارة عن غرفة يفوق طولها العرض ولها نافذتان من كل جهة، وست نوافذ بالضبط في الجهة الخلفية. وبالإضافة إلى أنها تطلُّ على فناء البيت، من كلتا الجهتين، كانت النوافذ، العالية عن الطبقة الأرضية، محصّنة بقضبان قوية وضيقة أكثر من المعتاد؛ وإن لم يكن ذلك كافياً، كانت الأبواب الداخلية ثقيلة، وقد دُعم كل واحد منها بمتراس قديم، ثقيل جداً بدوره. وكان للغرفة بابان يفضيان إلى ممر. كان أحدهما دائماً موصداً من الداخل؛ والمفتاح دائماً موضوعاً في القفل. أما الباب الآخر، الذي كان هو المدخل، فكان له قفل خاص من نوع «ييل»،

وكان مفتاح أو مفاتيح هذا القفل دائماً في جيب السيد كورِّيّا.

في هذه الغرفة وقعت السرقة.

لا جدوى من وصف ترتيب مختلف الأثاث الذي كان يزيّن الغرفة. يكفي وصف ما يهم. حين يدخل المرء الغرفة، يجد مباشرة على يمينه مكتبَين قديمَين. وفوق واحد منهما، ابتداء من الباب، وهو مكتب يوجد في تجويف بين نافذتين في هذه الجهة من الغرفة، كان يوضع صندوق حديدي ثقيل، أكثر قدماً، ذو قيمة عالية، وقد صنعه بإتقان لست أدري أي عامل برتغالي. وكان هذا الصندوق على صغر حجمه ثقيلاً، له شكل خزانة حديد، وككلٍّ خزانات الحديد، كان له قفلَين، ويُغلق بواسطة مزلاج. ويُفتح القفلان بمفتاحَين مختلفَين.

وفي هذ الصندوق احتفظ السيد كورِّيّا برَقٍّ قديم جداً، وذي قيمة كبيرة. كان رَقّاً يشهد على منح شعار النّبالة. وكان السيد كورِّيّا يقدّره أيما تقدير، وله، بالإضافة إلى ذلك، علاقة ببعض الأبحاث التي قام بها حول مواضيع لها صلة بتلك الفترة. كان يحتفظ به في الصندوق الحديدي احتراماً لنوع من التماثل الزمني، لأن الرِّقّ والصندوق قطعتان تنتميان إلى نفس العصر.

وقد كان هذا الرِّقّ هو الشيء الذي نشأت عن اختفائه هذه الحكاية التي سأرويها.

الفصل الثاني

يعرض هذا الفصل التحقيقات البوليسية وفشلها. ويروي أيضاً كيف أثبت الفحص أن القفل لم يتعرّض إلى كسر، وكيف لم يتم اكتشاف أن المفاتيح لم تكن بحوزة جاسينتو كورِّيا. ويحكي كذلك كيف أن التحقيق الذي كان يرمي إلى الكشف عمّن له مصلحة في السرقة كان تحقيقاً عقيماً، لتطفو شبهات غير مادية تماماً حول مجموعة من الأشخاص (لأنه لا بدَّ أن لكل شخص أسباب محتملة جداً ليبعد عن نفسه تلك الشبهات). ينتهي الفصل بإلقاء القبض على عشيق الخادمة، وهو الشخص الوحيد الذي يمكن أن تحوم حوله الشبهات، لكن، وانطلاقاً من أنه لم يكن ممكناً فهم كيف أنه ولج إلى المتحف، بما أنه ليس لصّاً محترفاً، لا يُستنتج من ذلك سوى أن شخصاً ثالثاً كلّفه بهذه السرقة، ولم يتم الكشف عن أي علاقة تربطه بشخص آخر قد نتصور أن له اهتمام بالرِّقّ، رغم الكشف عن أنه قضى ليلة في البيت وأنه كان بحوزته من المال مؤخّراً ما يزيد عن حاجته، وأنه ذهب إلى قريته (في غواردا أو قرب غواردا) مباشرة بعد تلك الليلة التي قضاها في البيت. ردُّ فعله عندما ألقي عليه القبض كان عبارة عن خوف في البداية، ثم سرعان ما هدأ، إلا من توتر عصبي عادي. واعتبارات

أخرى ترمي إلى البرهنة على أنه يستحيل أن يكون هو من قام بالسرقة. ويتحدّث رجال الشرطة عن عجزهم عن اكتشاف أي شيء له علاقة بالموضوع ويقترحون أنه قد يكون من المفيد «إقحام كُواريشْما في القضية». (سنحاول تقديم نهاية مثيرة لهذا الفصل).

ذات يوم كنتُ أقرأ مراسلة تجارية في المكتب، عندما دخل السيد كورِّيّا، مكروباً، من الباب الخلفي.

- هل تعلم يا سانتوش... لقد سرقوا الرَّق...

- أي رَق، سيد كورِّيّا؟ (كان يملك عدة رقوق).

- [...] ذلك الذي كنت أحتفظ به دائماً في الصندوق، في المتحف... ذلك الذي أريتُك إياه هنا قبل سنة، عندما حدّثتك عن قضية طقوس براغا[1]...

- لكن، لا بدَّ أنك مخطئ يا سيدي... كيف استطاعوا أن...

- لا أعرف كيف استطاعوا أن... أعرف أنهم سرقوه... إنه غير موجود هنا...

- ألا يمكن أن تكون قد سحبته من هناك، يا سيدي... و...

- هيا يا رجل، إنك تعرف جيداً أنني لا أسهو، وأنني إن كنتُ أتمتّع بميزة ما فهي ميزة التنظيم. لو كنت قد سحبت الرَّقّ من هناك لعرفتُ أين وضعتُه... وأنت تعرف أيضاً، تماماً كما أعرف

---

(1) طقوس كاثوليكية ذات طابع محافظ كانت تجري في مدينة براغا البرتغالية. (المترجم)

مكتبة الرمحي أحمد

شخصياً، أنني لم أسحب الرَّقّ من هناك إلا حين كنتُ في حاجة إلى البحث فيه أو عرضه على أحد ما... تعجبني الأشياء الموضوعة في المكان المخصّص لها، كما تعرف... بعد فحصه، أو عرضه، أضعه مرة أخرى هناك دائماً...

- لكن... هذا فظيع... ألا يمكن أن يكون ثمة أي خطأ، أي خلط... متى رأيت الرَّقّ لآخر مرة، يا سيدي؟

- حسناً... انظر: كان ذلك قبل خمسة عشر يوماً عندما كنتُ أتحدث مع السيد سامبّايّو حول قضية طقوس براغا. إنك تعرف جيداً أن الرَّقّ يضمُّ معلومة بالغة الأهمية بخصوص هذا الموضوع... لقد ذهبتُ الآن لأبحث عن الرَّقّ لهذا السبب، بسبب شيء ما قاله لي سامبّايّو بالأمس، وأردتُ أن أتحقق منه اليوم، لأقوم بعد ذلك...

- لكن بالأمس، حين حدّثك القائد سامبّايّو عن هذا الأمر، هل ذهبت يا سيدي للبحث عن الرَّقّ؟

- لكن، هيا، إنني أقول لك إنني لم ألمسه منذ خمسة عشر يوماً... وبالأمس كنت ذاهباً للبحث عنه، لكن سامبّايّو قال لي: «دع عنك هذا؛ لا داعي لذلك. انظر إلى كل هذا غداً نهاراً وأخبرني عندما سآتي ليلاً»... وهذا ما فعلته... والآن كنت ذاهباً لأتأكد من هذه النقطة...

- ألم يكن في الصندوق...؟

- لا. قلتُ لك إنه ليس في الصندوق. سحبتُ الصندوق من فوق المكتب، ووضعته فوق الطاولة الموضوعة في الزاوية، فتحته فوجدته فارِغاً... لا تتصور كيف كان إحساسي... لم يحدث لي شيء كهذا في حياتي... لم يسبق أن سرقوا مني شيئاً...

وأخذ يذرع هائجاً المكتب جيئة وذهاباً. بعد ذلك قال:

– سأكلِّف أحداً بإخبار الشرطة... اتصل بهم بالهاتف إذاً...

– لكن... فعلاً... أليس ثمة أدنى...

– ليس ثمة أي شيء، يا رجل... هذا ما حصل، وهو يكفي... هلّا تفضلت واتصلت بالمفوضية واطلب منهم أن يبعثوا لي مفتِّشاً ليعالج هذه المسألة...

اتصلت بهم على الفور... وبعد ربع ساعة، انقضت بين تعجُّبات قلق السيد كورِّيّا غير المنطقية لكن المبرَّرة، وصل المفتشان.

دخل صاحب البيت إلى المتحف نُرافقُه أنا والمفتشان، وهناك عرض القضية على الرجلَين. بعد الاطّلاع على المعطيات المتعلِّقة بالسرقة، وتلك الخاصة بالمتحف، التي أشرتُ إليها من قبل، ظلَّ المفتشان، بشكل طبيعي جداً، حائرين تماماً كما كنتُ. فقد بدت لهما، منذ البداية، سرقة مثل هذه غريبة وغامضة.

كانا يتأهّبان للكلام في وقت واحد، لكن أصغرهما صمت، وفسح المجال للأكبر.

– أخبرني، يا سيدي، هل كان الرَّقّ ذا قيمة كبيرة؟

– كان يساوي ثلاثة ملايين ريال[1]، أو أكثر.

– لكن، طبعاً، قد لا يكون بيعه شيئاً سهلاً؟

– لا. قد يكون ذلك سهلاً وقد لا يكون. قد يمكن بيعه بسهولة مثل أي شيء يمكن بيعه؛ فأي هاوي جمع قد يدفع مقابله ثلاثة أو أربعة ملايين ريال بعينَين مغمّضتَين تقريباً، إلا إذا لم يتوفر لديه

---

(1) كان الريال، إلى غاية سنة 1911، هو العملة الرسمية في البرتغال تحت النظام الملكي. (المترجم)

مكتبة الرمحي أحمد

المال... حسناً، كل هواة جمع التحف في البرتغال يعرفون أنني أنا من يملك الرَّقّ. هذا قد يجعلهم يحجمون عن شرائه، إلا أن...

- إلا أن...؟

- إلا أن هواة جمع التحف نادراً ما يتمتعون بالنزاهة فيما يجمعونه من قطع... قد يكون المقتني على علم تماماً بأن الرَّق مسروق ولكن، مع ذلك، لا يتخلّص من غواية ضمّه إلى ما يملك من قطع. إنكما تفهمان جيداً: إن الأمر لا يتعلّق برسم أو سهم في شركة، والذي لا ينفع سارقه إلا أن يبيعه، ويمكن الحصول عليه من جديد عن طريق الصيرفيين... إن المشتري المحتمل لهذا الرَّقّ سيفعل ذلك ليملكه وليس ليعرضه، فكيف له بالأحرى أن يبيعه... ورغم أنكما تنويان البحث عن الرَّقّ، فإن ذلك يبدو أمراً صعباً. ما أود معرفته، وقد يكون ذلك شيئاً ضرورياً، هو إن كان من الممكن أن نكتشف كيف سُرق مني. لاحظا معي أنه كان شيئاً موضوعاً داخل ذلك الصندوق الذي تريانه، وفي تلك القاعة حيث توجد مئات القطع ذات قيمة أقل بكثير، يمكن سرقتها بسهولة أكبر وبيعها بسهولة أيضاً. لاحظا معي ذلك...

- ولا ينقص أي شيء آخر، حقاً...؟ هل رأيت جيداً، يا سيدي؟

- لم أرَ كل شيء، قطعة قطعة، لكن لدي نوع من الحدس، أرى بنظرة واحدة أنه لا ينقص أي شيء.

تجوّل السيد كورّيّا في القاعة أمام الواجهات الزجاجية وكل الأشياء المعروضة...

- لا، لا يمكن أن يكون هناك شيء ناقص... هذا كل ما ينقص...

ثم عاد، دائماً متوتراً، قرب المفتشَين.

حينئذ تحدّث المفتش الأصغر سنّاً.

- أخبرني، يا سيدي. هل تمثِّل القطعة المسروقة شيئاً خاصاً جداً، أي شيئاً لا يصلح إلا لقلّة من الناس. . .

- ممّا لا شكّ فيه. . .

- حسناً. من تشك في أنه قام بسرقته؟ لا بدَّ أن لديك فكرة ما. . .

- ليست لدي أية فكرة ولدي عدة أفكار، وبعضها أفضّل ألّا تكون لدي. . . أما أن تكون لي أفكار ثابتة، وافتراضات راسخة، فليس لدي شيء من هذا. إنها شكوك، مجرد شكوك، لكن، فيما وصلت إليه الأمور، لا يعرف المرء أي شخص لا ينبغي له أن يشك فيه. . .

- لكن، يا سيدي، ألا تعرف شخصاً قد يكون في صالحه امتلاك هذه الوثيقة؟

- ويكون في صالحه ذلك باعتباره من هواة جمع القطع؟

- نعم، مثلاً. . .

- آه! أعرف الكثير من هؤلاء، لكني لا أرى الكثير منهم قادرين، لا أقول على سرقته، بل على التمكّن من سرقته، والتمكُّن من الدخول إلى هنا، إلى هذه الغرفة المغلقة بعناية فائقة وسرقته. . . وهذه النقطة هي التي تشكِّلُ لغزاً. . .

- هل ثمة من الناس الذين تشير إليهم، يا سيدي، ممن يهمُّهم الرَّق، يأتون إلى بيتك ويعرفون أين يوضع الرَّقّ؟ واعذرني، يا سيدي، عن هذا السؤال، لكن. . .

- آه! هذا. . . وتردّد السيد كورِّيا. . . آه! هذا أكثر خطورة. . .

مكتبة الرمحي أحمد

- إنني لا أسألك إن كنت تشك في هؤلاء الأشخاص؛ ما أودُّ معرفته هو من هم هؤلاء الأشخاص، كل الأشخاص الذين يمكنك أن تذكرهم لي، والذين يعرفون أن الرَّقّ كان موضوعاً هناك، داخل ذلك الصندوق؟

- كم من الأشخاص؟ تريد معرفتهم جميعاً، أليس كذلك؟

- تماماً. سيكون ذلك جيداً. كل الأشخاص... إن كنت تذكرهم...

- أولاً، هناك شخصي أنا. ثم هناك، ابن أخي، الدكتور كورِّيّا غيديش. بعد ذلك، هناك كاتبي هذا. انتظر، هناك أيضاً ابن أخي الآخر، الذي يدرس بجامعة كومبرا. وبعض أصدقائي، ممن يهتمون بهذه المواضيع...

- هل يمكن أن تذكر أسماء هؤلاء الأصدقاء، إذا لم يكن لديك مانع...؟

وكان المفتش الأصغر سناً يسجِّل ملاحظات بسرعة.

- انتظر... إنهم ليسوا كثراً... هل تعني أشخاصاً قد يعرفون أنني أملكه، أم بالأحرى أنني كنت أملكه، لكنهم أشخاص قد يعرفون أين وضعته، أليس كذلك؟

- تماماً... بعد ذلك، سنمر إلى الآخرين، إن كان ذلك ضرورياً...

- وهؤلاء كثر حقاً... على أي حال، لنرى من منهم يهمونك... القائد سامبّايّو فييغا، صديقي القديم، أقرب أصدقائي إلي، صديق الطفولة...

- هل هو من هواة جمع القطع؟

- لا، أو قليلاً. له دراية بها، بالأحرى.

- وهل له اهتمام بمثل هذه الوثائق؟

- كثيراً. لكنه يهتم بها لقراءتها أكثر من امتلاكها، بالمعنى الحصري للكلمة... إنك تفهم جيداً، يا سيدي: لإنجاز أبحاث، لا يهم أن نملك الوثائق بقدر ما يهم أن نطّلع عليها. وصديقي هذا، من جهة أخرى، يمكنه أن يطّلع على هذه الوثيقة -أو كان ذلك بإمكانه، من قبل- متى شاء. كان يكفيه أن يأتي إلى هنا ويطلب مني أن يطّلع عليها. كنتُ دائماً رهن إشارته... من جهة أخرى، كنا نتحدث، أنا وهو، عن أمور لها علاقة بتلك الوثيقة؛ بل إنه للإجابة عن سؤال طرحه علي ذهبتُ اليوم للبحث عن الوثيقة، فانتبهت إلى غيابها.

- أشخاص آخرون؟

ذكر السيد كورِّيّا كلاً من القائد رانجل فييرا، والدكتور لوسيو بيريش، وأصدقاء آخرين مثل إستاسيو توماش، لوبش ليما، لويش سركيرا، وآخرين أيضاً. كان المفتش يطرح أسئلة عن كل واحد منهم كما تلك التي طرحها حول القائد سامبّايّو. وكان السيد كورِّيّا يردُّ بنفس الجواب. كلهم أصدقاء، ومعارف... كلهم من هواة الجمع، وكلهم جميعاً، في الحقيقة، قد يكون لهم اهتمام بالوثيقة، إلا أنه لا أحد منهم، باستثناء لوبش ليما، قد يهتم بالوثيقة أكثر من أي قطعة أخرى من التحف النادرة التي توجد في البيت.

- سوف نعود إلى هذا الموضوع، إن كان ذلك ضرورياً، قال المفتش. والآن هناك أمر آخر: أظن أنك قد قلت لي، يا سيدي، لكن أطلب منك أن تتأكد من ذلك، إنك لا تُخرِج الرَّق من هناك إلا لساعة أو ساعتين، لتريه إلى أحد ما...

- أو للاطّلاع عليه. صحيح... أي -لكن هذا قد لا يهم القضية- أنه خلال شهرين كل سنة لا يكون الرَّقّ في مكانه.

مكتبة الرمحي أحمد

- خلال شهرين كل سنة؟

- تقريباً. . . أقضي شهرَي يوليو وأغسطس من كل سنة في بيت أملكه شمال البلاد، بإقليم مينيو. حين أذهب إلى هناك، أُخرج كل القطع الصغيرة الموجودة هنا في القاعة، وتلك الموضوعة في الواجهات الزجاجية، وبعض من تلك الموجودة في الجوارير، كما أغلق على البعض منها في صندوقَين كبيرَين لدي هناك في الأعلى، ثم أرسل قطعاً أخرى إلى صناديق أملكها في بنك مونتي بِّيو جيرال. فيذهب الرَّقّ أحياناً إلى أعلى وأحياناً إلى مونتي بِّيو جيرال. لكني لا أقوم بهذا إلا عندما أكون غائباً عن البيت، لمزيد من الأمان، رغم أنه يبدو لي أن كل ما يوجد هنا مؤمّن، على الأقل ضدّ السرقة، أما ضدّ النار فلدي، على الأقل، التأمين. . . إذا لم أترك القطع هنا، فقد أحتفظ بقيمتها، وهو ما لا يمكن أن يحدث لو سرقوها مني. . . لكن، كما قلتُ لك، فقط خلال شهرين لا يكون الرَّقّ هنا. ويظل هنا ما تبقّى من السنة.

- حسناً، هذا ما كنتُ أودُّ معرفته. أما أنه لا يوجد هناك خلال شهرَي يوليو وأغسطس فلا أهمية له، بل إن ما يهم فعلاً هو أن نعرف فقط إن كان، يا سيدي، من عادتك وأنت هنا أنك تحتفظ به دائماً في الصندوق. . .

- هذا دائماً ما أقوم به بكل تأكيد. لا يكون أبداً خارج الصندوق أكثر من ساعتَين، على الأكثر، كما قلتُ لك. . .

أغلق المفتش الكتاب الذي كان يدوِّن فيه الملاحظات. . .

- حسناً، قاطعه المفتش الأكبر الذي ظلَّ يتفحّص الغرفة بعناية، الغريب في الأمر بالنسبة إلي ليس من يقف وراء سرقة الرَّقّ، لكني أريد أن أكوِّن فكرة عن الطريقة التي استعملها اللصّ في

استخراج الوثيقة من الصندوق. إنه لم يتسلل من النوافذ... القضبان تحول دون ذلك. يمكن أن تظل النوافذ مفتوحة على مصاريعها طوال الليل، رغم أنها تطل على الشارع، قد لا يتسلل عبرها غير قِطّ، إلا إذا قام أحدهم ببَرد القضبان على مهل. ولا يمكنه أيضاً أن يتسلل عبر ذلك الباب الداخلي كذلك... لا بدَّ أنه تسلل عبر هذا الباب. لكن هذا القفل ليس من أسوأ الأقفال... ثم انحنى ليفحص القفل.

- إنه قفل من نوع «ييل»، قال السيد كورِّيّا، وهو من أجود ما استطعت أن أحصل عليه.

- كم عدد مفاتيح هذا القفل؟

- مفتاحان. واحد منهما دائماً أوصده في صندوق هناك في الأعلى وآخر أحمله دائماً معي، لأفتح الباب متى شئتُ...

- وماذا عن مفتاح الصندوق؟

- المفاتيح... ثمة مفتاحان... مفتاح لكل قفل... إنهما هنا... عادة ما أحتفظ بهما هناك فوق الصندوق، في نفس الصندوق حيث أحتفظ بالمفتاح الثاني لهذا الباب، لكنهما دائماً في متناولي، فوق أحد الرفوف، وإن كنتُ لا أضطر كثيراً لفتح الصندوق، لأنني نادراً ما أطّلع، كنتُ أطّلع على الرَّق، ولم يكن هناك من سبب آخر لفتحه.

- هل يمكن أخذ بصمات تلك المفاتيح بسهولة؟

- لا أظن ذلك. لقد جلبتُ قفل الباب من أميركا قبل أربع أو خمس سنوات. ووصل مباشرة إلى هنا، بحيث يبدو لي أنه لم تأخذ له بصمات وهو في طريقه إلى هنا. ثم إنه بعد حضور المفاتيح ووضع القفل، لا يبدو أن الأمر سهل.

- حسب الظروف، قال المفتش الأصغر سنّاً... هلّا تابعت من فضلك، يا سيدي...؟ أريد أن أقول إنه من الأصعب أخذ بصمات الصندوق الصغير...

- أصعب بكثير... على الأقل بنفس الصعوبة.

- عندما تفتح، يا سيدي، الباب، مثلاً، لتعرض القطع على أصدقائك، هل تترك عادة المفتاح في القفل؟

- ماذا؟ لا. هذا غير ممكن. أحمل المفتاح دائماً في هذه السلسلة. (وسحب من جيب سرواله سلسلة فيها عدة مفاتيح). هذا هو المفتاح، قال، وهو يعرض مفتاحاً أصفر، صغيراً، ذا تصميم غريب.

- ألا يحدث بالصدفة أحياناً أن تأمر أحداً بأن يفتح الباب مكانك، كي يبحث عن شيء ما، خادم ثقة، مثلاً، أو لِمَ لا كاتبك الحاضر هنا؟

- لا، أبداً... أنا من يذهب دائماً. إنها ليست عدم ثقة بالمعنى الحصري، لكني أذهب دائماً بنفسي، لأن المفتاح بحوزتي، وأفضِّل أن أذهب شخصياً.

ابتسم المفتش. وفجأة نظر إلى الجهة الداخلية من الباب.

- أوه! إن هذا القفل من الداخل ليس في حاجة إلى مفتاح كي يفتح. يكفي أن ندير الزرّ...

- كلها على هذا الشكل، أظن... لكن ما علاقة هذا بالأمر؟

وألقى المفتش نظرة دائرية حول القاعة ثم هزّ كتفيه.

- لا، لا علاقة له بالأمر. لو كان ثمة مكان هنا يريد أن يختبئ فيه أحدهم، لوجدنا شيئاً ما. أي أن أحداً ما ربما يكون قد دخل بينما كنت هنا، يا سيدي، وكان الباب مفتوحاً، وربما يكون قد

اختبأ، سرق الوثيقة، وخرج بعد أن أغلقتَ الباب... هناك مناسبات يمكن لشخص شاطر أن يقوم بهذه الخديعة. وأسوأ ما في الأمر أنه قد لا يجد أين يختبئ.

- نعم، هذا واضح جداً. حتى القِطّ قد يصعب عليه أن يختبئ هنا...

نظر المفتش إلى السيد كورِّيا، قطّب وجهه وكرّر عدة مرات حركة كانت تبدو كأنها تؤكِّد.

- ما أستطيع أن أؤكِّده لك، يا سيدي، هو أن الأمر يتعلق بقضية هي من أعقد ما واجهته في حياتي. إذاً، ما لدينا، نحن في اليوم الخامس عشر من الشهر الجاري، هو أنه في بداية الشهر دخل أحدهم إلى هنا عبر هذا الباب، باستعمال مفتاح مزوّر، لا نعرف كيف حصل عليه، فتح صندوق الحديد بواسطة مفتاحَين آخرَين مزوّرين لا نعرف كذلك كيف حصل عليهما، أخرج وثيقة لا تصلح سوى لقلة من الناس، وليس هذا هو السبب في صعوبة بيعها، ورغم قيمتها العالية فقد لا تضاهي قيمة قطع أخرى مجموعة توجد هنا، ويمكن سرقتها دون اللجوء إلى مفاتيح مزوّرة، ونقلها بسهولة أكبر من الوثيقة، وبيعها كذلك بكل سهولة... نعم، سيدي، هذا أمر رائع يستحق أن نكتشفه... إنه لأمر في غاية التعقيد!

* * *

أفضى تحقيق الشرطة حول ميغييش إلى مأزق. فكونه كان قفّالاً وله سجلّ من السوابق (سُجن مرتين) في السرقة، رفعه هذا، دون شكّ، بسرعة إلى درجة المشبوه، بما أنه أيضاً قضى ليلة في البيت.

[...]

مكتبة الرمحي أحمد

إن اللصَّ الغريب، الذي كان بوسعه أن يحمل صندوقاً بقيمة 20 مليون ريال يملأه بتحف نادرة يسهل بيعها، وكانت كلها في متناوله، ما إن دخل إلى المتحف حتى اكتفى بفتح الصندوق واختلاس وثيقة لا قيمة لها كشيء لا يمكن بيعه إلا لفئة من الدارسين الأغنياء، بل حتى بين هؤلاء قد يستعصي عليه بيعها، لمعرفتهم بمصدرها.

إن مغامرته الغرامية، من البداية إلى النهاية، ربما كانت هي التفسير الوحيد الممكن لحضوره في بيت المليونير. بعد ذلك، ومنذ بداية علاقته الغرامية مع الخادمة، قدّم اسمه الحقيقي، وأشار إلى مهنته ومكان ممارستها. وهذا غير معقول لو أنه كان يخطِّط للسرقة من قبل. غير معقول بالنسبة إلى هذا النوع من العقليات، على الأقل. لم يهرب بعد وقوع السرقة؛ بل استمرَّ في محل القفالة حيث كان يشتغل. لو أن السرقة نفّذت لصالح أطراف أخرى، فيجب أن نفترض أنه قد تلقّى مقابلاً على ذلك، ومن المحتمل، نظراً إلى فقره، أنه كان مقابلاً جيداً؛ ولم تكن ثمة إشارة تدل على أن ميغييش كان ينعم بمال كثير، لم يوجد في حوزته أي مبلغ مالي مشبوه، ولم يقم في الخمسة عشر يوماً السالفة بأية نفقات تزيد عن نفقاته العادية. ورغم أنه قفّال، لم يكن أخرق فحسب بل إن السرقتَين السابقتَين اللتان قام بهما لم تظهرا أدنى ذكاء ولا أدنى محاولة في استغلال فنّه: مرة سرق 70 ألف ريال من محل بقالة، بتكسير الباب كأي نشال عادي، وفي مناسبة أخرى سرق حقيبة فيها ملابس وقطع ذهبية من صاحبة البيت التي كان يسكن عندها. حُكم عليه في كلتا المرّتين، لكنه كان محظوظاً لأنه استفاد في الحالتين من عفو عام.

وقد تمَّ منح هذا العفو بمناسبة أسبوع الآلام من طرف الملك دون مانويل وآخر من طرف رئيس الجمهورية[1].

* * *

لم تكن البطاقة تحمل، بالطبع، أي توقيع، وتقول فقط:

«إن غير الموقع أسفله، بعد عمق تفكير، يرى أنه من العدل أن يعيد إلى السيد. . . الرَّقّ الذي أتيحت له فرصة اختلاسه من متحف قطعه الأثرية. بما أنه لا يمكن لأي شخص سواه أن يتوفر على الوسائل لولوج المتحف، وهو ما ليس في نيته، يتعهد بذلك بشرفه ألا يكرر ما قام به، ويطلب من السيد. . . مقابل أن يعيد له الرَّق (وهذا تفضّل منه في نهاية الأمر) أن يمتنع عن أي إجراءات أو تحقيق لأنه، بالإضافة إلى أنهما لن يؤدّيا إلى أية نتجية، قد يدفعانه، ولو بقصد المزاح، إلى أن يعاود، ربما بطريقة أقل ظرافة، ابتكاره الأول.

إن «السرقة» التي نفّذها كانت بدافع رهان ربحه؛ وبما أنه ليس بإمكان أي أحد آخر، باستثناء غير الموقع أسفله، أن يعيد هذا الإنجاز، ويعطي كلمة شرف بألا يكرر الفعل، يودُّ أن يؤكِّد للسيد [. . .] أن يكون مطمئن البال بخصوص سلامة القطع الموجودة في متحفه، وأنه [. . .].

لم يتم إرجاع الرَّقّ من قبل لأن هذا جزء من الرهان الذي يتمثل

---

(1) يقع الكاتب هنا في «تناقض» تاريخي. يقول الراوي إن سرقة الرَّقّ حدثت سنة 1908، بينما لم يتم إعلان الجمهورية في البرتغال إلا سنة 1910. (المترجم)

مكتبة الرمحي أحمد

في القدرة على البرهنة على عدم الخوف من أي شيء في أي قضية بوليسية مهما كانت طبيعتها.

لقد أدليت بهذا التصريح كي أزيل كل المخاوف والحيرة التي ربما تكون قد وقعت، وإذا لم أقم بذلك شخصياً، فلأنني لم أكن على يقين بأنني سوف أحظى باستقبال جيد.

أعيد لك، يا سيدي، الرَّقّ الذي اختلستُه من متحف قطعك الأثرية قبل بضعة أيام. يجب أن أوضِّح أنه، كما يوضِّح هذا الإرجاع، أن قصدي لم يكن هو السرقة؛ بل أن أربح رهاناً، بكل بساطة. ولا أقوم بإرجاع الرَّق إلا لأُجنِّب المشتبه بهم المحتملين في هذا التحقيق البوليسي السخيف بعض المضايقات. إن الواقعة، التي نُفّذت فقط لربح رهان، لن تكرر. ويمكنك، يا سيدي، أن تظلَّ مرتاح البال بهذا الخصوص».

الفصل الثالث

دخول حماسي للدكتور كْواريشْما. يعود المفتشان إلى بيت جاسينتو كورِّيا رفقة أبيليو كْواريشْما. وصف وجيز لهيئة أبيليو كْواريشْما. بعد الاطِّلاع على المعطيات التي يعرفها القارئ، يقوم كْواريشْما بالاستجواب. يدور الاستجواب حول طريقة ارتكاب الجريمة، واكتشاف طريقة الحصول على المفتاح، ليتضح أن من حصل عليه هو باولو فاشكيش، صاحب محل القِفالة المسمّى «أي شيء». ينتهي الفصل بتعجُّب جاسينتو كورِّيا من أنه تمَّ الحصول على بصمات المفتاح حتى قبل أن يفكر في وضع الرَّقّ في الصندوق.

إن المسألة، كما كانت تطرح الآن، بعد إرجاع الرَّقّ، حرّكت استدلالنا بشكل عقيم خلال بضعة أيام. لم نتوصل إلى أي استنتاج يذكر، رغم أننا قدّمنا، مؤقتاً، فرضية أو فرضيتَين من أقل الفرضيات احتمالاً.

لن أذكر بالضبط ما هي الفرضيات التي قدّمناها، ولا التخمينات التي كنا وراءها. إن القارئ، بحكم اطِّلاعه على ما سبق ومعرفته بنفس المعطيات التي كنا نتوفر عليها، بإمكانه، بكل تأكيد،

مكتبة الرمحي أحمد

أن يقدّم نفس الفرضيات، ويتصور نفس التخمينات.

ما بدا لنا منسجماً مع الوقائع هو ما يلي: إن من سرق الرَّقّ هو شخص يتردد عادة على البيت، أو يزوره على الأقل في أحيان كثيرة. ولا بدَّ أن من قام بذلك، بحكم اهتمامه بسرقة الرَّقّ، شخص تستهويه الأشياء القديمة، أو ربما الوثائق التاريخية فقط. وربما كان يأمل أن السرقة إما أنها لن تُكتشف وإما أن اكتشافها لن يكون مبكِّراً نسبياً، أو أن الشرطة لن تنجز التحقيق بشكل سريع وصبر كبير، رغم أنه كان (بكل بداهة) تحقيقاً غير مجدٍ. وربما لم يكن يملك من رباطة الجأش ما يسمح له بمواجهة خطر انكشاف أمره، رغم أنه خطر مستبعد، لكنه صار ملموساً بفضل التحريات. هكذا، فإن المجرم (إن صحَّ أن نطلق عليه هذا الاسم) أرجع الرَّقّ حتى يكون في منأى عن اكتشاف وشيك، ربما كان غير مبرّر موضوعياً، لكنه كان، ذاتياً، اكتشافاً قوي الاحتمال (وفقاً لمزاجه).

تشبّثنا مؤقتاً بهذه الفرضية لأنها بدت لنا أكثر انسجاماً مع مجموع وقائع هذه القضية. ولكنها، مع ذلك، كانت تولِّد مشكلة جديدة، وقلقاً آخر. من كان اللصّ، يا تُرى؟ لقد كانت الاحتمالات محدودة، نظراً إلى الفرضية المعتمدة، في عدد محدود من الأشخاص -لأن عدداً كبيراً من الأشخاص لم يكن من عادتهم زيارة بيت الكونت- ويبقى معرفة من كان هو اللص من بينهم. لكن انشغالاً ظلَّ يحوم فوقنا. بما أننا لم نستطع أن نتصور طريقة تنفيذ السرقة، فقد ظلت إمكانية تكرارها مع أي قطعة أخرى أمراً وارداً. إن من نجح -بطريقة لم نستطع التكهُّن بها- في الدخول إلى المتحف واستخراج الرَّقّ، كان بإمكانه، باعتماد نفس الوسيلة التي نجهلها، أن يدخل مرة أخرى ويقوم بإنجاز آخر، يشبه الإنجاز الأول أو

يختلف عنه، باختلاس هذه القطعة أو تلك. وكان الشك المترتِّب عن هذا الأمر هو ما يقضُّ مضاجعنا.

لو أنه بدّل مجرد رَقّ، لا يستمد قيمته إلا من نفسه، كان الأمر يتعلق بتصاميم اختراع، تعادل نسخة أو صورة منها قيمة التصاميم، لكانت مسألة أخرى، ولن يكون لإرجاعها من معنى سوى أنها قد نسخت بكل عناية. لكن الأمر لم يكن كذلك.

هناك فرضية قصوى وخيالية خطرت على بالي ذات ليلة، لم يغمض لي فيها جفن من الأرق، فتحمّست لها، لكني سرعان ما استبعدتها. خطر على بالي أن الرَّقّ يمكن أن يكون وسيلة لكتابة مشَفّرة، أو بالأحرى سرّية، كتبت بمداد لا يُرى، بحيث لا يفيد النسخ أو التصوير في استنساخها. ورغم طابعها الخيالي، فإننا لا يمكن أن نصف هذه الفرضية بالعبثية.

عندما أطلعتُ الكونت على هذه الفرضية، سحرتهُ؛ لكن الفحص المباشر، المنجز بعناية، وبكل الوسائل التي كان من الممكن اكتشافها، لم يُظهر شيئاً يدعم هذه الفكرة.

* * *

- ها قد حضر ذلك الشخص الذي يريد أن يتحدث إليك.

مدّ لي الخادم البطاقة التي أخذتها بيدي وقرأت فيها بشيء من الاندهاش هذه العبارات غير الواضحة.

أبيليو كْواريشْما
فكّاك الرموز

- من يكون هذا الشخص؟ ما شكله؟

مكتبة الرمحي أحمد

- إنه شخص بهذا الشكل، شكله مثل. . . قال الخادم متردِّداً.
- ماذا يرتدي؟ هل لباسه أنيق؟
- لا، يا سيدي، لكنه ليس عاملاً من العمّال ولا أي شخص عادي.
- حسناً. دعه يدخل.

قليلاً بعد ذلك، فُتح الباب وسَمَح بالدخول لشخص لم يُكَذِّب ما جاء على لسان الخادم من وصف ساذج.

[. . .]

[. . .]

بعد تحيته، طلبتُ منه أن يجلس. وكذلك فعل. ران صمت قصير. ثم كسره الدكتور كْواريشْما قائلاً:

- لقد جئتُ إلى هنا بدعوة من المفتش فيرا. أخبرني أن لديك قضية يجب فكّ رموزها. وهو ما أرغب في القيام به، من باب التسلية، حقاً، بكل ما ينطوي عليه هذا الأمر.
- إنه ليس بالأمر البسيط.
- إن الأمور البسيطة لا تثير حماسي.

كان رجلاً ذا قامة تفوق متوسط قامة عامة البرتغاليين، نحيفاً، يكاد يكون هزيلاً، مقوّس الظهر شيئاً ما، يبدو كئيباً وحزيناً. سحنتُه باهتة، ترابية اللون وشاحبة. شقّت التجاعيد في وجهه أخاديد عميقة نتجت عن الكآبة بقدر ما تولّدت عن الهزال. لأول نظرة، تعطي سحنته الانطباع بعدم تناسق غامض يعجز تحليل عميق على تحديد مكانه ما لم يعيّن مركزه في حَوَل جانبي، وفي انكماش الفم نتيجة شلل جانبي. فم هادئ وبارد عندما يمتنع عن الكلام، بشفتَين

رقيقتَين وباهتَتين. وفي وضعية الرأس غير المناسبة، التي تنحو، كما لدى الضعفاء، نحو عدم الاستقرار بثبات فوق العنق. كان وجهه طويلاً، وذقنه ضامراً وواهناً، وتعبيره العام باهتاً ومتردِّداً، ما يبرز أكثر النتوء النسبي لأنف دقيق ومعقوف وجبهة قوية مهيمنة، رغم حجمها الذي لا يخرج عن القدر المناسب، تتنافر، بفعل بروزها النسبي، مع تواضع الجانب الأسفل من **السحنة**.

كانت لحيته قليلة، وشعره الذي لم يقص بعناية يبدو متناثراً. وكانت اللحية والشعر معاً بلون كستنائي فاتح نوعاً ما. وكانت العينان كستنائيتين أيضاً، تميلان إلى اللون الصافي أكثر مما تميلان إلى اللون الداكن. وبالإضافة إلى الحَوَل الذي أشرتُ إليه، كانتا تكشفان عن تعبير غامض، وشارد، وتنمّان عن تركيز باطني مضطرب وخفّاق.

كان مظهره الخارجي بكامله -هيئته وملابسه- يوحي بالإرهاق وعدم الاكتراث، دون أن تكشف أي علامة رذيلة معيّنة أو عادة سيئة محدّدة عن سبب واضح. كان الرجل بكامله يشير إلى هذا النوع من الفاشلين في الحياة الذين لا يمثّلون شيئاً، ويضيّعون كل الفرص، ويهدرون كل المناسبات، لكنهم لا يتوفّرون على طاقة الاندفاع الإجرامي، ولا حيوية وجود رذيلة من الرذائل، ولا فرح لظهور لا **تكلُّف** بوهيمي.

كانت بِزّته المجعّدة، بذلك اللون الرمادي الذي عادة ما يفضّله أصحاب الهندام المختلّ غير المبالين بمظهرهم، تُكمل شكل الرجل الحزين والهزيل الذي وقف ماثلاً أمامي.

ورغم ذلك، كان ثمة [شيء ما] ظريف لديه، ربما يكون ثمرة لطابعه غير المؤذي، أو تضافر هذا الطابع مع تلك السمة من التعالي

مكتبة الرمحي أحمد

غير المألوف المنبعث من جبهته الوقورة والصلعاء تقريباً، أو ثمرة هيئة وجهه التأمُّلية، والنظرة التحليلية الباردة لعينيه.

هكذا بدا لي، وهكذا كانت نظرتي للدكتور أبيليو كْواريشْما، فكّاك الرموز.

أثناء حديثنا استطعت أن ألاحظ مزيداً من التفاصيل المهمة جداً. كان صوته يرتعش بشكل خفيف، وهو صوت خفيض مثل صوت الخجالى، لكن الاهتمام الذي كان يبديه تجاه كل الأشياء وكل الناس الذين يشكِّلون هذا العالم الخارجي كان يدلُّ على أن هذا الخجل لم يكن ينكشف أبداً بشكل تام.

وكان التنافر نفسه يتجلّى في تصرفاته الجسدية. كانت هذه التصرفات -لا يمكن أن ننتظر غير ذلك- خرقاء ومرتبكة؛ لكن الرجل لم يكن يكترث لكونها بهذا الشكل أو ذاك، لأن هذا الارتباك كان يتخذ شكل لا تكلُّف مطلق.

كان يدخِّن السيجار دون انقطاع، يشعل الواحد تلو الآخر، وكل مرة يسحب سيجاراً جديداً من الجيب السفلي لمعطفه الطويل. لاحظت من الشرائط التي كان يمزّقها وهو يسحبها من جيبه أنها سيجارات من نوع «بيرالتا» العادية، الداكنة، التي تساوي قيمتها 25 ريالاً.

كانت يداه طويلتَين، بعظام غليظة وأظافر متآكلة. وينظر إلى الأشخاص كما لو أنهم ليسوا واقفين أمامه.

كان حديثه خالياً من عبارات المجاملة أو نبرات اللياقة.

حين دخل صافحني فوراً.

- أنت هو كارلوس سيركيرا[1]، أليس كذلك؟ جئتُ بإشارة من السيد سامبّايّو كوشتا، الذي أخبرني أن لديك مشكلة مهمة تودُّ أن تجدَ لها حلّاً. بما أنني لا أجد ما أفعله، فقد صار من عادتي أن أخصِّص وقتي لحلِّ ما يعجز الآخرون عن حلِّه. منذ أن توقّفت عن ممارسة فكّ الألغاز والأحاجي، ما زلتُ كذلك على هذا الحال.

وقال هذه الجملة المفارقة بشكل طبيعي تماماً، كما لو أنها لا تنطوي على أية مفارقة.

شكرته على الزيارة، وسرعان ما حاولت أن أشرح له أن المسألة لا تنطوي على شيء يمكن معالجته بكل هذه الرعونة، بل إنها، على العكس من ذلك، مسألة بالغة الصعوبة، ووحده محقّق صبور ومتمرِّس على هذا النوع من التحريات يبدو لي قادراً على النظر فيها بشكل واضح. أفلتت مني تلك الجملة، لكن في الحقيقة، كان الرجل الماثل أمامي، بشكله العام غير المكترث بأي شيء، لا يبدو لي رجلاً قادراً على المشي فوق السطوح متعقِّباً آثار اللصوص، أو إجراء تحريات في موراريا أو ألفاما[2].

ابتسم الدكتور كْواريشْما وتلمّس لحيته بتثاقل.

- لا شيء مما تظنه، يا سيدي. إنك تظن أن تحرياتي هي تحريات مادية، أتعقّب الناس، أفحص مكان الجريمة، وآخذ كل

(1) يتردّد المؤلف هنا بخصوص اسم شخصية الكاتب، الذي أطلق عليه في البداية اسم كارلوش دوميسيانو سانتوش، وهنا يسميه كارلوس سيركيرا، ثم سيسميه لاحقاً بيريرا. (المترجم)

(2) هما حيان عريقان من أحياء وسط لشبونة، كانا في الماضي يضمّان طائفة مسلمة وأخرى يهودية، لكنهما اشتهرا بسمعتهما السيئة مع بداية القرن العشرين. (المترجم)

مكتبة الرمحي أحمد

القياسات من الأرض. لا شيء من هذا. إنني أحل المشاكل، غالباً، وأنا جالس فوق كرسي، في بيتي أو في أي مكان آخر حيث يمكنني أن أجلس مستريحاً، أدخن سيجارات «بيرالتا»، وأطبّق على دراسة الجريمة المرتكبة ذلك الاستدلال ذو الطبيعة المجرّدة الذي صنع أمجاد فلاسفة علم الكلام ومجد المناقشات البيزنطية للأشخاص الذين كانوا يقدِّمون البراهين في أمور تافهة.

وبينما أنا غارق في محاولة فهم هذا كله، أضاف قائلاً:

«حاول أن تفهمني جيداً. لا وجود لطريقة خاصة بأي شيء. إن أي طريقة قد تفي بالغرض، إذا ما استُعملت إلى أقصى حدّ، بوفاء تام لمبادئها، وباستبعاد مطلق لأي عنصر مأخوذ من أي طريقة أخرى. أنا، بطبيعتي، أميل إلى الذاتية والاستدلال، هكذا خلقتُ، ولهذا أستعمل دائماً كمنهجية، في كل القضايا، الاستدلال، الاستدلال البسيط والخالص، المنفصل عن أي ملاحظة أو أي شيء آخر يشبه التجريب. الاستدلال فقط، ولا شيء غيره. أنطلق من واقعة أو واقعتَين بسيطتَين، أثبتهما أولاً، لأنني أبدأ بمساعدة الاستدلال لوحده للتأكُّد أنهما واقعتَين فعلاً، ومن هنا أنطلق، مغمض العينَين، وحيداً مع التحليل والتركيب، لاكتشاف الحقيقة. وما عدا في حالات خاصة، وهي قليلة في تجربتي الواسعة كمفكِّر، دائماً أتوفق، وأتوفق لأنني لا أفعل شيئاً آخر غير ممارسة فعل الاستدلال، لا أحيد أبداً عن سلوكي الباطني.

سيدي، لا بدَّ أنك قد سمعت بأهمية الملاحظة، وأهمية الانتباه، وأهمية التركيز. إنني لا أؤمن بهذا. إن الانتباه، والملاحظة، والتركيز، والتجريب، كلها أمور مهمة بالنسبة إلى

الأشخاص الذين، نظراً إلى عجزهم عن اتِّباع منهج واحد بعناد حدسي، يضطرون لإخفاء ضعفهم الطبيعي باستعمال عدة مناهج، وهي طريقتهم الوحيدة للحصول على شيء ما. إن الانتباه لوحده، وأنا مقتنع بهذا، يعطينا كل ما نريده. إنني أسهو بطبعي، ولذلك فإنني لا أفكر في استعمال الانتباه؛ ولا أفكر في تقويته، لأنه من العبث دائماً أن يحاول المرء أن يصنع من نفسه ما لم تشأ الطبيعة أن يكونَه. لو كنتُ سكّيراً بطبعي، لشربتُ دون أن أحاول أن أغيّر نفسي؛ لأن المسؤولية بكاملها تقع على الطبيعة. وكما أنني مقتنع بأن الانتباه لوحده يكفي كمنهاج، فإنني مقتنع بأن التركيز لوحده يكفي، وأن الملاحظة لوحدها تكفي. إنني لا أستعمل الملاحظة ولا التركيز، للسبب الذي تعرفه، يا سيدي، لأنني لا أتقن الملاحظة، بطبيعتي، ولأنني لم أستطع قط أن أركِّز تفكيري على أي شيء. وإذا كنت أستعمل الاستدلال دون انقطاع فلأنني لست في حاجة إلى أن أفكر في أنني أستدلُّ. فأنا أستدلُّ كما أتنفس. لا أعير الأمر أدنى اهتمام. لا شيء أفضل من التواضع».

رمى عقب سيجاره، أخرج سيجاراً آخر من جيبه، مزّق الشريط، قطع رأسه بأطراف أصابعه ثم أشعله.

– الآن، قال أخيراً، وقد أخبرتك بمؤهّلاتي في حلِّ المشاكل المستعصية، أطلب منك أن تصغي إلى المعطيات المتوفِّرة لحلِّ هذا المشكل الذي يؤرقك. . .

رفع كْواريشْما يده، في إشارة إلى أنه لن يتكلم مرة أخرى.

– قبل أن نخوض في الموضوع، قال، أريد أن أوضِّح أمراً ما بيننا معاً في أُلفة وتفاهم.

مكتبة الرمحي أحمد

- تفضل، تفضل، أجبتُه.
- إن رأيك لا يهمني بتاتاً فيما قلتُه لك.

وأبدى ملاحظته بطريقة جعلتني أقبلها كأنها طبيعية، كأكثر الأشياء لباقة يمكن أن نصادفها في هذا العالم.

* * *

- ... بعد ذلك فكرت أن أكون ميتافيزيقياً، وأبني، على الأقل لاستعمالي الشخصي، تأويلاً للكون. لكن ذلك لم يكن غير مجرد اقتحام من الوقاحة الفكرية، سرعان ما سيطر عليها عقلي المحدود.

- وقاحة فكرية، كيف ذلك؟

- لهذا السبب: ... إن شخصاً يستعمل حقاً الاستدلال في حاجة إلى وقائع (أو، على الأقل، إلى واقعة واحدة) يتّخذها منطلقاً لاستدلاله. والحال أن الميتافيزيقيا لا تمدُّنا ولو بواقعة واحدة ننطلق منها. والنظام الكوني ليس واقعة، لأنه مجموع كل الوقائع، ونحن لا نملك وسيلة لمعرفة ما يمكن أن يكون مجموع الوقائع، باعتبارها واقعة. ينقصنا معيار النسبية الذي يساعدنا على معرفة وجهتنا وسط وقائع الحياة. لا يمكن إقصاء إمكانية الوهم من «واقعة» النظام الكوني، لأنه لا وجود لوقائع إلى جانب تلك الواقعة تُمكّننا من ممارسة نوع من السيطرة. وفي علاقتها بوقائع أخرى، فإن واقعة ما إما أن تكون حقيقية وإما لا تكون كذلك؛ والنظام الكوني يمكن أن يكون غير حقيقي...

هكذا، فأي نظام ميتافيزيقي، بالنسبة إلى الشخص الذي يمارس الاستدلال، يمثّل لا احتمالية فكرية.

وعلى نفس المنوال اضطررت للتخلي عن الأمل في أي عمل فني. لا أتحدث عن المؤهلات التي ربما تعوزني. أشير فقط إلى استحالة تعاطي الفن بالنسبة إلى شخص يمارس الاستدلال.

إن كل عامل من بني البشر يصبو، بالطبع، إلى الكمال. وممارس الاستدلال على الوقائع لديه معيار كمال يتمثل في مطابقة نتائجه مع الواقع. أما المشتغل بالفن فلا معيار له، غير ذاتي حقاً، يسمح له بتقييم كمال، أو جمال عمله. لا وجود لمعيار نهائي للعمل الفني. لذا فإن ممارس الاستدلال يصعب عليه إدراكه.

- لقد تقدّم العلم. . .

- قليلاً، قاطعني كْواريشْما.

- قليلاً؟ قلتُ مندهشاً. قليلاً؟ لكن، يا عزيزي الدكتور، انظر كم تطور العلم في الأربعين أو الخمسين سنة الأخيرة.

- انظر، يا صديقي، كم كان بإمكان العلم أن يتطور. سيد بيريرا، لو أنك قمت، مثلي، بتحليل عميق ودقيق لتطور العلم، وخصوصاً العلم الحديث -لكن كل العلوم حقاً- لأدركتَ أن ما أُنجزَ هو أقل ما كان يمكن إنجازه. أتعلم لماذا؟ جزئياً لسوء الملاحظة؛ وجزئياً لكثرة الملاحظة، من سوء ممارستها؛ وجزئياً نظراً إلى كثرة ما نلاحظ. إن إهمال الاستبطان قد أعاق كثيراً تطور العلم. . . حسناً أعرف أنك سوف تقول -لأنني دائماً أستبق الاعتراضات- وأنك سوف تعترض على ما قلتُ بقولك إنه عندما كانت مناهج الاستبطان رائجة لم يعرف العلم تقدُّماً كبيراً. حتى إن سلّمنا بهذا سيد بيريرا -وحتى نسلّم به، وهو ما يبدو لي مستحيلاً-، علينا أن نبرهن، **من وجهة نظر العلوم الاجتماعية**، أنه لم يكن

ممكناً اجتماعياً التقدُّم في الماضي كما اليوم؛ وحتى إن سلّمنا بهذا فإن حجّتك واهية، يا صديقي، لأن المنهج الاستبطاني، عزيزي سيد بيريرا، لم يفشل لأنه كان استبطانياً؛ لقد فشل، كما فشل المنهج الموضوعي، لأنه كان غير مُتقَن وأكثر صعوبة في التطبيق من الأول، ناهيك عن كل العراقيل، والأعراف، والقيود الكثيرة [. . .] التي وضعها الدين أمامهما، وخصوصاً أمام المنهج الذاتي، نظراً إلى طابعه الشخصي، ولأنه صادر عن علاقته بالروح، أكثر من المنهج الموضوعي الصادر عن الخارج. لأن المنهج الاستبطاني، يا صديقي العزيز، ليس سوى المنهج الموضوعي الذي تطبّقه الروح على الروح نفسها. إنه، في حقيقة الأمر، موضوعي مثل المنهج الموضوعي؛ إنه فقط يلاحظ ما في الداخل. لسوء الحظ، كانت الشروط الاجتماعية والذهنية التي ربّت الأجيال الحديثة، ولو بطريقة سيئة، على ملاحظة الخارج، كانت من النوع الذي لم يربّيها على ملاحظة الداخل بشكل موازٍ. هكذا، فنحن، اليوم، على ما نحن عليه. . . وبالمناسبة، هل تعرف لماذا يُعتبر الروائيون النفسانيون ونقّاد الروح التحليليون أشخاصاً رجعيين، عموماً؟

– لقد لاحظت ذلك، يا دكتور، ولكن في فرنسا. . . ريبو[1]، بورجيه[2]. . .

– لكن، هل تعرف لماذا هم رجعيون؟

---

(1) تيودول ريبو (1839–1916): عالم نفس فرنسي. يعتبر من مؤسّسي علم النفس التجريبي في فرنسا. (المترجم)

(2) بول بورجيه (1852–1935): كاتب فرنسي، عرف بمناهضته للعلم وجمالية المذهب الطبيعي. احتفى في رواياته السايكولوجية بالقيم التقليدية. (المترجم)

وحين أومأت نافياً برأسي، قال:

- عزيزي سيد بيريرا، لأن العودة إلى المنهج الاستبطاني أبعدهم عن المادية. لكن خطأهم لا يقل فداحة عن خطأ الآخرين؛ وعلم الاجتماع يفسِّر الخطأين معاً. إنه خرف الشيخوخة... لأن هؤلاء وأولئك يتبعون مناهج مرضية، إنها حالات مزاجية مرضية، لم يكتمل تطورها، ولم ينتهِ تماماً رجوعها إلى الوراء.

- لنعد إلى منهجنا... كنتَ تقول، يا صديقي، إن بناء منهج جيد يكمن، من وجهة نظرك، في الملاحظة والاستنتاج بعد ذلك... أليس كذلك؟

- الملاحظة الكثيرة والجيدة.

- نعم إن الملاحظة الكثيرة والجيدة خير من الملاحظة الكثيرة والسيئة. لكن الأحسن ألا نلاحظ كثيراً.

- هذا عجيب!

- نعم، إن على مُمارِس الاستدلال الحق ألا يلاحظ كي يقوم بشيء ما. عليه أن يكتفي بالرؤية فقط، وأن يرى كل ما يمكن لأي شخص آخر أن يراه. لذلك أقول **يرى**، وليس **يلاحظ**. عليه ألا يدرك سوى الحدّ الظاهر للوقائع بشكل ما؛ لأن الاستدلال هو الذي تقع عليه مسؤولية معرفة استنتاج التفاصيل...

- كما لو أننا نريد معرفة لوحة ما بالاستنتاج من خلال إطارها...

- ليس كذلك تماماً: إن الشكل هو الحدّ الظاهر للشكل. لكن، إن تشبّثت باستعارتك، فلنفحصها جيداً، ولنلاحظ فقط الشيء التالي: في الطبيعة، تكون اللوحة مطابقة للرسم...

- نعم. إن طريقتك، أقول، تبدو غير مجدية، لو سمحت لي

مكتبة الرمحي أحمد

بأن أقول لك هذا. أجدها... كيف أعبِّر عن ذلك، أحادية الجانب، غير متوازنة، تقتصر كثيراً على الاستدلال، ولا تعير اهتماماً كبيراً للوقائع.

- لأنك لم تفحصها جيداً. إنها متوازنة تماماً. إنني أعطي للوقائع ما يجب أن أعطيه للوقائع، وأمنح الاستدلال ما يجب أن أمنحه. لنفحص المسألة من البداية، والبداية أن الوقائع غير موجودة...

- أن الوقائع غير موجودة...

- لا، يا سيدي، بالكاد توجد تأويلات للوقائع. من يتحدّث عن الرؤية والملاحظة كي يشتغل الدماغ لاحقاً لا يفقه شيئاً في علم النفس؛ لأن مجرد الرؤية في حدّ ذاتها تكمن في إشغال الدماغ بما هو في الخارج، وتنطوي الرؤية الوحيدة والبسيطة على تخمينات شبه واعية، وتداعيات أفكار، واستنباطات، واستنتاجات لا إرادية. وقائع...؟ [...]

لنترك هذه الاستشهادات جانباً ولنحلِّل القضية... إن علاقة الذات بالموضوع ثلاثية فيما يخصّ **الحقيقة**؛ فكل إنسان، مثلاً، ذات بثلاثة أشكال؛ أولاً لأنه، ميتافيزيقياً وفي انسجام مع الكون برمّته، يؤمن بوجود **موضوع ما**. دعنا من هذا، لأنه موضوع لا يهم غير الميتافيزيقيا. ثانياً، يظن أن هذا الموضوع قد شُكِّل بطريقة ما، كما لو أنه شُكِّل بواسطة الأحاسيس، والنظام العصبي، فيصير هذا الموضوع موضوعه هو، يصبح ذاتاً. وكل هذا في انسجام مع الكائنات التي لها نفس أحاسيسه. وأخيراً، إن هذا الموضوع ليس بالتأكيد هو نفس الموضوع بالنسبة إلى أي شخص آخر لأنه، بحكم قانون الاختلاف الذي يتمتع به أي شيء، لا يشبّه أي نظام عصبي

بنظام عصبي آخر؛ فلا أحد لديه عن الموضوع مفهوم يشبه مفهوم شخص آخر. ما الذي نستنتجه من هذا؟ إن الاستنتاجات بديهية. في الدرجة الأولى من الذاتية، يتّفق كل الناس، لأنهم، بحكم أنهم جميعاً ذوات، يعتقدون كلهم بوجود موضوع. ويتّفقون جميعاً بخصوص النقطة الثانية، على أساس أنه باعتبارهم جميعاً ذوات بنفس الشكل (أي بنفس الأحاسيس)، كلهم يعطون لهذا الموضوع شكلاً عاماً يشتركون فيه جميعاً. لكنهم ليسوا متفقين في الدرجة الثالثة، إذ على الرغم من أنهم جميعاً ذوات بنفس الطريقة، إلا أنهم ليسوا كذلك بعد، إن صحَّ التعبير، بنفس الدرجة (من القدرات). إن النقطة الأولى لا تعنينا. لا علاقة لنا بالأسباب التي تجعلنا نؤمن أو لا نؤمن بحقيقة خارجية.

* * *

«إن الهدف من التحقيق حول أية جريمة هو اكتشاف من ارتكبها. ولتحقيق هذا الاكتشاف لدينا طريقة واحدة أو أكثر من ثلاث طرق ممكنة. كيف ارتُكبت؟ متى ارتُكبت؟ ما الهدف من ارتكابها؟ ومن خلال التحقيق حول هذه الأسئلة يمكننا أن نتوصل إلى الجواب عن السؤال الجوهري؟

في أغلب الأحيان -أو في أحيان كثيرة على الأقل- لا يوجد أثر يقود التحقيق نحو الهدف. في أغلب جرائم السرقة يكون الهدف واضحاً للعيان: يتعلق الأمر ببساطة بالحصول على ما سرق، مالاً كان أو أشياء يمكن تحويلها إلى مال بكل سهولة. وفي أحياناً كثيرة أيضاً لا يسعف تحديد وقت الجريمة في شيء، إلا إذا كانت ثمة ظروف خاصة تجعل من مناسبة ارتكابها أمراً لافتاً للانتباه. وعموماً،

مكتبة الرمحي أحمد

إن الطريقة المعتمدة في الجريمة المُرتكبة هي التي تقودنا مباشرة إلى اكتشاف المجرم المجهول. لأن في طريقة إنجاز الجريمة تظهر نفسية من ارتكبها. وأحياناً تصبح مناسبة الجريمة جزئية ثانوية في مسلسل ارتكابها؛ أي أن اختيار المناسبة يتم وفقاً للطريقة المتّبعة.

وفي التحقيق حول أي ظرفية يشتبه أن الجريمة قد تمّت فيها، نتبع ثلاث مراحل منطقية من الاستدلال: هل فعلاً وقعت جريمة؟ متى، كيف، وبأي هدف تمَّ ارتكابها؟ من ارتكبها، إذاً؟ هذا هو مسار أي تحقيق.

إن التحقيق في أي مسألة، قال كُواريشْما، يتعلق، أساساً، باليقين الكامل للاستدلالات؛ ويتعلق اليقين الكامل للاستدلالات، أساساً، بدوره بثلاثة أمور: (1) التحديد الأولي للوقائع -إن كانت ثمة وقائع-، أي تفاصيل الحقيقة التي تكون واضحة تماماً ولا تقبل الجدل؛ (2) التحديد الثانوي لمجموع «الواقعة العامة»، أي تلك الواقعة التي تتشكل من العلاقة بين الوقائع الأولية؛ (3) انطلاقاً من هذه النقطة، تحديد القصة الكاملة للقضية، أي الوصول، انتقالاً من استنباط إلى استنباط، بالحذف، والمقارنة، والغربلة، إلى استنتاج يقدِّم بنفسه الواقعة العامة، حين يتم تحليلها تدريجياً وكما ينبغي.

إننا لا نرى بالحواس فقط؛ إننا نرى أيضاً، وفي الوقت ذاته، بالعقل. إنني أقصي، الآن، فرضية الهلوسة، غير العادية في حدّ ذاتها. أشير فقط إلى التجربة العادية. مثال: أمرُّ في الشارع فأرى رجلاً ساقطاً على الرصيف. أتساءل بشكل غريزي: لماذا سقط هذا الرجل على الرصيف؟ هناك، سلفاً، في هذا السؤال خطأ استدلالي، وبالتالي إمكانية خطأ في الواقعة. شخصياً، لم أرَ الرجل يسقط

هناك. رأيته ساقطاً. إذاً، ليست **واقعة** بالنسبة إلي أنه سقط هناك. ما يشكِّلُ **واقعة** بالنسبة إلي هو أنه **ممدّد** هناك. مثلاً، ربما يكون قد سقط في مكان آخر وحملوه إلى هناك؛ ويمكن أن يكون عدة أشياء أخرى. أظن أنني قد بيّنتُ لك جيداً كيف هو معقّد ما يبدو بسيطاً جداً. من الضروري، في أي مسألة، أن نميّز بعناية منذ البداية بين **المعطيات**، بالمعنى الحصري، **والاستنتاجات**، مهما كانت مباشرة، مهما بدت بديهية، مهما برزت لنا بشكل غريزي.

ويترتب عن هذا المشكل، بشكل مباشر، مشكل الشهادة. إن المعيار الغريزي الذي يوجِّه التحقق بمراكمة الشهادات يكمن ليس فقط في حذف الأوهام الممكنة، أو التحريفات المقصودة للحقيقة، بل أيضاً في حذف عنصر الاستنتاج من عنصر الواقعة، لأنه من الطبيعي أن نجد في رواية ثلاثين شخصاً شهدوا «الواقعة» شيئاً مشتركاً هو الوقائع، واختلافاً في الاستنتاجات الغريزية التي يخرج بها كل شاهد، والاستنتاجات المباشرة التي يستخلصونها مباشرة بمعاينة الواقعة.

وفي حالة شكّ، ينبغي أن نحذفها، ولو مؤقتاً، حتى ننطلق من معطيات يقينية تماماً».

* * *

– لنرى أولاً الوقائع، قال الدكتور كُواريشْما. لنحدِّد أولاً ما هي، في هذه القضية، الوقائع غير القابلة للنقاش. نحن في حاجة إلى تحديدها، لأنه، انطلاقاً منها، يمكن أن ننظِّم استدلالنا بكل أمان. لنرى الواقعة الأولى. وهذه الواقعة هي أن الرَّقّ اختفى من صندوق الحديد بين بداية هذا الشهر واليوم الخامس عشر منه.

مكتبة الرمحي أحمد

- تماماً، قال السيد كورِّيا.

- لا يمكن أن يوجد أدنى شكّ بخصوص هذه النقطة. هل الفترة التي اختفى خلالها الرَّقّ هي هذه؟ مثلاً، آخر مرة رأيته فيه، هل رأيت فعلاً أن الأمر يتعلق بالرَّقّ وليس بوثيقة أخرى؟

- نعم رأيتُ الرَّقّ واطّلعت عليه. لا يمكن أن يوجد أدنى شكّ بخصوص هذه النقطة.

- حسناً. بما أن الرَّقّ اختفى، فقد اختفى لأنه ضاع، أو لأنه سُرق. فرضية ضياعه لا تناسب هذا الوضع، لأن المكان الذي كان فيه الرَّقّ، والعناية التي كان يحظى بها، والظروف التي كانت تدفعك لمراقبة مكانه تستبعد هذه الفرضية. إن الرَّقّ الذي اختفى قد سُرق، إذاً، بين أول الشهر -تقريباً- واليوم 15 منه.

- تماماً.

- لو أنه سُرق، فبأي طريقة تمّت السرقة، ومن نفّذها؟ لنفحص أولاً بأي طريقة يمكن أن يكون قد سُرق. بعد تحديد الطريقة، سنكون قد قطعنا خطوة مهمة نحو التأكد من نوعية الشخص الذي ربما يكون هو اللصّ، لأن طريقة تنفيذ السرقة لا بدَّ أن تقول شيئاً ما عن شخصية مُنفّذها.

سيد كورِّيا، إنك تؤكد، وأظن أنه يمكن أن نثق بذاكرتك، أنه خلال الخمسة عشر يوماً تقريباً التي وقعت خلالها السرقة، عدا المرات القليلة التي دخلت فيها إلى متحفك، لم تدخل أبداً لوحدك، ولم تترك أبداً الباب مفتوحاً لحظة دون أن تكون هناك.

- أؤكد ذلك، يا سيدي، وأنا واثق منه.

- حسناً. إذاً، السرقة لم تتم بأي شكل من أشكال المهارة الخالصة، بل بطرق شبيهة بالتكسير واستعمال المفاتيح المزوّرة.

يتوفر المتحف على مدخلَين من بابَين، وبما أن النوافذ لها قضبان حديدية فإنه يستحيل الدخول منها. وأحد البابَين دائماً موصد من الداخل، والمفتاح في قفله والمزاليج الأربعة مغلقة بدورها في الجهتَين العليا والسفلى من الباب. من هنا، أيضاً، يستحيل أن يدخل أحد. من الطبيعي، إذاً، أن الدخول قد تمَّ عبر الباب الذي تحمل مفتاحه معك دائماً، سيد كورِّيّا، وتحتفظ بمفتاحه الآخر في الصندوق في الطابق العلوي، والذي تغلقه بقفل من نوع «ييل» الذي يعتبر من أجود الأقفال التي ينتجها ذلك المعمل.

- كل هذا جيد، ولكن...

- ما من «ولكن» إلى حدّ الآن... إنني أعرض استدلالي... دعني أتابع... إن القفل يُفتح بثلاث طرق: إما بالكسر، بفتحه بواسطة أي آلة تعوِّض المفتاح، وإما عن طريق مفتاح، أعني هنا مفتاحاً مزوّراً، وإما المفتاح الأصلي المحصّل عليه عن طريق التدليس والخداع. إذاً القفل لم يفتح بالكسر. ولم يفتح كذلك بأية آلة أخرى تعوِّض المفتاح لأن فحص القفل (وهو من النوع الذي يصعب فتحه بهذه الطريقة) بيّن أنه ظلَّ سليماً من الداخل، وهو ما يستحيل مع الطريقة المفترضة. إن القفل قد فُتح، إذاً، بواسطة مفتاح، مفتاح مزوَّر، أو المفتاح الأصلي المحصّل عليه بطريقة ما من الطرق.

لنفحص الفرضيتَين معاً. كي يُفتح الباب بأي مفتاح من المفاتيح الأصلية، لا بدَّ للّصِّ أن يحصل إما على المفتاح الذي تحمله دائماً معك، سيد كورِّيّا، وإما المفتاح الموضوع في الطابق العلوي، الذي يُحتفظ به دائماً في الصندوق. هذا الصندوق يُغلق بواسطة تركيبة سرية، أليس كذلك؟

مكتبة الرمحي أحمد

- نعم، إنه كذلك.

- ومفتاحُه؟

- أحمله هنا، مع نفس حزمة مفاتيح المتحف.

- حسناً. للحصول على المفتاح المتواجد في الصندوق، إما ليَفتح به الباب، وإما ليَأخذ طابعه لصناعة مفتاح آخر. على اللصّ، بالإضافة إلى اكتشاف تركيبة القفل السرية هناك في الأعلى، أن يصلَ إلى مفتاح هذا الصندوق (لأنه لم يُكسر)؛ والحال أن هذا المفتاح يوجد في نفس الحزمة مع مفتاح باب المتحف، ولو أن اللصّ وضع يده على حزمة المفاتيح، ما كان ليشغل باله بمفاتيح الصندوق، لأنه يملك المفتاح الآخر للباب، الذي يستطيع أن يأخذ منه الطابع الذي يحتاجه. ولا أتحدث هنا عن مسألة أخرى، يمكن أن تطرح أيضاً، وهو أنه لا أحد تقريباً، بالطبع، يعرف أن المفتاح الآخر يوجد هناك في الأعلى داخل الصندوق...

- صحيح، صحيح. وحدي أنا أعرف أنه هناك. وحدي أنا، ولا أحد سواي.

- ما حدث هو أن الباب قد فُتح بواسطة هذا المفتاح، وأن هذا المفتاح كان إما هو نفس المفتاح الذي تحمله معك، سيد كورِّيّا، وإما أنه كان مفتاحاً أُخذ طابعه من هذا المفتاح. خلال الخمسة عشر يوماً التي وقعت خلالها السرقة، بالطبع، ماذا فعلت بهذه المفاتيح، سيد كورِّيّا؟

- ما أفعله عادة بالمفاتيح هو أنني أحملها دائماً معي، لا أتركها أبداً، وحين أنام، أخبئها، طلباً للأمان، في مكان معيّن، لا يمكن لأي أحد غيري أن يعرفه.

– أظن ذلك. في هذه الحالة، فإن اللص الذي فتح الباب بمفتاح، لم يفعل ذلك بالمفتاح الذي تحمله معك، سيد كورِّيّا. تبقى لنا فرضية أخرى، لا بدَّ أنها بالضرورة صحيحة: إن اللصّ فتح الباب بمفتاح مزوّر حصل على طابعه من ذلك المفتاح الذي تحمله معك، سيد كورِّيّا.

– لكن. . .

– لا تقاطعني. خلال الخمسة عشر يوماً التي تحدّثنا عنها، ألم يحصل لك، سيد كورِّيّا، أبداً، أبداً، إطلاقاً، أن تركت المفاتيح من يدك، عدا حين تنام، فتخبئها حينئذ في مكان لا يعرفه أحد، أو أعطيتها أبداً لأحد تثق به من أجل تنظيف المتحف؟

– أنا من أفتح الباب للقيام بالتنظيف. ثم إنه لا يوجد أبداً شيء كثير يُنظَّف.

– حسناً. إذاً لم يتم الحصول على طابع المفتاح خلال الخمسة عشر يوماً التي نتحدّث عنها. لقد تمَّ الحصول عليه، حتماً، في مناسبة أخرى، سبقت هذه الفترة.

– لكن. . . مكتبة الرمحي أحمد

– أطلب منك مجدّداً ألا تقاطعني. . . إنني أعرض استدلالي. . . من فضلك، اكتفِ فقط بالإجابة عن الأسئلة التي أطرح عليك من حين إلى آخر. تمَّ الحصول على الطابع من المفتاح الذي تحمله معك، سيد كورِّيّا، وحصل ذلك قبل الشهر الحالي، قبل الخمسة عشر يوماً التي وقعت خلالها السرقة. وبناء على هذا، ما هي الطريقة التي اعتمدها اللصّ (اللصّ أو شخص آخر استعمله اللصّ) ليضع يده على مفتاح المتحف الذي عادة لا تتركه أبداً من يدك، سيد كورِّيّا؟ هناك ثلاث طرق ممكنة. إما أنه استفاد من سهو

مكتبة الرمحي أحمد

أو نسيان صدر عنك، وإما أنه اكتشف أين توجد حزمة المفاتيح حين لا تحملها معك سيد كورِّيّا، حين تنام مثلاً، وإما باستعمال طريقة من طرق الحيلة للحصول على ذلك المفتاح.

هنا يصبح التحقيق أصعب، لأنه، بما أن الأمر يتعلق بفترة غير محدَّدة، سابقة عن الشهر الحالي، لا أستطيع شخصياً أن يكون لي نفس الثقة بذاكرتك، سيد كورِّيّا، كما أثق بالأحداث التي وقعت خلال هذا الشهر. لكن علينا ألا نستسلم. لنرى أكثر الفرضيات سهولة. هل تظن، سيد كورِّيّا، أن المكان الذي تخبئ فيه المفاتيح حين تنام هو مكان يمكن أن يراقبك فيه أحد وأنت تخبئها، عبر جبهة الباب، مثلاً؛ أو أنه مكان يمكن لسمع مرهف أن يحدِّد مكان المفاتيح من خلال صليلها؟

– لا هذا الأمر ولا ذلك. أفضِّل ألا أذكر المكان...

– طبعاً... لا أريد أن أعرفه... أريد فقط جواباً عن سؤالي...

– إنه ليس بمكان يمكن أن يحدث فيه أي شيء من هذه الأشياء.

– حسناً. لنستبعد هذه الفرضية. تتبقى لنا فرضيتان. ورغم أنني أقول، بهذا الخصوص، إنني لا أستطيع أن تكون لي نفس الثقة بذاكرتك، سيد كورِّيّا، كما أثق في الفترة الأخير التي وقعت خلالها السرقة، سأحاول، بواسطة الأسئلة، أن أقلِّص إلى أدنى حدّ هفوات ذاكرتك. إنك تحمل معك دائماً هذا المفاتيح، سيد كورِّيّا، كما قلتَ لي. هذا أمر عادي؛ ولكي تنساها لحظة، أو تسهو عنها، لا بدَّ من ظرف غير عادي. سأقترح عليك عدة أنواع ممكنة من الظروف غير العادية، وأخبرني، سيد كورِّيّا، عند ذكر كل واحدة منها، إن

حدث لك شيء له علاقة بالمفاتيح قد يكون هيّأ الفرصة ليُأخذ منها طابع أحد المفاتيح.

هناك ثلاثة أنواع ممكنة من الظروف غير العادية، في هذه الحالة. هناك أولاً، أي ظرف غير عادي يتعلق بالعناية التي توليها، سيد كورِّيا، لحزمة المفاتيح. تذكر أي حالة غير عادية ربما يكون قد نتج عنها إهمالُك الممكن للمفاتيح، مثلاً: مرض، انشغال كبير، عجل كبير ربما ترتّب عنه هذا الإهمال...

- لم يحدث أي شيء من هذا إطلاقاً.

- لم يحدث قط؟

- لم يحدث قط. حين أمرض -ولا يقع ذلك إلا لماماً- تكون المفاتيح داخل الصندوق هناك في الأعلى. وإذا كان صحيحاً أنني أواجه من حين إلى آخر عوائق وانشغالات، فأنت تفهم، يا دكتور، أن مسألة المفاتيح هذه مسألة عادية في حياتي. فكما أن عائقاً أو انشغالاً قد يحرمني من شهية الأكل، مثلاً، ولا يجعلني أنسى أن أنظف ذاتي، فإنه لا وجود لأي عائق أو انشغال قد يتداخل مع شيء تافه مثل حزمة مفاتيح. وأنا على يقين تام من ذلك لدرجة أنني أذكر المرة الوحيدة، الوحيدة إطلاقاً -وقد حدث هذا قبل سبع سنوات-، التي حدث فيها شيء من هذا القبيل. كنتُ غاضباً من ابن أخي الذي يدرس في كومبرا، فخرجت وأنا لا أزال أرتدي منامتي لأوبّخه، بعد أن وضعتُ المفاتيح التي كنت أثبتها في الزرّ، وأنا تحت تأثير ذلك الاندفاع الذي جعلني أغادر الغرفة. وحتى في هذا الظرف لم تبقَ هناك أكثر من دقيقتين، ولا أحد كان بإمكانه أن يدخل إلى غرفتي أثناء ذلك. ربما يبدو غريباً أن أذكر ذلك جيداً...

- إنه لا يبدو لي غريباً. طبعك المحترس، والعناية الخاصة

التي توليها لمفاتيح القاعة حيث توجد تحفك الأثرية تمنحني الثقة بذاكرتك فيما يتعلق بهذه التفاصيل الدقيقة، وهي الثقة التي لا يمكن أن أضعها في ذاكرة شخص آخر فيما يتعلّق بأشياء مشابهة، أو في ذاكرتك أنت فيما يتعلق بأشياء أكثر أهمية، لكن لا علاقة لها بانشغالاتك العادية والسمات الأساسية لطبعك. لكن، لنرى فرضية أخرى تكمن في حدوث شيء غير عادي له علاقة بالمكان الذي تضع فيه المفاتيح. حين تكون هنا، تضع دائماً المفاتيح، ليلاً، في نفس المخبأ. لكن، أين تضعها حين تسافر، مثلاً؟ حين تغادر البيت، وتقضي الليلة في بيت أحد الأصدقاء...؟

- حين أسافر، أغلق على المفاتيح هناك في الصندوق ولا أحمل معي سوى مفتاح الصندوق ومفاتيح الحقائب... أما بخصوص زيارة الأصدقاء، فلا أقضي أبداً الليل خارج بيتي، إلا حين أكون مسافراً... نعم، في هذه الحالة، أغلق عليها هناك في الصندوق، كما قلتُ.

- إذاً، يبقى أن طابع المفتاح قد أُخذ عن طريق الحيلة. حتى لو أن استدلالي بالإقصاء التدريجي للفرضيات لا يقودني إلى هذا الاستنتاج، فإن هناك ظرفاً آخر يفرض علي هذا الاستنتاج، بعد كل الأسئلة التي طرحتها عليك. وهو أنه، بما أنه من البديهي أن الباب قد فُتح بمفتاح مزوّر، وأن الطابع قد أُخذ من المفتاح الذي تحمله دائماً معك، وحتى لا تذكر أدنى ظرف تمكّن فيه اللصّ -أو أي شخص آخر- من وضع يده على مفاتيحك، لا بدَّ له أنه استعمل وسائل جد ماكرة ليجعلك تنسى أنك قد وضعت المفاتيح بين يديه أو أنك سمحت له بأخذها، وإذا ما حدث ذلك بهذا الشكل، فإنه من البديهي أنك لا بدَّ أن تذكر الحديث الذي تمّت خلاله هذه الحيلة

الماكرة، لكنك لا تذكر أنك وضعت المفاتيح في يد الماكر. لستُ أدري إن كنتُ واضحاً: إن الحيلة في حدّ ذاتها، التي جعلتك تضع المفاتيح دون تفكير في يد هذا الشخص الذي حدّثتك عنه، لا بدَّ أنها كانت ماهرة، كي تتمكن من أن تضع المفاتيح هكذا بين يدي الآخر دون أن تنتبه إلى ما كنت تقوم به. والحال أنه، إن لم تنتبه إلى ما كنت تقوم به -وإلا لما وضعت المفاتيح في يد أي كان-، فمن الطبيعي أن تنسى تماماً أنك وضعت المفاتيح في يد شخص ما، وألا تتذكره إلا عندما أنجح في دفعك لتتذكر ذلك الحديث الماكر الذي جعلك تعطي مفاتيحك للغير. هل تفهمني؟

- نعم، أفهمك، قال هاوي جمع التحف بشيء من التردُّد.

- إذاً، سأقترح عليك، قال كْواريشْما، نوع الحديث الذي لا بدَّ أنه كان ضرورياً كي تفقد تماماً احتراسك الغريزي، وتسهو تماماً عن المفاتيح بشكل طبيعي. إنك تهوى جمع التحف والقطع القديمة والنادرة. إن أسهل طريقة للفت انتباهك، وصدّك عن أي احتراس خارج الموضوع، هو الحديث معك عن التحف القديمة، والقطع النادرة. والآن، أخبرني -لأن معرفتي بهذا الموضوع محدودة- هل تملك بالصدفة مجموعة من المفاتيح القديمة أو الأقفال القديمة، أو شيئاً من هذا القبيل؟

- نعم، أملكها... (ثم سرعان ما تغيرت تعابير السيد كورِّيّا، أطلقَ صرخةً وصوّبَ لكمةً إلى الطاولة، وهو ينظر إلى كْواريشْما بوجه مندهش بغرابة...) لقد وجدتَها! صه! لقد وجدتَها! هذا لا يصدق... كان يكفي أن تتحدّثَ عن الأقفال كي أتذكر تلك القضية... منذ حوالي سنة، ربما أقل من ذلك، جاء إلى هنا، رفقة أحد أصدقائي، لوبش ليما، شخص يدعى فاشكِش، أظن أنه يملك

مكتبة الرمحي أحمد

محل قفالة ميكانيكية يوجد في هذه الضواحي، وكان يرغب في أن يرى مجموعة أقفالي العتيقة. . . أرَيتُه إياها. كان رجلاً لطيفاً، أثنى كثيراً على مجموعتي، ثم انبرى يتحدّث عن الأقفال وتحدّث بإسهاب رائع عن تطورها منذ لست أدري متى إلى غاية ظهور الأقفال من نوع «ييل». عرض علينا، أنا ولوبش، كل تفاصيل تحسُّن صنعها، ومن أجل ذلك طلب مني المفاتيح، ثم انطلق في خطاب مطوّل حول المفاتيح من نوع «ييل». حسناً. . . إن كان يحمل في يده شمعاً أو أي شيء آخر، يكون قد استعمله لأخذ بصمات مفتاحي، فقد كان لديه أكثر ما يكفي من الوقت ليقوم بذلك. . . وكما تقول، يا سيدي: كيف كان لي أن أفكر في الاحتراس من ذلك الرجل؟ كنت بعيداً كل البُعد عن الاحتراس. لأن عرضه كان مثيراً بالفعل، وكان واضحاً أن من حَضَّرهُ كان شخصاً كفؤاً ومتبحِّراً في الميدان. . . لكن، في الحقيقة، ما الذي يقحم هذا الرجل في قضيتنا؟ ما علاقته بكل هذه الحكاية؟ فقط لو أنه سرق مني المفاتيح. . . لكن أن يسرق الرَّقّ. . . ! وكيف دخل إلى هنا. . . لكن، صحيح، قال وهو يلتفت نحو المفتشَين، هل هو لصّ؟

– لم يسبق لي أن سمعتُ به، قال أصغرهما، بينما أكّد الأكبر بحركة نفي من رأسه.

– حسناً، حسناً، قال كُواريشْما. لنركِّز على ما يهمنا. . . قبل أي شيء، ثمة جزئية تحتاج إلى تأكيد. هل قام هذا الرجل، في لحظة معيّنة، بتنظيف مفتاح «ييل»؟

– هل قام بتنظيف مفتاح «ييل». . . ؟ لا أعرف. . . انتظر، صحيح؛ عجيب؛ كل هذا صحيح. . . في لحظة معيّنة، تحدّث عن العمل المتقن الذي أنجزته «ييل»، عن جمالية مفتاح «ييل» باعتباره

شيئاً عصرياً، ثم نظّفه، بحب نوعاً ما، مستعملاً خرقة كانت توجد فوق الطاولة هناك في الخلف. . .

- ليسحب منه أي أثر للشمع، شرح كْواريشْما للشرطيَّين، اللذان أومآ أنهما قد فهما. حسناً، تابع فكّاك الرموز قائلاً وهو يضع عقب سيجاره في المرمدة ويسحب سيجاراً آخر من جيبه. حسناً، لنرى ما هو. . .

لكن، في تلك اللحظة، قاطعه السيد كورّيّا فجأة:

- معذرة، ولكن علي أن أقاطعك. . . يبدو لي أن ثمة أمر يضع كل هذا موضع شكّ، لأنه يجعل العلاقة صعبة بين السرقة وفاشكِش. . .

- وما هو هذا الأمر؟

- لأنه حين جاء فاشكِش إلى بيتي، لم يكن الرَّقّ قد وضع بعد في صندوق الحديد. كان هناك في الأعلى في الصندوق الكبير. ولم أفكر إلا بعد خمسة عشر يوماً في وضع الرَّقّ داخل الصندوق لأنهما ينتميان معاً إلى نفس الحقبة. عندما جاء فاشكِش إلى هنا، كنت قد اقتنيتُ الصندوق قبل شهر تقريباً، ولم أكن أفكر بعد في وضع الرَّقّ في داخله. . .

- هكذا إذاً، إنه لأمر مزعج، صاحَ بصوت يائس المفتش الأكبر سنّاً. كان يبدو أننا على وشك أن نكتشف كل شيء فإذا بكل شيء ينهار. . .

وسرعان ما قاطعه الدكتور كْواريشْما:

- هل جاء فاشكِش هنا إلى المتحف ليرى الأقفال فقط؟

- الأقفال فقط.

- لكن، هل رأى شيئاً آخر. هل رأى بقية المتحف؟

- لا. بالكاد ألقى عليه نظرة، بل إنه لم يخطر على بالي أن أحدّثه عن القطع الأخرى. لاحظت أن كل اهتمامه كان منصبّاً على الأقفال، ثم إنه طالما شغلنا بحديثه عن الأقفال...

- كيف ذلك؟ ألم يفحص حتى صندوق الحديد؟

- لا، بحسب ما أذكر، لم يقم بذلك، بل أؤكد لك إنه لم يفعل. لا بدَّ أنه رآه لأنه لا يخفى على العيان، لكني مستعد لأقسم بأنه لم يعره أي اهتمام أو ما يصطلح عليه كذلك بالمعنى الحصري لهذه العبارة.

* * *

وجّه الفارس سامبَّايّو لكمة إلى الطاولة.

- ها قد ذهب كل الاستدلال أدراج الرياح! صاح بين يأس وسخرية لاذعة.

وباستثناء كْواريشْما، الذي ظلَّ يتلمّس شعر لحيته، تبادلنا جميعاً نظرات مرتبكة.

الفصل الرابع

بعد أن ذهب المفتشان، يعلن كُواريشْما أنه قد حلَّ المشكلة نهائياً، وأن الجملة التي بدا أنها قد حجبت كل شيء هي بالضبط التي قدّمت له مفتاح المسألة. لكنه ترك المفتشان يغادران لأنه حين سيعرف السيد كورِّيا الحقيقة ربما لن يرغب في رفع دعوى ضدّ المجرم أو المجرمين، وهو ما استنتجه كُواريشْما من مزاجه ومن كونه يمارس هواية جمع القطع القديمة. لكن، قبل أن يتابع عرض استدلاله، فكّر أنه يدين لمستمعيه بتسلية قصيرة. (قبل أي شيء، سأل إن كان فاشكِش، حين تحدّث عن المفاتيح والأقفال القديمة، قد قال إنه يجمع القطع العتيقة؛ فأجابه جاسينتو كورِّيا أنه لا يقوم بذلك، وأنه سأله، طبعاً، حين دعاه لرؤيتها، وأن فاشكِش قال إنه لا يحب جمعها، وأنه يحب مشاهدتها: «إنني رجل عصري، رغم أنني أحب مشاهدة هذه القطع العتيقة»). يُخصَّصُ باقي الفصل للأحداث، ويتضمّن قدوم باولو فاشكِش والمشهد الذي جرى معه، ثم ينتهي بالجملة التي جعلته يسقط مغمى عليه والتي لها علاقة بالصندوق.

مكتبة الرمحي أحمد

- لنتابع، قال الدكتور كُواريشْما، كما لو أن الملاحظة غير المنتظرة لجامع القطع القديمة لم تغيّر شيئاً في الخطّ المستقيم الذي كان يسير فيه استدلالُه. ها نحن نتوفّر على واقعة أخرى. إننا نراكم شيئاً فشيئاً وقائع تغذّي استدلالنا. نعرف الآن أن بصمات المفتاح قد أُخذت قبل أن يوضع الرَّقّ في صندوق الحديد. لنرى ما هي الفرضيات الممكنة بخصوص هذه الطريقة التي تبدو مُلغَزة في علاقتها بالقضية التي نحن بصدد معالجتها.

إن الشخص الذي حصل على بصمات مفتاح المتحف لم يفعل ذلك، طبعاً، سوى بهدف الدخول عن طريق التدليس إلى المتحف نفسه. وهذا الدخول لم يكن له من هدف سوى القيام بسرقة ما. فكم من الفرضيات يمكن أن نقدِّم حول هذه السرقة؟ أو ربما تعلَّق الأمر بسرقة عامة، أي أن هدف الشخص ربما كان هو الحصول على بصمات المفتاح دون التفكير في سرقة محدّدة، بل فقط سرقة أي شيء، حين تبدو له الفرصة مواتية. أو ربما تعلَّق الأمر بسرقة خاصة، أي أن الشخص حصل على بصمات المفتاح وهو يفكر في شيء محدَّد ينوي سرقته. لنقم ببقية الاستدلال ونربط كل شيء بالواقعة التي حدثت: إما أن الشيء الذي يُخطِّط لسرقته كان هو الرَّق وإما أي شيء آخر.

- هذا عجيب... ! صاح متعجِّباً أكبر المفتشين سنّاً. ما الهدف من النقاش بما أن الجميع يعلم أن الرَّقّ هو الذي سُرق...

- إلى حدّ الآن، كل ما نعرف هو أن الاستدلال شيء لا علاقة له بما نعرف. لنتابع استدلالنا دون إقحام عناصر خارجية فيه. لنرى قليلاً ما الذي يفيده التحليل الذي قدّمتُه كما كان يجب أن يُنجز الآن.

لنفحص أولاً الفرضية القائلة بأن بصمات المفاتيح قد أخذت، في لحظة معيّنة، وبطريقة ما زالت تنتظر الكشف عنها، من أجل سرقة أي شيء، ستُحدّد بعد ذلك طبيعته. طبعاً، لا يمكن وضع هذه الخطة إلا بنية سرقة الشيء الأكثر قيمة، من الناحية المالية، يوجد هناك، ويكون الأكثر قيمة من ناحية القِدم. إننا نستبعد هذه الفرضية الأولى، لأن الشيء المسروق ليس هو أكثر الأشياء قيمة داخل المتحف، من الناحية المالية، وليس هو أسهل شيء يمكن نقله، ولا بيعه، ولا الشيء الذي قد يمرُّ اختفاؤه دون ملاحظة ذلك، لأن جوارير المتحف تحوي من القطع ما يسهل أخذها ويصغر حجمها عن حجم الرَّقّ، ولا يراها السيد كورِّيّا في أحيان كثيرة، وهي من كل الجوانب أكثر ملاءمة للسرقة من الرَّقّ. ولنفحص الفرضية من الوجه الآخر: ألم تكن الفكرة هي الحصول على المفتاح من أجل القيام، في لحظة معيّنة، بسرقة أي شيء (يُحدَّد لاحقاً) تكون قيمته كبيرة باعتباره قطعة نادرة، أي ليس من أجل بيعه، بل من أجل امتلاكه؟

* * *

فاصل مثير

ظلَّ الدكتور كْواريشْما يتلمّس لحيته، غير مكترث باندهاشنا. وأخيراً، ابتسم متوجِّهاً إلينا:

– حتى ظهور هذه الواقعة، كنت أنظر إلى هذه القضية بشكل واضح. لكن منذ أن علمتُ بهذه الواقعة. . .

– فقدتَ أثر كل شيء؟ قاطعه الفارس.

– كلاّ: حللتُ المشكلة تماماً.

مكتبة الرمحي أحمد

وبينما كنا ننظر إليه منذهلين، أضاف، وهو يهز كتفيه بشكل خفيف:

- في النهاية، هذه قضية من أسهل ما نصادفه. أكيد، كالعالدة، أن استدلالي كان يسير في الطريق الصحيح. لكنه لم يكن يسير بسرعة. لكن، مع هذه الواقعة تحت نصب عينيه، قفز بخطى حثيثة نحو الهدف... وأخيراً سنقوم بإتمام برهنتنا... لا، انتظروا قليلاً... إنكم قد بقيتم تنصتون بانتباه كبير إلى رتابة استدلالي حتى إنكم تستحقون أن أقطعها بشيء مثير. لنتصل هاتفياً بمحل القفالة الذي يملكه السيد فاشكِش، من أجل أي شيء، ونطلب منه، باسم السيد جاسينتو كورِّيا كي يأتي إلى هنا ليفحص قفلاً قديماً، ومهماً للغاية، اقتناه السيد كورِّيا مؤخّراً... هناك في دليل الهاتف لا بدَّ أن نجدَ اسم المحل ورقم الهاتف...

سحبتُ الدليل من الرف وبحثت عن الرقم.

- ها قد وجدته... اسم الرجل باولو فاشكِش والمحل يُدعى قفالة «مينيرفا». رقم الهاتف هو...

- حسناً؛ لو سمحتَ، سيد كورِّيا، أطلب منك أن تتصل باسمه بالطريقة التي شرحتها. أؤكد لك (قاطعه كُواريشْما وهو يرد على حركة من هاوي جمع القطع القديمة) أن القيام بهذا لا ينطوي على أي خطر فحسب، بل أكثر من ذلك، إنه بالإضافة إلى أن المشهد سيكون مثيراً، فإن حضور السيد باولو فاشكِش ضروري جداً لما ستراه لاحقاً.

اتصلتُ، وجاء الشخص الذي كنا نبحث عنه ليردَّ بنفسه على الهاتف. وقمتُ، باسم السيد كورِّيا، بتقديم الطلب وفق التعليمات. تعهّد القفّال بالحضور حالاً. شكرته، وضعت السماعة، وانتظرنا.

من جهتي، أعترف أنني لم أكن أنتظر تماماً شيئاً كان يبدو لي غامضاً وقد استعصت رموزهُ على الفكّ.

وبعد أن كفَّ عن الاهتمام بسيجاره، أشار كْواريشْما:

- سوف ننتظره هنا في المتحف. بعد أن تتحدثَ معه، ستُقدمني إليه، سيد كورِّيّا، وستخبره، في النهاية، أنك لا تطلب استشارته بخصوص قفل من الأقفال، بل بخصوص قضية أريد أن أتحدث أنا معه فيها. بعد ذلك، لا تقل أي شيء آخر: دعني أتكلم، وأطلب منكم جميعاً، أيها السادة، ألّا تبدون اندهاشكم لما سأقول، وهو غير منتظر بالنسبة إلى كل واحد منّا، وربما لا تفسير له. وستكون البقية هي تتمة استدلالي الذي قطعته لأقدِّم لكم هذه التسلية.

نهضنا، وذهبنا إلى المتحف. وسط تلك القاعة التي تعجُّ بالتحف النادرة، ظلَّ كْواريشْما غير مكترث، بالكاد ينظر عبر إحدى النوافذ إلى شيء لا وجود له في الفناء. كنا جميعاً -كنت أشعر بذلك- نتحرّق لنسأله عن شيء ما، لكن داخل كل واحد منا كان يتلوّى هذا الاندفاع بتردُّد غامض، يكبحه.

وأخيراً، أعلن الخادم عن قدوم القفّال. فدخل بعد بضع ثوان. كان رجلاً طويلاً، حسن المظهر، عليه ملامح الذكاء واللطف. ربما يعود ذلك إلى ما تلقيتُه من إيحاءات، لكن بدا أن قلقاً غامضاً يعلو وجهه.

تحدّث مع صاحب البيت، وقدّمه السيد كورِّيّا مباشرة إلى الدكتور كْواريشْما، مع ما يرافق ذلك من شرح طلب منه هذا الأخير أن يقدّمه.

صافح الدكتور كْواريشْما بحرارة القفّالَ، الذي علا الانشغال محّياه، نظراً إلى غرابة ما أُخبر به.

- أنا منشرح للقائك. سيد فاشكِش، إنك الشخص الوحيد، الوحيد تماماً، الذي بإمكانه أن يقدِّم جواباً لهذه القضية. قل لي، ودّياً، شيئاً ما: ذلك الرَّقّ هو الذي أفسد كل شيء، أليس كذلك؟

شحب القفّال تماماً. حاول الكلام، لكن ابتسامة كُواريشْما اللطيفة كانت شيطانية تماماً بالنسبة إلى شخص يضايقه سؤال مهما كانت قيمته (لأنني لم أكن لحظتها أفهم شيئاً). كان، طبعاً، سؤالاً فظيعاً بالنسبة إلى من طُرح عليه.

- أي رَقّ؟ تمتم فاشكِش، أخيراً.

- هيا، هيا، لا داعي للمزاح. ألا ترى أننا قد كشفنا كل شيء؟

تقدَّم القفّال خطوة نحو الأمام، وانتقل من الشحوب إلى البياض، وإن لم أسنده بسرعة لسقط على الأرض مثل كتلة.

الفصل الخامس

الاستدلالات النهائية للدكتور أبيليو كْواريشْما.

وبينما كنا جميعاً جالسين في مكتب السيد كورِّيا، تابع الدكتور كْواريشْما مُحاجّته، بعد أن قام، موجِّهاً كلامه إلى فاشكِش، بتكرار مختصر لمُحاجّته السابقة، التي قادته إلى إحضار فاشكِش إلى هنا، وحلِّ القسم الأول من المسألة جزئياً. أثناء كل ذلك الوقت، كان تلهُّفي، وتلهُّف السيد كورِّيا، بالطبع أيضاً، كبيراً، لأنه، مهما بدا هذا الأمر بليداً، لم أكن أفهم بوضوح طبيعة حلّ المشكلة.

وبعد الانتهاء من تقديم خلاصته، تابع الدكتور كْواريشْما:

- من أجل القيام باستدلال جيد، ننطلق من واقعة بيَّن تحليلُنا أنها غير قابلة للجدل إطلاقاً، ومنها نستنتج ما أتيح لنا من الاستنتاجات. ومع توالي استخلاصها، تقوم الاستنتاجات شيئاً فشيئاً بإلقاء الضوء على وقائع أخرى، أو توضِّح نقاطاً لا تزال مظلمة؛ وهكذا، وهو يتوفر على معطيات جديدة، يوسِّع المستدل تدريجياً قاعدة عملياته، ويقترب رويداً رويداً من حلّ المسألة.

لقد رأيتم، مثلاً، أنه بتوصلنا إلى ملاحظة أن باب المتحف قد فُتح بالضرورة بواسطة مفتاح مزوَّر، صُنع انطلاقاً من المفتاح الذي يحمله معه السيد كورِّيا، وأنه حصل على هذا المفتاح بوسائل

دبلوماسية، تمكنتُ من أن أثبت دون جدال أن السيد باولو فاشكِش هو من أخذ هنا بصمات المفتاح، في الظروف التي ساعد استدلالي ذاكرةَ السيد كورِّيّا على استحضارها.

وباستحضارها، ظهرت واقعتان أخريان، اللتان، كما سترون، سوف أستعملهما مستقبلاً في سير استدلالي. وهما واقعتان: أن السيد فاشكِش لم يقترب من الصندوق أثناء تواجده بالمتحف، بل إنه لم ينظر إليه؛ وأن السيد فاشكِش لم يكن من هواة جمع الأقفال القديمة، بل ربما لا يهوى جمع أي شيء.

قد يبدو لكم من الغريب أن أعتبر هذا الأمر الأخير واقعة، في حين أنه لا يستند سوى إلى جواب قدّمه السيد فاشكِش إلى السيد كورِّيّا، وهو جواب قد يكون كاذباً، لكن لدي أسباب لأسلّم بهذه الواقعة. أولاً، لو كان السيد فاشكِش هاوياً من هواة الجمع، لكان يهوى جمع ما له علاقة بفنّه، ولو كان كذلك فعلاً لمارس هوايته بنوع من الموهبة والكفاءة. وفي هذه الحالة، لكان السيد كورِّيّا، وهو رجل ذكي ومن أقدم هواة جمع القطع، سيعرفه حتماً، من اسمه على الأقل، بصفته واحداً من هواة الجمع. ثم إنه لو كان السيد فاشكِش هاوياً من هواة جمع الأقفال، مثلاً، لا شيء أكثر بداهة من أن يقول إنه كذلك كي يدخل إلى المتحف، لأن هذا لا يمثِّل أي خطر، لا بالنسبة إليه ولا بالنسبة إلى نواياه، إن هو قاله، وقد يكون ولوجه إلى المتحف أكثر يسراً مما قد يكون عليه الحال إن هو أبدى اهتماماً تقنياً فقط كما فعل، وهو ما سمح له بالدخول إلى هنا. أضف إلى هذا السمعة الطيبة، والمستحقة بنظري، التي يتمتع بها السيد فاشكِش بصفته فنّاناً من عصره، والتي تنمُّ عن عقلية تختلف تماماً عن عقلية شخص من هواة الجمع، وخصوصاً فيما يتعلّق بالفن

المذكور، ولدينا ما يكفي ويزيد من الأسباب كي نقبل فوراً أن السيد فاشكِش ليس من هواة جمع الأقفال، أو أي شيء آخر.

إن كنتُ قد أخذت وقتاً طويلاً لتوضيح نقطة جد صغيرة من مُحاجّتي، فلأنني لا أريدكم أن تظنوا أنني أُكَوِّن فكرة عن أي مسألة، مهما كانت صغيرة، دون أن أخضعها لتحليل دقيق ويقظ، مع اللجوء إلى فحص سريع أو إلى ما يطلق عليه من لا يقدرون على التفكير اسم الحدس.

ما حدث هو أن هاتين الواقعتين انضافتا إلى تلك الوقائع التي أثبتها استدلالي. لنرى الآن ما هي الاستنتاجات التي يمكن أن نصل إليها بتوفرنا على هذه المعطيات. لنستبعد هاتين الواقعتين الجديدتين المحصّل عليهما، حتى تصبحا دقيقتين، ولنتابع الخطّ المستقيم لاستدلالنا.

لقد أخذ السيد باولو فاشكِش بصمات المفتاح من قفّالة مينيرفا. حسناً. ماذا كان الهدف من أخذ تلك البصمات؟ هناك ثلاث احتمالات: إما ليختلس (هو أو غيره) من المتحف شيئاً عند أي فرصة متاحة؛ وإما ليختلس، ليس أي شيء، بل شيئاً محدّداً؛ وإما لهدف هو تركيب من الهدفين السابقين، كأن يقوم، مثلاً، بأخذ البصمات فقط ليختلس عند أي فرصة متاحة شيئاً من المتحف، لكن بعد ذلك تظهر الحاجة الإضافية إلى اختلاس شيء محدّد من هناك.

لنفحص الآن الفرضيات الثلاث، واحدة واحدة. لنرى، أولاً، إن كانت البصمات قد أُخذت فقط بهدف امتلاك مفتاح باب المتحف، والقيام، بعد ذلك، باختلاس شيء لم تحدَّد طبيعته بعد. وبما أن السرقة هي، قطعاً، الهدف الذي تمَّ من أجله أخذ البصمات، فإن هذه السرقة قد تكون سرقة خاصة، وقد يكون منفّذها

مكتبة الرمحي أحمد

هو من أخذ البصمات، أو العصابة التي ينتمي إليها، أو قد تكون سرقة من أجل جمع القطع وليس لأهداف مالية -في هذه الحالة يكون هاوي الجمع هو نفسه من أخذ البصمات، أو يكون أحد ما قد كلّفه بهذه المهمة، بأخذ بصمات المفتاح. لكن فرص القيام بالسرقة في المتحف ليست كثيرة- لأنه رغم أن أخذ بصمات المفتاح يُعتبر خطوة كبيرة، فإنه يبقى الحصول على من يصل إلى المتحف، ليسرق، وهذا ليس بالأمر الهين إذ يبدو من الطبيعي، بعد الدخول إلى المتحف لأول مرة، أن نأخذ معنا شيئاً ما (على الأقل أشياء صغيرة وذات قيمة توجد في الجوارير) بالإضافة إلى الرَّقّ الذي كان في الصندوق. لأنه لا يعقل أن يقوم السارق في أول اقتحام باختلاس الرَّقّ فقط، في حين كان من السهل أن يأخذ، وهو يقوم بنفس المجازفة، عدة أشياء أخرى صغيرة. إذاً، لم يكن الهدف من أخذ البصمات هو السرقة دون تحديد شيء معيّن من أجل القيام بسرقة خالصة. فهل كان ذلك من أجل إكمال مجموعة من القطع؟ في هذه الحالة، إما أن هاوي الجمع هو نفسه من أخذ البصمات، وإما يكون شخصاً آخر. إننا نعرف مسبقاً أن من أخذ البصمات ليس من هواة جمع القطع؛ لكن لنسلِّم أنه خطّط للسرقة من أجل هذا الهدف. في هذه الحالة، سيتعلق الأمر بسرقة شيء محدد، وهو ما ليس وارداً في هذه الفرضية. فهل تكون السرقة المخطَّط لها، إذاً، ربما لاختلاس شيء محدَّد لحساب شخص آخر، قد يكون من هواة جمع القطع؟ كي يكون الشيء غير محدَّد، لا بدَّ أن يكون هاوي جمع القطع هذا الذي كَلّف شخصاً آخر بالسرقة ممن يجمعون أشياء كثيرة، وفي هذه الحالة، التي يصعب فهمها بالنسبة إلى قضيتنا، قد لا تكون نيته بالطبع أن ينقل المتحف إلى بيته قطعة قطعة. أما

الفرضية الثالثة فتنهار من الأساس، ومعها تنهار أيضاً فرضية أن من أخذَ البصمات لم يكن ينوي سرقة شيء محدَّد وصريح أو عدة أشياء، عندما أخذ بصمات المفتاح.

لنرى الآن الفرضية الثالثة. هل تكون بصمات المفتاح قد أُخذت، فعلاً، لهذا الغرض، أو فقط لغرض التخطيط في أي مناسبة وبكل اطمئنان لسرقة ما، ثم بعد ذلك يظهر شخص ما يريد شيئاً معيّناً؟ كيف كان هذا الشخص يعلم أن البصمات قد أُخذت، ومن أخذها؟ لو أنه كلّف شخصاً آخر بأخذ البصمات سنسقط في الفرضية الفرعية الثالثة للفرضية السابقة التي سبق أن ضحدناها. لو أنه لو لم يكلفه بالقيام بذلك، سنسقط في الفرضية التي تقول إنه قد تلقّى اقتراحاً بارتكاب السرقة المذكورة، وسنجد أنفسنا في هذه الحالة أمام الفرضية الفرعية للفرضية السابقة التي تمَّ تفنيدها أيضاً. لو أن الحاجة إلى إخراج الشيء المعني من المتحف ظهرت لمن أخذ البصمات دون تكليف حقيقي ولا بيع ممكن سنحصل على الفرضية التي تفيد أن البصمات قد أخذت دون هدف محدَّد، وسنجد أنفسنا أمام نفس الفرضية السابقة، التي استبعدناها من قبل.

ستبقى لدينا كفرضية مقبولة وقائمة، فرضية أن البصمات قد أُخذت بنية كان القصد منها إخراج شيء محدَّد من المتحف وفي لحظة معيّنة. ورغم أن هذا الاستنتاج هو الذي توصّلنا إليه بالقيام بإقصاء الاستنتاجات الأخرى، هناك من الوقائع ما تشهد متفرقة لصالح هذه الفرضية. مثلاً: الطريقة الدقيقة التي تمَّ بها التخطيط لأخذ البصمات.

علينا أن نعرف الآن ما هو الشيء الذي كان يُقصد إخراجه من المتحف. ثمة ثلاثة ظروف يمكنها أن تقرّبنا من تحديده. أولاً،

مكتبة الرمحي أحمد

هناك المناسبة التي أُخذت فيها البصمات: إذا كان هناك من شيء دخل إلى المتحف منذ وقت أقل من أي شيء آخر، فمن المحتمل جداً أن يكون هذا الشيء قبل غيره هو موضوع السرقة. ثانياً، هناك شخصية من أخذ البصمات: من بين الأشياء التي تتواجد بالمتحف من المحتمل أن يكون هذا الشيء هو الأقرب لربط علاقة بين شخصية السيد فاشكِش والشيء الذي يجب أن يُسرق. ثالثاً: يجب فحص تصرُّف السيد فاشكِش داخل المتحف: صحيح أنه كان يجب عليه أن يتخذ أقصى ما يمكن من الاحتياطات لتفادي شكوك ممكنة لاحقاً، حين تُرتكب السرقة، ولذلك فقد كان عليه أن ينظر أقل ما يمكن إلى الشيء المقصود، لذا فإن الاحتمال يقع على شيء لم يكن قد نظر إليه. ولو كان طبيعياً أن ينظر إلى هذا الشيء، فإن الاحتمال قد يزداد.

أسمّي هذه الفرضيات فرضيات المحاولة، لأننا بطرحها نقوم بمحاولة لمقاربة القضية. ولا ألجأ إلى هذه المحاولات، التي لا تشكل مع ذلك عدم انضباط في الاستدلال، إلا عندما أكون قد قطعت أشواطاً كبيرة في فهم الوقائع الأساسية لمسألة ما. حسناً. لنتابع...

أعرض عليكم ما لدينا. فيما يتعلق بالمناسبة: شيء، صندوق حديدي، دخل قبل وقت قريب، قبل شهر، إلى المتحف. أما بخصوص علاقة شخصية السيد فاشكِش بالشيء: ناهيك عن الأقفال، فصندوق حديدي يشكِّل تحفة تثير إعجاب أي قَفّال، وهو الأقرب إلى شخصيته الحِرَفيّة من أي شيء آخر. أما فيما يتعلق بتصرُّفه داخل المتحف: إذا كان من الطبيعي أن يقترب من هذا العمل الذي ينتمي إلى حِرفته، وإذا كان يستحيل إطلاقاً ألا يراه،

لكثرة ما كان بادياً للعيان، فالواقع أنه لم يقترب قط من الصندوق، ولم تصدر عنه حركة تفيد أنه رآه. يمكن أن نستنتج من هذا، بالطبع، أن الصندوق هو الشيء الذي كان مقصوداً بفعل سرقته، لأن فرضيات المحاولة، كل واحدة على حدة، ليس لها وزن كبير، لكن الأمر يختلف حين يكون لها وقع تراكمي، عندما تَنْظُرُ كلها، بعضها بشكل صارخ (مثل الفرضية الأولى والثالثة، لأن الثانية أكثر غموضاً)، في نفس الاتجاه.

رمى الدكتور كْواريشْما عقب السيجار، سحب آخر من جيبه وأشعله. كنتُ أنا والسيد كورِّيّا ننظر باندهاش إلى هذه المُحاجّة غير المنتظرة، والتي كانت، مع ذلك، تصير مفهومة نظراً إلى الوقائع التي حدثت للتو، ونظراً إلى الملاحظة الباسمة التي جعلت فاشكِش يُغمى عليه.

تأكد الدكتور كْواريشْما من أن السيجار كان على ما يرام، ثم تابع:

– ماذا كان الهدف من سرقة الصندوق؟ واحد من شيئَين: إما لبيعه، وإما للاحتفاظ به. إن كان للاحتفاظ به، فإن من يقوم بذلك إما يكون السيد فاشكِش نفسه، وإما الشخص الذي كلّفه بمهمة أخذ بصمات المفتاح.

لبيعه؟ كان بيعُه أمراً في غاية الخطورة، إلا إذا تقدَّم لشرائه مقتنٍ مضمون، وهو ما قد يقتضي في هذه الحالة توفر لجنة لهذا الغرض. للاحتفاظ به، إذاً. من طرف من أخذ البصمات نفسه؟ إنه ليس من هواة جمع القطع، وليس من الطبيعي أن يبدأ هوايته بهذه

مكتبة الرمحي أحمد

الطريقة. إذاً، لا بدَّ أن سرقة الصندوق نفِّذت لصالح شخص ثالث، ولا بدَّ أن هذا الشخص سيشتريه وفق تلك الشروط، أو أن الخطة قد وضعها هذا الشخص، وأخذُ البصمات كان مهمة سهلة التنفيذ.

فأي نوع من الأشخاص كان هذا الشخص، وبمن يتعلق الأمر؟ شخص كان يريد الحصول على الصندوق لبيعه (مع إمكانية القيام بذلك في بلد آخر، أو بشيء من السهولة الخاصة)، أو شخص كان يريد الحصول عليه للاحتفاظ به. وأمام استحالة استبعاد كلتا الفرضيتين (لأن الأولى أصبح من الصعب استبعادها الآن، ما دمنا قد سلّمنا بتوفر هذا الشخص المجهول على سهولة لبيع الصندوق)، نختار منهما الفرضية الأكثر احتمالاً. إن الفرضية الثانية، من دون شكّ، هي الأكثر احتمالاً، لأن الأولى، رغم أنها ليست مستحيلة الآن، تظلُّ أقل احتمالاً. فأي نوع من الأشخاص هذا الذي أراد أن يحتفظ بالصندوق؟ واحد من شيئين: فإما أن يكون من هواة جمع القطع، وإما شخصاً من هواة الجمع، أو لا هذا لا يهم كثيراً الآن، ربما كان الصندوق مرة في ملكه. فهل ثمة واقعة إيجابية تجعلنا نميل نحو أي واحدة من هاتين الفرضيتين؟ ثمة واقعة واحدة: الصعوبة الكبيرة التي لاقاها السيد كورِّيا في اقتناء الصندوق من السيد ألفالاد، والثمن الباهض الذي دفعه من أجله، وأنه رغم الوضعية الصعبة التي كان يمر بها، أبدى بائع الصندوق اشمئزازاً من أن ينفصل عن صندوق تملكه أسرته منذ وقت قديم، وكان، خصوصاً، يشعر تجاهه بتقدير عاطفي كبير.

كل شيء يحمل على الاعتقاد بأن السرقة قد تمّت بتكليف من السيد ألفالاد. إذا ما توفر ظرف آخر يقربها من السرقة، يمكن اعتبار هذه الواقعة ثابتة، ما دام الاستدلال يقودنا إليها. والحال أن هناك

واقعة تثبت وجود علاقة ممكنة بين السرقة والسيد ألفالاد، وهي واقعة لا أهمية لها في حدّ ذاتها، لولا هذه العلاقة الثابتة بين السرقة والسيد ألفالاد.

إن الشاب، خليل الخادمة، الذي ألقت عليه الشرطة القبض ثم أخلت سبيله بعد ذلك بسبب السرقة، تتوفر فيه، حقاً، كل الشروط الضرورية ليكون هو من قام بها؛ لأن الشرطة لم تتأخر في إلقاء القبض عليه. قصةُ حبّه العابر التي امتدت خلال فترة ارتكاب السرقة، تَوَفُّره على مال في الفترة الأخيرة، عودتُه مباشرة إلى مسقط رأسه؛ كل هذا يجعله مشبوهاً، على الأقل. عدم تَوَفُّره على سوابق، جزئياً، تصرُّفُه المضطرب في قسم الشرطة، ومزاجُه كلها أشياء لا تجعل منه بالضرورة لصّاً، على الأقل ليس من نوع اللصوص المحترفين، رغم أنها لا توحي كذلك بشخص ذي مبادئ أخلاقية. إن هو سرق، ولم يكن مدفوعاً بالحاجة، فقد كان تحت الضغط، تحت أوامر شخص استخدمه للحصول على ما كان يرغب فيه.

كل شيء يحملنا على الاعتقاد بأن السرقة ربما تمّت بتكليف من السيد ألفالاد. إن أدنى علاقة يمكن أن نثبتها -مهما كانت صغيرة- بينه وبين هذا الشاب سرعان ما تتخذ أهمية خاصة. وهناك علاقة أثير اهتمامكم إليها. كلاهما ينحدران من فيلا دو كوندي، كما تعرفون من تحرّيات الشرطة. وهذه صدفة مثيرة جداً للشكّ. وفي هذه الظروف، في هذه النقطة من الاستدلال الذي نقوم به، لم يعد هذا صدفة، إنه دليل قاطع.

- لكني لم أفهم شيئاً بعد! صاح السيد كورِّيا.

- انتظر: سوف تفهم. لن يطول انتظارك... نعرف أن السيد كارلوش ألفالاد يريد أن يسترجع الصندوق الذي باعه إياك، سيد

مكتبة الرمحي أحمد

كورِّيا. يتوفر، بواسطة أصدقاء أو معارف، على الوسائل للحصول على المفتاح لفتح باب متحفك، والوسائل التي تمكّنه من أن يسرق أحد ما الصندوق لصالحه. وما يثبت أنه يتوفر على هذه الوسائل هو أنها كان يملكها.

حسناً. لكن سرقة الصندوق قد تكون أمراً يثير الشبهات فوراً. إن سرقة الصندوق لوحده، دون سرقة أي شيء آخر، قد يدفع إلى التفكير في شخص يريد الحصول على الصندوق وليس على أي شيء آخر سواه؛ وهو ليس لصّاً عادياً، إذاً، بل شخصاً وضع الصندوق نصب عينيه. وبما أننا نعرف الحب الذي كان يكنّه ألفالاد للصندوق، فإن أبلد رجال الشرطة كان بإمكانهم ربط علاقة بين هذا وذاك. طبعاً، كانت الطريقة الوحيدة لتنفيذ سرقة دون إثارة الشبهة تتمثل في تكليف شخص، من ورشة ذات كفاءة، بصنع صندوق حديدي يقلد الصندوق الأصلي إلى أكبر حدّ، ويكون التقليد جد كامل لدرجة أنه لو فحصه الخبراء لأدركوا أنه تقليد لكن نظرة عابرة لن تفطن للأمر، ومن الأكيد أنك لم تنتبه إلى ذلك، وكنتَ على يقين من أصالة الصندوق، لأنك تأكدت منها حين اقتنيته.

بوصولنا إلى هذه النقطة، يمكننا أن نربط علاقة بين واقعتَين: إن الرجل الذي أخذ بصمات المفتاح هو صاحب أكبر وأشهر محل قِفالة في البلد.

متى تمَّ تقليد الصندوق؟ بما أن المقلِّد يحتاج إلى حضور الصندوق باستمرار كي لا يترك أدنى تفصيل دون تقليده، فإنه من البديهي أن التقليد لم يُنجز بعد دخولِ الصندوق إلى المتحف، حتى بعد القيام بزيارات متعدِّدة، يستحيل القيام بها كذلك، بل إن ذلك قد تمَّ قبل وصول الصندوق إلى المتحف، أي قبل بيعه؛ وهذا يعني أنه

بيعَ بنيّة إبداله بعد ذلك. وبخصوص هذه النقطة، توصّلتُ إلى تأكيد هذا الافتراض الأكثر من محتمل لأنه بين اللحظة التي عزمتَ فيها على أن تشتري الصندوق واللحظة التي قبلَ فيها ألفالاد أن يبيعه إياك مرّت عدة شهور، كما علمت وأنا أطلع على الملاحظات التي تتوفر عليها الشرطة. وهو وقت كافٍ للقيام بتقليد أُنجز بعناية فائقة، بما أنه قد توفَّر فنانٌ مقتدر لإنجازه.

فهل وقع هذا الإبدال؟ كان بإمكاني أن أطلب من أحدهم أن يتأكد من أصالة الصندوق، وقُضي الأمر. لكني فضّلتُ الاستدلال على الفعل، والحقيقة أنه بواسطة الاستدلال أكتشف، عاجلاً أم آجلاً، كل ما أريد أن أكتشفه.

هناك واقعة تُثبت الإبدال: لا بدَّ أنك تذكر أنه من الأشياء التي نعرفها عن الشاب الذي -كما تعرف الآن- نفّذ السرقة أنه ليلة كان هنا في بيتك دخل وهو يحمل رزمة كبيرة شيئاً ما، ثم خرج وهو يحمل نفس الرزمة. لا شيء أكثر إثارة للشبهة من هذا الأمر (خصوصاً إذا تعلّق الأمر بسرقة وثيقة مخطوطة) ولا شيء أكثر إقناعاً منه وقد وصلنا إلى هذه النقطة. فبديهي، للتو، أن الرزمة الأولى كانت هي الصندوق المزيّف، وكانت الثانية هي الصندوق الحقيقي، بعد سرقته.

وهذا هو حلّ المسألة، الذي ما كان ليظهر، وما كنت لتحتفظ بالصندوق لو لم تحدث تلك الظرفية التي لم يكن لا ألفالاد ولا أي شخص غريب بقادر على توقعها، طبعاً، والتي تكمن في أنك وضعتَ في صندوق الحديد رَقّاً كنتَ دائماً تبحث فيه وتطالعه. لقد سُرقَ الرَّقّ لأنه كان في الصندوق الذي سُرقَ. وأنت جد محظوظ، سيد كورِّيّا، لأنك كنت تتوفر على هذا الجزئية الدقيقة التي أفشلت

مكتبة الرمحي أحمد

واحدة من أروع محاولات السرقة التي عرفتُها. . . فهل كنتُ واضحاً في كلامي، سيد باولو فاشكِش؟

- كل شيء صحيح، قال القَفّال.

- Quod erat demonstratum[1]، قال كُواريشْما ليختم كلامه، وهو يُسقط رماد السيجار على مُقَدّم قميصه.

(1) يتحدث كُواريشْما هنا باللغة اللاتينية لإبداء إعجابه بمنطق الاستدلال؛ وتعني هذه العبارة «هذا ما كان يجب أن نبرهن عليه». (المترجم)

Tale X[1] / موت دون جواو

(1) مارسَ فرناندو بيسوا أيضاً كتابة القصة باللغة الإنجليزية. لذا يستعمل هنا مصطلح Tale، بمعنى الحكاية أو القصة. (المترجم)

مكتبة الرمحي أحمد

[1 - بداية]

فجأة دوى في صمت الليل صوت زجاج يتشظّى. رأت الجماعة -شابان وثلاث فتيات- التي كانت تنعطف عند زاوية الشارع شرطي الدورية وهو ينظر بتركيز إلى نافذة في الطابق الأول لبيت منعزل، من طابقين، كان الثاني منهما غائراً. والنافذة كانت واحدة من نافذتَين مضاءتَين ومتتابعتَين. وكان يُرى بكل وضوح زجاج مكسّر على تلك النافذة التي رُفع ستارُها. تقدّم القائد بتثاقل نحو البيت، الذي كان هو الثاني انطلاقاً من زاوية الشارع.

- إيه، أيها القائد، ماذا وقع؟ سأل أحد الشابَّين بلا تكلُّف.

- لا أعرف، أجاب القائد. لقد كسرَ أحدهم الزجاج، لكن من الداخل: رمى شيئاً هنا نحو الخارج. كان ثمة صوت زجاج يتشظّى، ويبدو لي أنني سمعتُ شيئاً يسقط، أظن أنه كان ثقيلاً نظراً إلى الدوي الذي أحدثه. كان قوياً نوعاً ما... ولم يأتِ أحد إلى النافذة ليرى ذلك.

توقفت جماعة الخمسة، محترسين. استأنف القائد اتجاهه، وتقدّم نحو البيت. تبعه أفراد الجماعة مترصدين.

بلغ الشرطي شبّاك الحديد، وضع يده وفتح، ثم تقدّم نحو باب البيت، الذي كان على بعد بضع خطوات. بحث عن الجرس، ضغط، وانتظر. لم يجب أحد. خبط الشرطي الباب بيده. خبط مرة ثانية. وخبط مرة أخرى. ثم ضغط عدة مرات على الجرس.

توقفت جماعة المتنزّهين الليليين أمام شبّاك الحديد.

- هذا يبدو لي غريباً، شرح الشرطي وهو يلتفت إليهم.

- نعم، إنه فعلاً كذلك، قالت إحدى الفتيات.

- ألا يجيب أحد؟ سألت أخرى.

- يبدو أنه لا يجيب أحد، قال أحد الشابَّين.

ضغط الشرطي مطوّلاً على الجرس، حتى أن من كانوا قرب شبّاك الحديد كانوا يسمعون رنينه مطوّلاً داخل البيت.

- صه، ألا يوجد أي أحد؟ قال أحد الشابَّين.

- ربما خجلوا من كل هذا الصخب. (وراحت الفتاة التي تكلمت تضحك من لا شيء).

[. . .]

ولجَ أحد الشابَّين، ربما أكثرهما جرأة أو سُكراً، إلى داخل الحديقة، وربما بواسطة تلك الغريزة التي تميّز السكارى، نبش الأرض، قرب الشبّاك الذي يفصل المنزل عن الشارع. فجأة، صاح متعجِّباً:

- آه، يا صديقي، انظر هنا! سيدي الشرطي، ها هو ذلك الشيء الذي كسّر النافذة!

رفع، بشيء من الحذر، شيئاً ما تحت الشجيرات الكثيفة قرب شبّاك الحديد الفاصل. اقتربوا جميعاً، ولم يكن يظهر، في البداية، لما كانت عليه وجوههم، أن أحدهم قد فهم، في الظلام، ما هو الشيء الذي كان يرفعه المُكتشف. . .

لكن، حين اقتربوا، كان ما يكفي من الضوء ليتمكنوا من رؤيته، فاندهشوا جميعاً.

- يا للمفاجاة، قال الشرطي. إنه جهاز هاتف!

وكان، بالفعل، جهاز هاتف كامل، هاتف مكتب، ويُرى مباشرة الخيط المقطوع الذي جعل منه شيئاً معزولاً.

لمدة معيّنة من الوقت ظلَّ الأشخاص الستة ينظرون إلى بعضهم البعض. ثم، كأنما اتفقوا، نظروا جميعاً إلى النافذة.

حينئذ، تقدّم الشرطي بحزم نحو الباب مرة أخرى. خبط، خبط، ثم خبط، بصوت صاخب، وبفظاظة. توقف عن الخبط. لم يجب أحد.

- ثمة شيء غريب هنا، قال الشرطي.

* * *

- أحسن ما يمكن القيام به هو أن نخلع الباب، قال قائد الجماعة، ثم نظر مبتسماً إلى الجسم الجبار للشرطي. تستطيع أن تخلعه؟

- سنرى، قال الشرطي وهو يرد على ابتسامته.

ثم ارتمى على الباب، الذي اهتزَّ دون أن يسقط. ثم ارتمى مرة أخرى، فكان ردّ الباب هو نفس الردّ. لكن فجأة، ثارت أعصاب الشرطي، فارتمى دفعة واحدة، كأنه قاطرة، فانفجر الباب على مستوى الأقفال كأنه خشب مصدوع. وكاد الشرطي من عنف هجومه أن يسقط على الأرض، على يديه، ليزيد من فرح الحضور.

- عجباً! كم أنت قوي! قال أحد الشابّين.

ودخل زعيمهم وراء الشرطي الذي كان يتعافى من سقطته الحميدة. التفت هذا الأخير ورفع يده.

- لا يمكنكم أن تدخلوا. لكن، ولطّف نبرة صوته، إن شئتم، يمكنكم أن تنتظروا هنا قليلاً.

[2 - نقاش حول القضية]

بدأ المفوض تافاريش عرضه بطيئاً. هيئتُه الناعسة، وصوتُه الفاتر كانا يمتازان بمنح أقواله وضوحاً بطيئاً.

- قبل أي شيء، فحصتُ الظروف التي من الممكن أن تكون الجريمة قد ارتُكبت فيها، وركزت بالخصوص على الواقعة الأكثر إثارة: قَذفُ الهاتف من النافذة. حاولت أن أُكوِّن فكرة سديدة عن الطريقة التي حدث بها كل هذا. وخلصتُ إلى النتيجة نفسها التي خلص إليها آخرون من قبل. تسلَّل القاتل إلى بيت فال، ولسبب أو لآخر قطع الهاتف؛ ظَهَرَ فال، رآهُ، أو رأى الهاتف المقطوع، فانقضَّ عليه القاتل انطلاقاً من جهة اليسار؛ أخذ فال أول شيء وقعت عليه يده، وأثقل شيء، هذا الهاتف المقطوع نفسه، فرماه على المعتدي؛ لم يصبه، فعبر الهاتف، الذي رماه الرجل بكل ما أوتي من قوة، الصالون بكامله، كسّر زجاج النافذة وسقط في الحديقة. حينئذ ارتمى القاتل على فال وهشّمه -لا أجد كلمة أخرى- على الصندوق.

كل هذا منطقي تماماً ومفهوم تماماً، ما عدا قوة القاتل الهائلة، لكن هذا ليس ما يهمني الآن. بيد أن شهادات الأشخاص، إن صحَّ التعبير، المفتش الذي كان يقوم بالدورية والمارّة الخمسة، تُناقضُ كل هذا في نقطة واحدة. كل هؤلاء الشهود يقولون إنهم توقفوا في الشارع، مباشرة بعد جلبة الزجاج المهشّم، وأنهم أصغوا بانتباه

لكنهم لم يسمعوا شيئاً آخر. والحال أن قَذفَ جسد فال على الصندوق لم يكن شيئاً لا يُحدِث أدنى صوت، خصوصاً بالليل، حيث كل شيء هادئ، حيث تكسّرت نافذة، وكان ستة أشخاص منتبهين إلى أدنى صوت. واحد منهم يقوم بذلك بحكم الواجب، والآخرون من باب الفضول.

في البداية، بدا لي جد مستبعد أن أقدِّم أي فرضية أخرى غير فرضية أن الأمور قد حدثت بهذا الشكل، فاتّجهت شكوكي الأولى نحو الشهود. تساءلتُ مع نفسي إن كان المفتش والمتنزّهون الخمسة قد قالوا الحقيقة فعلاً. فبدأت أتحرّى أي نوع من الأشخاص كان هؤلاء الشهود. وأول شخص استرعى اهتمامي كان هو الشرطي، بالطبع. مع الأسف، حصلت حالات أَخَلَّ فيها بعض رجال الشرطة بواجبهم مقابل شيء من المال.

وسرعان ما وضعت المعلومات حول الشرطي حدّاً لفرضيتي. فهذا الشاب لا يملك مصادر تزكية جيدة بل ممتازة. انخرط في سلك الشرطة منذ ستة أشهر، قضى منها أربعة في مفوضية راتو، ومنذ شهر نقلوه إلى مفوضية بيكوواش، ليس لتأديبه بل لأن شرطياً من بيكوواش كان يريد أن ينتقل إلى راتو ولم يرَ هذا الشاب أي مانع من التبادل معه. ولم يبخل مفوَّض راتو ولا مفوَّض بيكوواش بالثناء على هذا الشاب. جدّي، متيقّظ، حازم، يؤدّي كل واجباته بكل دقة وصرامة. لا شيء ضدّه في أي شيء كان. وتاريخ خدماته السابقة أحسن من هذا. انخرط في الحرب، وشارك في عدد من المعارك، وجُرِح ثلاث مرات، ووُشِّح بالصليب الحربي. ويقول الضبّاط الذين كان تحت إمرتهم -لأنني تحدثتُ مع اثنين منهم، وهما اللذان ساعداه على الانخراط في سلك الشرطة- إنه من كل وجهات النظر

مكتبة الرمحي أحمد

من أحسن الجنود الذين رأوهم: باسل، مخلص، ذكي وحازم، متفانٍ إلى أعلى درجة في أداء واجبه ولا يمكن أن يتنازل عن أدنى شيء أو لأي سبب من الأسباب يبعده من القيام بواجبه. أعترف أنني لم أكن أنتظر معلومات بهذه الدرجة من الإطراء. ولكنه حظ كبير أن تكون كذلك، لأنها سمحت لي بعد ذلك أن أرى رجلاً لا يمكن لأحد أن يشتريه، أو يثنيه عن القيام بواجبه. وسرعان ما وضعني هذا على الطريق لأتناول الجانب الحقيقي للمسألة. أما الشهود الخمسة الآخرون، فقد رأيتهم، ورغم أنهم [. . .] فقد كنتُ متأكِّداً.

وسرعان ما رأيتُ أن إعادة التمثيل الطبيعية للجريمة كانت خاطئة. وسرعان ما لاحظتُ أنه لم يحصل ذلك الصراع الذي تخيّلته، والذي ربما يكون الجميع قد يفكر فيه. لا: الجريمة وقعت من قبل؛ والهاتف الذي قُذف من النافذة، لم تقذفه الضحية دفاعاً عن نفسها، بل قذفه القاتل. غياب الضجيج، بالإضافة إلى ضجيج النافذة المهشمة وصوت سقطة الهاتف، يشير إلى ذلك بدقة كبيرة، في نظري. لكن لماذا يكون القاتل قد قام بذلك؟

حينئذ بدأتُ أفحص الظروف الخاصة جداً التي تمَّ فيها قذف الهاتف. تمَّ اختيار لحظة مرور شرطي الدورية أمام المنزل بالضبط. والحال أنه بما أن الشرطي كان يمرُّ بمحاذاة السور الأمامي، فلا بدَّ أنه كان من الممكن رؤيتُه من كل جهة الشارع حيث يقطن فال، كما أنه كان مرئياً بالنسبة إلى من يسكنون في الجهة الأخرى، حيث مرَّ، خصوصاً للبعض منهم، ممن يسكنون في الطابق السفلي. كان هناك انطباع بأن القاتل اختار بالضبط اللحظة التي سيرى فيها الشرطي يمر ليفتعل الحادث المفاجئ ويلقي بالهاتف عبر النافذة. وهذا لم يكن وراءه من هدف سوى لفتُ انتباه الشرطي.

- حسناً تافاريش، قال المدير.

- مباشرة بعد قذف الهاتف، وفي اللحظة التي كان فيها الشرطي، كما كان منتظراً، ينظر إلى النافذة المضاءة، ظَهَرَ خمسة أشخاص في زاوية أقرب شارع. لا غرابة في أن ينعطف عند زاوية الشارع خمسة أشخاص يقطنون من هذه الجهة. لكن الغريب في الأمر أن تشظّي زجاج النافذة كان بمثابة قوة دافعة جعلت هؤلاء الأشخاص الخمسة يبرزون. إنها صدفة من نوع آخر هذه المرّة، ويصعب تصديقها. أنا، يا سيدي، لم أصدِّقها.

[. . .]

* * *

رفع المفوَّض يده في إشارة يأس فكري:

- اللعنة، يا لها من فكرة، قَذفُ هاتف عبر النافذة! أن يقطعوا الربط، هذا مفهوم، أو على الأقل يمكن أن يُفهم. لكن أن يأخذوا الهاتف ويلقوا به عبر الزجاج، محدثين صخباً مروِّعاً، ما معنى هذا؟ ثم كيف خرج هذا الشخص من المنزل؟ -ثم قام المفوَّض بنفس الإشارة التي تنم عن إحباط منطقي-.

باستثاء الميت، لم يكن من أحد في المنزل، رغم أنه توجد في الطابق العلوي غرفتا نوم يبدو أنهما قد استُعملتا مؤخَّراً أو بانتظام. كانتا -كما سيتبيّن من بعد- غرفة القيّمة الغائبة تلك الليلة، وغرفة خادمة عَرَضية، صديقة القيّمة، كانت تأتي لمساعدتها من حين إلى آخر وتنام في البيت.

كانت كل النوافد مغلقة بإحكام من الداخل، بما فيها تلك التي قُذِفَ عبرها الهاتف. أما بابا البيت الآخرَين -الباب الذي يطل على

رصيف جانبي ضيق والباب المطل على الخلف، على البستان- فكانا مغلقين بالمفتاح ووُضعت عليهما المزاليج الداخلية. والمَنفَذ الوحيد الذي ربما يكون القاتل قد استعمله كان هو الباب الرئيس، والذي كان يحرسه ستة أشخاص، وهم الشرطي والمعربدون الخمسة، مباشرة بعد أن قُذف الهاتف عبر الزجاج.

ولا يمكن أن نتصور أن القاتل قد انسلَّ عبر الباب الأمامي عندما دخل المفتشان: أثناء كل هذا الوقت ظلَّ الشابان والفتيات الثلاث عند عتبة الباب.

لم يكن البيت، المعزول من كل جهة، يسمح بالخروج من السطح نحو أي وجهة؛ وحتى لو سمح بذلك، فإن الممر الوحيد للوصول إلى السطح لم يكن مفتوحاً. كان باب الطابق الأخير يؤدّي إلى سقيفة بها فُتحة باب أرضي يمكن استعمالها للوصول إلى السطح، لكنها مغلقة بدورها من الداخل.

لو كان هناك، ولو للحظة، شكّ بأن الأمر يتعلَّق بانتحار، فإن ذلك كان سيشكِّل مناسبة للاعتقاد بأن الانتحار هو الحل الوحيد. كان قذف الهاتف عبر النافذة، في حالة ما إذا كان الانتحار ممكناً، شيئاً لا أهمية له؛ وربما كان فعلاً عنيفاً وعبثياً منطقي بما يكفي كي يشكِّلُ مقدمة تسبق فعل الانتحار.

الفكرة الأولى، الفكرة الحقيقية، قد تكون هي أن الشرطي ربما هرع لطلب المساعدة، أو ربما ذهب يبحث عن شرطي آخر أو شرطيَّين آخرين، تاركاً الجماعة تحرس البيت؛ وقد يكون القاتل خرج بسهولة، والجماعة قد تقول إنه لم يغادر المنزل أحد. لكن، مهما كانت هذه الفكرة، فإن الشرطي قد تصرَّف كما يجب. بعث

أحد رجال الشرطة لطلب المساعدة وبقي هناك، مع الشابَّين والفتيات، في حديقة البيت.

وسرعان ما سنحت الفرصة. دخل الشرطيان وصعدا إلى الطابق الثاني، وتركا الجماعة -وهنا أبانا عن غبائهما- أمام الباب. ربما يكون القاتل، كما هو طبيعي، قد اختبأ في الطابق الأرضي من البيت؛ وعندما صعد المفتشان إلى الطابق الأول، خرج إلى الشارع واختفى.

إن لم يكن ذلك قد وقع بهذا الشكل، استنتج المفوض تافاريش، فثمة ضرب من السحر في هذا الأمر...

* * *

- آه! تأمر خمسة أشخاص لا تعرفهم ولم يسبق لك أن رأيتهم بمراقبة مخرج البناية، أليس كذلك؟

- لكن...

- والأشخاص الخمسة، ما إن دوى زجاج النافذة المهشّمة، حتى ظهروا بمعجزة عند زاوية الشارع، أليس كذلك؟

نظر العريف إلى المفوض مشدوهاً.

- حسناً، أيها العريف رييش، ألا يبدو لك أنك أحياناً في غاية الجهل؟

ظلَّ العريف متوتِّراً ومنذهلاً، ولم يدرِ ما يقوله.

- ألا ترى أن في الأمر شيء له معنى؟ ألا ترى أن تكسير النافذة قد يكون إشارة، وأن الهاتف هو أثقل شيء يمكن أن نلقي به من نافذة، بما أنه لم يكن ثمة خوف من إحداث بعض الضجيج؟

 مكتبة الرمحي أحمد

فكِّر بعض الشيء، لأن العقول خُلقت للتفكير -ثم لوّح المفوَّض مرة أخرى بالأوراق التي أضفت على عرضه مزيداً من التشدُّق-.

- على أي حال، قال العريف في محاولة دفاعية يائسة، هذا لا يفسر قوة القاتل، ولا . . .

- كف عن قول الحماقات! رجل قوي جداً شيء نادر؛ رجل يتبخّر في الهواء أمر مستحيل.

ثم توقّف المفوَّض تافاريش على الفور، جدّ متوتر.

- ألا ترى أن ما أقوله هو الأمر الأكثر احتمالاً؟ هذا الشخص قطع الهاتف حتى يمنع أي اتصال مع البيت. دخل صاحب البيت، وجده، تصارع معه ومات. حينئذ قام القاتل، وفق ما اتفق عليه مع جماعة المعربدين، بإلقاء شيء من النافذة ليحدث ضجيجاً؛ وبما أنه كان يريد أن يُحدث ضجيجاً كبيراً فقد ألقى بشيء ثقيل؛ وطبعاً ما كان ليفكر في الهاتف لو لم يكن قد قطعه، لكن، بما أنه كان مقطوعاً فقد استعمله.

- لكن، ما الغرض من ذلك؟ اعترض العريف. ألم يكن من السهل أن يخرج من الباب؟ كان الوقت ليلاً، لا أحد في الشارع، و. . .

- ويجازف بأن يراه الشرطي الذي يقوم بالدورية؟ لا، يا صديقي: بهذه الطريقة، يأتي الشرطي إلى البيت، يذهب إلى الطابق الأول، وهكذا يستطيع الرجل، الذي لم يعد أمامه سوى هؤلاء الأشخاص أمام الباب، أن يخرج حرّاً طليقاً. طبعاً، صارت القضية معقّدة حين نادى عليكما الشرطي -أنت والشرطي الآخر-، لكن الأكيد أن المناورة قد نجحت.

- كان بإمكان الرجل أن يخرج من أي واحد من البابَين الآخرَين. . .

- ويذهب إلى الشارع؟ الأمر سيان. أو أن يقفز من فوق الأسوار داخل حدائق البيوت المجاورة ويجازف بأن يقبضوا عليه أو يراه أحد قد يكون مستيقظاً؟

ثم تدخَّل مفوض آخر:

- إنك على حقّ، يا تافاريش. ثم هناك شيء آخر. . . الشخص الذي ارتكب هذه الجريمة يتمتع بقوة مدهشة. لا بدَّ أن له جسد مدهش ولا يمكن أن يمر دون أن لا يفطن إليه أحد، أي أن الناس ينتبهون إليه بل يتذكرون وجهه لأنهم انتبهوا إليه.

- صحيح، صحيح، وافقه تافاريش. وربما يكون شخصاً معروفاً [. . .] هذا جيد! هذا يقود إلى [. . .]: إنه ربّاع، قدّم عروضاً كثيرة أمام الجمهور -بل حتى في الكوليزيو- ولا بدَّ أن هناك كثيراً من الناس ممن يعرفونه.

ثم استأنف تافاريش موجّهاً كلامه للآخرين:

- لاحظوا جيداً أن النافذة قد كسرت **بالضبط** لحظة كان الشرطي الذي يقوم بدوريته يمرُّ أمام البيت، أي في أسوأ لحظة لكل ما لم يكن القصد منه إثارة انتباه، بالتحديد.

- من الذي وجد الهاتف؟ سأل المفوَّض الآخر فجأة. إنه أحد الشابَّين المذكورين، أليس كذلك؟

- نعم، نعم، قال تافاريش موافقاً. على أي حال، كان من الممكن العثور عليه بسهولة، لكن ما تقوله غريب. إنه أحد الشابَّين، بالطبع، حتى لا نضيع وقتاً. هناك شيء آخر. . . يبدو لي أنني لم أكن واضحاً قبل قليل، عندما شرحتُ اختيار الهاتف لأنه كان شيئاً

ثقيلاً. لا بدَّ أن الأمر لم يكن كذلك: لا بدَّ أن الهاتف قد استُعمل لإرغام الشرطة على الدخول إلى البيت، حتى يكون هناك تفتيش فوري. هاتف مقطوع، قُذف به عبر زجاج النافذة، هذا أمر مثير جداً للشكّ، خصوصاً حين لا يردّ أحد على دقات الجرس التي جاءت مباشرة بعد قذف الهاتف. لا بدَّ أن من قذف بالهاتف كان بالضرورة داخل البيت، مات فوراً بعد أن قذفه، وكان بالتأكيد مع القاتل.

- كيف هذا، مات مباشرة بعد ذلك؟ قاطعه المفوَّض الآخر.

قد يُسمع صوت الصراع، لكن لم يُسمع أدنى صوت قادم من داخل البيت بعد أن تحطَّمَ زجاج النافذة. ليلاً، حين يكون كل شيء هادئ، والشرطي بالقرب، أمام البيت يرصده، لا بدَّ أن صوت جسد يفوق وزنه المئة كيلوغرام يسقط، بعد أن ألقي به مثل كتلة، قد سُمع بشكل واضح، خصوصاً عبر نافذة مكسّرة. لا: هذا الشخص مات قبل ذلك، وشبع موتاً. إنك مُحِقّ تماماً يا تافاريش: لقد رُتِّبت القضية باتفاق مع جماعة الخمسة تماماً كما تقول وبالغرض الذي تقول. وكان ترتيبها جيداً لدرجة أنها نجحت. وأكثر الأشياء احتمالاً في كل هذا هو أن المجرم لا بدَّ أنه ليس فقط شخصاً يثير الانتباه -هذا أكيد- بل شخصاً معروفاً جداً.

[3 - التحقيق]

بعض النظريات الغريبة، التي برزت أثناء أحاديث كثيرة ولقيت في النهاية صدى في الصحافة، كانت لها، فيما يتعلق بظروف الجريمة، شيء ما لا يجعلها عبثية تماماً، وإن كان لا يسندها. قد يدّعي أتباع الغيب، انتصاراً لأطروحة عودة الشيطان، الاختفاء الكامل لمرتكب الجريمة لأن القوة -الفائقة لقدرة البشر، حرفياً- التي نفِّذت بها الجريمة، وما تشير إليه القضية من تدخل الأرواح لم تكن بالبشرية. بالإضافة إلى اندفاع الهاتف عبر زجاج النافذة. وقد رأى أحد أتباع الغيب من ذوي الخيال الجامح في هذا الهاتف الذي استُعمل لإجراء العديد من المكالمات الغرامية رمزاً في طريقة قذفه المشؤومة والعبثية.

وكان اللغز الرئيس، من دون شكّ، هو اختفاء المجرم... لا يمكن أن يكون قد خرج من مكان آخر غير الباب الرئيس. لكن، ومنذ قَذفِ الهاتف عبر زجاج النافذة، ركّزت الشرطة اهتمامها على المنزل، وتعزّز اهتمامها، بعد بضع ثوانٍ، باهتمام خمسة من المارة الليليين. كان ضوء الرواق، كما لوحظ، شاعلاً، وعملية فَتح الباب قد تُلاحَظ بوضوح البرق، مهما كانت السرعة التي خرج بها المجرم. وعلاوة على ذلك، من صالون الطابق الأول، حيث وقعت الجريمة، كان لا بدَّ من شيء من الوقت، ليس بكثير مع ذلك،

للنزول إلى الباب الرئيس؛ وهو وقت يفوق، بالتأكيد، اللحظة القصيرة الفاصلة بين تكسُّر الزجاج وانتباه الشرطي، والثواني القليلة الفاصلة بين هذا التكسُّر ووصول المعربدين الخمسة إلى زاوية الشارع. لو كانت ثمة طريقة ميكانيكية لإلقاء الهاتف عبر النافذة، من الخارج، يمكن أن نفهم ذلك، لكن، بالإضافة إلى أنه يستحيل تصوّر تنفيذ حيلة كهذه -والتي قد يمكن تفسيرها، على أي حال، كرغبة في اختلاق إثبات غيبة- الحقيقة أنه لم يُشاهَد أحد بمحاذاة البيت.

ويكمن السرّ الثاني في قَذفِ هاتف عبر زجاج النافذة. فمن بين كل الأشياء التي قد نسلِّم بأنها يمكن أن تُقذف عبر نافذة، ربما يكون الهاتف هو أقلها حظوة بالقبول [. . .]. والفرضية الوحيدة المحتملة أو شبه المحتملة هي كالتالي: قد يكون القتيل دخل إلى البيت، ووجد الهاتف مقطوعاً؛ هاجمه القاتل، فأخذ أول شيء ثقيل وقع تحت يديه -في هذه الحالة، الهاتف المعزول- وربما ألقى به على رأس مهاجمه؛ ربما أخطأت القذيفة هدفها وخرجت من النافذة. هذا على الأقل محتمل. ومن المؤكد أن برانكو كان رجلاً يتمتع بقوة كافية ليقذف هاتفاً، وهو شيء ليس بالخفيف، من طرف إلى آخر من صالون كبير نسبياً، خصوصاً أنه قذفه بعنف نابع عن الحقد أو الخوف.

لو أن الفرضية الأكثر احتمالاً بخصوص الهاتف كانت صحيحة، سوف يؤكد هذا بشكل كبير أن المعتدي كان ذا بنية جسمانية رهيبة. لا يلجأ أحد في حالة تعرضه لاعتداء، أو سُلب سلاحه، إلى استعمال القذائف إلا إذا شعر أنه في وضعية دونية واضحة. لقد كانت هناك، بكل تأكيد، فرضية نزاع عنيف، يمكن خلاله لشخص قوي، أو ضعيف، فَقَدَ رشده، أن يرمي بكل ما يقع

تحت يده. لكن الفرضية الأخرى كانت أكثر قبولاً، لأنها تتناسب تماماً مع القوة الجبّارة التي أبان عنها القاتل.

نقطة غامضة أخرى في المسألة وهي القوة الجسدية المدهشة والفظيعة التي ربما كان يتمتع بها القاتل. إن الطريقة السهلة والسريعة على ما يبدو التي انهزمت بها الضحية، وهو شخص قوي هوجم من الأمام، كانت مدهشة في حدّ ذاتها. وما كان أكثر دهشة هو العنف الذي أُلقي به الجسد على الصندوق. لا يمكن أن يتعلق الأمر -بحسب الأطباء الشرعيين- بمجرد سقطة، ولو كانت عنيفة، على الصندوق. لقد أُلقي الجسد على الصندوق بقوة كبيرة حتى أن الجمجمة تكسّرت مثل بيضة. لو أن الضحية سقط من الطابق الرابع فوق قبضة الصندوق، واصطدمت مؤخرة رأسه تماماً بفعل الثقل الكامل للجسد والسقطة، ما كان ليتعرض، بحسب الأطباء الشرعيين، لأضرار أكثر على مستوى الجمجمة. هكذا، فليس فقط أن رجلاً ذا قوة هائلة، وعزيمة قوية، خضع للسيطرة بسهولة مطلقة، بل إن رجلاً يزن 110 كيلوغراماً تمَّ التحكم فيه كما لو كان وزنه وزن رضيع. كأنه اندلع في هذا البيت صراع غير متساوٍ بين رياضي ووحش شرير، دهسه مثل قاطرة، مع فارق أن القاطرة لا تملك أصابع لتخنق حنجرة.

وصرّح أحد الأطباء الشرعيين أنه لا يتصور أن رجلاً -حتى لو تعلق الأمر برياضي، بمصارع- قد يملك ما يكفي من القوة الجسدية ليحصل على نتيجة بذلك الرعب.

أما فرضية وجود أكثر من معتدٍ واحد فلا تفسّر شيئاً، وهي عبثية

مكتبة الرمحي أحمد

فوق ذلك. على مستوى حنجرة الرجل، كانت فقط بصمات أصابع رجل واحد. حتى لو كان هناك خمسة رجال، لما استطاعوا أن يقذفوا الجسد على الصندوق. ناهيك عن الظرف القائل إنه لو كان اختفاء شخص واحد أمراً غامضاً، فإن اختفاء عدة أشخاص يزيد الغموض غموضاً. لكن هذه الفرضية كانت عبثية.

أصبح البحث عن القتلة المحتملين نوعاً ما سهلاً نظراً إلى ضرورة العثور على مرشّح يتمتع بمواصفات جسدية هائلة. بعد عمل ممل وصبور، تمكّن التحقيق الجنائي من أن يثبت أنه لا يوجد، من بين الأعداء المحتملين والمعروفين لبرانكو، سوى شخصَين يتمتعان بقوة جسدية غير عادية، والتي رغم أنها تبدو غير كافية لإنجاز وحشية الاعتداء، كانت، على أي حال، الأقرب إلى ما كانت تدعو إليه الحاجة. وأحد هذين الشخصَين كان هو جورج إشتيفيش، الذي كان قريباً من أن يتزوج فتاة استطاع برانكو أن يغويها، وهما في عزّ علاقة كانت تسير نحو الخطوبة. عبّر إشتيفيش في عدة مناسبات عن رغبته في ضرب برانكو. كان إشتيفيش منخرطاً في النادي الرياضي، ربّاعاً، يعدُ بأن يصبح بطلاً في المستقبل القريب. وعكس الكثير من الرجال الأقوياء جداً، كان عنيفاً وعدوانياً. أما الشخص الآخر فيدعى مانويل تافريش، وكانت أسباب تذمره من برانكو ذات طبيعة مختلفة؛ لأنه كان يشتكي من أن برانكو احتال عليه في عملية لبيع الخشب. لم يكن الاتهام يُعتبر أمراً جد محتمل، لكن احتمال الاتهام في حدّ ذاته كان دون أهمية بالنسبة إلى القضية. لم يكن مانويل تافريش يتمتع بقوة إشتيفيش الجسدية؛ كان رجلاً طويل القامة، قوياً، لكنه لم يكن يملك بنية رياضية خاصة، وليس له أدنى

ميول لممارسة الرياضة. وعلاوة على ذلك، وعكس ما يُنصحُ به الرياضيون، كان يعاقر الخمر حتى أنه يمكن اعتباره شبه مدمن. قد يكون عنفه ناتجاً عن هذا الإدمان. ما أثار انتباه المحققين إليه لم يكن فقط أنه كان رجلاً قوياً بطبيعته، بل أن لديه سوابق في المفوّضية، حين اشتبك في عراك بالشارع وأثخن ثلاثة أشخاص ضرباً حين تآلبوا ضدّه، وأبان عن عنف يلامس الجنون. وكان أيضاً يعاني من الصرع، ولا بدَّ أن في ذلك العنف شيء من الاضطراب العصبي الذي يعانيه.

هذان الشخصان، مع ذلك، لا يمكن إلا الشكّ فيهما، إن صحَّ التعبير، بطريقة مجرّدة، ومن بعيد، وفي الحقيقة يمكن الاحتراز منهما في أحسن الأحوال. فيما يتعلق بإشتيفيش، عُلم، دون الحصول على دليل أكيد تماماً، أنه كان في كَشكايش ليلة الجريمة. وتلك الليلة أيضاً، بقي مانويل تافريش في بيته؛ هذا على الأقل ما أكّدته عمته، التي كان يعيش معها، بالإضافة إلى خادمتها. كإثبات غيبة، لم يكن هذان الإثباتان كافيَين تماماً، لكن لم تكن ثمة ضدّ هذين الرجلَين إمكانية أخرى لاتِّهامهما سوى أنهما معاً يُكنّان العداء لبرانكو، وأنهما معاً قويان وعنيفان. بيد أنه، باستثناء الأسباب التي جعلت منهما عدوَّين لدودَين للميت، لم يكن لأي منهما، بحسب ما عُلم، أدنى خلاف جديد، أو أي خلاف معه مؤخّراً.

لم يكن «أ» ولا «ب» يملكان إثبات غيبة مقنع. كان «أ» يسكن في كاركافيلوش، وحده مع قيّمة على البيت، وحين استجوبوه قال إنه بقي في منزله طوال الليل، وإنه قد نام على الساعة الحادية عشرة. لكن، بما أن القيّمة كانت قد ذهبت لتنام قبل ذلك، وبما أن

مكتبة الرمحي أحمد

بيت كاركافيلوش من تلك البيوت ذات النوافذ التي تسمح للمرء بالخروج والدخول بسهولة ودون أن يراه أحد، فإن شهادتها اقتصرت على القول إن مُشَغّلها كان لا يزال مستيقظاً حين ذهبت لتضطجع وتنام، وإنه لم يستيقظ بعد في اليوم الموالي، على الساعة السابعة، حين استيقظت هي، وإنما استيقظ في الحقيقة على الساعة العاشرة، وهذا يعني أنه نام جيداً، وهو أمر عادي عند الرياضيين. إذاً إثبات الغيبة لم يكن أمراً مثبتاً. أكيد أنه لم يكن ثمة دليل ضدّه: لم يرَ أحد «أ» يغادر كاركافيلوش تلك الليلة أو يعود عند الفجر أو في الصباح، ولم يظهر أحد ليقول إنه قد رآه أو تعرّفه في لشبونة. وبما أنه، مع ذلك، قد يتّخذ من ينوي القيام بجريمة كهذه كل الاحتياطات بالضرورة، وبما أن السيارة هي وسيلة أخرى من وسائل النقل («أ» يستطيع قيادة سيارة)، تستطيع، عكس القطار، نقله من كاركافيلوش حتى باب الضحية، فإن الشكّ الأساسي يبقى قائماً.

«ب» أيضاً كان لديه إثبات غيبة غير أكيد -وهو ما لم يكن مفاجئاً، نظراً إلى ساعة الجريمة- ومن نفس الطبيعة بالضبط. كان نائماً بدوره. أمه الأرملة، التي كان يعيش معها، هي من أكّدت ذلك، بالإضافة إلى إحدى الخادمات، لكن بما أن شهادة هاتين الأخيرتين، كما شهادة القيّمة بالنسبة إلى الآخر، تفيد القول «إنه كان نائماً» لأنه «لا بدَّ أنه كان نائماً»، فقد ذهب لينام ثم نهض دون أن يسمعه أحد أيضاً خلال الليل... إلخ.

في أي تحقيق، ما يجب القيام به قبل أي شيء هو التحقق من الوقائع التي لا تقبل الجدل؛ ثم نستخلص الاستنتاجات المتضمِّنة في تلك الوقائع التي لا تقبل الجدل. بعد القيام بذلك، نحصل على

عنصر بحث جديد، يمكن أن يكون صغيراً جداً، أو لا يكون كذلك، لكنه، على أي حال، هو أول خطوة نقوم بها على طريق الاكتشاف.

إن الوقائع التي لا تقبل الجدل، في هذه الحالة، هي قتل برانكو -ما دام أن فرضية الانتحار أو الحادثة لا يمكن الاحتفاظ بها- وأن القاتل له بعض الخصائص:

(1) رجل قوي.

(2) رجل قادر على أخذ المبادرة.

(3) [...]

(1) رجل لا يتورع في أن يقتل.

(2) قوة جسدية - شجاعة جسدية.

(3) ذكاء، دهاء وبرودة دم.

(4) جريمة ارتُكبت بتعمّد.

(5) ظهرت ظروف خاصة، لأن هناك الكثير من المبالغة في الغموض.

(6) وحشية وحقد.

(7) بما أنه لم يسرق أي شيء، فإن الدافع كان شخصياً، وربما من طبيعة لا علاقة لها بالمكان وبالموقف.

(8) ارتكب الجريمة لوحده؛ رجل يتمتع بالشجاعة والدهاء والقوة لا يتّخذ لنفسه متواطئين لأنه يمكن أن يستغني عنهم تماماً (نظرية المفوَّض تافاريش، رغم أنه رجل ذكي).

ظهور الجماعة عند زاوية الشارع صدفة زائفة.

الدماثة، و [...] - وحدها الصفات الدنيئة يمكنها أن تتسبب في جريمة عاطفية بدافع الانتقام.

- ولماذا قد يكون الرجل الذي فرَّ من البيت هو المجرم؟

- ...؟

- نعم، لماذا تكون الجريمة قد ارتُكبت في الوقت الذي نفترضه؟

- هذا تفكير جيد، غيديش، **فعلاً** تفكير جيد جداً.

- حسناً فعلت بطرح هذا السؤال، يا سيدي. إنه شيء نسيناه، نسيناه تماماً، -وقام المفتش بحركة بيده اليمنى-.

- آه، قال الدكتور كْواريشْما.

ومشى خطوات أخرى في الشارع العريض وسط الصمت.

- لو سمحت يا دكتور، كيف تكهّنت بذلك؟

- تكهّنتُ؟ أنا لا أتكهّن. لا أتكهّن أبداً، بل إنني لا أعرف كيف أتكهّن... آخذ الوقائع، أحلّلها، وأستخلصُ منها الاستنتجات. وهذا لا يُسمّى تَكَهُّناً.

- بحسب هذا المعيار، نصل إلى استنتاج أن من بين المجرمين المحتملين، أو اللذان نظن أنهما ممكنان، من لديه إثبات الغيبة الأكثر وضوحاً ودعماً بالأدلة بالنسبة إلى الساعة التي نفترض أن الجريمة قد وقعت فيها سيكون هو المشبوه المفضّل ليكون هو المجرم.

- تماماً، يا دكتور.

[4 - حلّ العقدة]

تقدّم الدكتور كْواريشْما صوب البناية الواقعة أمام مكان الجريمة. لكنه تقدّم بخطى متثاقلة، كما لو أن تردُّداً ذهنياً يؤخره. وصل أمام الباب وتوقف. ظلَّ جامداً للحظة. ثم التفت نحو الشارع ونظر إلى الأسفل وإلى الأعلى. من الجهة السفلى، جهة المدينة، شبح شرطي، طويل وقوي، يمشي ببطء نحوه، بخطى الدورية المنتظمة. تقدّم الدكتور كْواريشْما نحوه لحظة وصوله إلى مستوى الشارع أمام المكان الذي كان يوجد فيه فكّاك الأحاجي والألغاز.

- قُل لي شيئاً، من فضلك، قال كْواريشْما. هل أنت من كان في الخدمة ليلة وقوع جريمة هناك في الجهة المقابلة؟

- نعم، يا سيدي، أنا، أجاب الشرطي الذي توقف.

- لقد طلب مني أحد أصدقائي بقسم الشرطة الجنائية استشارة بخصوص هذه الجريمة. أنا طبيب، لكنني أقضي الوقت في فكّ الألغاز، وهذا لغز. أتيتُ إلى هنا، وكنتُ أتأهّب لأطرح سؤالاً على شخص يسكن في البناية المقابلة -وأشار إليه- لكنني أرى أنها يُستحسن ألّا أطرح هذا السؤال، حتى لا أثير أدنى شبهة. لهذا أود، قبل كل شيء، أن أسألك أنت عن بعض الأمور...

- إن كنتُ أعرفها، يا دكتور...

- لنمشِ بعض الخطوات، قال كْواريشْما.

وسارا معاً على إيقاع خطوات الشرطي عبر الشارع.

مكتبة الرمحي أحمد

- استمعت إلى سرد مختلف أوجُه الجريمة، بكل تفاصيلها. سمعتُها، وسرعان ما توصلتُ إلى حلّ المسألة، لأنها في غاية البساطة. ما كنت أودُّ أن أسألك هو الأمر التالي -وأشار بإصبعه إلى مكان بيت برانكو الذي كانا قد تجاوزاه- من هي المرأة التي أغواها؟ أختك، عشيقتك، أم من تكون؟

ومَشَيا بضع خطوات بشكل آلي دون أن يتكلّما. عند الخطوة الخامسة، أجاب الشرطي بصوت ثابت، لا لون له:

- إنها أختي.

telegram @ktabpdf

ثم مَشَيا خطوتين أخريين.

- ولهذا السبب قتلتَهُ؟ سأله كُواريشْما.

ثم تردّد صوت ثلاث خطوات أخرى بشكل منتظم عبر الشارع الغارق في الصمت.

- نعم، أجاب الشرطي، لهذا السبب قتلتُه.

دون أن يتكلما، ولبضع لحظات، استمرّا في المشي.

- كما تعرف، قال كُواريشْما، لقد حللتُ المسألة. لم آتِ إلى هنا لأطرح عليك هذا السؤال من أجل هدف ما، بل لأتحدّث معك، لأقول لك إنني بعد أن حللتُ المسالة، وضعتُك جانباً: لن أقول شيئاً، لا للشرطة، ولا لأي شخص أو هيئة. بالمقابل، أودُّ أن أستمع إليك وأنت تحكي لي كيف قتلتَه، أن تسرد لي كل التفاصيل، ولا أطلب منك ذلك إلا من باب الفضول. افهمني جيداً: سرعان ما خلص استدلالي إلى اتهامك، وأثبَت، بشكل عام، كيف حدث القتل؛ كما أنه حدّد الدافع...

- لكنك لم تسألني عنه، عن الدافع....

- لا ، سألتك من هي الفتاة من عائلتك التي غواها برانكو. أن تكون هذه الغواية هي دافع الجريمة، هذا أمر أعرفه سلفاً؛ ما لم أكن أعرفه هي العلاقة التي تربطك بالفتاة، هل كانت أختك، عشيقتك، أم أي شيء آخر. كما ترى لم أكن أعرف شيئاً ولم أكن أعرف شيئاً بخصوصك عدا أن قامتك الجسدية وأفعالك وحركاتك كجندي. هذا يكفي بالنسبة إلى استدلالي.

كما لا بدَّ أنك قد فهمتَ، قال كْواريشْما، حللتُ المسألة، لكنني لا أرغب في إخبار أحد بالحلّ. ترددتُ في أن أذهب إلى هناك، في الجهة المقابلة، وأسأل الرجل في الطابق الأول إن كان سمع بالصدفة أول تكسُّرٍ للزجاج، التكسُّر الحقيقي، وليس ما تمَّ اصطناعه عندما كان المارة الخمسة على وشك أن ينعطفوا عند زاوية الشارع. لكنه كان من الصعب طرح هذا السؤال دون إثارة حيرة هذا الشخص. وعلاوة على ذلك، فإنه في قضية بكل هذا الوضوح وهذه البساطة، لست حقاً في حاجة إلى أدنى تأكيد.

هل كان استنتاجي صحيحاً؟

- رائع، يا دكتور. لكن ما الذي تنوي القيام به؟

- أريد أن أذهب إلى أقرب محطة وأستقل حافلة ترام تأخذني إلى بايشا. هذا هو الشيء الوحيد الذي سأقوم به.

- أشكرك، يا دكتور. إنني لا أخشى الموت ولا أي شيء آخر، لكني أود أن أعيش، أن أعيش حرّاً، إن كان ذلك ممكناً. وإلا . . .

- فيما يخصني، ليس ثمة شكّ، أجابه كْواريشْما. حللتُ المسألة، وأنا مرتاح. انتهى كل شيء. لكن أين نجد حافلة الترام هنا للذهاب إلى بايشا؟ إنني أشعر بشيء من التعب.

مكتبة الرمحي أحمد

– في هذه الشارع، غير بعيد من هنا. عبر أي زقاق من الأزقة المستعرضة.

– شكراً. سأذهب عبر الزقاق القادم، إذاً. لكن، احكِ لي، أولاً، كيف حدث كل شيء.

– اهتديتُ إلى أن أحسن تَنَكُّر يمكن أن أتّخذه هو التنكر في صورة شخص لا يمكن لأحد أن يحترس منه؛ لا الرجل الذي كان علي أن أقتله، ولا أي أحد آخر. بعد إثارة عدة أفكار، خلصتُ إلى أنه من الأحسن أن أحاول أن أصير شرطياً، مجرد شرطي، وأن ينقلوني إلى المنطقة التي يسكن فيها هذا الشخص، ثم أنفّذ القتل بعد ذلك. والحال أنني كنتُ أستجيب لكل الشروط لولوج سلك الشرطة، وأستطيع الحصول على كل الدعم الضروري. كانت ثمة عقبة واحدة، وهي أخطر مما تتصور: في الحقيقة، تمّت ترقيتي في الحرب، لكنك يا سيدي كنتَ خاطئاً بخصوص ترقيتي. ترقّيتُ ثلاث مرات: أصبحتُ ملازماً في الأخير.

– آه! قال الدكتور كْواريشْما.

– نعم، لكن من جهة سهّل علي هذا كل شيء. لم أعد في حاجة إلى أن أطلب من الضباط، الذين يفوقونني في سلّم الترتيب الإداري: كان علي أن أجد حلّاً مع زملائي من رتب أعلى، وهو أمر مختلف. كما قد تتصور، كان الأمر سهلاً للغاية. قدّمتُ أسباباً لهؤلاء، وأسباباً أخرى لأولئك، دون تمييز. لا داعي لأخبرك بالأسباب: مُتع جسدية. كانوا نوعاً ما فعّالين، لكنهم كانوا متفهّمين. وجدوا الأمر مسلّياً وتحقّق كل شيء في وقت وجيز. ولجتُ إلى الشرطة، في نهاية الأمر، بكل ما يلزم من خدماتي في الجيش ليتم اختياري دون عناء على حساب أي أحد آخر وأن ألتحق

فوراً بمهمتي، لكن دون أن تكون الشرطة على علم بكل التفاصيل التي قد تعقّد كل شيء. لم أكن في حاجة إلى اتّخاذ احتياطات من هذا الجانب. أفهمتَ؟ أولاً -وابتسم الشرطي- لأنهم أشخاص غير قادرين على تقدير خطورة أو نوايا ما قمتُ به، حتى بعد أن قُتل الرجل؛ ثم إنه لو حدسَ هذا أو ذاك الأمرَ كان يكفي أن أشرح له ذلك، ولن تتسرب كلمة واحدة يمكنها أن تعرّضني للخطر. رغم أنه، في هذه المرحلة من خطتي، لم أحتج إلى اتخاذ كثير من الاحتياطات، ولا أن آخذ حذري ضدّ أي شيء.

ما أن ولجت سلك الشرطة حتى وجدتني في مفوضية راتو. ما كنتُ في حاجة إليه هو أن أجد وسيلة لينقلوني إلى مفوضية بيكوواش دون تحديد منطقة معيّنة. وهذا ما كان يتوجب القيام به دون دعم، ودون اللجوء بأي طريقة إلى الضباط الذين كان لهم الفضل في انضمامي إلى سلك الشرطة. ورغم أنهم ليسوا من الدهاة الماكرين، فإن هذا الطلب الثاني، بعد الطلب الأول، قد يجعلهم يفكّرون، لدرجة أنني ناورتُ بطريقة أخرى. لم أكن في حاجة إلى كثير من المهارة. وسرعان ما اكتسبتُ احترام رئيسي، بل إنني أنقذته مرة من اعتداء تعرّض له. بعد ذلك، حاولت أن أعرف إن كان هناك شرطي ما في بيكوواش يود أن يتبادل معي. وجدتُ واحداً. تحدث مع رئيسي عن فتاة أعرفها في منطقة بيكوواش. تأسّف رئيسي نوعاً ما ليتركني أذهب؛ لكن الانتقال تمَّ. وبهذه الطريقة تمكّنتُ من المجيء إلى المنطقة المرغوبة، على مرحلتَين، بفضل اتصالات مختلفة كل مرة. كنتُ على يقين، وما زلت، على أنه لم يكن بإمكان أي أحد أن يرى شيئاً واضحاً في كل هذا.

بعد أن انتقلتُ إلى بيكوواش، حاولت أن أناور، دون إثارة

مكتبة الرمحي أحمد

الانتباه، وأقوم بدوريتي في هذه الشوارع، ليلاً، من حين إلى آخر. طبعاً، كان ذلك من أسهل ما يكون. بعد ذلك، تركت شهراً يمرُّ دون أن أظهر. بعد مرور هذا الشهر، رتَّبتُ كل شيء.

كان قصدي هو أن أعطي الانطباع بجريمة ارتكبها شخص خارق، لا يمكن أن نخلطه بسهولة مع فلان أو فلان؛ وهذا، طبعاً، حتى لا يشكّوا في أحد أو يوقفوا أياً كان. وبما أنني كنتُ سأقتله باستعمال يدَيّ، فكرت أنه من الأحسن بعد قتل الرجل أن أهشِّمه بطريقة لا يستطيع القيام بها سوى رياضي كبير. الرياضيون قليلون، في أي مكان، وخاصة منهم القادرون على تهشيم شخص بهذه الطريقة، بضربة واحدة. ثم إنه قد يكون من الصدف الغريبة أن يكون للرجل من بين أعدائه عدوّ بهذه القوة. وعلاوة على ذلك، سأجد متعة في أن أثخن هذا الشخص، بعد موته.

رفعتُ الجسد نحو الأعلى وأرسلتُ رأسه نحو الأسفل باتجاه قفل صندوق الحديد، وأنا أقبض على العنق، بكل قواي وأكثر، لأنني اكتسبتُ قوة أخرى هذه المرة. كمن يكسر بيضة على حجر. انفجر الرأس كما لو أنه كان من ورق. حينئذ شعرتُ بظلام يلفُّني. رفعته للمرة الثانية وضربته للمرة الثانية. رفعته للمرة الثالثة وضربته للمرة الثالثة. حينئذ شعرتُ بتعب كبير، ثم، وأنا أستعيد حواسي، شعرتُ من جديد أن لي عينَين. استعدت هدوئي، أصبحت هادئاً تماماً هذه المرة، أكثر هدوءاً مما كنتُ عليه منذ عدة أيام. لحظتها، على ما يبدو، استنفذتُ كل حقدي. كان كما لو أنني أستيقظ من شيء ما. كان الرأس -الجهة الخلفية من رأس الرجل- كأنه ورق مقروض. لم أرَه، لكني أعرف ذلك. كان جد مسحوق لدرجة أنني سرعان ما لاحظت أنه لا أحد قد يعرف إن كانوا قد ضربوه مرة،

مرتين، أو ثلاث مرات. قد يظنون أنه ضُرب مرة واحدة، وبقوة تفوق قوتي، أو قوة أي رجل في العالم.

في خضمّ كل هذا، لم أفقد تماماً تلك الاحتياطات التي تعلّمناها حين نكون في حالة حرب، حين نكون خارج ذواتنا، لكننا نرى أحسن من أي إنسان في الحياة، بالقيام بحركات واثقة وردود أفعال سريعة دون معرفة السبب. نجحتُ في أن أتجنب أن تسقط عليّ ولو قطرة دم واحدة. كنتُ أعرف ذلك في الظلام، دون أن أراه. شعرتُ أنه، في كل الحركات التي قمتُ بها، حتى عندما فقدتُ رشدي، كنت دائما أضع يدَيّ بطريقة معيّنة بحيث لم يصبني أي شيء. بعد ذلك، حين بلغتُ الرواق، لاحظتُ أن الأمر كان كذلك.

طبعاً، ارتميتُ عليه كالمجنون، لكني قستُ المسافة التي تفصله عن الحائط، بحيث أنه عندما سقط إلى الخلف، دون أن يتحكم في نفسه، اصطدم رأسه بعنف بالحائط وسرعان ما فقد الوعي. دون هجوم كهذا، ما كان للقضية أن تكون سهلة؛ لأنه كان يضاهيني قوة، وربما يفوقني بَأساً. لكنه، لحظتها، حتى لو كان رجلاً فولاذياً، لسحقته كما لو أنه كان من قشّ.

كان قوياً، لكني من جهتي لم أكن ضعيفاً وجباناً. كنتُ أستشيط حقداً، وتوتُّراً، فأخذت أقتُلُه من أجل القتل. ثم إنني هاجمته على حين غرّة. وتلك اليد التي وضعتها على حنجرته كانت من حديد. حتى الرّب ما كان ليفكها حين لويتها حول عنقه.

كنتُ أنوي اتخاذ مزيد من الاحتياطات، لكني فقدتُ رشدي. كنتُ أنوي أن أوجّه له ضربة قوية، دون أن ينتبه، كي أسيطر عليه، لكني لم أتمكن من ذلك. ما أن وجدتني أمامه، حتى تملّكني غضب

مكتبة الرمحي أحمد

حيواني. انقضضتُ على عنقه كما لو أنني أريد أن أقبض على شيء ما.

سقط، لأنه كان له بدّاً من ذلك، وقبل أن يبدي أدنى مقاومة، رفعتُ رأسه ولطختهه، بكل قواي، على حافة الباب. لم يتحرّك بعدها. لم يمت، لكنه فقد الوعي. لا أعرف إن مات لكن أظن أنه لم يمت.

نظرتُ إلى البندول فلم أصدّق عينيّ. كل هذا [. . .] لم يستغرق أكثر من عشر دقائق.

كنت أريد أن أقول له: أنا شقيق إيميليا أو شيئاً من هذا القبيل، لكني نسيت كل شيء ولم أشعر سوى بشيء واحد: كان عنقه يجذب يدَيّ بعنف. شعرت بحيوية كبيرة في جسدي، وبقوة هائلة، يا دكتور، حتى أنه كان لدي الانطباع بأنني قد أسحق الحديد إن ضربته لحظَتها.

توقفتُ، وأنا أرفع في الهواء العنق والجسد اللذين لم أشعر بثقلهما [. . .]. من الخلف كان الرأس لا يزال مهروساً وهو يقطر دماً. تركت الجسد يسقط، مستقيماً، هكذا تماماً.

عندما لا نخاف الموت، نقاتل بدم بارد. وهذا ما حصل حينئذ. كنتُ أريد أن أتحاشى أن يقبضوا علي أو يُفضح أمري، لكن بما أنه لم يكن يهمني إن حدث ذلك، ولو أن خطر الموت بالإعدام كان يتربص بي، قمتُ بكل شيء دون أن أشعر ثمة أعصاب في جسدي. لهذا السبب لم أخشَ أي شيء إطلاقاً.

في الحقيقة، قضية الحرب هذه تسلبُنا قدراً كبيراً من احترامنا لجسم الإنسان. أن أدعك رأسه على قفل الصندوق، حتى بعد موته، ليس هذا ما كان يخيفني.

قتل ألمان لم يلحقني منه أي أذى قط، يا دكتور، وربما لو تعرّفنا إلى بعضنا لصرنا أصدقاء، لذا فهل كان علي أن أتردد في قتل رجل تسبب في موت أختي الصغرى؟

[. . .] الدكتور كُواريشْما شيئاً ما ثم تحكم في حنجرته أخيراً.

استأنف الشرطي كلامه، بينما كان يُسمع صدى خطواتهما على إيقاع واحد في الشارع المقفر.

– كانت أصغر مني بكثير؛ حتى أن لم يكن الأمر كذلك (هزّ كتفيه). كنتُ أداعبها فوق ركبتيّ. بالنسبة إلي، كل ما يمكن القيام به ضدّها كان يعني إيذاء طفل بالشر. ربما ليست هذه طريقة صحيحة في النظر إلى الأمور، لكني أراها هكذا، ولا أستطيع أن أنظر إليها بطريقة أخرى. لقد انتحرت، وانتحرت بسببه. بسبب هذا الشخص الذي خنقته. . . إنها أشياء لا يمكنك أن تفهمها، يا دكتور؛ لا أحد يستطيع فهمها. . . كان لا بدَّ أن تداعبها فوق ركبتيك كما فعلتُ. على أي حال. . .

وأثناء ذلك كله لم يعرف المشي عجلة ولا تباطأ. كان القاتل وفكّاك الألغاز يضبطان بتثاقل خطواتهما، الواحد على الآخر.

– ها قد وصلنا، يا دكتور كُواريشْما.

– حسناً. عبر هذا الزقاق يمكننا أن نذهب إلى خط الترام، أليس كذلك؟

– نعم، يمكننا أن نذهب إليه عبر أي زقاق من هذه الأزقة.

– إذاً خذ هذا الزقاق. توقّفا، وصافحه كُواريشْما. سواء ذهبت

مكتبة الرمحي أحمد

إلى البرازيل أو لم تذهب، أتمنى لك كل السعادة. أتمنى لك ذلك بكل صدق. هذا كل ما أقوله لك. ليلة سعيدة.

- ليلة سعيدة، يا دكتور. وشكراً جزيلاً.

صافحه المفتش بحركة ضغط مفاجئ وفريد.

عند منتصف الطريق، وهو يتجه نحو الشارع الرئيس، التفت الدكتور كْواريشْما إلى الوراء. كان شبح الشرطي، متثاقلاً ومتصلباً، يبرز في العمق الدافئ لليلٍ كان لا يزال جلياً. وهو يدير رأسه، كان يتابع بهدوء مسار دوريته بخطوات عسكرية حازمة.

الرسالة السِّحرية

مكتبة الرمحي أحمد

[1 - مانويل غيديش في قسم الشرطة.
لقاء مع المهندس سَا]

كان المفوض مانويل غيديش، من الفرقة الثانية للتحقيق الجنائي، عائداً متأخِّراً جداً إلى قسم الشرطة في ذلك اليوم. لذا، توجَّه بسرعة إلى مكتبه وكاد يصطدم برجُلَين كانا يتحدّثان، واقفين عند الباب تقريباً. كان الأول واحداً من مفتشيه؛ أما الثاني فكان رجلاً شاباً، متوسط القامة، بوجه متوسط، يرتدي ملابس من ذلك النوع البسيط والمتميز، التي يحصل عليها الناس المحترمون باللجوء إلى خدمات الخيّاط. ودون أن ينبس ببنت شفة، بدأ المفوض غيديش بالسؤال:

- هذا الرجل، أجابه المفتش، ينتظر هنا ليتحدث معك، سيدي المفوَّض.

- هل الأمر يتعلق بنا... ؟

- نعم، سيدي المفوَّض، لقد التقى بالسيد القاضي، وقد أرسله السيد القاضي ليتحدث معك.

- وبماذا يتعلق الأمر؟ سأل غيديش وهو يتقدم داخل الغرفة ويزيل قبعته، التي رماها فوق طاولة في الزاوية.

- يتعلق الأمر بشيء غريب نوعاً ما، قال المفتش بتعبير كان ابتسامة رغم أنه كان من صنف الابتسامة، وهو يرد على المفوض الذي كان يدير له ظهره.

مكتبة الرمحي أحمد

استدار غيديش والتقط ذلك التعبير لحظة اختفائه.

- شيء غريب؟

وكان السؤال موجَّهاً إلى الشخصَين الحاضرَين.

- نعم، قال الرجل المجهول، بل غريب جداً. لا أعرف كيف حدث، ولا أدري أنه يمكن تفسيره.

قاطع غيديش من أعلى جسمه البدين الخالي من الدهون، ومحدِّقاً بعينَين داكنتَين، محاوره من فوق شارب قصير وكثّ.

- تماماً. لا يمكن أن نفهم شيئاً، ولهذا السبب سنتكلف بفهمه. لو كان ذلك إطراء فأنا أشكرك. وإن لم يكن كذلك...

التَفَّ المفوَّض غيديش حول مكتبه ثم جلس. بعد ذلك سحب كرسياً بالقرب منه وبظاهر يده أشار إلى الرجل المجهول أن يجلس.

جلس الرجل المجهول بتثاقل، وكان في طريقة جلوسه نوع من التردُّد بخصوص الموضوع الذي سيتناوله، مهما كانت طبيعته.

واستدار غيديش نحو المفتش:

- هل من الضروري أن تكون هنا بالنسبة إلى هذه القضية، يا سانتوش؟

- لا، سيدي، سيدي المفوَّض.

- ولا لأي شيء آخر؟

- لا، سيدي.

- إذاً، بإمكانك أن تنصرف. إلى الغد. أغلق الباب.

- مساؤك سعيد، سيد غيديش.

وبعد أن وجّه شبه تحية ونصف ابتسامة إلى الشخص المجهول، اختفى المفتش بعد تجاوز الباب، الذي سحبه من ورائه.

- أنا في خدمتك، قال المفوَّض وهو يستدير نحو الرجل الذي جاء يستشيره.

- يتعلق الأمر، قال هذا الأخير ببطء، كأنه يتساءل من أين يبدأ كلامه... يتعلق الأمر باختفاء رسالة...

- أولاً، ما اسمك؟

قفز الرجل الذي تلقّى السؤال؛ وبدا كأنه لا يذكر أن له اسم.

- اسمي فرانسيشكو ألمايدا سَا -أومأ غيديش أنه ينتظر المزيد، ففهم الغريب إشارته-، أنا متزوج وأشتغل مهندساً بشركة خطوط سكك الحديد البرتغالية.

استأنف الآخر كلامه بخشونة جعلته يرتجف:

- هل تسكن في لشبونة؟

- نعم. رقم 15، شارع باراتا سالغيرو، الطابق الثاني. في بيتي وقعت...

- لنشتغل بمبدأ الإقصاء، حتى يكون كل شيء واضحاً منذ البداية، وخصوصاً أن القضية تبدو غامضة. بماذا يتعلق الأمر بالضبط؟

- باختفاء رسالة دون أن نفهم كيف اختفت... و...

- لكن، هل ترجِّح السرقة أم الضياع؟

- سرقة، لست أدري كيف يمكن أن تقع. ضياع، لم يكن ذلك ممكناً... و...

- أو أنها انصرفت تمشي على أطراف رجليها، هذا غير ممكن كذلك، لأن الرسائل عادة لا تملك أرجلاً -قاطعه غيديش بجفاء-. اسمع، أحسن ما يمكنك القيام به هو أن تحكي كل شيء بأوضح

مكتبة الرمحي أحمد

طريقة ممكنة. هناك حيث قد تبدو القضية غير واضحة، سوف أسألك وعليك أن تجيبني.

أومأ له المهندس بإشارة كي يبدأ.

- ابدأ من البداية. والبداية هي المكان الذي حدث فيه الاختفاء الذي يؤرقك. هل حدث ذلك في بيتك؟

- نعم، في بيتي.

- حسناً. هل كان لهذه الرسالة قيمة ما؟

- لستُ أدري، لم أكن أعرف محتواها.

- إذاً، من كان صاحبها؟

- إنها رسالة كتبها أبي، الذي توفي، وطلب مني أن أسلِّمها إلى أحد أصدقائه القدامى، الذي كان شريكه، وكان يقيم في أفريقيا ولم يعد منها سوى الآن. لا أعرف محتواها، لكن، بما أنه لا يمكن أن يكون عائلياً ولا حتى شخصياً، فأظن أنه يمكن أن يكون شيئاً يرتبط بالتجارة، وله علاقة بالمناجم في أنغولا، أو أي شيء من هذا القبيل. لكن، في الحقيقة، لا أدري إن كان لمحتوى الرسالة أي أهمية.

- ألم يخبرك أبوك أو يلمِّح لك مرة بما يمكن أن تحتويه تلك الرسالة؟

- أبداً. لم يخبرني أنا ولا أي شخص آخر من أفراد العائلة.

- على أي حال، لا بدَّ أن الرسالة كانت تحتوي شيئاً مهمّاً. إن المرء لا يترك رسائل بعد وفاته ليقدِّم التهاني أو يسأل عن صحّة الآخرين. قُلتَ العائلة. من هي هذه العائلة؟

- عائلتي من منطقة ترازوشومُنتش...

– ليس هذا هو سؤالي، يا سيدي. أو، على الأقل، لا أظن أن هذا هو المهم، إلى حدّ الساعة. إنني أسألك عن الأشخاص من عائلتك، الذين، على الأقل، كان لا بدَّ أن يكونوا على علم ولا يعلمون، إن كان الأمر كذلك، محتوى الرسالة.

– عائلتي محدودة الأفراد: اليوم، منذ وفاة والدي -أمي ماتت منذ مدة طويلة- هناك أنا وزوجتي وابني الذي يبلغ من العمر خمس سنوات.

– ويسكنون معك هنا في لشبونة، بالطبع. هل هناك من شخص آخر؟

– من العائلة... أحد أبناء عمي...

– لا، لا أقصد ذلك: أعني شخصاً آخر يسكن معك، هنا في لشبونة.

– آه. خادمة بيت عجوز، وهناك أيضاً خادمة أخرى، لكنها ذهبت لتقضي بعض الوقت في قريتها، ولم تكن حاضرة حين حدث ذلك.

– ومتى حدث ذلك؟

– مساء البارحة.

فكر غيديش قليلاً.

– حسناً. ها قد أصبحتُ أكثر اطّلاعاً، ويمكنني الآن أن أنصت بشكل أحسن إلى ما ستقوله لي. احكِ لي كل شيء، كما طلبتُ منك، بأكبر قدر من الوضوح، كيف حدث كل شيء، وفي أي ترتيب.

وبِيَدٍ غير واثقة حرّك المهندس بعض الشيء فوق ركبتيه قبعته الرخوة التي كان يمسك بها مع قفّازيه. أنزلَ المفوض غيديش يده

مكتبة الرمحي أحمد

باتجاه القبعة «هل تسمح لي؟» ووضعها فوق المكتب. حُرم المهندس من الدعم المعنوي لقبعته، ففقد بوصلته.

- لا أدري من أين أبدأ. . .

فكشف المفوض غيديش عن ذلك الوجه الذي نال عنه في قسم الشرطة الاسم المميز: «غيديش القاسي».

- انظر، يا سيدي، إنني لا أطلب منك أن تلقي خطاباً -وكانت حركة قلق غيديش إشارة من رجل ينتظر عملاً شاقاً أكثر منها حركة تدل على شخص يعاني من الأمور التي يجهلها. ثم سرعان ما تلطّفت نبرة صوته-. احكِ لي ذلك كما تشاء شريطة أن يكون ذلك واضحاً، ولا تضع العربة قبل الحصان.

ثم استدار غيديش في كرسيه وهو يتلمّس شاربه.

فكّر المهندس قليلاً، وهو يستعيد شيئاً من ثقته. ثم بدأ حكايته، ببطء، وبصوت واضح وحازم.

- توفي أبي منذ سنتين. توفي في كانيساش حيث كان يعيش منذ سنة ونصف السنة. لم يكتب وصية ولم يترك لي شيئاً يمكن أن يكون وصية بوجه خاص: فقط بضعة أيام قبل أن يموت، وهو يعلم أنه لن يعيش طويلاً، سلّمني رسالة مغلقة ومختومة.

- هل كانت رسالة مهمة، أعني سميكة الحجم؟

- نسبياً. كانت رسالة من حجم تجاري. نظراً إلى سمكها، يمكن أن تحتوي، لنقل، أربع أو خمس أوراق. رسالة مهمة، نعم، بالنسبة إلى رسالة كهذه. . . سلّمني هذه الرسالة، وهو يطلب مني أن أسلّمها لصديقه أمارو سيماش، الذي كان وقتها في أفريقيا، لأنه لم يكن يريد المجازفة بإضاعة الرسالة. وقال إن الرسالة تحتوي على

شيء ذي أهمية قصوى بالنسبة إلى سيماش، ولا يهم أحداً آخر سواه. ولهذا السبب، أيضاً، طلب مني أن أحتفظ بالرسالة بعناية كبيرة، بطريقة يستحيل معها أن تتعرض للسرقة بأي وجه من الأوجه، من الضياع أو الانتهاك، وألا تتعرض لأي شيء. . . -توقف المهندس، ورفع يده اليمنى بحركة مفاجئة تنم عن يأس غامض- يا إلهي، هذا ما حدث بالضبط!

وبحركة من رأسه أشار غيديش أنه يفهم ذلك، وأنه ينتظر البقية.

- طبعاً، تابع المهندس، نفّذت تلك التعليمات بمنتهى الدقة. ما أن توفي أبي واستقررتُ في لشبونة، حتى احتفظت بالرسالة في أكثر الأمكنة أماناً، في صندوق أملكه لدى بنك مونتي بيو جيرال. وهناك بقيت إلى غاية أول أمس، السبت.

- ألم تخبر سيماش بوجود هذه الرسالة؟

- نعم. راسلتُه بعد خمسة عشر أو عشرين يوماً عن وفاة والدي. كتبتُ إليه لأبلغه بالوفاة، وأشرتُ إلى الرسالة حين أخبرته أنني، طبعاً، لا أستطيع أن أبعثها إليه وفقاً للتعليمات التي تركها والدي. وردّ سيماش بسرعة -بسرعة بالنسبة إلى أنغولا- أي أنه ردّ برجوع البريد.

- هل لمّح إلى أنه كان ينتظر تلك الرسالة أم أنه أبدى اندهاشه؟

- كان مندهشاً بعض الشيء. على الأقل هذا ما استنتجته من الرسالة التي وجّهها لي. لا أقول إنه كان مندهشاً بشكل كبير. لا أذكر بالضبط ما كتبه، لكن هذه هي الفكرة.

- ربما كان مندهشاً لكنه لم يكن يرغب في أن يقول ذلك

بوضوح، أو أنه لم يكن مندهشاً لكنه لم يرغب في أن يقول ذلك بشكل صريح. . .

- هذا ممكن. لست أدري. في نهاية رسالته، بعد التعزية، وعبارات الأسى على فقدان صديق كبير. . . إلخ، أخبرني أنه سيأتي إلى البرتغال في غضون عامين، كما قام بذلك بالفعل، وسأسلّمه الرسالة وفقاً لتعليمات أبي.

- هذا يعني أنه لم يكن على عجل من الاطّلاع عليها، لكن أنغولا ليست على بعد خطوتين من كاسيلياش[1]. . . إن كنت أطرح عليك هذه الأسئلة، دون أن أعرف أي شيء عن القضية، فلأنني في النهاية سأكون قد اطّلعتُ شيئاً فشيئاً عليها، ولن أكون في حاجة إلى إرهاقك بالأسئلة في النهاية. تابع، من فضلك.

كان المفوض غيديش يبدو أكثر اهتماماً.

- نعم. أنغولا بعيدة بعض الشيء والسفر جد مكلف. ثم إن سيماش لا يقطن في لواندا ولا في أي ميناء من موانئ أنغولا. إنه يسكن داخل البلاد، حيث يدير مناجم يملك فيها قسطاً من الأسهم، مثل أبي. ولم يكن ذلك مكان يمكن أن يغادره بسهولة.

- تماماً.

- إذاً -قال المهندس الذي كان يتحدث الآن بثقة أكبر-، توصّلتُ قبل حوالي شهر برسالة من سيماش، لم أتوصّل برسالة أخرى أثناء ذلك، يخبرني فيها أنه سيصل إلى لشبونة يوم السبت، على متن باخرة أنغوش، وأنه سيأتي لزيارتي فور وصوله. وسأذهب لانتظاره طبعاً، ذلك كان واجبي قبل كل شيء: كان أعزّ صديق

---

(1) بلدة تقع جنوب لشبونة في الضفة الأخرى من نهر التاج. (المترجم)

لأبي، رغم أنه لم يكن أقدمهم، وهو ما كان أيضاً مستحيلاً بالنظر إلى سنه. . . لكن، وأنا أتحدّث مع زوجتي في الأمر، قالت لي إنه نظراً إلى الازدحام الذي تعرفه الأرصفة، حيث تكثر السرقة. . . إلخ، من الأحسن أن أترك الرسالة في بنك مونتي بيو جيرال إلى غاية يوم السبت، وأن أذهب رفقة سيماش يوم السبت وأسلّمه إياها هناك، لأنه ما أن تكون بين يديه حتى تنتهي مسؤوليتنا، وسيقرأها على الفور، بالطبع. لكن، بعد أن تناقشنا، اتخذنا قراراً آخر. قررنا أن ندعو سيماش للعشاء معنا يوم الأحد ونسلّمه الرسالة، في بيتنا. ثم إن سيماش، الذي له أقارب في آلجيش، ربما يريد أن يذهب إلى هناك ما أن يصل وأنه ليس على استعداد لقضاء حاجاته يوم السبت، خصوصاً أن الباخرة تصل في ساعة يكون فيها بنك مونتي بيو جيرال لا يزال مغلقاً. وهذا ما تقرر، وهذا ما اتفقنا عليه مع سيماش. ذهب ليزور عائلته في آلجيش، وقَبِلَ أن يأتي ليتناول العشاء معنا يوم الأحد.

– والرسالة؟

– سحبتها من بنك مونتي بيو جيرال يوم السبت، حوالي منتصف النهار، لأن بنك مونتي بيو جيرال يغلق أبوابه على الساعة الواحدة، وأخذتها إلى البيت، واحتفظت بها إلى غاية اليوم الموالي، في صندوق صغير لدي في غرفتي.

– ومن يملك مفاتيح هذا الصندوق؟ هناك عادة مفتاحان.

– هذا الصندوق له مفتاح واحد. كان في ملك أبي، ولا أعرف أن له مفتاحاً آخر. إنه صندوق حديدي من صنع قديم. لكن. . .

– ومن يملك المفتاح الوحيد للصندوق؟

– أنا من يملكه. أحمله دائماً معي. لا يحتاج أي أحد ليفتش

مكتبة الرمحي أحمد

فيه عن أي شيء، حتى زوجتي، لأنني أقدِّم لها دائماً ما تحتاجه من مال، ولا أحتفظ فيه بمال كثير. لكن، ما أريد قول هو إن هذا الأمر لا أهمية له. لأن الرسالة لم تختفِ من الصندوق.

- آه، لم تختفِ من الصندوق؟ -اعتدل غيديش فوق الكرسي- كنتُ أحدس أن هذا سيكون غريباً، ويبدو أكثر فأكثر أنني لم أكن مخطئاً. تابع...

- اتفقنا مع سيماش على أنه سيأتي إلى بيتي على الساعة الخامسة زوالاً. انتبهت إلى أنه اعتاد على تناول العشاء في وقت مبكِّر، وكنا ننوي أن نتعشى على الساعة السادسة. باستثناء زوجتي، التي ذهبت إلى القدّاس صباحاً، لم نغادر البيت يوم الأحد إلا حوالي الساعة الرابعة أو الرابعة والربع.

- هذا أمر لا يصدق! هكذا خرجتما في الوقت الذي كان سيأتي فيه الضيف! أعني، لا أدري إن كان ذلك دارجاً في أيامنا هذه...

- اعذرني، لم يحدث ذلك بهذا الشكل. كانت الساعة تشير إلى الرابعة حين انتبهت زوجتي إلى أنه علينا أن نشتري حلويات وفطائر لوجبة العشاء. كان لدينا ما يكفي من الوقت لنذهب إلى حي بايشا ونعود. كانت مستعدة لتذهب لوحدها، لكنني قررت أن أرافقها، لأنه كان لدينا ما يكفي من الوقت، بالطبع، بالنسبة إلينا معاً. وحتى إن عدنا وكان الضيف قد وصل، كان من السهل أن نجد عذراً، لأن سيماش، أيضاً، لم يكن من النوع الذي يستاء بسرعة. كنا على وشك أن نخرج عندما تحدّثتُ عرضاً عن الرسالة، ففكرت زوجتي أنه بإمكاننا أن نُودِعها لدى خادمتنا لتسلّمها إلى سيماش ما أن يصل، لأنه لا بدَّ أنه يتحرّق فضولاً لمعرفة محتواها. وطبعاً، لا خطر على الرسالة داخل البيت...

- ولكن، كان ثمة خطر، في نهاية الأمر. أليس كذلك؟

رفع سَا يده ليقوم بحركة فيها شيء من الانزعاج والرغبة في ألا يقاطعه أحد.

- اسمع سيد غيديش. أخذتُ الرسالة من الصندوق ونادينا على الخادمة. كنا ننوي أن نسلّمها إياها، لكننا فضّلنا أن نتركها في الصالون ونخبر الخادمة بموضعها، وأنه إذا جاء السيد سيماش، لو حدث وجاء قبل عودتنا، أن تعطيه الرسالة أو تريه إياها. أخذت زوجتي الرسالة ووضعتها فوق طاولة صغيرة في الطرف الآخر من الصالون، نادت على الخادمة وأرتها الرسالة، ثم أعطتها التعليمات، وأمرتها بأنه لو جاء شخص آخر، وبقي ينتظر وهو يعرف أننا لسنا في البيت، أن تسحب الرسالة من هناك وتسلّمها بعد ذلك مباشرة إلى سيماش حين يصل. ثم أغلقنا الباب بالمفتاح. . .

- عفواً، هل تأكدت من أن الرسالة لم تسقط على الأرض، أو. . .

- سيدي المفوَّض، لقد وضعت زوجتي الرسالة فوق الطاولة الصغيرة، الواقفة قرب مزهرية، ثم جاءت إلى باب الصالون حيث كنتُ أقف ونادت على الخادمة. أرتها الرسالة في الطرف الآخر من الصالون، ثم أعطتها التعليمات. كلنا، أنا وزوجتي والخادمة، رأينا الرسالة في هذا المكان. بعد ذلك أغلقنا الباب بالمفتاح دون أن يدخل أي شخص آخر أو يخطو خطوة داخل الصالون.

- والمفتاح؟

- بقي على الباب. لم ندر المفتاح إلا لنتفادى أن يدخل الطفل إلى الصالون. إنه في سنٍّ تسمح له بأن يفتح الباب باستعمال الزرّ،

مكتبة الرمحي أحمد

لكنه لا يملك بعد من خفة الحركة ولا من طول القامة ما يسمح له بأن يدير المفتاح.

ركّز المفوض غيديش نظراته على المهندس:

- حسناً، وماذا حدث بعد ذلك؟ قال وهو يضيّق عليه في السؤال.

- بعد ذلك، غادرنا البيت على الفور. دون تأخير، دقيقتين أو ثلاثة دقائق بعد أن أغلقنا باب الصالون.

- بحسب ما أرى، بقي الطفل في البيت.

- نعم. لم تكن عملية التبضُّع تتطلب منا وقتاً كثيراً، والطفل كان سيعيقنا. طبعاً، كان بودّه أن يأتي معنا، لكنه لا ينزعج إن هو بقي مع الخادمة التي يتفاهم معها كثيراً.

- حسناً.

وكان المهندس يتأهّب لمتابعة كلامه، لكن المفوَّض غيديش سبقه.

- لحظة، أستنتج مما تقوله أن الصالون ليس له من باب آخر غير هذا الباب. هذا يعني أنه حين أدرت المفتاح في هذا الباب، بقي الصالون مغلقاً تماماً، دون أن يكون الدخول إليه ممكناً من أي جهة، ما عدا، طبعاً، عبر النوافذ.

- سأشرح لك. الصالون له بابان، يؤدّيان معاً إلى الرواق الذي يوجد بالضبط أمام الباب المؤدّي إلى قُرص الدّرَج. شقّتنا توجد على اليمين، والصالون هو الغرفة الوحيدة في الواجهة، وإن كان هذان البابان يوجدان على الحائط يساراً حين نلج البيت. الباب الأقرب، والذي يوجد بمحاذاة الباب المؤدّي إلى قُرص الدّرَج، دائماً مغلق

بالمفتاح من الداخل. أما الباب الأبعد فهو الذي نلج عبره إلى الصالون، وهو المدخل الوحيد. وهذا الباب هو الذي أغلق بالفتاح.

– كل النوافذ كانت مغلقة؟

– نعم.

– هل هي نوافذ ذات نتوءات، أم أن لها شرفات؟

– كلا، إنها نوافذ عادية، عمودية الشكل. وقد أغلقت بإحكام. إنك ترى جيداً، سيدي المفوَّض...

– إنني أرى وفق عباراتك الأولية، منذ أن وصلتَ إلى هنا. لكن، تابع إذاً...

– كما يحدث عادة في مثل هذه الأمور، تأخّرنا أكثر مما كنا نريد، ورغم ذلك لم تكن الساعة تشير سوى إلى الخامسة وخمس دقائق عندما دخلنا إلى البيت. وجدنا سيماش الذي وصل قبيل الساعة الخامسة بقليل. وجدناه في الصالون، رفقة الخادمة والطفل. كان سيماش يبدو مذهولاً، والخادمة مذعورة. كان من الممكن أن نفكر أن الطفل قد أصابه سوء لو لم نرَه هناك فوراً. كنا قلقَين، خصوصاً زوجتي، لأن النساء دائماً يفكرن في الأسوأ. حينئذ بدأت الخادمة تتكلم، ولم نفهم شيئاً في البداية، خصوصاً أن ما حدث كان يبدو مستحيلاً. لقد وصل سيماش، وفتحت له الخادمة باب الصالون، الذي كان دائماً مغلقاً بالمفتاح، لكنها حين توجَّهت إلى الطاولة لتسلّمه الرسالة، كانت هذه قد اختفت.

– ومن جاء إلى بيتك في الفترة بين ذهابك ووصول سيماش؟

– لا أحد، قال المهندس.

– لا أحد، بحسب علمك. ربما لم يكن الباب المؤدّي إلى الدرج مغلقاً بإحكام.

مكتبة الرمحي أحمد

- كلا، لقد كان مغلقاً بإحكام. أغلقته بنفسي حين خرجت.

أخرج المهندس من جيبه حزمة مفاتيح، سقط منه القفازان، ثم مدّ مفتاحاً من الحزمة.

- إنه قُفل من نوع «ييل».

هزَّ غيديش كتفيه، وأنزل المهندس يده اليسرى ليلتقط القفازين اللذين سقطا.

- علاوة على ذلك -استأنف سَا كلامه وهو يعدل جلسته-، بما أن الخادمة يتملّكها الخوف والتوجُّس عندما تبقى في البيت لوحدها، أو لوحدها مع الطفل، والأمر سيان، ما أن خرجت حتى ذهبت نحو باب قُرص الدّرَج ووضعت المزلاج.

- عجيب! صاح غيديش، كما لو أن أحدهم سرق منه شيئاً ما.

- هذا كل ما في القضية، سيدي المفوض. قال المهندس بشكل يدعو للشفقة، وهو يمد كلتا يديه في حركة إحباط جعلتهما يسقطان.

وحدّق فيه غيديش كأنما يريد أن يُنوِّمه.

- لكن ما حكيته للتو عبارة عن سلسلة لا تُصدَّق من السخافات. اسمح أن أقول لك هذا، ولكن هذه هي الحقيقة في هذه الحالة.

- لكن، سيدي المفوَّض، ألم تقل إنك كنت ترى. . .

- عفواً: كنتُ أرى سرقة نُفِّذت بمهارة عالية، أو جرأة كبيرة. لم أكن أرى رسالة تغادر لوحدها، تفتح من الداخل الأبواب المغلقة من الخارج. أي أنه ما دام أن رسالة قادرة على أن تغادر لوحدها، فإنها يمكن أن تنجز بقية الأشياء بكل سهولة. . .

اتكأ غيديش إلى الوراء مرة أخرى على كرسيه وألقى نظرة وقّادة على المهندس.

- هذا غير ممكن!

- أعرف أنه غير ممكن، سيدي المفوَّض، لكنه صحيح... ثم صدرت عن المهندس تلك الحركة التي تدعو إلى الشفقة.

- هذا غير ممكن، سيدي! إذا لم يكن في الأمر خطأ، ولا عجز في الذاكرة، ولا أي شيء آخر من هذا القبيل، فإنه لا خيار أمامنا سوى أمر من اثنين: إما أن الخادمة هي التي أخذت الرسالة، وإما طفلك. وأخيراً، إن لم ينجح سيماش في أخذها قبل أن تراه الخدمة. هذا أيضاً أمر يمكن التفكير فيه...

وفي النهاية، نعود إلى نفس النقطة. كل شيء مستحيل، عدا أن تفرَّ الرسالة لوحدها وأن تفتح من الداخل الباب المغلق من الخارج. هذا ما توصلتَ إليه، أليس كذلك؟

هزَّ سَا كتفيه، وهو يقذفهما نحو الأمام في الوقت ذاته.

- هل أعرف أين هي الحقيقة، سيدي المفوَّض؟

وخفت صوته مثل شعلة زائفة.

[2 - فشلُ الشرطة في تفسير القضية. حوار بين قاضي التحقيق وغيديش]

- من وجهة نظر منطقية -قال القاضي-، يدفعنا الاحتمال إلى ترجيح مسؤولية الخادمة. ونبعد عنها تلك المسؤولية، من وجهة نظر سايكولوجية، بل يبدو أن هذا الاحتمال يبعدنا عن كل الأشياء الأخرى. لو التزمنا بالطريقة التقليدية، ما علينا أن نقوم به هو أن نقصي كل ما هو غير ممكن، والفرضية المتبقية، مهما كان احتمالها قليلاً، ستكون هي الحقيقة.

- حسناً، سيدي القاضي، هذا جيد نظرياً، لكن عملياً هو أقل جودة. في هذه الحالة، مثلاً. في هذه الحالة، لا وجود لأي شيء مستحيل وكل شيء مستبعد.

- إنك على حقّ -قال القاضي مبتسماً-. لأنه، في الحقيقة، إذا اعتبرنا عدم تحقق الشهادة، ونعرف أنه قَلّما نثق بشهادة مهما كانت صادقة، لا يمكن أن نؤكِّد جازمين أن السيدة ماريا لم تعد أدراجها، لم تفتح الباب وتأخذ الرسالة، ثم تغلق الباب ثانية دون أن ينتبه زوجها للأمر، مع افتراض أنها لم تختفِ عن الأنظار من جهة الباب لأنه كان يجب أن تظل كذلك. إن الخادمة يمكنها أن تقول، بكل صدق، إن سيماش لم يسبقها إلى أخذ الرسالة، **لأنه هكذا كان يجب أن يكون**، مع أن سيماش الذي دخل قبلها إلى الصالون، كان

بإمكانه أن يقوم بذلك. ثمة عدد كبير من الفرضيات التي يمكن أن تنبني على عدم تحقق الشهادة.

إنها غريبة حكاية موقف هذا العجوز المسكين. توحي بأنه تعرّض لمكر واحتيال من العائلة كلها، أو بالأحرى أنه تعرّض لنوع من الاحتيال من الزوج والزوجة. ويبدو أن هذا الاحتيال الذي قاما به هو من نوع النصب، ويرتبط بالمال. وبما أن العجوز، بحسب أقوالك، كان رجلاً نزيهاً وعنيداً، فإن تصرفه يقبل التفسير.

- لست أدري إن كان الأمر كذلك، سيدي القاضي. إن بغضه يشمل أيضاً الطفل والخادمة. والحال أنه ليس من الطبيعي أن يكون للخادمة دور، من أي نوع كان، فيما تعرّض له من احتيال. على أي حال، يمكن أن يكون ذلك ممكناً، أما الطفل فمن المؤكد أنه لم يكن متواطئاً.

- ممّا لا شك فيه، لكن الأمر يتعلّق هنا بامتداد مرضي لغضبه. كأني به غضب من الزوجين، فقال مع نفسه: «لم أعد أحتمل هذه العائلة»، رغم أنها كانت عائلته.

- ما زالت تخامرني الشكوك، سيدي القاضي. إنني أرجِّح حالة مرضية لا أكثر، مع تشوش دماغي؛ أو غضب بسبب أمر غريب عن العائلة، شيء له علاقة به هو أو بشخص ثالث، وهذا هو الأرجح من جهة أخرى. وبما أن الأمر يهمُّ أيضاً شخصاً ثالثاً، لم يكن بإمكانه أن يتحدث مع أي شخص. وانعدام إمكانية الحديث مع الآخرين يمكن أن تضع أياً كان، وخصوصاً شخصاً عجوزاً، في حالة غضب مستمر.

فجأة، رفع القاضي سبابته.

- ملاحظة جيدة، غيديش! إنها ملاحظة جيدة؛ و يبدو أن

مكتبة الرمحي أحمد

الرسالة الموجَّهة إلى سيماش تؤكِّد ذلك. سيماش هو الذي كان يفترض أن يكون ذلك الشخص الثالث والسرّ الذي كان بينهما كان ذا طبيعة خاصة حتى أن العجوز أبى أن يجازف باللجوء إلى البريد أو إلى حامل يأخذ الرسالة إلى سيماش. لكن ثمة شيء آخر. عندما شعر العجوز بدنو أجله، نادى على ابنه، ليس لأنه كان الأكثر استعداداً لذلك، بل لأنه كان يريد شخصاً ثقة يمكن أن يسلّمه الرسالة الموجَّهة إلى سيماش. ورفضُه رؤيةَ كل أفراد العائلة يبيّن الغضب الذي تسبب له فيه ابتعاد الجميع عنه، نعم لأن الجميع ابتعد عنه وليس أفراد العائلة فقط، وهذا الغضب لم يهدأ بعد؛ ومناداته على ابنه تبيِّن أن العائلة ليست هي سبب ذلك الغضب، لأنه، في هذه الحالة، ما كان سيناديه حتى، وما كان سيسلّمه الرسالة. لهذا الغرض كان بإمكانه أن يلجأ إلى سلطة: العمدة، المشرف على الكنيسة، بل حتى إلى محامٍ أو وكيل دعوى يمكن أن ينفِّذ تعليماته. لكنك مُحِق، يا غيديش، ما في ذلك من شك. لقد حدث في حياة هذا الرجل، أو ربما علم بحدوث شيء في غاية الخطورة، شيء قضّ مضجعه، زاد من كربه وجعل منه إنساناً يمقت الجنس البشري. وهذا الشيء كان له علاقة بشخص ثالث، هو سيماش على الأرجح، لكن ربما يكون أي شخص آخر يعرفه هو وسيماش. ولم تكن وراء ذلك العائلة، التي بالكاد كان سيماش يعرفها، لدرجة أن الأب لم يتردد في أن ينادي على ابنه ويستودعه الرسالة. إنك على حقّ تماماً، يا غيديش. ما كان لأحداث القضية أن تجري بطريقة أخرى.

– شكراً، سيدي القاضي. هذا يعود بنا إلى واحدة من الفرضيات الأولى التي تقول إن سيماش ربما يكون هو نفسه من جعل الرسالة تختفي، بطريقة لا أستطيع أن أتصورها. وهذا يدفعنا

إلى أن نظن أن الرسالة تفترض وجود شخص آخر، أو تدخُّل شخص آخر، رغم أن سيماش كان يريد أن يتظاهر أنه يجهل محتوى الرسالة، والطريقة الوحيدة للتظاهر بذلك كانت هي أن يتظاهر بأنه لم يتوصل بها، وأن يكون تظاهره مقنعاً.

- تماماً. وهذا الشخص الآخر، من المحتمل جداً أن يكون هو ألفارينغا. من المؤكد أن ألفارينغا، الشخص الوحيد الذي يعرفه سيماش حقّ المعرفة، هو من قدّمه إلى العجوز، وواصل معالجة شأن ما مع العجوز. وعلى إثر تلك المفاوضات، التي لم يخبر أحد القاضي بفحواها، بدأ غضب الأب... ألا يمكن أن يتعلق الأمر باحتيال من طرف سيماش، شيء أصاب العجوز بخيبة كبيرة في من كان يعتبره أعز أصدقائه؟ لدي إحساس بأنه شيء من هذا القبيل، شيء فظيع، ذو طبيعة تجارية أو غير تجارية، له علاقة بماضٍ بعيد، ربما يكون العجوز قد اطّلع عليه عن طريق ألفارينغا، بل ربما يكون ألفارينغا قد كشف له عنه، وهو يوشي بسيماش. فهل يبدو قادراً على فعل ذلك؟

- على فعل ماذ؟ أن يوشي؟ لست أدري... أنه يبدو جد، جد نزيه، هذا أمر لا يتوفر فيه... أما أنه قادر على أن يوشي بشخص ما، لست أدري... هذا ممكن...

- إحِم... ما يبدو لي ثابتاً هو أن جوهر المشكلة يوجد هنا. ولدينا فرضيتان: إما أن سيماش سرق الرسالة وإما أن ألفارينغا اختلسها منه. لو أن سيماش سرق الرسالة، فقد سرقها بنفسه. أما إذا كان ألفارينغا هو من سرقها، فإنه في رأيي قد سرقها بواسطة الخادمة العجوز. لقد لاحظت الجملة التي جاءت في حديث سَا حين قال إن العجوز كانت تبدي تعاطفاً كبيراً مع ألفارينغا، لكنك

حين حدّثتها عن ألفارينغا لم تقل شيئاً. لم تقل، مثلاً: «لقد كان رجلاً لطيفاً جداً، أو ودوداً جداً»، لكنها اكتفت بالحديث عنه فقط لا غير. ربما قد لا يكون للأمر أي أهمية، لكن ربما يعني أنها لم تكن ترغب في أن يتم الكشف عن أدنى علاقة أو أدنى تواطؤ بينهما. من يدري أن ألفارينغا لم يكلِّف تلك المرأة أن تحمل رسالة في حالة ما إذا سنحت لها الفرصة بوضع اليد عليها؟ وفي هذه الحالة، أي فرصة أخرى توفّرت لها غير هذه؟ وهل كانا محظوظين كما يحدث دائماً لأصحاب النية السيئة؟ هذا، على الأقل، يفسِّر بطريقة منطقية ما تنطوي عليه القضية من تفاخر وشذوذ. إما أنه كان لا بدَّ للأمور أن تجري بهذا الشكل، مع كل المخاطر والسخافات الممكنة، وإما أن تضيع للأبد فرصة أخذ الرسالة. وهو شيء منطقي تماماً.

– نعم، سيدي القاضي، نعم. لكن المزعج في هذه القضية هو أن كل شيء منطقي بشكل ضئيل، لكننا في نهاية المطاف لا نعرف أي شيء معرفة يقينة. مهما يكن، فإنه من بين كل الاحتمالات، تحوم شكوكي بالأحرى حول زوجة المهندس. لكنها هي بالضبط من تفلت من الشكوك، وربما لم تسرق الرسالة.

– لماذا تشك فيها أكثر من الآخرين؟

– بسبب وجهها. لها وجه غريب، وجه ذكي، بعينَين غريبتَين، وجبهة ليست بجبهة امرأة، وتصرفات جدّ خاصة. بالحدس، أقول إنها هي التي كانت [. . .] لكن هذه القضية هي من القضايا التي لا أعرف فيها رأسي من قدمَي، بسبب الحدس فوق كل شيء.

(رغم أنه، في مثل هذه القضايا المعقدة، من أرتاب منه أكثر هو من أتوجس منه).

- هذه المرأة تبدو ذكية جداً، بل إنها حيوية أكثر من اللازم، لكن لا تبدو عليها أدنى علامات المكر والحيلة. يظهر أنها خلقت لتعطي الأوامر ولا بدَّ أن أيام زوجها ليست دائماً خمراً وعسلاً. لكن، امرأة كهذه، لو أنها أرادت أن تأخذ الرسالة لخدعت الزوج -لأنها تسيطر عليه، هذا واضح- ولأخذتها منه. لم تكن في حاجة إلى كل هذه التعقيدات لتأخذ الرسالة.

- لكن، من قال لك إنها لم تسيطر على زوجها ولم تأخذ منه الرسالة، وأنها لم تختلق هذه الحكاية لتبرِّر سلوكها وتشرح موقفها.

- مهلاً، يا غيديش، قال القاضي. لقد استبعدتَ الزوجة ولم تستبعد الزوج. ألم تلاحظ بأن الزوج هو الشخص الوحيد الذي أتيحت له فرصة أخذ الرسالة؟ كانت الزوجة على الدرج والخادمة في الرواق. كم من الوقت استغرق ليذهب ويلاقي زوجته أمام باب الجارة؟ لا نعرف. وبحسب ما يقوله لنا، هو الذي كان في مكان يُرى منه كل شيء، وإذا كان في مكان يُرى منه كل شيء، فقد كان بإمكانه أن يقوم بأي شيء هناك حيث يستطيع أن يرى لوحده فقط. لاحظ هذا الأمر جيداً، يا غيديش.

ضرب غيديش ركبته اليمنى بيده المبسوطة.

- لم أفكر في ذلك! مع أنه أمر في غاية البساطة، سيدي القاضي! لكن كل هذا جد معقّد لدرجة أننا قد نفكر في كل شيء، عدا في الحقيقة.

- لكن، لماذا لا يكون أحدهم قد دخل قبل أن يخرج الزوجان؟ صحيح أن البيت ليس من ذلك النوع الذي يمكن أن يدخل إليه المرء ويختبئ. والمكان الأكثر ملاءمة ليختبئ فيه المرء هو

مكتبة الرمحي أحمد

الصالون؛ لأن بابه هو الأقرب ويستطيع شخص ما أن يختبئ وراء أحد الكراسي. لكنه قد يظل هناك محبوساً بالقفل بعض أن وُضعت الرسالة.

وما كان بإمكانه أن يأخذ الرسالة، وهو مختبئ هناك، ثم بعد ذلك. . .

- كلا، يا صديقي. بعد ملاحظة غياب الرسالة قد يبحثون عنها في أي مكان. وإذا ما بحثوا عن رسالة لا يمكن ألّا يجدوا رجلاً.

- وحدهما الخادمة وسيماش لم تكن لهما من فرصة غير هذه.

- تماماً غيديش، إلا إذا استسلم الرجل والمرأة في آخر لحظة لغواية فتحها، بعد أن تستدرجه معها، كما في هذه الحالة؛ لأنهما لاحظا أن الأمر سهل نظراً إلى الطريقة التي وضع بها الختم، أو لأي سبب آخر. وبعد أن يكونا قد فتحا الرسالة، ربما يجدان سبباً وجيهاً كي لا يتسلم سيماش الرسالة. من يدري أي سرّ تجاري هام كانت تحويه الرسالة؟ وأي غواية اغتناء ربما كانت تحتويها تلك الرسالة، التي يبدو أنها ربما كانت تضمُّ في داخلها وثائق قد تُعبِّد الطريق نحو هذا الاغتناء؟ لاحِظ، غيديش، أن الشيء الوحيد الذي يبدو لي فعلاً محتملاً في هذه القضية، هو أن الرسالة تحوي شيئاً من هذا القبيل.

رفع غيديش يده اليسرى نحو رأسه ثم نهض وهو ينظر نحو الأرض.

- ولا يزال هذا هو الأمر الأكثر احتمالاً، ولا يزال هذا هو الأمر الأكثر احتمالاً. . . لكني، مع ذلك، لا أصدِّق.

ثم خرج من القاعة دون أن يقول شيئاً، وابتسامة القاضي تتبعه.

[3 - غيديش يلتقي بكْواريشْما ليعرض عليه المسألة]

لكنه، عندما وصل إلى الرواق، أطلق المفوض صيحة تعجُّب لم تكن موجَّهة سوى إلى ذاته، وأسرع الخطى في اتجاه زاوية مكتبه. بعد أن وصل إلى هناك، أخذ قبعته، ثم، ملمِّحاً دون أن يودِّع بأنه لن يعود سوى في اليوم التالي، خرج فوراً إلى الشارع. غَيَّر اتجاهه يميناً، تسلّق برشاقةِ الشباب سلاليم شارع ساو فرانسيشكو، ثم، بعد أن نزل مقطع شارع نوفا دو ألمادا الذي يؤدي إلى شارع ساو نيكولا، قطع هذا الأخير حتى النهاية. والنهاية هي شارع دوش فانكيروش الذي قطعه المفوَّض متوجِّهاً شمالاً. وعلى بعد مسافة قصيرة، ولج تحت سقف رواق، صعد إلى الطابق الثالث، ثم، حين وصل إلى يمين الدرج، شغّل الجرس وهو يديره. أجابته خطى حثيثة، وعندما فُتح الباب، ظهر أنها خطى طفلة لا هي بالكبيرة ولا بالنظيفة، رفعت رأسها لتنظر إلى وجه المفوض.

- هل الدكتور أبيليو كْواريشْما في البيت؟

- الدكتور. . .

بدأت الطفلة، لكن بما أنه في تلك اللحظة ظهر شكل رمادي لامرأة قادمة من يمين الرواق، فقد تكلَّم غيديش من فوق الصبية:

- صباح الخير، سيدتي. كيف حالك؟ هل الدكتور في البيت؟

مكتبة الرمحي أحمد

- كيف حالك، سيدي المفوض؟ أنا بخير، شكراً جزيلاً. الدكتور مريض...

- مريض؟ ثم دخل غيديش.

- إنها ليست سوى الحمى. حتى إنه ليس نائماً. ادخل من فضلك. لا داعي لسؤاله إن كان يستطيع أن يستقبلك.

ثم فتحت المرأة باباً ثانياً على يسار الرواق وأعلنت عن اسم الزائر. تقدَّم غيديش بعد الإعلان عن اسمه ثم دخل مبتهجاً إلى الغرفة.

وضع الدكتور كُواريشْما غطاء على ركبتيه وبدت لحيته المتناثرة أقل تناثراً لأنه لم يقصّها جيداً. فوق كرسي قديم من القصب، كان مسنداً إلى السرير ويُستعمل مثل طاولة، وضعَ كُواريشْما على غطاء السرير كتاباً صغيراً فتحه نحو الأسفل ثم استدار مبتهجاً نحو المفوَّض.

- يا لها من مفاجأة جميلة، يا غيديش، يا لها من مفاجأة جميلة! اجلس يا صديقي. لم أرَكَ منذ مدة طويلة. شدَّ غيديش على يده بحرارة، ثم سحب كرسياً وجلس في الجهة الأخرى، وكتفه اليمنى على أسفل السرير.

ثم تبادلا العبارات الأولى التي لا أهمية لها، وذات الطابع الودّي.

- هل جئت لتزورني بالصدفة، أم أن لديك نوايا سيئة؟

- لدي نوايا سيئة، يا دكتور، نوايا سيئة جداً.

- عافاك الله! قال شبه المريض متعجِّباً. كنت أفكُّ ألغازاً ميتة، وها قد جئتني بألغاز حية، إنك ستشفيني نهائياً... إذاً، بماذا يتعلق الأمر؟

– هذا اللغز حي، وهو حي للغاية. يتعلق الأمر، على ما يبدو، برسالة تمشي لوحدها، وبعدة أشخاص مشبوهين، وأمور أخرى تهم إحدى العائلات. (دسَّ غيديش يده اليمنى في جيبه ثم أخرج التبغ وورق السجائر). ويتعلّق الأمر أيضاً بمعرفة إن كنتُ جديراً بمستشفى ريهافوليش[1].

ثم مدّد غيديش الورقة الرقيقة ونشر فوقها التبغ الأشقر الرمادي الذي أخرجه من العلبة وأخذ يحشوه.

– بما أنك لن تذهب إلى ريهافوليش، وأؤكد لك ذلك بصفتي طبيباً، فإنني أرى في هذه الجملة إشارة جيدة. إنني على أحرّ من الجمر، يا عزيزي! احكِ لي دون الإسهاب في التفسير. احكِ بصراحة.

لفّ غيديش سيجارته، لمظ حافتها، أشعلها وأخذ يدخِّن.

– حسناً، دكتور. إذا ما أسأت الحكي، قاطعني وعبِّر عن ذلك. أنا، من جهتي، سأحاول قدر الإمكان أن أحكي لك القضية كما ينبغي.

ذكاؤه الطبيعي، أو ربما هذا الذكاء نفسه وتمرّسه على تقديم تصريحات في المحكمة أمام محامي الدفاع، جعلاه معتاداً على سرد الأشياء بطريقة طبيعية وواضحة. هكذا، وبدقة وتوزيع متقن للمادة عرض المفوض بالتفصيل قضية الرسالة المختفية، والأحداث الكلامية المرتبطة بها، والاستنطاقات التي قام بها، وتفتيش بيت المهندس، الذي وصفه بطريقة تكاد تكون تصويرية، ولقاءاته مع

(1) اسم مستشفى الأمراض العقلية بمدينة لشبونة في تلك الفترة. (المترجم)

مكتبة الرمحي أحمد

سيماش وألفارينغا. ثم قدّم، في الأخير، ملخّصاً أكثر غموضاً بعض الشيء، لأنه يتعلق بحجج وليس بوقائع، عن الحديث حول الاحتمالات الذي دار بينه وبين قاضي التحقيق.

وبما أن كْواريشْما لم يقاطعه ولو مرة واحدة، فقد بدا المفوض غيديش مرتاحاً وهو يختم. وحين ختم كلامه، قال:

- هل كان سردي جيداً، يا دكتور؟

- ممتاز. لقد رأيت أنني لم أقاطعك.

- كان بإمكانك أن تقاطعني وتطرح أسئلة بعد ذلك. أنا سعيد لأنني ما زلت أعرف كيف أسرد حكاية بشكل لائق. ويبدو أن هذا دليل على أنني لست مجنوناً تماماً.

- إن لم أقاطعك، في الحقيقة، فلأنني لم أكن في حاجة إلى ذلك. لكن لدي سؤال، سؤال واحد، أريد أن أطرحه عليك.

- هل نسيتُ أن. . .؟

- لا، إن الأمر لا يتعلق بأي نسيان. أود لو تزوّدني بمزيد من التفاصيل حول شيء معيّن.

- أي شيء، يا دكتور؟

- ضحكة مهندس المعادن.

- كيف؟! ثم أخرج غيديش السيجارة من فمه، حيث ظلّت بلا جدوى، لأنها كانت منطفئة منذ مدة.

- ضحكة ألفارينغا، كرّر كْواريشْما. أريدك أن تصف لي بدقة كيف ضحك. لا تقل شيئاً! إنك تتمتع بذاكرة تصويرية رائعة. وأريدك أن تستعملها في هذه المناسبة. عندما أخبرتَ ألفارينغا أنه من الممكن أن يكون ثمة شيء في الأمور التي تناولها مع الأب سَا قد سبّب له إزعاجاً، قلت إنه أخذ يضحك، وأنه شرح أنه ضحك

لأن الأمر كان في غاية السخافة حتى أنه أعطاه رغبة في الضحك.

- نعم، هذا ما حصل بالضبط.

- حسناً، أودُّ لو تشرح الأمر التالي باستعمال حسّ ملاحظتك الرائع: هل أخذ ألفارينغا يضحك على الفور؟ هل ابتسم ألفارينغا بكل أسارير وجهه قبل أن يقهقه؟ هل اكتفى ألفارينغا بالابتسامة بشفتيه قبل أن يلزم نفسه بالضحك؟ أم أن ألفارينغا ابتسم فجأة بعينيه فقط، قبل أن يُنزل الابتسامة فوق فمه، ويكلِّف نفسَه الضحك؟

كان المفوض غيديش يتأهّب ليتكأ إلى الوراء في الكرسي، ثم أغمض عينيه عند النصف قبل أن يغمضهما تماماً. لكنه اندفع إلى الأمام، بتعبير حائر، لكنه متألِّق.

- هذا ما قُلته في آخر كلامك، يا دكتور، في آخر كلامك. ما أن طرحتُ عليه السؤال حتى أخذت عيناه تلمعان، وبعد ذلك، لحظة بعد ذلك، ابتسم بشفتيه؛ ولم يضحك إلا بعد ذلك، في الحقيقة، ويبدو لي أن عبارة «يكلِّف نفسَه الضحك» هي المناسبة تماماً. لم أنتبه إلى الأمر لحظتها، لكني أفطن إليه الآن. إنني ما زلت أسمع صوت ضحكته، وما تقوله صحيح. طبعاً، أنا بصري بأُذنيَّ.

- عبارة جيدة، يا غيديش، وجوابك يتوافق مع ما خمّنتهُ. لم أكن أرغب، مع ذلك، في أن أوحي لك بأي شيء. جيد. هذه من أكثر القضايا إثارة. هل ثمة شيء آخر تذكره وتستطيع أن تحكيه لي؟

- لا شيء، مع الأسف، يا دكتور... [...]

* * *

[...]

- ثمة ثلاثة أنواع من الابتسامة، يا عزيزي غيديش: ابتسامة تظهر في العينَين، ابتسامة تظهر في الشفتَين، وابتسامة تظهر في

الشفتَين والعينَين معاً. أما الابتسامة التي تظهر في العينَين فيمكن أن تنتقل إلى الشفتَين، والابتسامة التي تظهر على الشفتَين يمكن أن تغزو العينَين، لكن المهم هو مصدر الابتسامة؛ أما الباقي فمشكوك في أمره، بما أنه يمكن أن يكون مجرد ردّ فعل عضوي بقدر ما يمكن تضخيمه بخدعة، حدسية أو غير حدسية. لست أدري إن كنتُ واضحاً بما يكفي...

- تفسيرك لا بأس به، يا دكتور. لكني أنتظر منك مزيداً من الشرح...

- هذا ما سأقوم به. إن الابتسامة التي تولد في الشفتَين وفي العينَين، في الوقت ذاته، هي الابتسامة الكاملة والطبيعية. إنها ابتسامة شخص يبتسم من دون تحفُّظ ولا قصد سيّئ، فقط لأن ما قيل، أو تمّ، يدفع إلى الابتسام؛ لأنه وجد الأمر مسلياً أو أنه جعل الشخص مُضحكاً. أما الابتسامة التي تنشأ في الشفتين، دون أن ترافقها العينان على الفور، فهي ابتسامة شخص لا يجد تسلية في الأمر حقاً، أو [...]؛ لأن الفم هو العضو الاجتماعي للوجه.

بالمقابل، عندما تولد الابتسامة عفوياً في العينَين، دون أن تغزو الفم مباشرة، نجدُ الأمر مسلّياً، لكن في حركة حدسية للفكر تنشأ عن كوننا نجدُ الأمر مسلّياً. إذا ما قمنا بحماقة أو نطقنا بها، أمام شخص يتصرّف معنا بتكلُّف، فإننا نرى الانتقاد في عينَيه؛ لكننا لن نراه في شفتيه إن كان قادراً على التحكم في ذاته. إن تعبير العينين هو العفوية الخالصة؛ وهي الأقل خضوعاً للإرادة من كل أنواع التعبير الأخرى. فعلى وجه صارم وخالٍ من أي تعبير، لا يمكن للخوف، والرغبة، والقلق أن يتواروا عن الأنظار. فالنظرة ربما ليست هي مرآة الروح، لكنها مرآة حركة الروح.

[4 - تأمُّلات في القضية]

- لقد نظرتُ إلى القضية بالشكل التالي، قال غيديش. إما أن الرسالة قد اختلسها شخص واحد، دون تواطؤ مع شخص آخر، وإما أنه قد اختلسها شخص ما بتواطؤ مع شخص آخر. في الفرضية الأولى، لا يمكن أن يتم اختلاسها إلا من طرف الخادمة العجوز، وهي الشخص الوحيد الذي كان في البيت لهذا الغرض، لأنه بدا لي أن الطفل كان صغيراً جداً كي يتلقّى تعليمات من هذا النوع وينفِّذها، لو أن أحداً ما وجّهها إليه. في الفرضية الثانية، ودون الحديث عن الطفل طبعاً، فإن التواطؤ يمكن أن يكون من هذه الأنواع التي سأذكرها: بين الزوج والزوجة، بين الزوج والخادمة، بين الزوجة والخادمة، بين ثلاثتهم، وبين سيماش والخادمة.

لقد استبعدتُ التواطؤ بين الثلاثة. لو كان ثلاثتهم متواطئين لما احتاجوا إلى تدبير خدعة بكل هذه الغرابة وهذا الغموض؛ فلا حاجة إلى وقت طويل لتدبير شيء ماكر كهذا، شيء يمكن أن يضلل الشرطة، لو تمَّ اللجوء إليها كما هو الحال هنا، ويلقي بالشكوك على أشخاص من خارج البيت، دون الإلقاء بها فقط على من خطّطوا لكل شيء.

لقد استبعدتُ التواطؤ بين الزوج والزوجة، لأنهما كانا خارج البيت، والخادمة تؤكد أن الرسالة كانت فوق الطاولة عندما أُغلق

مكتبة الرمحي أحمد

باب الصالون بالمفتاح. فلم يكن بوسعهما أن يسرقا الرسالة إلا بواسطة الخادمة، وهذا يقودنا إلى التواطؤ بين الثلاثة، وهو ما استبعدتُه سلفاً.

التواطؤ الأكثر احتمالاً هو بين أحد الزوجين والخادمة، وأكثر الفرضيتَين احتمالاً هو التواطؤ بين المهندس والخادمة، لأنها كانت تشتغل في بيته منذ مدة طويلة، وليس في بيت زوجته، وإخلاصها تجاهه كان، طبعاً، أكبر من إخلاصها للزوجة، مهما كان تفانيها في خدمة هذه الأخيرة. من جهة أخرى، كانت الظروف تشير أكثر إلى تواطؤ ربما كانت فيه الزوجة مشاركة: هي صاحبة الفكرة الهستيرية أو شبه الهستيرية بأن يخرجا للتنزه حتى لا يجدهما سيماش في البيت؛ هي صاحبة فكرة وضع الرسالة فوق الطاولة التي ذكرناها وإغلاق الباب بالمفتاح، أي أنها هي من ابتكرت كل ذلك الديكور الذي وقعت فيه تلك المكيدة. لكن، لا يبدو من المحتمل أن تكون الزوجة قد نفّذت، بتعاون مع الخادمة العجوز التي كانت تشتغل لدى والدي زوجها، والمخلصة جداً لهذا الأخير، تواطؤاً قد يكون، بأي حال من الأحوال، موجَّهاً ضدّ زوجها. لذا، إن هاتين الفرضيتَين كانتا غير محتملتَين، رغم أنهما لم تكونا مستحيلتَين تماماً. وهذا ما بدا لي أكثر عندما قلتُ مع نفسي إنه لا جدوى من ابتكار لغز من هذا القبيل، ثم جعلُه متوقِّفاً على تنفيذ خادمة يُفترض أنها قد لا تقاوم استنطاق الشرطة.

أما بخصوص التواطؤ بين الخادمة وسيماش، فقد استبعدتُه أيضاً: فالخادمة بالكاد كانت تعرف سيماش، ورغم أنه في هذه الحالة لم يكن اللغز عبثياً للغاية لأنه كان لا بدَّ من ظروف يخلقها الغير كي تختفي الرسالة، كانت هناك طرق مختلفة وعملية أكثر لتدبير

هذه القضية، وهذه الحيلة بطبيعتها ما كانت لتبتكرها امرأة فطّة مثل الخادمة، أو رجل أعمال مثل سيماش.

لذا خلصتُ إلى أن أعتبر أن أكبر احتمال هو أن الرسالة قد اختلسها شخص واحد، تصرّف بمفرده. ولم يكن ذلك من فعل الزوج والزوجة، لأنهما كانا خارج البيت. كان لا بدَّ من الاختيار بين الخادمة وسيماش. بيد أن الخادمة تقول إنها ما إن فتحت الباب حتى رأت أن الرسالة لم تعد موجودة فوق الطاولة. سيماش لم يكن قد دخل إلى الصالون بعد، بحسب قوله، حين فطن من بعيد إلى غياب الرسالة. نجد مرة أخرى الفرضية القائلة إن الخادمة هي من اختلس الرسالة، لحسابها الخاص، أو لحساب شخص لا يظهر بين الأشخاص الذين نعرفهم. منطقياً، لا أعرف وسيلة للهروب من هذه الفرضية.

والحال، يا دكتور، أنني أعترف بأن الاستنطاقين اللذين أخضعتُ الخادمة لهما لم يرضياني كثيراً بخصوص هذه الفرضية، وإن كنتُ لا أرى فرضية أخرى أحسن منها. أنت تعرف أنني تعودت على أن أتعامل مع جناة من مستوى منحطّ، أي مع جناة عاديين أو من أصل وضيع، وأنني أعرف هؤلاء الناس حقّ المعرفة. لديهم أحياناً حيل تنطلي على أشخاص أكثر ذكاء مني، أما أنا فنادراً ما تنطلي علي حيلهم. أتعرف يا دكتور، وهذه ليست حجة بل يقين أؤمن به، أن انطباعي المباشر عن الخادمة هو أنه لا علاقة لها بهذه القضية. هذا ما توصّلتُ إليه.

رمى غيديش سيجارته في المرمدة وأسند يده على ركبتيه. ابتسم له كْواريشْما وسحب نفَساً من سيجاره.

- كل هذا منطقي تماماً، لكنه ليس مقنعاً في الحقيقة.

- ليس مقنعاً تماماً. . . جئت أزعجك كي تقول لي إن كانت هناك من طريقة للتحقيق، أي توجيه أسلكه لأجد على الأقل أثراً لهذا اللغز كي أتقفاه. أتظن أنه من الممكن حلّ هذه المسألة، على الأقل اعتماداً على المعطيات التي أتوفر عليها؟

- يمكنك أن تفعل أكثر من هذا.

- أكثر من هذا، لكن كيف؟

- لقد حللتُ المسألة، قال الدكتور كْواريشْما.

- كيف ذلك؟ صاح غيديش.

- إن المعطيات كافية لحلّ المسألة برُمّتها. هنا بالضبط، فقط بالاستماع إليك، حللتُ المسألة برُمّتها.

- برُمّتها، بأي معنى، يا دكتور؟

- بمعنى أنني أعرف من اختلس الرسالة، كيف اختلسها، وماذا كان محتواها.

ألقى المفوض غيديشِ على كْواريشْما نظرة فيها ذهول وبلاهة.

- . . . وماذا كان محتواها؟ قال، كما لو أنه ينهي بصوت عالٍ فكرة صامتة.

فابتسم المريض ابتسامة عريضة.

- هل أنت على عجل من أمرك، يا غيديش؟

- أنا، على عجل! صاح المفوض متعجِّباً. إنني على عجل، نعم، ولكن لأستمع إليك.

- إذاً، استمع إلي، قال الدكتور كْواريشْما.

[5 - استنتاجات. سايكولوجيا الجريمة]

- لنفترض، يا غيديش، أن ثمة هنا شيء ما يشبه حكاية نشرت في جريدة ما. ماذا سيكون رأيك؟

- ماذا سيكون رأيي؟ أظن أنه أمر غريب جداً ولا يقبل أي احتمال.

- تماماً. إذاً، اقتنعتَ بحسب ما أثبته لك أن هذا جرى فعلاً بهذه الطريقة؟

- نعم لقد أقنعتني تماماً، يا دكتور.

- يبقى أن نبرهن لماذا حدث شيء لا يقبل أي احتمال، أو، بعبارة أخرى، لماذا اختارت هذا المرأة الوسيلة العجيبة حقاً، التي رأيتَها للتو، وقد كان بإمكانها، لو شاءت، وبما تملكه من مهارة، أن تلجأ إلى عدة وسائل أخرى. هنا، عزيزي غيديش، يكمن أهم شيء في هذه المسألة.

أي فكرة تواطؤ هي فكرة سخيفة. تواطؤ بين الزوج والزوجة؟ بين الزوج والخادمة؟ بين الزوج، والزوجة، والخادمة؟ ألم يكن بإمكانهم أن يجدوا شيئاً أحسن وأكثر احتمالاً من هذه الحيلة؟ طبعاً، هذا ممكن. وحدها جماعة من المعتوهين كان بإمكانها أن تفكر في خطة من هذا القبيل. وإذا ما تعلّق الأمر بتواطؤ بين شخص من خارج البيت وشخص من داخله، فلا يتعلق الأمر حقاً بتواطؤ بالنسبة

مكتبة الرمحي أحمد

إلى قضيتنا : ببساطة يتعلق الأمر بسرقة نفّذها شخص من داخل البيت لصالح شخص من خارجه.

لكن، باستبعاد فكرة التواطؤ بين أشخاص من البيت، نستبعد الفكرة التي تقول إن الزوج والزوجة ربما يكونان هما من سرقا الرسالة.

إنني لم أرَ الأماكن وأعتبر ذلك امتيازاً بالنسبة إلي. إن الملاحظة والاستدلال ينتميان إلى فئات ذهنية مختلفة. من يمارس الاستدلال يكون عُرضة لتشويش الملاحظة.

لا، إن الأمر لا يتعلق برسالة تغادر صحبة شخص ما غرفةً مغلقة. إنها مجرد رسالة. وانطلاقاً من اللحظة التي نرى فيها بوضوح أن الأمر يتعلق برسالة، تتخذ المسألة شكلاً خاصاً، لا أقول شكل احتمال، بل إمكانية أكيدة. ولا تعود غير مفهومة مادياً.

لنرى أولاً الواقعة المادية بوصفها كذلك.

* * *

- في كل القضايا التي وقعت فيها جريمة، أو يُعتقد أنه وقعت فيها جريمة، قال الدكتور كُواريشْما، وبعد إثبات الواقعة، يجب تفحُّص خمسة ظروف مختلفة، كلها تتعلق بالجريمة، أو بالجريمة المفترضة، وكلها ترتبط فيما بينها، بحيث إذا كانت بعضها مجهولة، يمكن أن نجدها عن طريق تلك المعروفة. وستكون الطريقة دائماً هي نفس الطريقة: أولاً، أن نحدِّد بشكل جيد الظروف المعروفة؛ ثانياً، بعد معرفة هذه الظروف، نحدِّد إن كانت معروفة بشكل كامل، أو ليست معروفة بشكل كامل؛ ثالثاً، العمل على جعل الظروف التي يمكن أن تكون غير معروفة تماماً وغير نهائية ظروفاً معروفة تماماً

ونهائية. بعد القيام بهذا الأمر، نباشر فصلاً جديداً من التحقيق المنطقي؛ لكننا سنكتفي إلى حدّ الآن بهذا الفصل.

إن الظروف الخمسة التي تحدّثتُ عنها، بخصوص جريمة، أو جريمة مفترضة، هي كالتالي: أولاً، أين ارتُكبت الجريمة؛ ثانياً، متى ارتُكبت؛ ثالثاً، كيف ارتُكبت؛ رابعاً، لماذا ارتُكبت؛ خامساً، من ارتكبها؟ الظرفان الأولان هما ظرفان ماديان؛ والظرفان الأخيران ظرفان غير ماديَّين؛ والظرف الثالث يشترك معهم في الخصائص.

في هذه الحالة، وانطلاقاً من مبدأ مقبول، رغم أننا لا نستطيع بعد أن نصفه بالثابت -نظراً إلى اللبس الذي نتج عن الشهود المباشرين- يقول إن الجريمة -أي سرقة الرسالة، التي علينا أن نعتبرها كذلك إلى حدّ الساعة- قد نفِّذت في شقة المهندس، بين الساعة التي غادر فيها هذا الأخير مع زوجته وساعة وصول المرسَل إليه، فإننا نعرف بالضبط مكان ووقت الجريمة. إذا لم يكن هناك من شهادة كاذبة أو تحريف لشهادة، نعتبر هاتين النقطتين ثابتتين.

أما النقط الثلاثة الأخرى فهي، عكس ذلك، غامضة. بداية، لا نعرف كيف اختُلست الرسالة؛ لا نعرف، بما أننا نجهل محتواها، بل لا نتكهّن به. لا نعرف سبب اختلاسها؛ ولا نعرف من اختلسها.

أقول إن هذه النقط الثلاثة غامضة. لنرى الآن إن كانت غامضة بنفس الدرجة. للوهلة الأولى، سرعان ما نكتشف شيئاً: بينما نجهل من يكون منفِّذ الجريمة، وسبب ارتكابها، فإن طريقة ارتكابها ليست فقط مجهولة، بل غريبة. لكن، أن تكون غريبة، فهذا شيء في حدّ ذاته: إذا ما عرفنا عن شيء ما أنه غريب لا نستطيع أن نقول إننا لا نعرف عنه أي شيء، بما أننا نعرف أنه غريب، وهذه معرفة في حدّ ذاتها.

مكتبة الرمحي أحمد

لنمرّ الآن إلى المرحلة الثانية من تحقيقنا. وتتلخص في طريقتَين منطقيتَين: أولاً، أي عنصر من العناصر المجهولة هو العنصر الذي نجهله أكثر؟ ثانياً، أي عنصر من العناصر المجهولة هو الأكثر غرابة؟ إن العنصر الذي لا نجهل عنه الشيء الكثير هو أسهل عنصر كأول عنصر من عناصر البحث، لأننا نعرف عنه جزءاً. إن العنصر الأكثر غرابة هو أسهل عنصر [بوصفه ثاني] عنصر من عناصر البحث، لأنه كلما ازداد عنصر ما غرابة، كلما قلت الفرضيات التي تستطيع تفسيره.

- لماذا، يا دكتور؟ سأله غيديش.

- لماذا ماذا؟ سأله الدكتور كْواريشْما.

- لماذا كلما ازداد عنصر ما غرابة، كلما قلت الفرضيات التي تستطيع تفسيره؟

- لأن الغريب ليس عادياً، وطبعاً أسباب ما هو غير عادي أقل من أسباب العادي. لو وجدنا غداً في أحد شوارع لشبونة رجلاً قُتل بطعنة سكين، فإن طعنة السكين لوحدها -لا أشير إلى حد الآن إلى هوية الشخص ولا إلى الظروف التي يمكن أن نستنتجها من ذلك- لن تسمح لك باستنتاج كافٍ حول طبيعة المجرم. لو أن هذا الرجل قُتل بطعنة سكين ذَلقة، فإن عدد المجرمين المفترضين سيتقلص بالضرورة. لو أنه قتل بضربة سهم، سيصعب علينا أن نجد المجرم، لكن سيكون من السهل استبعاد عدد كبير من المجرمين دفعة واحدة. إنك قد فهمت، أليس كذلك؟

- تماماً.

- حسناً، في هذه الحالة التي تهمنا، تابع كْواريشْما، ندرة ما نعرف وغرابتُه توجدان في نفس العنصر من البحث: طريقة تنفيذ

الجريمة. إذاً، على هذا الأمر يجب أن نركِّز بقية تحقيقنا.

لنرى أين تكمن الغرابة. إنها تكمن في اختفاء رسالة من غرفة أُغلقت بإحكام. لنحصر عدد الاحتمالات؛ منطقياً، يتعلق الأمر باختفاء شيء جامد من غرفة مغلقة. والآن، عزيزي غيديش، لنحصر عدد الاحتمالات أكثر فأكثر، وسنصل إلى نقطة لم ترَها من قبل. تتعلق هذه النقطة بطبيعة الشيء المختفي. لقد اعتبرتَ اختفاء رسالة من غرفة مغلقة مثل اختفاء أي شيء آخر جامد من غرفة مغلقة. ولم ترَ أن الرسالة شيء خاص، إذا ما أخذنا بالاعتبار حجمها. فعلاً، إن رسالة ليست جثة أو علبة: إنها شيء صغير، يتميّز أساساً بقلة سُمكه. بعبارة أخرى، الرسالة شيء جامد يمكن أن توضع في شقّ، في صدع، وهو ما يستحيل بالنسبة إلى الأشياء، جامدة أو غير جامدة، أكثر سمكاً.

- صه! قال المفوض غيديش. أشعر برغبة في أن أذهب لأتعلم المشي.

- هذا بسيط، أليس كذلك؟ سأل كْواريشْما.

- لا تحدّثني عنه أكثر من هذا، يا دكتور! تابع كلامك...

- إذا نظرنا إلى المسألة بهذا الشكل، فإنها سرعان ما تنقلب رأساً على عقب. إن الأمر لا يتعلق باختفاء شيء من غرفة أُغلقت بإحكام. يتعلق الأمر باختفاء شيء مسطّح، لو كان بالغرفة شقوق أو صدوع يمكن أن يمر منها، لا يختفي من غرفة أغلقت بإحكام. فهل كان عرضي واضحاً؟

- بل ممتازاً، دكتور كْواريشْما. اذهب أبعد من هذا...

- إذاً، أي نوع من الشقوق أو الصدوع يمكن أن تكون في صالون المهندس؟ إن البيت، بحسب ما أخبرتني، بني بشكل جيد،

مكتبة الرمحي أحمد

وفي هذا النوع من البيوت توضع النوافذ بعناية مدروسة. وعلاوة على ذلك، يبدو أنه لا يُنصح بالخروج من النوافذ، لأنها لا تتوفر على شرفات وتوجد في الأعلى بالطابق الثاني.

تبقى لدينا الشقوق والصدوع تحت الأبواب، وهي موجودة بالتأكيد، لأنها توجد في كل مكان، عدا حيث توضع سجّادة أو مشمّع أرضية ملتصقاً بالباب، لكن في هذه الحالة ليس ذلك شيئاً عملياً إن لم يسمح بفتح الباب نحو الخارج. يمكننا أن نؤكد أن هناك طريقتَين ممكنتَين لخروج رسالة من غرفة لم تغلَق بالكامل: الشقّ الموجود تحت باب الدخول، والشقّ تحت الباب المغلق. إذاً، بما أن الباب المغلق يوجد مباشرة أمام الطاولة الصغيرة التي وُضعت فوقها الرسالة، فإن الفراغ الموجود تحت هذا الباب هو المؤهَّل طبعاً ليكون نقطة خروج ممكنة.

لنرى الآن بأي طريقة يمكن إخراج الرسالة من فوق الطاولة وتمريرها إلى الخارج، عبر هذا الشقّ تحت الباب. لا داعي للتفكير ملياً؛ خيط يُشدّ إلى الرسالة بواسطة دبوس أو أي طريقة شدّ أخرى أقل حجماً وسُمكاً. يُعدُّ الخيط سلَفاً، يُمرَّر عبر الرواق من تحت الباب حتى الطاولة مع الدبوس في طرفه. تُوضع الرسالة فوق الطاولة، ويتم ربطها بالدبوس الذي كان معدّاً هناك. بعد إغلاق الباب، يخرج الشخص الذي أعدَّ كل شيء إلى الرواق، يسحب الخيط فتتبعه الرسالة وهي تقطع الصالون، ثم تمرّ من تحت الباب وتختفي إلى الأبد. والحال أن. . .

نهض المفوَّض غيديش من كرسيه، وقد صار وجهه أحمر مثل حبة طماطم، ثم وجّه لكمة قوية إلى الطاولة وهو يتلفّظ بعبارات تعجُّب تتشكل أساساً من كلمات لا يقبلها القاموس العادي. وبما أن

هذه القصة لا ترغب في استعمال سوى الكلمات المتداولة فإنه لن يتم تسجيل تلك العبارات هنا.

- عفواً، دكتور... قال غيديش، ثم جلس من جديد.

- شيء واحد هو الذي سهّل هذه المناورة بشكل كبير؛ وأظن، من جهة أخرى، أنه هو الذي أوحى بها، بطريقة ما: اللون المشترك بين سجّاد الصالون والثوب الذي كان يغطي الطاولة. خيط حريري ذو لون أخضر داكن، أو خيط حريري ذو لون أخضر عادي مضاعف، لأن أي واحد منهما يفي بالغرض.

الآن، بعد أن حدّدنا الطريقة الوحيدة المحتملة التي ربما تمَّ بها استخلاص الرسالة من الغرفة المغلقة كما زُعم، لنرى من هو الشخص الذي اختلسها. إنه الشخص الذي وضعها هناك. وحين نرى أن هذا الشخص هو الذي اقترح فكرة الجولة والغياب لحظة وصول سيماش، وحين نلاحظ أن هذا الشخص له مزاج هستيري، أي أن له ميولاً إلى الأشياء الخيالية والغريبة، فإن طريقة اختفاء الرسالة لا تجد حلّاً فحسب، بل تفسيراً واضحاً، لطريقتها ودوافع هذه الطريقة.

لقد توصّلنا إذاً إلى استنتاجَين: نعرف كيف اختُلست الرسالة، ونعرف أن زوجة المهندس هي من اختلسها.

انطفأ سيجار كُواريشْما. وهو يقطع محاجّته، قَدَح فكّاك الألغاز عود ثقاب آخر فأعاد الحياة إلى التبغ. لكن، قبل أن يستأنف الدكتور كلامه، انفجر غيديش مرة أخرى، بعد أن ظلَّ على مشارف السكتة الدماغية، والذهول والسخط.

* * *

مكتبة الرمحي أحمد

هناك ثلاثة أنواع من العقليات: عقلية الإنسان الذي نسميه سوياً، عقلية الإنسان الذي نسميه شاذاً دون أن نصفه بالمجنون، وعقلية المجنون الخالص. لا يوجد فرق واضح بين هذه العقليات، إذا ما تمَّ تناولها اثنين اثنين؛ أعني أنه رغم أن الفرق بين عقلية الإنسان السوي وعقلية المجنون واضحة، فلا فرق بين عقلية الإنسان السوي والإنسان غير السوي ببساطة، أو بين عقلية هذا الأخير، في أشكالها الأكثر تقدُّماً، وعقلية المجنون بالمعنى الحصري. مهما يكن، فإنه ليس من الخطأ التمييز بين هذه الأنواع الثلاثة من العقليات. سوف أقول لماذا، وسوف أشرح أين يكمن هذا التمييز.

لا توجد لدى الإنسان الذي يُسمّى سوياً أي صفة عقلية راجحة بشكل يمنع عمل الصفات الأخرى؛ وهنا تكمن الحالة السوية، لأنها تنتج عن توازن الصفات العقلية فيما بينها، وهو ما يحدِّد الحالة السوية بشكل عادي. لدى غير السوي المجنون، ثمة هذه الصفة أو تلك من الصفات الذهنية، التي، إما لرجحانها وإما لنقصانها، تعيق فعل صفة، أو حتى أكثر من صفة من الصفات العقلية الأخرى. ولدى المجنون ثمة نفس المسلسل، لكنه يمضي إلى أقصى حدّ: إن إفراط عنصر عقلي أو غيابه لا يعيق فعل صفة أو عدة صفات أخرى، بل يعيق أيضاً فعل الذهن في مجموعه. يصعب التمييز بين الإنسان السوي والإنسان غير السوي لأنه ما دام لا يملك أي إنسان صفات متطورة بشكل متساوٍ أو غير متطورة، فقد يتعرّض في هذا الظرف أو ذاك من ظروف الحياة لحافز خارجي تنتج عنه صفة أكثر رجحاناً، أو أكثر نقصاناً من الصفات الأخرى، وقد تعيق ممارسة هذه الصفة أو تلك من الصفات الأخرى. ويصعب التمييز بين غير السوي البسيط والمجنون لأنه، عادة، تحت تأثير حافز قوي، فإن العرقلة المترتبة

عن الصفة المريضة قد تسيطر، ليس فقط على هذه الصفة أو تلك، بل على مجمل، أو تقريباً على مجمل العقل.

إن اقتراب الجنون، وبتعبير آخر المرور، لدى الفرد من حالة الشذوذ إلى حالة الجنون، يُلاحَظ عندما يبدأ العنصر المرضي في غزو مجموع العقل بشكل واضح، أي أنه يبدأ في الظهور على شكل أفعال تتوقف، ليس على هذا العنصر أو ذاك، بل على الاستعمال المجرد للعقل.

لنتأمل حالة هذه المرأة، وننظر إليها على ضوء هذه الاعتبارات التي لم أبيّنها لك، لأنني أعتبرها، إن صحَّ التعبير، بديهية في حدّ ذاتها، أو مسلّمات. إن سرقة الرسالة، كما نفّذتها هذه المرأة، غريبة تماماً، وتشير إلى شذوذ عقلي. لو وَجدَ شخص سليم عقلياً نفسه في وضع هذه المرأة، فإنه إما سيجد طريقة عادية لإخفاء الرسالة (رغم أن ذلك ينطوي على خطر كبير) وإما لن يجد أي طريقة بتاتاً، ويعتبر نفسه مجنوناً؛ يمكن أن يجنَّ كما نقول، ويُدمِّر الرسالة على مرأى ومسمع من الجميع، أو أن ينتحر، أو أي شيء آخر، يرتبط بالشذوذ ولا يصير غير عادي إلا بسبب تأثير ظروف غير عادية. ما لا يخطر على ذهن -أكرِّر ذلك- شخص عادي، **ما لا يخطر على ذهنه** هو أن يُخفي الرسالة بطريقة عجيبة كتلك الطريقة. حسناً...

- حسناً، لا ينبغي أخذُ ما يقال حرفياً... تابع، يا دكتور

- إن البارانويا، إن صحَّ التعبير، هذيان متواصل، حالة هذيان تصيب العقل المركزي. تكون الحواس سليمة، والتفكير سليماً، لكن الأساس الذي ينبني عليه هذان العنصران يكون كأنه مقلوب وزائغ.

إنني أسلِّم بوجود حالات نقصان في البارانويا، لأنني أسلِّم

مكتبة الرمحي أحمد

بوجود النقصان في أي شيء. كل شيء في الحياة حرمان من شيء أحسن.

هناك لدى الإنسان الماكر عنصر لا يرتبط بالذكاء. وهناك عنصر في التظاهر والتصرفات الخارجية يرتبط بالميولات الهستيرية.

هناك قدر من الحيلة -الحيلة اليقينة والثابتة- غريب عن الهستيريا بالمعنى الحصري. تلجأ الهستيريا إلى عدة حِيَل، لكنها حيل تظاهر، وليست حيل تنفيذ. إنها حيل ممثّل، إن صحَّ التعبير، أو مُسايِف، لكنها ليست حيل مهندس، أو، إن شئتَ، حيل مشعوذ.

لقد كانت سرقة الرسالة عملاً بارعاً وخطة متقنة، لكن فكّر لحظة، يا غيديش، فكّر: هل هو عمل شخص عاقل؟

- كلا، يا دكتور، إنه ليس كذلك بكل تأكيد.

- إن شخصاً عاقلاً قد يفكر في وسائل أخرى، وليس في وسيلة من هذا النوع. قد يفكر هستيري عادي في وسائل عمل مختلفة، كلهما موجَّهة لخدع الزوج، وليس لخدع الإنسانية جمعاء، إن صحَّ التعبير.

[. . .]

يتميز الجنون أساساً بفقدان توافق العقل مع ما نسميه الواقع، أي بعدم القدرة على التمييز بين الظواهر الذاتية والموضوعية. الجنون هو أن تحلم وأنت مستيقظ دون أن تنتبه إلى الأمر.

لدى الإنسان السوي، تكون أسباب الفعل عادية وطرق الفعل عادية كذلك. إن الإنسان السوي عادي في أسباب فعله ومبتذل في طريقة مروره إلى الفعل. لدى الإنسان غير السوي، لكن ليس لدى المجنون، إما تكون أسباب الفعل غير عادية والمرور إلى الفعل

عادي؛ وإما تكون أسباب الفعل عادية والمرور إلى الفعل غير عادي.

لدى الإنسان السوي، هناك توافق بين السبب والمرور إلى الفعل؛ ولدى غير السوي هناك عدم توافق؛ لدى المجنون، هناك توافق زائف.

لدى السوي، تكون أسباب الفعل عادية والطرق عادية كذلك؛ هناك توافق بين هذه وتلك. لدى الإنسان غير السوي، وليس المجنون، تكون أسباب الفعل غير عادية والطرق غير عادية بدورها؛ ويوجد نفس التوافق بين هذه وتلك. لدى المجنون، ينتفي هذا التوافق؛ وسواء كانت أسباب الفعل عادية أو غير عادية، والطرق عادية أو غير عادية، فإننا إما نجد سبب فعل عادي مع طريقة غير عادية، وإما نجد سبب فعل غير عادي مع طريقة عادية، بل قد نجد سبب فعل غير عادي مع طريقة غير عادية أيضاً، لكنها لا توافق سبب الفعل.

سوف أعطيك مثالاً يُظهر ذلك بوضوح. هناك شخص يتجول في الشارع، وهناك شخص آخر، يمر من هناك، فيطأ قدم الشخص الأول. إن إنساناً عادياً يشعر بالألم، يحتجُّ ويثور غضبه، بشكل من الأشكال، وفق مزاجه، لكن غضبه لا يتجاوز حدّاً معيّناً. إن الإنسان غير السوي -إن كان شذوذه من هذا القبيل، طبعاً- يدخل في حالة غضب شديد، فيقوم إما بشتم من وطأ قدمه بمبالغة لا يبررها الحادث، وإما ينقضّ على مهاجمه. في هذه الحالة، يتمثّل الشذوذ في الغضب المفرط الذي يشعر به الفرد، لكن إذا سلّمنا بهذا الغضب المفرط، فإن العنف في توافق تام معه؛ لأن الإنسان السوي، لو شعر بهذا الغضب المفرط لتصرَّف بنفس الطريقة. لكن، لنفترض أن

مكتبة الرمحي أحمد

الإنسان الذي تعرّضت قدمُه للوطأة يغضب، يخفي غضبه، يحدِّق ملياً في الشخص الذي وطأ قدمه، ويتابع تأمله في الحادث، ليختلق في النهاية بداخله حكاية طويلة يكون فيها ذلك الشخص الذي وطأ قدمَه صدفة مبعوثاً من بعض أعدائه الذين كلّفوه بأن يطأ قدمه كي ينغّص عليه يومه، أو ليصيبه بسوء. في هذه الحالة، لا يكون لردِّ الفعل تجاه الحافز الخارجي أي علاقة مع الحافز.

إنني أشير هنا، بالطبع، إلى نوع خاص من الجنون. إن الرجل الذي تعرّضت قدمُه للوطأة يمكن أن يكون مجنوناً ويصدر عنه ردّ فعل إنسان سوي بكل بساطة، أو إنسان غير سوي بكل بساطة؛ لأن جنونه ليس ذا طبيعة تجعل ردّ فعل جنونياً كما في هذه الحالة.

في حالة المرأة التي تهمنا، كيف يمكن أن تتصرف امرأة سوية؟ قد تسعى إلى الحصول على الرسالة بطريقة عادية؛ فإن فشلت في مسعاها، تخلّت عن الحصول عليها، ثم إما أن تقتنع بأنها لن تحصل عليها بأي طريقة من الطرق، وإما أن ترضى بالأمر، بل ربما تشعر بإثارة عابرة، فتهرب أو تنتحر. قد يكون هذا حدثاً غير عادي في إطار عادي، لكن الشذوذ قد يأتي من الظروف وليس من الشخص.

في حالة هذه المرأة، كيف يمكن أن تتصرف امرأة غير سوية؟ نظراً إلى خطورة الحالة، قد تتصرف بطريقة غريبة وغير عادية، لكنها توافق اختلالها العقلي. بعبارة أخرى، قد تتصرف مثل امرأة عادية، لكن بطريقة فيها مبالغة. أو ربما تهرب، أو ربما تنتحر بعد ذلك مباشرة، حتى قبل أن ترى الكارثة بكل وضوح؛ أو ربما تحاول الحصول على الرسالة باللجوء إلى الإغراء والغواية، بالطريقة التي تناسبها وتحت ضغط القضية وخطورتها؛ أو ربما، أيضاً، قد تسرق الرسالة باندفاع جرأة فيها مجازفة؛ أو، أخيراً، قد تعطي زوجها

مخدِّراً، حتى تأخذ منه مفاتيح الصندوق وتسرق الرسالة. قد تتصرف مثل شخص عادي، لكن بجرأة أكبر، وعنف أشد، وذكاء أقوى.

في حالة هذه المرأة، كيف يمكن أن تتصرف امرأة مجنونة؟ إذا تعلّق الأمر بجنون اكتئابي، قد لا تفعل شيئاً. في حالة جنون ناتج عن اختلال ذهني، إما أن جنونها قد يسوء، وإما قد تصبح مجنونة تماماً، إن لم تكن قد بلغت الجنون التام بعد. في حالة جنون ذكي، قد تسعى إما إلى تعقيد القضية بواسطة حيلة سخيفة ومعقّدة، وإما تعمل على سرقة الرسالة بواسطة خدعة غريبة لكنها مبتذلة. لكنها مبتذلة، يا عزيزي غيديش: أثير انتباهك إلى هذه النقطة. إن حيلة المجانين معقّدة، ذكية، لكنها تخلو من الابتكار. إننا نلاحظ ذلك في المؤلّفات الأدبية التي يكتبُها المجانين: إنها غريبة بأفكارها أو تعابيرها، لكنها في الواقع جد مبتذلة. وهكذا نفهم ما قد يتعلق به الأمر: إن الابتكار ينشأ في دوائر العقل العليا، ودوائر العقل العليا بالضبط هي التي تتعرض لهجوم الجنون. تبقى دوائر العقل السفلى، التي يقتصر دورها على نشاط التقليد الخالص.

- لكن، دكتور...

- تماماً... كنتَ تريد أن تقول إن حالة هذه المرأة لا تنتمي إلي أي حالة من هذه الحالات الثلاث، وإن طريقة تصرُّفها لا هي بطريقة تصرُّف امرأة عادية، ولا طريقة تصرُّف امرأة غير سوية، ولا طريقة تصرُّف امرأة مجنونة...

- تماماً، لكن يا إلهي...

- حسناً، هذه النقطة، بالضبط، هي التي كنتُ أريد أن أوضّحها. أن طريقة تصرُّفها لا تتوافق مع أي فئة من فئات العقل

مكتبة الرمحي أحمد

البشري. إنها غير سوية، بالمعنى المنطقي، وليس السايكولوجي، إن صحَّ التعبير.

أشعل كُواريشْما سيجاره مرة أخرى، بينما ظلَّ غيديش يحدق فيه بتمعُّن.

- إذا كانت هذه المرأة قد تصرَّفت بطريقة لا تتوافق مع أي فئة من فئات العقل البشري الثلاثة، فإنها توجد الآن خارج هذه الفئات. هذا يعني أنها توجد في نقطة وسطى بين فئتين من هذه الفئات. إذاً، ما هي مميزات الطريقة التي استخدمتها في سرقة الرسالة؟ إنها، بالطبع، الغرابة غير المجدية، والمهارة الكاملة، أو الحيلة، التي تمَّ بها تنفيذ هذه الغرابة. إن الغرابة غير المجدية هي ما يميّز الفعل العادي. والمهارة، أو الحيلة، يمكن أن تكون من خصائص الحالة السوية أو الجنون. وفي كلتا الحالتين، مع ذلك، يكون الابتذال مبتذلاً؛ في هذه الحالة كانت الحيلة مبتذلة؛ وتكمن الغرابة في الطريقة المختارة، لأن المهارة التي نُفِّذت بها الحيلة لا تخرج عن الابتذال. وأثير انتباهك إلى الأمر التالي: المهارة المتمثلة في إقناع زوجها ليخرج معها ذلك اليوم، وكل تلك المسرحية المتمثِّلة في وضع الرسالة فوق الطاولة، والتوسُّل إلى الخادمة بالانتباه، وكل ما تبقّى، أفعال تنمُّ عن حيلة مبتذلة؛ فقط وضعت في خدمة طريقة غير عادية تماماً. لكن الحيلة المبتذلة لشخص سوي والحيلة المبتذلة لشخص مجنون تختلفان في نقطة واحدة: الحيلة المبتذلة لشخص سوي مبتذلة لأن الناس الأسوياء يلجؤون إلى طرق مبتذلة، ولهذه السبب ينفِّذونها بطريقة مبتذلة؛ وحيلة المجنون مبتذلة لأن فساد عقله لا يسمح له باستعمال الابتكار. تكون حيلة المجنون مصحوبة دائماً بطرق مجنونة، أو

أسباب فعل مجنونة. لدينا هنا، إذاً، إما حيلة مبتذلة مصحوبة بطريقة مبتذلة، وإما حيلة مجنون مصحوبة بطريقة غير سوية. والحال أن الحيلة هي طريقة لاستعمال الذكاء، ويختلف استعمال الذكاء بين الإنسان السوي والمجنون، في أنه لدى المجنون لا يصلح الذكاء سوى لمد الجُنون بوسيلة للتعبير، بينما لدى الإنسان السوي، لا يلعب الذكاء دوراً تعبيرياً فحسب، بل دوراً كابتاً أيضاً، لأن هاتين الوظيفتين، ما عدا لدى المجنون -حيث ينعدم الكبت- هما الوظيفتان الأساسيتان للذكاء. وبالتالي، لو كانت حيلة هذه المرأة عادية، لكانت النتيجة الأولى لذلك هو أن ترفض الطريقة الغريبة المستخدَمة في سرقة الرسالة، وكبت الاندفاع الذي أوحى لها بسرقتها بتلك الطريقة. بما أن هذا هو ما لم يقع، بما أن الحيلة ظهرت بطريقة تعبيرية وليست كبتية، نلاحظ أن طريقة تصرُّف هذه المرأة هي طريقة تصرُّف تقع في منزلة وسطى بين الشذوذ والجنون.

- رائع! قال غيديش.

- والحال، عزيزي غيديش، أنه لا توجد فئة عقلية وسطى بين الشذوذ والجنون.

- هكذا إذاً! صاح غيديش متعجِّباً. هذه الحجة الأخيرة هي أكثر الحجج وضوحاً!

- سوف ترى أنها فعلاً كذلك، أجابه كْواريشْما. لا توجد فئة عقلية وسطى بين الشذوذ والجنون لأنه لا توجد نقطة ثابتة بين الاثنين. إن الفضاء الفاصل بينهما متحرِّك وليس ثابت. أن يكون المرء بين الشذوذ والجنون لا يعني أنه يمكث بين الشذوذ والجنون؛ هذا يعني الانتقال من الشذوذ إلى الجنون. وهذا الفعل، عزيزي غيديش، كان آخر فعل عقلاني أنجزته هذه المرأة المسكينة.

– عجيب! ولماذا إذاً؟

– لأنه سيزيد من تضخُّم الأنا لديها، وهذه من الظواهر التي تنبني عليها البارانويا. هذه المرأة مبتهجة اليوم بما نجحت في تحقيقه. إنها تشعر أكثر فأكثر بعزلة التفوق على الجميع وسط عائلتها. وسوف يتفاقم مستقبلاً ميلها إلى التحكم والسيطرة. وسيؤدي الضغط القوي لهذه السيطرة إلى ظهور عقبات، ضعيفة أم لا، لكنها ستظهر. وتدريجياً، ستصبح حياتها العائلية أكثر فأكثر صعوبة؛ وستزداد حدّة هذه العقبات والمقاومات، مهما كانت ضعيفة، بشكل تدريجي، وستزداد حدّتها خصوصاً بالنسبة إلى عقل مركّز حول ذاته. هي ستزيد من الضغوط؛ وستكبر أشكال المقاومة، مهما كانت ضعيفة. وحينئذ ستشعر هذه المرأة -في مرحلة عدم المعاوضة كما يُقال- أنها محاطة بالأعداء. ستبدأ بالتساؤل حول ما قد يستطيعون القيام به ضدّها. وستدخل البارانويا مرحلة الشعور بالاضطهاد. بعبارة أخرى، سوف يظهر الجنون.

– إن ذلك يمثّل حظّاً بالنسبة إلى عائلتها، لا يخامرك الشكّ في ذلك! قال غيديش. ما يجب القيام به هو أن يحجزوها في مستشفى الأمراض العقلية، وانتهى الأمر.

– ليس الأمر بالسرعة التي تظن. أولاً، لا تكمن البارانويا في ضرب الرأس على الحائط، أو الحديث خبط عشواء. إن العقل، الفاسد في المركز، يكون ذكياً تماماً على مستوى السطح؛ وخصوصاً التفكير، الذي يعتمد غير المطّلعين على غيابه أو تشوشه في قياس الجنون، سيبقى سليماً. لكن التفكير سيتناول معطيات خاطئة، ناتجة عن حالة هلوسة في المركز. سينتهي بها الأمر في مستشفى المجانين، نعم، لكن فقط بعد الفحص الطبي الذي سيجرى طبعاً

بعد أن تنفّذ جريمة القتل التي ستقدم عليها، أو -نتمنى ذلك- ستكتفي بمحاولة القيام بها.

- كيف ذلك؟ هل تتوقع أنها ستحاول القيام بقتل أحد ما؟

- أنا متأكد من ذلك تماماً. على الأقل أنها ستحاول القيام بذلك؛ لكن أظن ظرفاً استثنائياً وحيداً قد يحول دون نجاحها في القيام بمحاولة القتل. إن قوة عقليتها ومهارتها خصائص تميّز ليس فقط المُضطَهَد، بل أيضاً المُضطَهَد المُضطَهِد، أي المُضطَهَد المجرم. إن مميزات المُضطَهَد المُضطَهِد تكون حتى أثناء الأزمة مشابهة خصوصاً لمميزات المجرم النمطي. لاحظ جيداً: سيبقى عقلها ثاقباً، وحيلتها في صحة جيدة. حسناً، تصور شخصاً دبّر هذه الطريقة لسرقة الرسالة وهو يطبّق نفس الحيلة لقتل أحد ما.

مرّر المفوض غيديش يده على جبينه.

- يا إلهي! قال. هذا مشجِّع. أنا سعيد لأنني لا أسكن في بيتها. وعلى من ستطلق هذه الشيطانة النار؟

- لن تكون هناك أدنى طلقة نار. سيكون السُّم هو سلاحها.

- إنه ألطف الأسلحة... أُف، يا للفظاعة...! لكن، لماذا السُّم يا دكتور؟

- افهمني جيداً: إن عقلية المجانين، في حالة المصابين بالبارانويا، شيء، والخصائص الذهنية للفرد، بغضّ النظر عن جنونه ومميزاته الخاصة الناتجة عن هذا الجنون، شيء آخر مختلف تماماً. فكما أن هناك مجانين طويلو القامة، قصار، شُقر وسُمر، هناك مجانين عنيفون بطبعهم، ومجانين مكرة بطبعهم. طبعاً، بما أن عمل الجنون هو نفسه لدى هؤلاء وأولئك على مستوى النتائج العامة، فإنه يؤدي إلى هذه النتائج العامة بواسطة الوسائل المرتبطة بالمزاج

مكتبة الرمحي أحمد

الشخصي والخاص بكل مجنون على حدة. هذه المرأة لها عقلية ستؤدي بها إلى بارانويا المُضطَهَد المُضطَهِد. وعليه، ستدفعها عقليتها إلى ارتكاب جريمة قتل، خصوصاً أن قسوتها وبرودة دمها تُقوِّيان الطابع اللاأخلاقي لهذا النوع من الجنون. لكن، عدا هذا، فإنها ليست، بطبعها، منفتحة القلب ولا عنيفة -يمكن أن تكون كذلك- لكنها مركِّزة وماكرة -وقصة الرسالة لوحدها كافية للبرهنة على ذلك-. إذاً، حين ستبلغ درجة الجنون الضرورية كي ترغب في القتل، وستجد من تقتله -نظراً إلى عقليتها-، فإنها ستبحث عن وسيلة قتل تتوافق مع مكرها وذكائها، وهذه الوسيلة هي السُّم، الذي سوف تحصل عليه بكل سهولة نظراً إلى هذا المكر ذاته. أضف إلى ذلك أنه، بصفتها امرأة، ستميل، بحكم جنسها، إلى ما يميّز جرائم هذا الجنس، وسيكون السُّم، والدواء، السلاح الذي عادة ما يخطر على بال الجنس الماكر.

- ومن ستُسمِّمُه، يا دكتور؟ هل يمكن لاستدلالك أن يذهب إلى هذا الحدّ؟

- لا أدري إن كانت ستتمكن من ذلك، يا غيديش. لكني أعتقد أنني يمكن أن أذهب إلى هذا الحدّ. يمكن أن تُسمِّم زوجها.

- المسكين! وهذا بعد أن تكون قد خانته ونغّصت عليه حياته ابتداء من هذه اللحظة، أليس كذلك؟

- نعم، لكن أظن أنه، بما أننا استنتجنا أنه لا بدَّ أنها ستقوم بجريمة قتل حتماً، نستنتج من ذلك أنها ستقتل زوجها. أظن أنها لن تحاول القيام بذلك فحسب، بل إنها ستنجح في القيام به. لنفحص الأمور. إنها مرتبطة بزوجها، وعليه فإنها ستبدأ في رؤية أكبر العوائق متجسِّدة فيه حين ستبدأ في تخيُّل الأعداء. ولن تشعر أنها حُرّة إلا

بالتخلُّص من زوجها. زوجها هو من تسطير عليه أكثر من أي كان، وفي مقاومته لها ستشعر بعداوة مفترضة أقوى. أما المقاومات الأخرى -مقاومة الخادمة، مقاومة طفلها، ومقاومة أي كان- فستُنسبُها إلى مناورات يقوم بها زوج غير قادر على ذلك، لكن هذا، أظن، أمر لا أهمية له. وعلاوة على ذلك، فإنها لا تحبه. كل هذا سيتركز حول مصير مؤكد ستقوم -لا أشك في ذلك لحظة واحدة- بتنفيذه، بكثير من الثقة والحزم. إن البارانويا لا تؤثر في حركات الذهن. . .

- يا له من ابتكار خلّاق! قال غيديش بنبرة لاذعة. وكم سيكون رائعاً الحضور للتأمُّل بكل برودة دم قتل رجل مسكين ذنبه الوحيد أنه ساذج وتزوَّج وحشاً كهذا. اللعنة، إنه حقاً ليس حظاً سعيداً!

- لكن، ماذا تريد أن تفعل؟

- لا شيء. ماذا بإمكاني أن أفعل؟ لا يمكننا الآن أن نحذِّر هذا الرجل. . .

- فعلاً، يستحيل أن نحذِّره. . . إننا مرتبطون بالقدر. لا يمكن القيام بأي شيء. . .

ما لا يخامرني فيه شك هو أنها ستموت مجنونة. . . ما الذي يضحكك. . . ؟

- لا شيء مما تقوله، يا دكتور. ما تقوله هو عين الصواب، وحتى إن لم أجده كذلك ما كنتُ لأضحك. أذكر ذلك الحديث الذي دار بيني وبين سيماش هذا الصباح في قسم الشرطة. (ثم استأنف غيديش ضحكه). في النهاية، ليس الأمر مهمّاً، كان الرجل يقول؛ لا بدَّ أن الرسالة ليست مهمة حقاً، ولا داعي لإزعاج كل هؤلاء الناس الطيبين، المساكين. . . ثم أضاف بنبرة أودُّ لو أستطيع

مكتبة الرمحي أحمد

تقليدها: إنها عائلة لطيفة جداً، زوجان جد متحدَين، جد ودودَين...

- ربما يكونان كذلك، رغم كل شيء. لا بدَّ أن في العالم عدة أزواج من دون بارانويا ولا جنون، وربما ليسوا أقل سعادة منهما...

حرَّك كْواريشْما كتفيه. وارتسمت على شفتيه ابتسامة تعب وملل.

- فليأخذهم الشيطان جميعاً! قال المفوَّض غيديش.

* * *

- إذاً، هكذا يكون سحر التسلية، أليس كذلك؟ وهل يجب أن يُقارِن التحقيق الجنائي نفسه مع الشعوذة؟ «الرسالة السحرية»، أليس كذلك، يا دكتور؟

- نعم، «الرسالة السحرية». إنها ليست بعبارة سيئة.

ثم حرّف غيديش القاموس مرة أخرى.

سرقة في مزرعة داش فِنياش

مكتبة الرمحي أحمد

الفصل الأول

إشارة إلى الأشخاص، والأماكن، والقضية كما وقعت إلى غاية بداية التحقيق البوليسي.

طلب مني المفوض مانويل غيديش، الذي يصرُّ على أن تُحكى بحيثياتها الكاملة مختلف القضايا -أو، على الأقل، أكثرها أهمية- التي حلّها المرحوم أبيليو كُواريشْما، أن أروي، إذا كنت أرى أن الوقت الذي مضى يسمح لي أن أقوم بذلك بكل حرية، واقعة سرقة مزرعة داش فِنياش. وصلت قضية مزرعة داش فِنياش سابقاً إلى علم مانويل غيديش بحكم معرفته الشخصية لكْواريشْما؛ لذا كلّفني بهذا الأمر، وهو الذي لم يُحدّثه «فكّاك الرموز» أبداً عن هذه القضية إلا بالتلميح ومن دون أي شرح.

بعد مرور كل هذا الوقت، تبدّدت كل الأسباب التي يمكن أن تجعلني أتردد. وبما أنني أظن أنه لا يوجد، بالفعل، شخص آخر أحسن مني يمكنه رواية هذه القضية، قبلت التكليف الغامض للمفوَّض غيديش؛ سأروي بتلك الدقة التي ما زالت ممكنة، وستبقى كذلك، نظراً إلى وقائع تلك الحادثة التي ما زالت راسخة بقوة في ذهني، وخصوصاً نهاية ذلك اللغز.

مكتبة الرمحي أحمد

توجد مزرعة داش فِنياش في كولاريش[1]، قرب فاريزا. عندما وقعت السرقة -نهاية أيلول 1908-. كان مالك البيت، ضمن سلسلة طويلة من سلالة العائلة نفسها، هو العجوز جوزي مِنديش بوربا، أب صديقي جوزي آلفِش بوربا. توفي كلاهما، فانتقل البيت، عن طريق البيع، عندما كان جوزي آلفِش لا يزال على قيد الحياة إلى شخص آخر، وهو المالك الحالي الذي أجهل اسمه وليس ذلك مهمّاً.

في شهر أيلول 1908، كنا عدد من الضيوف ننزل منذ بداية شهر آب في ذلك البيت. بالإضافة إلى سكان البيت كنا جميعاً الأشخاص التاليون: الأب بوربا، الذي كان أرملاً، جوزي آلفِش، الابن الوحيد، والسيدة أدِلايدي، أخت بوربا، وابنتها المسماة ماريا أدِلايدي، وشاب اسمه مانويل باراتا، وطالب عسكري وابن عم آل بوربا، وفتاة اسمها إليزا (لا أذكر اسمها العائلي)، صديقة حميمة لماريا أدِلايدي، وأنا، مدعواً لأقضي الفترة بين الصيف والخريف من طرف جوزي آلفش، صديقي في الإعدادية، الذي عدت لمعاشرته، بعد أن جمعتنا مؤخّراً بعض الأعمال التجارية الصغيرة في لشبونة. اسمي أوغوستو كلارو، كان عمري آنذاك 25 سنة، وأشتغل مهندساً، كما كنت في تلك الفترة. بذلك ينتهي تقديم الأشخاص، بين أفراد العائلة والمدعوين، الذين كانوا حاضرين أثناء وقوع السرقة. بالإضافة إلينا، كان هناك طبعاً العديد من الخادمين والخادمات، المعتادين في مثل هذه البيوت الكبيرة. لا أدري كم كان عددهم وعددهنّ جميعاً. كل ما أعلم أن أكثر من تعرّفت إليهم

(1) منطقة شمال لشبونة تُعرف بزراعة الكروم وصناعة النبيذ. ومن هنا جاء اسم المزرعة، لأن كلمة Vinhas تعني الكروم باللغة البرتغالية. (المترجم)

عن قرب كانوا هم المدعو أنطونيو، الذي كان يقدِّم الأكل، وبستاني طاعن في السن اسمه جوزي، وخادمة ربما كان اسمها ماريا، ترتِّب الغُرف، أو، على الأقل، غُرف بعض الضيوف، الذين كنت من بينهم.

عندما دعاني جوزي آلفِش (كان يُعرف بهذا الاسم لتمييزه عن الأب) لأقضي تلك الفترة في مزرعة داش فِنياش، أعترفُ أنني أظهرت بعض التردد. كانت مشاغلي، رغم أنها ليست كثيرة، تتطلب مني حضوراً يومياً في لشبونة؛ ومع أن كولاريش ولشبونة لا تبعدان بمسافة كبيرة، إلا أنهما ليسا مكانَين قريبَين، خصوصاً قبل أن يصبح استعمال السيارات أمراً شائعاً. لذا لم يكن من الممكن تصور الذهاب بمتعة كل يوم من كولاريش إلى لشبونة، والعودة يومياً من لشبونة إلى كولاريش. لكن، في الأخير، قبلتُ دعوة جوزي آلفش، وعند بداية شهر آب كنت قد وضعت الرحال في مزرعة داش فِنياش. كل الأشخاص الذين ذكرتهم سابقاً كانوا قد وصلوا واستقرّوا هناك، باستثناء الطالب العسكري، الذي وصل أواسط شهر آب، خمسة عشر يوماً بعد قدومي.

الفصل الثاني

سرد التحقيقات البوليسية، بما فيها العثور على أربعة سندات، تعثُّر التحقيق (الذي ظلَّ مستمراً على فرضية أن الجاني لا بدَّ أن يكون شخصاً غريباً) إلى أن غادر الراوي مزرعة داش فِنياش.

التفت المفتش مورايش إلى زميله.

- هذه قلة أدب فظيعة. كيف عرف هؤلاء أن الناس كانوا نائمين في تلك الساعة؟ كيف كانوا على علم أنه لن يظهر لهم أحد، دون أن يكون لهم ما يكفي من الوقت للفرار؟

فكّر المفتش الآخر لحظة.

- أما أنهم كانوا يعلمون أن الناس كانوا نائمين، فقد ظنوا ذلك لأنهم سمعوا ابن السيد... يصعد وأصبح المنزل هادئاً...

- لكنني بعد ذلك نزلتُ، قلتُ مقاطعاً.

- هل كنت تنتعل هذا الحذاء؟ سأل المفتش الثاني.

- نعم، نعم. آه، فهمت: إنه حذاء لا يثير ضجيجاً، وبما أنه بدا أن الجميع كان ربما نائماً، مشيت، بالحدس أيضاً، بأقل ضجيج...

- هذا بالضبط. لقد ظنوا أن الجميع كان نائماً. بعد ذلك نفذوا. . .

- ومع ذلك هذه قلة أدب، ألحَّ مورايش. كانوا نائمين لكن فقط منذ وقت قليل. ربما لم يمر وقت طويل بين صعود السيد. . . الابن والانفجار.

- طبعاً، ما يكفي من الوقت لإشعال الذُّبالة وليصل الفتيل إلى نهايته.

- نعم، أجاب مورايش.

- هناك شيء، تدخلتُ قائلاً، لماذا تتحدثان بالجمع؟ لماذا تقولان «هم»؟ هل أنتما على حقّ لتفترضا أن هذا الأمر لم يكن من الممكن إنجازه من طرف شخص لوحده؟

ابتسم المفتش مورايش.

- لا أستطيع أن أقول إننا على حقّ. لكنها التجربة. . . هذا عمل أناس محترفين، وهذا النوع من المحترفين لا يشتغلون أبداً إلا إذا كانوا جماعة.

- آه، فهمت. . .

- يبدو أنه ليس من الصعب جداً التعرُّف إلى من قام بهذا العمل. إننا نعرف تقريباً كل الشاطرين الذين يتسلّون بهذه الأمور. كلهم تقريباً يستعملون طُرُقاً أخرى، لكن هناك شخصاً أو آخر يكون قد تعلَّم نظام الديناميت. لحسن الحظ، ليسوا كثراً من باستطاعتهم ذلك. يبدو أنه ليس من الصعب إلقاء القبض عليهم. ومن سوء حظهم أنهم اختلسوا سندات. . . هذا أمر لا يمكن أن يمرَّ هكذا.

- ربما لم يكونوا يتوقعون أنهم سيجدون سندات، قال المفتش الشاب. لقد سطوا على صندوق الفولاذ ليسرقوا ما يجدون به.

مكتبة الرمحي أحمد

كانت السندات في متناولهم فبدأوا بإخراجها. بعد ذلك جاء الإنذار. رأوا أن بعض الأشخاص ما زالوا مستيقظين في البيت. لم يكن لهم ما يكفي من الوقت لشيء آخر. ثم فرّوا، طبعاً...

- ما من شك في ذلك، قلتُ. هذا التفسير يبدو صائباً.

- على الأقل، لا أرى تفسيراً آخر. ثم هزَّ كتفيه.

* * *

كان المفتش ليما في سن غير محدّدة، لكنها ليست بالمتقدمة، له قامة ليست بالقصيرة كي يكون قزماً ووجه مثل وجه النمس، بملامح حادة -بما في ذلك الأنف والذقن- وعينَين صغيرتَين وسوداوين، متحركتَين وغارقتَين في الوجه. وجه مثالي ليكون رسماً كاريكاتورياً لراهب يسوعي لو لم تكن الرسوم الكاريكاتورية تجعل هذه الوجوه أكثر طولاً عند اليسوعيين. لكن قصر قامة المفتش ليما كانت تعوّضها بشكل كبير عقليته المختلفة. لم أصادف ما هو أبعد من الوداعة الكلاسيكية لليسوعيين؛ بل أستطيع أن أقول إنني لم أجد أبداً مخلوقاً أكثر كلاماً بشكل مباشر من هذا الرجل. إن الأشياء التي يقولها الإنسان الأكثر جرأة بتدرج، ويخفِّف من حدّتها، في اندفاع طبيعي نحو احترام الناس، كان هو يقولها مباشرة، بصراحة، وبساطة باردة تربك بغرابتها.

ثم إن الكلمات الأولى، التي نطق بها بعد أن صدرت عن رأسه مثل تحية، دلّت على هذا الأمر بما يكفي من الوضوح.

- قدمت من محكمة التحقيق لأحقق في هذه السرقة. تقول الشرطة إنها من ارتكاب أشخاص من خارج البيت؛ لا أدري لماذا يقولون ذلك، لكن علي أن أتأكد. ما أريد أن أتأكد منه أولاً هو إن

لم يكن من الممكن أن يكون ذلك من تنفيذ أشخاص من داخل البيت. بين أفراد العائلة والمدعوين، كم هو عدد الأشخاص المتواجدين في هذا البيت؟

ظلَّ بوربا الأب حائراً تماماً بعد هذا الهجوم. بعد ذلك مباشرة غضب.

- إذاً إنك تشك يا سيدي...؟

- نعم، إنني أشك. أشك في كل الناس. لو كان ضرورياً، أشك فيك أنت أيضاً، رغم أنك ضحية لهذه السرقة. أعيد طرح سؤالي، الذي ستجيب عنه إن لم يكن هناك من سبب يمنعك من ذلك. من هم الأشخاص، من بين أفراد العائلة والمدعوين، الذين كانوا في المنزل ساعة وقوع السرقة؟

حتى بوربا الأب، المندفع عادة، يبدو أنه خطرت بباله فكرة أن يجيب صراحة على السؤال. لذا، بعد أن قمع نفسه بمجهود احمرَّ له وجهه، ذكر بالتفصيل، وبصوت مرتعش شيئاً ما، كل الأشخاص الذين كانوا في البيت ليلة السرقة، وهم نفس الأشخاص الذين لا يزالون هناك، كما شرح.

- جيد، أجاب المفتش. سنرى الآن أين كان هؤلاء الأشخاص عندما وقعت السرقة. أنت وصديقك كنتما في قاعة الأكل تلعبان الشطرنج، أليس كذلك؟

- تماماً. لكن السيد بوربا لم يستطع أن يقمع ما أضافه. وهذا ما يدل على أننا لسنا من قام بالسرقة، أليس كذلك؟

- هذا يدل على أنكما لم تسرقا. لا يدل على أنكما لم تكونا متواطئين. قال السيد ليما هذا كما لو كان من أكثر الأمور الاعتيادية، والتي لا يمكنها أن تأثر في مخاطَبيه.

مكتبة الرمحي أحمد

مسَّ المفتش شعر ذقنه الناعم، بينما كان بوربا يكبت احتقان دم ممكن. قال بعد ذلك:

– من كان في قاعة الأكل قبل ذلك؟

– عند العشاء كان الجميع حاضراً، أجاب العجوز. بعد ذلك، ذهبت السيدات وباراتا جميعاً إلى الصالة المجاورة، حيث ظلوا يعزفون الموسيقى ويتبادلون أطراف الحديث. عند الساعة الحادية عشر، ذهبوا للنوم جميعاً باستثناء باراتا الذي التحق بي، مع ابني والسيد كلارو، حيث بقينا نتحدث أولاً، ثم نلعب الورق في قاعة الأكل.

أومأ المفتش ليما برأسه.

– سأبدأ بحضرتك. قال المفتش متوجهاً إلى بوربا الأب. إنك لست مشتبهاً به بالنسبة إلي. لستَ كذلك لأنه لا فائدة لك من السرقة. لا أدري إن كانت السندات لها تأمين أم لا، لكنني أعلم أن حضرتك لا تتوفر على تأمين. لذا، أشطب على حضرتك من لائحة المشتبه بهم.

– شكراً جزيلاً، قال العجوز بنبرة حادة.

– بالنسبة إلي، هذا الرجل، والتفت ليما بهدوء نحوي، ليس في نفس الوضع. لا يمكنني أن أشك فيه بشكل مباشر. من الواضح أنه لم يكن يستطيع أن ينفِّذ السرقة، لأنه كان في قاعة الأكل عندما وقعت. ما هو أقل وضوحاً هو أنك لم تكن متواطئاً فيها. حضرتك صديق مقرّب من السيد جوزي آلفِش بوربا، ابن هذا الرجل، أليس كذلك؟

– نعم، قلتُ. ثم قررت أن لا أقول شيئاً آخر. وجدت بعد

ذلك أن أول شيء يجب القيام به مع هذا الشخص هو ألا نفقد الصبر؛ وثاني شيء هو أن نجيب دون تعقيدات.

- سيد جوزي آلفِش بوربا، إنك في وضعية مالية ليست بالجيدة. عليك بعض الديون يجب أن تسدِّدها في القريب العاجل (هنا رفع المفتش يده وقطع مسبقاً ما لم يتمكن بوربا الأب من قوله). أنبّه حضرتك أنه إن كنت تريد أن تقاطعني لتخيفني، فلن يكون لك ذلك، وإذا كنت تريد أن تقاطعني لتكذبني، عليك أن تفعل ذلك بواسطة وقائع، تتعارض مع الوقائع التي أعرفها، وهي التي أعرضها على حضرتك.

سكت المفتش ليما للحظة. ملأت العينان محجَري العجوز حتى فاضت. تابع ليما.

- بالإضافة إلى أن السيد جوزي بوربا الابن عليه ديون كثيرة يجب أن يؤدّيها قريباً بشكل إلزامي، سبق له أن سرق لأبيه قدراً مالياً بقيمة خمسمئة ألف ريال. يمكن لحضرتك أن تُكذبني، لكنك ستَكذب إن فعلت. وقعت هذه السرقة منذ أربع سنوات، وكان ذلك من أجل تسديد ديون قمار في فِغِيرا دافوش، وهي ديون، بطبيعتها، لم يكن يرغب ذلك الرجل في الاعتراف بها لأبيه. الديون الحالية أيضاً هي ديون قمار؛ أظن أن الأشخاص المتأدّبين يسمونها ديون الشرف. في هذا الشأن، يمكن لأي واحد من حضرتكما أن يُكذبني، لأنه من الممكن أن أكون مخطئاً.

لم يتكلم أي واحد منا. ماذا عسانا نقول؟

- مبدئياً، السيد جوزي آلفش بوربا مشتبه به. إنه مشتبه به لأنه سبق واقترف سرقة، وفي حق نفس الشخص الذي تعرّض لتلك السرقة، وهو مشتبه به لأنه يوجد في ظروف تشبه تماماً تلك التي كان

مكتبة الرمحي أحمد

يتواجد فيها عندما قام بتلك السرقة. فرك المفتش يديه وحدق حيث لا يوجد أي أحد.

كانت شمس الصباح الساطعة تُبرز كقطع فضة صغيرة قطرات العرق المتصبب من جبهة بوربا الأب. بقي بوربا الأب من غير صوت يعبِّر به عن احتجاجه، حتى إن كان يرغب في الاحتجاج.

- إنني لا أشير إلى السيد جوزي آلفِش بوربا، أضاف المفتش، فوَلّد في نفسي غياب هذه الإشارة رغبة قوية في الضحك، إنني أشير إلى المهندس أوغوستو كلارو، لأنني أتحدث عنه الآن. إنني أدرس فرضية أن يكون هذا الرجل متواطئاً مع جوزي بوربا الابن، لسبب بسيط وهو أنه صديق مقرّب منه وأن الطريقة التي تمَّ بها فتح صندوق الفولاذ تعتبر من الطرق غير المعهودة في البرتغال، لكن مهندساً يمكن أن يستعملها بسهولة، دون أن يكون ذلك بدرجة من التقنية يمكن أن تجعل أي شخص يفكر في عمل من إنجاز مهندس. حضرتك سيد كلارو أوغوستو خرجت لبعض الوقت من قاعة الأكل، لتبحث عن السيجارات التي أخذها معه الطالب العسكري باراتا إلى الطابق الثاني، عفواً، الطابق الأول. خلال الوقت الذي كنت فيه غائباً، كان بإمكان حضرتك بسهولة كبيرة، بالإضافة إلى البحث عن السيجارات، أن تربط المفجِّر -أظن أنه يُسمّى هكذا- بصندوق الفولاذ وأن تشعل الفتيل وتهيّئ كل شيء للانفجار. مباشرة بعد رجوع حضرتك إلى قاعة الأكل، خرج السيد جوزي آلفِش بوربا وهو يقول إنه سيذهب لينام. كان بإمكان السيد جوزي آلفِش بوربا تماماً أن يذهب ليختبئ وراء أريكة الصالة الصغيرة، وينتظر النتائج، طبعاً بعد أن يُسمّم الكلبَين الذين لن ينبحا عندما سيرانه، وبعد أن يترك

أبواب البيت مفتوحة، ليتمكن من العودة، ويغلق من الداخل باب المكتب. إنني أسأل حضرتكما بكل موضوعية، أليس كل هذا ممكناً؟

لا أدري إن كان من الضروري أن أشرح تلك السلسلة من الارتباكات الذهنية التي داهمتني أثناء عرض هذه الفرضية، والتي كانت محتملة بشكل محيِّر. لحسن الحظ، كان بطء صوت المفتش ليما يسمح بالتفكير. وفعلاً، فكرت، ووجدت أنه من الأفضل أن لا أبدي دهشتي.

- كل هذا ممكن تماماً، قلتُ وأنا أشعر بغضب داخلي بسبب صوتي غير الواثق. لكن، بالإضافة أنني أؤكد لكم أنه غير صحيح، وهو ما لا يثبت أي شيء، أظن أن من واجب السيد ليما أن يثبت أن ذلك صحيح وليس أن أثبت أنا أنه كذِب. ثم إنني لا أعرف كيف أنفي إثبات فرضيتك. هكذا يمكن إيجاد آلاف الفرضيات التي لا يستطيع أحد أن ينفي إثباتها، والتي هي خاطئة بكاملها، أو على الأقل، تسعمئة وتسعة وتسعون منها خاطئة بالضرورة.

- على أي حال، أردف ليما، كما لو أنني لم أتكلّم، أنا لا أشك في حضرتك. ثم شبك مرة أخرى يدَيه. لا أشك في حضرتك لأن ما أتوفر عليه من معلومات حولك كافٍ لأعرف أن حضرتك لست قادراً على أن تتواطأ مع أي كان. إن حضرتك إنسان مستقل، ومنعزل، ومتحفِّظ إلى أبعد حدّ، تعيش حياة تعرف فيها أشخاصاً كثيرين وينعدم فيها الأصدقاء. عدا هذا، لا شيء يوجد ضدّ حضرتك من الناحية الأخلاقية. إن إنساناً مثل حضرتك لا يصبح متواطئاً مع أي أحد: أولاً لأنه لا يعاشر أحداً؛ وثانياً لأنه لا يخاطر من أجل الغير. لقد وسم الانعزال والحذر حياتك إلى حدّ الآن. إن

مكتبة الرمحي أحمد

الانعزال والحذر يحيلان دون أن يصير المرء متواطئاً مع الآخر، خصوصاً إذا كانت الاستفادة كلها للآخر، لأن المال سيكون من نصيب بوربا الابن، بل إننا لا نرغب حتى في التغلُّب على الانعزال والحذر. ألا تجدان حضرتكما أن تفكيري صحيح؟

ضحكتُ هذا المرة بشكل صريح، ليس فقط للانفراج المفاجئ بل لأنني وجدتني محشوراً في السؤال. طبعاً، لم يكن المفتش ليما ينتظر إجابتي. واصل كلامه دون أن يتأخر أطول من صمته المعتاد.

- بعد استبعاد حضرتكما الماثلين أمامي من القضية، سواء كفاعلين أو كمتواطئين، سأنتقل لدراسة أشخاص آخرين، وسأبدأ بالسيد جوزي آلفِش بوربا، الذي أشرت إليه في بعض الأحيان. (لم يمنعني من الضحك، هذه المرة، سوى الاحترام الذي أكنّه لبوربا الأب والقلق البادي على محياه). بعد تلك المعاملة المالية من قيمة خمسمئة ريال التي سبق أن أشرت إليها، فَقَدَ جوزي بوربا الابن الكثير من ثقة أبيه، وهذا شيء طبيعي جداً. المسكين، لم يسبق له أن تعامل بمبلغ مالي من هذا الحجم؛ كان يتوصّل ببعض المال ليسدِّد شيئاً قبل ساعة أو نصف ساعة، ويذهب ليتسلّم بعض القسيمات المالية من لشبونة، أو شيء كهذا، ولم تكن المبالغ كبيرة، لتصلح لأي شيء، بل لم يكن لديه وقت للسرقة. إذا أراد جوزي بوربا الابن أن يسرق أي شيء لأبيه، عليه أن يعتمد على طُرُق مختلفة شيئاً ما، وبما أنها لم تكن المرة الأولى، فعليه أن يجد أشياء لا تجعله مشتبهاً به. وأنا أضعُ جانباً ما يمكن أن يظهر من دراسة باقي الأشخاص المحتملين، يبقى السيد جوزي آلفِش بوبا هو المشتبه به رقم واحد. إن حضرتكما قد توافقاني الرأي على أنني لا أبالغ.

سكت الخطيب قليلاً، ثم التفت بعد ذلك إلى بوربا الأب.

- إن حضرتك تعرف، أو ربما لا تعرف، أن ابنك صديق للسيد مانويل سالويو؟

- السيد مانويل سالويو؟! انفجر العجوز دون قوة. من يدري من يكون مانويل سالويو. لكني رأيت في عينَيه المغرورقتَين بالدموع الخوف المفاجئ من هذا الاسم المجهول طبعاً وذي الشكل غير المشجِّع.

- إن مانويل سالويو رجل يشتغل، بين مهن أخرى، مصارع ثيران. لكنه أيضاً مهرِّب أوراق بنكية مزوَّرة.

هذه المرة، ارتأيت أنه من واجبي، أو على الأقل من واجب إحساسي، أن أتدخل دفاعاً عن العجوز المسكين.

- إنني أعلم ذلك جيداً، أجاب المفتش. لكن مانويل سالويو ليس فقط مهرِّب أوراق بنكية عادية. لقد كان مانويل سالويو مهرِّب أوراق بنكية أجنبية مزوَّرة، هرَّبها عند بعض البنوك والصيرفيين. بالإضافة إلى هذا، فإن مانويل سالويو (لقد جعلتكم كنيته تكوِّنون عنه فكرة خاطئة[1]) شاب حسن الهيئة، لا يمكن أن يثير استغراب أي شخص يراه في بنك ما يتداول سندات ليست بالغريبة مثل سندات الدين الخارجي.

لَوى ليما يديه بعض الشيء، كما لو أن هذه الحركة تشكِّل لديه ما يفعله أشخاص آخرون ليستعيدوا أنفاسهم. قاطعته هذه المرة،

---

(1) تحمل كلمة سالويو (Saloio) باللغة البرتغالية مجموعة من المعاني القدحية من بينها: بدوي غير مهذّب، إنسان خشن، شخص قليل الأدب. (المترجم)

مكتبة الرمحي أحمد

قاطعته غضباً من ذلك الصوت الفاقد للتدرُّج أكثر منه لأي سبب آخر.

- وفكرة فتح صندوق الفولاذ بواسطة مفجِّر؟ هل هي فكرة مانويل سالويو؟

- ليس ذلك أمراً محتملاً جداً، وابتسم المفتش. لكن من الممكن جداً أن تكون فكرة ليما داش بروكاش الذي، لحسن الحظ، ليس من أقربائي. إنه ينتمي إلى فرقة مانويل سالويو، وهو بارع في فنّ التكسير. شارك دون شكّ في سرقة محل الصياغة في حي شيادو، وهو بالتأكيد من استعمل مِثقَباً[1] خاصاً. لدينا اليقين على ذلك في المحكمة، لكن لم تكن لدينا أبداً أدلة كافية، بل إننا لم نستطع النطق بالحكم. طيب، يبدو أن كل هذا يشير إلى أن صاحبنا ليما داش بروكاش رجل على علم بهذه الأشياء. ألا تظنان ذلك، حضرتكما؟

بما أننا لم نجب، فقد تابع المفتش ليما كلامه.

- يبدو لأول وهلة أن حشر أكثر من شخص واحد في قضية يعقّدها؛ لكن الأمر هو العكس بالضبط، لأن هذا يجعلها أكثر بساطة. إن البراعة التي تمَّ بها وضع السندات المسروقة هنا وهناك، دون أن يُلقى القبض على أي أحد أثناء تسليمها، تشير بوضوح إلى عصابة، لأنه لا يوجد أي إنسان بالقوة أو الدهاء الكافيَين ليقوم بكل هذا دون أن يفشل. هناك تواطؤ مع أشخاص في بعض البنوك أو المؤسسات البنكية؛ وهو أمر كنا نشكُّ فيه منذ وقت طويل،

---

(1) في اللغة البرتغالية، هناك تطابق صوتي ودلالي بين كلمة Broca، أي المثقب، واسم شخصية بروكاش. (المترجم)

بخصوص قضايا أخرى لا داعي لذكرها الآن. لهذا بالضبط، تبدي محكمة التحقيق اهتماماً خاصاً بهذه السرقة. ثق بي، حضرة السيد بوربا، ليس لدينا أي شيء ضدّ ابنك، ولا نرغب أن يُحال على المحكمة. كُن متأكداً من هذا الأمر. إذا كان مسؤولاً، كما يبدو، عن هذه السرقة، أو بما يشير إليها، ما نريده هو أن نتمكن من خلاله أن نصل إلى العصابة التي تقوم بكل هذه الأشياء، ونضع كل أفرادها، أو أكبر عدد منهم، في مكان آمن. لا أتردد في أن أؤكد لكم أنه، لو تمكنا من ذلك، لن يحصل شيء لابنك، إلا ما قد يحصل بينه وبين حضرتك. ولن نحيل العصابة على المحكمة، إلا إذا توصلنا بشكاية من حضرتك، وحينئذ سيكون على الجميع أن يذهب للمحكمة، ابنك وهم أيضاً. ما نريده هو أن نقبض على العصابة، ونسجنهم جميعاً، ثم نعتبرهم متسكّعين ونرسلهم إلى أي واحدة من المستعمرات على هذا الأساس.

- لكن، قال بوربا بصوت لطيف، إنك، سيد ليما، تنطلق من مبدأ أن هناك حجة على اتهام ابني. أرى أن هذا لم يتم إثباته.

- نعم، بالتأكيد لم يتم إثبات أي شيء. أنا لم أقل إن ابن حضرتك متّهم؛ قلت إنه المرشّح رقم واحد ليكون مشتبهاً به.

* * *

التفت المفتش ليما نحوي بطريقته المفاجئة كالعادة.

- عندما ذهبتَ، يا سيدي، إلى الطابق الأول بحثاً عن السيجارات، وجدت الطالب العسكري نائماً، أليس كذلك؟

- نعم وجدته نائماً. . . لكنني أحسست بانقباض قرب معدتي.

- ولم يبدُ لك الأمر غريباً؟

- لم يبدُ لي غريباً. لماذا سيبدو لي غريباً؟ إنه ذهب ليطالع دروسه، لكنه استلقى فوق السرير ونام. ما هو الشيء غير العادي في هذا الأمر؟

- لأول وهلة، لا شيء، لكنك هل تعرف أو لا تعرف أنه عندما يصعد إلى هناك ليطالع دروسه، لا يطالع؟

- لا يطالع؟

- نعم، بدل أن يطالع، يتسلّل إلى غرفة الفتاة إليزا، ويتسلى هناك. هل الأمر هكذا أم لا؟

بقيتُ مخنوقاً لدرجة أنني لم أتمكّن من إيجاد عبارات أدافع بها عن نفسي.

- إذا كنت تعلم، يا سيدي، أن الأمر كذلك، لماذ لم تستغرب لكون الشاب ينام في الغرفة، فوق السرير، وبملابسه؟ لأنه لم يكن مستلقياً؟ إما إليزا، إما النوم. كان ملقى فوق السرير ونائماً، إيه؟

لكنني فكرتُ، ووجدت أنه مهما كانت الطريقة -ربما تحقيق على طريقة محاكم التفتيش في صفوف الخدم، الذين غالباً ما يرون أكثر مما نظن- فإن ليما على صواب بخصوص قضية باراتا وإليزا. لذا أجبت بثقة أكبر.

- لا، سيد ليما. لم يكن. لم يكن في الغرفة. كنت أعرف هذا من الآنسة إليزا، لكن، أنت تعرف، هي أمور لا تُقال، ولا يُقال أي شيء يدلُّ عليها. عندما ذهبت بحثاً عن السيجارات في غرفة باراتا، هو لم يكن هناك. كان مع إليزا، بالتأكيد.

- هل كان هناك لأنه كان هناك، أم أنه كان هناك لأنه يجب أن يكون هناك؟

هنا كان السؤال أكثر خطورة.

- هل ذهبتَ لتتنصت على باب غرفة إليزا؟
- أنا؟ إنه لأمر عجيب!
- إنه كذلك. كل هذا مليء بالأمور العجيبة. يبدو كأنه مزيج من سجن وماخور. لكن، بدأت تتأكد بعض الأمور. سنرى بعد ذلك ما الفائدة منه. شيء آخر:

* * *

- استدلالي هو كالتالي... إن التوزيع الماهر للسندات بين عدد كبير من البنوك يدل بشكل قاطع على أن الأمر يتعلّق بعصابة، وهي عصابة جد ماهرة. طيب، من بين كل الأشخاص هنا في البيت، الذين بدأت معهم التحقيق، الشخص الوحيد الذي وجدت أنه يمكن أن تكون له علاقة من هذا النوع هو ابنك. في الواقع، من الممكن ألا يكون ابنك متورِّطاً في هذا الأمر؛ لكن، إلى حدّ الساعة، إنها الإشارة الوحيدة التي أملك. إذا لم يكن متورِّطاً، علينا إذاً أن نقبل فرضية أن العصابة مكوّنة بالكامل من الخارج، لكن هناك أمر يضحد هذا: الساعة المبكِّرة نسبياً لوقوع السرقة. بحسب ما حصلت عليه من معلومات، كان لا يزال هناك ضوء في غرفتين بالطابق الأول، عندما تفرقع المُفَجِّر. ولربما كان هناك ضوء في غُرف أخرى عندما تمَّ وضعه. إنها جرأة مبالغة لو لم يكن هناك تواطؤ من شخص من هنا بالداخل.

* * *

الملاحظة الأولى هي أن اللصّ كان يعرف البيت، ويعلم أن عليه أن يسرق من صندوق الفولاذ وأنه رجل ذو شجاعة كبيرة ودم

مكتبة الرمحي أحمد

بارد. إن الطريقة الصاخبة، التي استعملها لفتح صندوق الفولاذ، والسرعة التي فرَّ بها فوراً، تشكِّلُ أدلة أكثر من كافية على ذلك الدم البارد وتلك الشجاعة.

وبخصوص طريقة الفرار، قام المفتش فييرا بملاحظة تركَتنا مثل البلهاء: إذا كان اللصّ يعرفُ جيداً البيت والمزرعة، فإنه كان يعلم جيداً أن أسرع طريق للفرار هو باتجاه السور الجنوبي؛ لكن بما أنه استنتج أن الجميع قد يتعقبه في هذا الاتجاه، ربما فرَّ في اتجاه آخر، من الأفضل أن يكون الاتجاه المعاكس. هذا ما يفسِّر اختفاءه التام دون أن يترك آثار صوتية لمتعقبيه، وليس سرعته الفائقة. أما أن الكلبَين ظهرا ميتَين في ذلك الاتجاه فإن هذا لا يدل إلا على أن اللص قد دخل من ذلك المكان، وهو ما كان متوقَّعاً، وليس أنه غادر من هناك.

الفصل الثالث

رواية الطريقة الحقيقية التي جرت بها أحداث القصة، إلى غاية اللحظة التي كان فيها الراوي ينتظر بتخوُّف حلول السنة الجديدة.

قد يستنتج أي عالم نفس بسيط دون صعوبة من الصعقة الجنونية للبستاني أن المسكين كان بريئاً. أظن أن ذلك ما استنتجه كل من رأوا السجن. لكن نحن كنا نعلم ما يختفي وراء ذلك الاجتهاد البوليسي الظاهر. ولم يكن القلق يفارق وجه الأب بوربا، وهو يتنبأ بالمستقبل المحتمل لإطلاق سراح جوزي ألغارفيو، والإصرار الخاطئ للمفتش ليما على فرضيته الأساسية السابقة.

تمتم البستاني بعض الأمور، خليط من الاحتجاج، والقلق والأسى. لكنه، في النهاية، وبشكل أوضح، طلب من المفتش إن كان بإمكانه أن يتصل «بشخصين من منطقة الغرب»[1]، قد يهتمان بأمره ويعملان المستحيل كي لا يشعر أنه متخلّى عنه. لم تكن هذه هي العبارات التي استعملها لكن هذا هو معناها. لبّى المفتش ليما طلبه بسهولة لطيفة، لاحظتُ، بعد ذلك، أنها قد أقلقت الأب بوربا، الذي نظر إليّ بسرعة وأسى. شيئاً فشيئاً، أصبح واضحاً أن المفتش

(1) تقع منطقة الغرب (Algarve) في جنوب البرتغال. (المترجم)

مكتبة الرمحي أحمد

ليما لا يعير اهتماماً لسجن البستاني إلا ليرسل إشارة ربما لآخرين حتى لا يُفاجأوا بما سيأتي.

بحثَ البستاني مرتعشاً في جيبه عن كتيب كان يستعمله كحافظة أوراق، وحرّكه كمن يغطّي الغبش عينيه ولا يرى جيداً.

- عن أي شيء تبحث؟ سأله ليما.

- عن اسمَي الشخصَين اللذين أريد منكم أن تتصلوا بهما لتخبراهما أنني في السجن. أعرف أحدهما، وهو السيد «المستشار»...

- أي مستشار؟

- السيد المستشار أمارو غونسالفش. لكني لا أعرف عنوانه...

- لا تشغل بالك بهذا الأمر... نحن نعرف أين يسكن السيد المستشار أمارو غونسالفش، وسنتصل به لنخبره أنك في السجن.

الفصل الرابع

التحقيق البوليسي الثاني. زيارة الدكتور كْواريشْما، إلى أن وضع يده على كتف الراوي.

عندما وصلنا أنا، وأبي، والمفتش فييرا، يومَين بعد ذلك، إلى الطابق الثالث من شارع فانكيروش، حيث كان يسكن الدكتور كْواريشْما، أخبرتنا صاحبة البيت أن الدكتور لا يزال مريضاً. وعندما سألها فييرا إن كان ممكناً الحديث معه، أجابت أن ذلك ممكن، لأن ما به لا يعدو أن يكون حمّى قوية، وليس «مرضاً حقيقياً». منذ ثلاثة أيام وهو يقضي يومه في الفراش، أو جالساً، يقرأ أو يدخن. لذا ذهبت صاحبة البيت لتخبره بمجيئنا. دقيقتين بعد ذلك، تمَّ قبول دخولنا إلى غرفة الدكتور كْواريشْما.

كانت غرفة واسعة، بنافذتَين، في الجهة الخلفية من البيت. ونظراً إلى علو الطابق، كانت النافذتان تطلّان على السطوح من جهة شارع فانكيريوش. لذا كانت الغرفة جد مضيئة.

لكن الثناء الذي يمكن أن يُقال عن ضوء الغرفة لا يمكن أن يُقال عن ترتيبها إلا من قبيل السخرية. لست في هذا الأمر مدقِّقاً مرضياً، لكن هناك حدود لما هو غير مرتّب، وغرفة الدكتور كْواريشْما كانت تتجاوز هذه الحدود. كانت تعطيني الانطباع بأنها [. . .] لعب غير مرتبة.

مكتبة الرمحي أحمد

رغم أن فكرة الذهاب عند الدكتور كْواريشْما لأحكي له القصة الكاملة للسرقة كانت تزعجني مسبقاً، لم يكن بإمكاني أن أتفادى القيام بذلك بطريقة لائقة. لذا، مستسلماً في هدوء، عرضت عليه، مُلَخِّصا قدر الإمكان، كل الوقائع المشار إليها في هذه القصة. كما هو مفترض، قمت ببعض الحذف: لم أتحدّث عن ديون جوزي آلفِش، ولا عن قضية الخمسمئة ريال، ولم أذكر شيئاً عن خطاب السيد ليما الذي كانت هذه الأمور هي موضوعه وأساسه. لكني، لم أستطع أن أتفادى الحديث عن فرضية الشرطة، عن أن هناك عصابة تشتغل، وأن الشرطة تشك في أنها تقوم بذلك باتصال مع شخص من داخل مزرعة داش فِنياش. إذا لم أشرح ذلك، سيكون القبض على جوزي ألغارفيو أمراً غير قابل للفهم؛ ثم إنه يكفي أن يهتم به الدكتور كْواريشْما ليكتشف ذلك عند الشرطة.

استمع إلي الدكتور كْواريشْما باهتمام كبير، لكن، إذا صحّ القول، باهتمام موزّع. كان يبدو، وهو يصغي إلي بعينيه، كأنه يسمع صوتاً غير صوتي. أعترف بعبثية هذه الطريقة في التعبير، لكني أنقل انطباع حواسي. في الواقع، كان كْواريشْما يبدو، دون أن يكفَّ عن الاستماع إليّ باهتمام، كأنه يتابع التطور الداخلي لشيء آخر -تفكير استدلالي أو تخمين- كان له دائماً علاقة بما كنت أرويه.

أنهيت، أخيراً، روايتي، واعتقدت أنني تخلّصت من عبئها. لكن كْواريشْما، الذي لم يقاطعني أثناء الحكي، بدأ حينئذ يسألني. طلب مني أن أقدِّم وصفاً مفصّلاً للأشخاص الذين كانوا في البيت لحظة وقوع السرقة؛ لكن وصفي المباشر كان موجزاً. سألني عن أعمارهم، ووضعيتهم المالية، وأشياء أخرى. بدأت أشعر بالحرج، خصوصاً عندما كان جوزي آلفِش موضوع السؤال. لم يكن بإمكاني

أن أقول كل الحقيقة عن جوزي آلفِش، لكن أيضاً، ولمجرد إنصاف السجين، لم أكن أستطيع أن أحذف الوقائع بشكل قاطع. بالإضافة إلى هذا، لم أكن جد واثق من أن الدكتور كْواريشْما، عندما سيتحدث مع الشرطة بعد ذلك، لن يكتشف أُسُس الفرضية الأخرى التي قدّمها المفتش ليما. فقرّرت أن أحكي قضية بعض الصعوبات المالية لجوزي آلفِش، دون أن أشرح التلاعب الذي تسبّب فيه ذلك، ودون أن أشير إلى السرقة السابقة.

لكن، في لحظة معيّنة، بدأت أرتبك، لأن الطبيب دخل في الموضوع بطريقة ملتوية. سألني إن كانت العلاقة بين الأب وابنه دائماً جيدة، وهو ما أجبت عليه بأنه يبدو أنها كانت كذلك، لكن فعل «بدا» في حدّ ذاته بدا لي محترزاً أكثر من اللازم، فخشيت أن يقدِّم لكْواريشْما معلومات أكثر مما كنت أريد أن أزوده بها.

بهذه الأسئلة وغيرها شغلني كْواريشْما، دون أن يسلّيني، حوالي ساعة ونصف، منذ بداية حديثي.

نهض، أخيراً، من فوق الكرسي، وتوجّه نحو المشجب حيث توجد قبعته.

- ألا يزعجك أن نخرج؟ سألني. أريد أن أتنزّه قليلاً كي أكمل بعض الاستدلالات المنطقية.

- لا، هذا لا يزعجني بتاتاً.

وخرجنا.

نزلنا عبر شارع فانكيروش. كانت عشية خريف جميلة. مشينا جنباً إلى جنب، صامتَين معاً، وعند نهاية الشارع، وعلى إيقاع حركات الدكتور كْواريشْما، عرجنا جهة اليمين، نحو تِرّيرو دو باسو. تقدَّم الدكتور كوريشما على مهل، يطأطأ رأسه، ويداه دائماً

مشبوكتَين خلف ظهره، إلى غاية السور المتواجد على اليسار. هناك توقف، وأنا أيضاً، ثم تأمّل النهر في شرود.

ظلَّ كذلك لحظة. بعد ذلك، التفت إلي بتعبير رصين ومباشر في عينَيه المضطربتَين قليلاً بطبيعتَهما.

- سأنقذ جوزي ألغارفيو، قال. لكن، قبل أن أقوم بذلك، يجب أن أدرس بعناية كيف علي أن أتصرّف في القضية. إنه لمن جميل الصدف أن تكون أنت السيد كلارو من بحث عني، لأنني معك أنت بالضبط، يا سيدي، من سأقوم معه بدراسة حلّ لهذه القضية. قُل لي: هل خطر ببالك مرة أنه يمكن أن يكون جوزي آلفِش مشتبهاً به؟

- تسألني هل خطر ببالي؟ لا. كيف يمكن لك سيدي الدكتور كُواريشْما أن تعرف أنه هو، أو يمكن أن يكون هو المشتبه به؟

- استنتجت ذلك من الكلمات التي لم تقلها لي، سيد كلارو -صمت للحظة- قد يحزنني أن تفكر، يا سيدي، أن جوزي آلفِش يمكن أن يكون مشتبهاً به. إنه صديقك، أليس كذلك؟ إذا أنقذتُ جوزي ألغارفيو هذا، سيلقون القبض حتماً على جوزي آلفِش.

- ربما لن يكون الأمر كذلك، أجبته.

- هذا مؤكّد. سيقبضون عليه ويلقى به في السجن. سينجو جوزي ألغارفيو بسهولة، لن يكون في أدنى حاجة إلى مساعدتي. جوزي آلفِش هو الذي لن ينجو. هذا مؤسف. أي إنه لن ينجو إذا ما استمرت القضية بين أيدي الشرطة. هناك طريقة وحيدة لإنقاذه: بالقبض على الجاني. طيب، الشرطة عاجزة عن القيام بذلك، لأنها وقعت، منذ البداية، في خطأ كبير، ذلك الخطأ الذي أراد لها الجاني أن تقع فيه.

- وأنت، سيدي الدكتور كْواريشْما، هل تعرف من هو الجاني؟
- أعرف. هل تريد أن أنقذ جوزي آلفِش؟
- هذا ما أريد، قلت متردِّداً، دون أن أفهم ما يترتب عن ذلك.
- لا يمكنني أن أقوم بذلك إلا إذا وضعت يدي على المجرم الحقيقي.
- إذاً، قم بذلك، يا سيدي الدكتور كْواريشْما.
فرّق الدكتور كْواريشْما يدَيه، مد يده اليمنى ولمس كتفي.

* * *

فرّق الدكتور كْواريشْما يديه خلف ظهره، نظر إلي بسرعة ومن غير تعبير، ثم مدّ يده اليمنى فجأة ولمس كتفي. ثم عاد إلى الوضعية السابقة، مُشبكاً يديه خلف ظهره، وعيناه شاردتان في نهر التاج.

مثل فقاعة صابون، انفجرت روحي من دون صوت في داخلي. بقيت معلَّقاً بفراغ داخلي، دون تفكير، ومن غير كلام ولا حركة. لو أن الدكتور كْواريشْما قال أي شيء، لأجبته بأي شيء؛ كنت سأكيّف تفكيري وصوتي مع كلامه. لكن أمام صمته لم أستطع أن أجيب بأي شيء. كان تصرّفه مثل مقصلة. خلال الفترة الطويلة الممتدة لبضع ثوانٍ حاولت يائساً أن أكوّن موقفاً، كلمة، حركة، أي شيء... لم أستطع... ففهمت بعنف حينئذ القدرة الكبيرة للإحساس بالذنب على أنفسنا، إذا ما عرفنا كيف نثيره. لو كنت بريئاً لقلت شيئاً ما، لحدث شيء ما. في كل جزء من الثانية وأنا صامت يملأ ذنبي الفضاء. مع كل جملة من وعيي بهذا الصمت كان يكبر عجزي عن الكلام، عن التصرُّف، والدفاع عن النفس. هزيمتي كانت كاملة. عند نهاية تلك الثواني المعدودة أقررت بكل ذلك.

مكتبة الرمحي أحمد

نحّى الدكتور كْواريشْما نظره عن نهر التاج، لكنه لم يضعه علي. أدار ظهره للنهر وقال لي بنبرة من لم يقل في السابق شيئاً ذا وزن: «ماذا لو ذهبنا الآن؟». ثم، بعد أن تقدَّم هو نحو قوس شارع روا أوغوستا، تقدمت في صمت إلى جانبه، مدفوناً في ذاتي تحت تهمة نهائية لم يتم النطق بها.

عند وسط الساحة، أدار الدكتور كْواريشْما وجهه نحوي، دون أن يدير عينيه، وقال: «ماذا تنوي أن تفعل؟».

كانت لدي رغبة كبير لأبكي، لأطلب منه العفو، منه هو الذي لم أذنب في حقه. للحظة لم أقوَ على الكلام. بعد ذلك وجدت صوتي يقول له: «لا أدري». ثم أردفت بعد لحظة: «دكتور، يمكنك أن تقول ما تشاء».

حينئذ نظر إلي الدكتور كْواريشْما بملء عينَيه، ثم قال لي بكل بساطة: «ليس لدي أي شيء أقوله. كما فهمتَ، قمتُ بفكّ رموز قضيتك. يمكنني القول إنني فككت رموزها بسهولة كبيرة. البقية تهمك أنت».

الفصل الخامس

تفسير الدكتور كْواريشْما.

«إن القضايا»، قال الدكتور كْواريشْما «سواء كانت أُحجيات، أو مسائل شطرنج، أو تعقيدات الواقع، أو أياً كانت، تنتمي بالضرورة إلى واحدة من الفئات الثلاث: هناك، أولاً، القضايا التي يكون البحث الرئيسي فيها عن السبب، بعد ذلك، هناك القضايا التي يكون البحث الرئيسي فيها عن الغاية؛ وأخيراً لدينا القضايا التي يكون البحث الرئيسي فيها عن الوسيلة. قضية كالتي سنعالجها، والتي يدور موضوعها حول اكتشاف من قام بسرقة معيّنة، تنتمي إلى الفئة الأولى، لأن ما نبحث عنه هو المجرم، والمجرم، كما قد يقول فلاسفة الكلام، هو السبب الكافي للسرقة. لا يتعلق الأمر بمعرفة الغاية، لأن الغاية من أي سرقة أن يستحوذ الشخص على ما سرقه.

(1) قضايا لها ظروف

(2) قضايا علينا أن نحدِّد أولاً ظروفها، وبعد ذلك كيف جاء الحل

أول فئة من الوقائع هي ظروف القضية؛ هكذا، عندما يتعلق الأمر بمسألة في لعب الشطرنج، الوقائع الأولى المؤكدة هي حركات القطع، التي تخضع لقواعد معيّنة».

* * *

مكتبة الرمحي أحمد

«إن معيار التحقيق الذي أعتمده، لأنني أجده الأكثر عقلانية من بين كل المعايير، هو أن أقسم التحرّي الأولي إلى ثلاث مراحل. تتعلق المرحلة الأولى بتحديد الوقائع غير القابلة للجدل، تلك التي لا تقبل أي جدل إطلاقاً، بإقصاء كل العناصر التي ليست كذلك، أو لا يوجد يقين مباشر حولها، أو لكونها استنتاجات -ربما منطقية، ربما لا محيد عنها- استُنبطت من هذه الوقائع، لكنها تبقى، على كل حال، استنتاجات وليس وقائع. سأسوق مثلاً لأُبَيّن بوضوح ما أعنيه بهذه الملاحظات. لنفترض يوماً ماطراً وأنا في البيت. يظهر لي شخص يقطر هندامه ماءً. من الطبيعي أن أفكر: «هذا الرجل مشى تحت المطر ولذلك فقد تبلّل». لكن، من المحتمل أنه لم يمشِ تحت المطر، وأن أحداً صبَّ عليه الماء هنا داخل البيت. معظم الناس قد يعتبرون مشي الرجل تحت المطر واقعة. في النهاية، هذا استنتاج - إنه استنتاج طبيعي، لكنه استنتاج، أو استنباط. لو أنني كنت عند النافذة، ورأيت هذا الشخص يأتي هناك في الخارج عبر الشارع تحت مطر شديد، لكان من الممكن، طبعاً، أن يتم تعويض بلل المطر بأي أمر آخر، لكن شيئاً من المطر كان سيبلِّل الرجل، ولكان بإمكاني أنا، في كل الأحوال، أن أؤكّد أن الرجل مشى تحت المطر. حينئذ، سيكون هذا الأمر واقعة.

إذاً، في قضية سرقة بيت مزرعة داش فِنياش، هناك وقائع تبدو غير قابلة للجدل (أقول «تبدو»، لأنها تعتمد على شهادات يمكن أن تكون باطلة، عن قصد أو عن غير قصد). هذه الوقائع هي: أنه حوالي منتصف الليل من يوم. . . من شهر أيلول حدث انفجار بالديناميت في قفل صندوق الفولاذ في مكتب مزرعة داش فِنياش؛ وأن هذا المكتب والقاعة المجاورة كانا مغلقَين من الداخل، بينما

كانت نافذة القاعة مفتوحة، وقُتل كلبان بالسم؛ وأنه تمَّ التأكُّد لحظتها أنه قد اختفت من الصندوق المنسوف بعض السندات (مئة) من الديون الخارجية للبرتغال، من السلسلة الأولى، كانت توجد به؛ أنه لم يوجد أثر لأي مشتبه به خلال البحث الذي تمَّ مباشرة بجوار البيت؛ أن السندات المسروقة، بعد التأكد من أرقامها من خلال لائحة أرقام كانت بحوزة مالك السندات، تمَّ تداولها في السوق البنكي دون أن يتم حجز أي سند منها أثناء التداول. إذا تحدّثنا عن وقائع، أي مجرد وقائع، هذا كل ما يوجد منها. وغير هذا، مهما كانت محاولة اعتباره واقعة، فهو ليس إلا مجرد استنتاج.

بعد إثبات الوقائع غير القابلة للجدل، نصل إلى المرحلة الثانية من التحقيق. تتجلى هذه المرحلة في ما يلي: الكشف عن الفرضية التي تربط وتشرح بشكل كامل الوقائع غير القابلة للجدل. لكن، بعد الكشف عن هذه الفرضية، يجب البحث في أن فرضيات أخرى أيضاً، رغم ضعف احتمالها ظاهرياً، تتطابق مع مجموع الوقائع نفسها. وتُحدَّد هذه الفرضيات بطريقة بسيطة: بعد الكشف عن الفرضية الأكثر احتمالاً، تُحدَّد بعد ذلك الفرضية المناقضة لها ويتم التأكُّد من درجة احتمال هذه الفرضية المناقضة. بعد إثبات كل هذا، يمكن الانتقال إلى الفرضيات الأخرى، أي تلك الفرضيات التي توجد في مرتبة وسطى، بين الفرضية الأكثر احتمالاً ونقيضتها، ثم يتم التأكُّد من احتمالاتها جميعاً واحدة تلو الأخرى.

في القضية التي نعالجها، الفرضية الأكثر احتمالاً في الظاهر هي تلك التي قبلها الناس مباشرة، بشكل غريزي، ووجدوها ممكنة جداً لدرجة أنهم اعتبروها واقعة وليست فرضية أو استنتاجاً. هذه الفرضية هي أن السرقة كانت من تنفيذ شخص أو أشخاص، غرباء

عن بيت مزرعة داش فِنياش، دخلوا البيت خلسة، بعد أن قدّموا السم للكلبَين، وضعوا المتفجِّرات، اختلسوا السندات ولاذوا بالفرار بعد ذلك، بسرعة كانت كافية كي لا يراهم أحد. بعد معرفة هذه الفرضية، نحدِّد الفرضية النقيضة. الفرضية النقيضة هو أن السرقة لم تكن من تنفيذ غرباء، وأنه لم يكن وجود لأي واحد من الظروف الظاهرة المشار إليها سابقاً. هذا ما يشكِّل، بحسب ما يبدو، الفرضية النقيضة.

إذاً، أي احتمال يمكن أن يقترن بهذه الفرضية النقيضة؟ كافتراض أكثر احتمالاً، أكثر قرباً من الجميع، هو أن السرقة كانت من تنفيذ غرباء، وفي الظروف المشار إليها، ستكون الفرضية النقيضة ممكنة التحقق في حالة واحدة فقط: إذا كانت هناك نية في اصطناع تنفيذ هذه السرقة من طرف غرباء. في هذه الحالة، تكون الفرضية النقيضة محتملة، وتعادل في احتمالها الفرضية الأولى والطبيعية.

إننا، إذاً، أمام فرضيتَين محتملتَين، بينهما تناقض. فأيهما أكثر احتمالاً؟ علينا أن نفكِّر في ذلك في ضوء فحص الظروف المباشرة للسرقة، أي بالنظر إلى أولاً: مكان السرقة، ثانياً: ساعة تنفيذ السرقة، ثالثاً: طبيعة المسروقات، رابعاً: طريقة السرقة، خامساً: طريقة توزيع السندات في سوق البورصة. هذه هي العناصر المادية الخمسة المباشرة للحادث.

بالنسبة إلى مكان السرقة، ليس هناك من أمر يستحق الفحص. صندوق الفولاذ كان هناك، وهناك كان يجب أن يُفتح في كل الأحوال. فيما يخص ساعة السرقة، سيكون أكثر غرابة لو كانت السرقة من تنفيذ غرباء من أنها عمل قام به شخص من داخل البيت. بعد الدخول إلى البيت، سيترك اللصّ الغريب ما يكفي من الوقت

ليمرَّ حتى يكون لديه اليقين، أو الاحتمال الأكبر أن الجميع قد ناموا. لماذا سيشرع في التنفيذ فوراً، إذا لم يكن يعلم أن أحداً بقي في الأسفل؟

مكتبة الرمحي أحمد

يمكن النظر إلى مكان السرقة من زاويتَين: المكان في حدّ ذاته، واختيار المكان لتنفيذ السرقة؛ أي أن السرقة نُفِّذت في مكتب مزرعة داش فِنياش، وأن يكون بيت مزرعة داش فِنياش المكان المختار لتنفيذ السرقة. فأما أنَّ السرقة نُفِّذت في مكتب مزرعة داش فِنياش، فلا غرابة في ذلك لأن صندوق الفولاذ يوجد هناك، وبالتالي فإن السرقة ستحدث هناك. أما بخصوص اختيار مزرعة داش فِنياش كبيت للسرقة، فإن الأمر يختلف. أيُّ احتمال كان بأن سرقة صندوق الفولاذ الموجود في مزرعة داش فِنياش كانت أكثر جدوى من سرقة أي صندوق فولاذ آخر؟ أي احتمال من هذا القبيل كان لدى الغرباء؟ من يملك هذه المهارات والطرق في السرقة كما تمَّ في هذه الحالة، لماذا سيختار مزرعة داش فِنياش في الوقت الذي يستطيع، دون إضاعة لمهارته، ودون مجازفة، أن يحصل على منافع أكبر لو هاجم نقطة أخرى؟ في هذه الحالة، إذاً، الاحتمال المرجّح يميل إلى صالح شخص ليس بغريب عن البيت؛ باستطاعته أن يسرق هذا صندوق الفولاذ لأنه لم يجد صندوقاً آخر -وهو سبب كافٍ وواضح- فاضطر لاصطناع سرقة من تنفيذ شخص غريب ليبعد انتباه أشخاص من داخل البيت، يمكن أن يكون هو من بينهم.

لنتحدث الآن عن ساعة السرقة... بالنسبة إلى الغرباء، هذه الساعة هي الأكثر إثارة للدهشة من الساعات التي يمكن أن يتصوروها. لكن، بالنسبة إلى شخص من داخل البيت، يرغب في اصطناع سرقة ينفِّذها غرباء، هذه الساعة هي التي سيقع عليها

مكتبة الرمحي أحمد

اختياره. كان الكل تقريباً نائماً، لكن كان لا يزال شخص واحد مستيقظاً. لم يكن ما يكفي من الأشخاص المستيقظين كي يخاطر بمصادفة أحدهم وهو يهيّئ أشياء لتنفيذ الاصطناع؛ لكن كان ما يكفي منهم ليحدِّد ساعة -في هذه الحالة، الساعة المزعومة- السرقة وليعطي الإشارة بأن السرقة قد نفِّذت.

طبيعة المسروقات. . . لو أن السرقة كانت من تنفيذ غرباء، لسرقوا السندات أو لاكتفوا بما سيجدون. إن فرضية كونهم كانوا يتصرفون بمحض الصدفة تضحدها طبيعة السرقة؛ والطريقة التي تمَّ بها ترويج المسروقات، بعد ذلك، يبدو أنها تنم عن استعداد قبلي لحوزتها».

* * *

«في أي بحث عن واقعة، نجهل طبيعتها ونريد معرفة مرتكبها والكشف عن هويته، ما يهم، قبل كل شيء، هو أن نعزل منها أي عنصر، مهما كان غير قابل للشك، يكون غير متوقع أو غريب. هذه السرقة تتوفر على عنصرَين غير متوقعَين وغريبَين: ظروف السرقة، والتمكُّن من تداول السندات دون مصادفة أي صعوبات تذكر. لذا، يستحسن أن نبدأ البحث انطلاقاً من إحدى هاتين الواقعتين.

لكن، بعد عزل الوقائع التي لا يمكن الشكّ فيها، والتي هي غريبة، (طبعاً، مع احتمال أن هناك أكثر من واحدة)، سنختار، من أجل بداية حقيقية للتحقيق، واحدة من تلك الوقائع تكون أقل إثارة للتأويلات، أي تلك التي تبدو أكثر غموضاً. إذاً، تداول السندات أمر مثير للعديد من التأويلات؛ ربما كان هناك تواطؤ من طرف أي شخص في البنك أو البورصة؛ ربما كان هناك خطأ في لائحة

السندات؛ ربما وقع تبادل للأسهم دون أن يتم التأكُّد من عملية التبادل، أو من الأرقام. لكن لا توجد عدة فرضيات مقبولة حول ظروف السرقة في حدّ ذاتها. هناك مجرد غرابة.

نعم. لقد تمَّ تنفيذ السرقة، بحسب ما يبدو، بطريقة صاخبة وفي وقت ليس بالباكر ليكون نهاراً ولا بالمتأخر حتى يتم التأكد من أن الجميع قد خلد للنوم في البيت، وبالفعل لم يكونوا نائمين. مع أنه كان من الممكن فتح صندوق الفولاذ بعدة طُرُق لا تحدث صخباً، تمَّ اختيار طريقة تحدث صخباً بالضبط؛ وهي بالإضافة إلى ذلك طريقة غير مألوفة. النتيجة أنه وقع الاختيار على طريقة غير مألوفة لأنها لم تكن ضرورية وتحدث إنذاراً، وهي بالضبط الأسباب العكسية التي قد تدفع إلى اختيار طريقة غير مألوفة. إن نية سرقة السندات واضحة، أولاً لأن الطريقة الغامضة التي تمَّ بها تداول السندات يمكن، مهما كانت طبيعتها، أن تكون موضوع تحضير قبلي؛ ثانياً بما أن السرقة كانت من تنفيذ أشخاص من داخل البيت، لم يكن هناك وقت لسرقة شيء آخر غير السندات.

إذاً، هذه الظروف تقودنا إلى استنتاج: إن الطريقة التي نُفِّذت بها السرقة استعملت بالضبط لتحدث إنذاراً. ولكن، لا يُطلق الإنذار إلا لغرض ما: للتمويه حول ساعة السرقة. وإذا اعتبرنا أن طريقة السرقة -انفجار بواسطة فتيل- كانت من إعداد شخص لتُحدث نتيجة عندما لا يكون هذا الشخص حاضراً، نصل إلى استنتاج بعدي آخر: إن السرقة لم تنفَّذ بواسطة انفجار الديناميت. وإذا لم يكن كذلك، فإنها قد تمّت بواسطة مفتاح مزوَّر، وإذا كان الأمر كذلك، فإن السارق شخص من داخل البيت أراد بواسطة الانفجار أن يوهم الآخرين بأن من نفّذ السرقة هو شخص من خارج البيت. لكن، لو

مكتبة الرمحي أحمد

أن هذا الشخص أراد أن يوهم بأن من سرق ليس هو، لكان عليه أن يكمل مسرحيته بأن يحرص على أن يتواجد في مكان يراه فيه الآخرون وقت الانفجار ليضمن بذلك لنفسه إثبات غيبة كافٍ. لحظة الانفجار كان الجميع نائمين إلا شخصين: بوربا الأب وحضرتك. وبما أنه هو صاحب السندات، فإن الشبهة الأولى تقع على حضرتك.

ولتتأكد الشبهة، أو لتتأكد أكثر، علينا أن نرى إن كنت حضرتك قبيل الانفجار قد خرجت تحت أي ذريعة من قاعة الأكل وتأخّرت كثيراً لتهيّئ المسرحية. نعم، لقد خرجت تحت ذريعة مباشرة -وهي أنك تركت علبة السيجارات في غرفة المرشّح ليكون ضابطاً- وتأخرت ما يكفي من الوقت لتعدّ المخطّط بكامله، وهو ما يتطلب بضع دقائق بالنسبة إلى من درس كل شيء من قبل ويتصرف بسرعة».

* * *

«لكن، والكلبان!»، ردّد أبي. «إن الكلبَين لم ينبحا. . . !».

وهو نسي الكلبَين - ولماذا نسيهما؟ لأنه درس الخطة الخاطئة للسرقة من داخل البيت لخارجه. بما أن الكلبَين كانا يتواجدان خارج مجال خطته، فقد نسيهما بالطبع.

لا توجد خلاصة كاملة، لأنه لا وجود لتحليل كامل. لذا فإن المجرمين، كما قيل من قبل، دائماً ما ينسون أي جزئية أثناء التخطيط للجريمة أو أثناء تنفيذها.

* * *

- أتساءل أحياناً إن لم تكن علاقة [. . .] الغرامية بأختنا سوى

خطة كي ندخل إلى البيت، أو أنها، أيضاً، موقف للانسحاب إذا كانت هناك حاجة إلى ذلك؛ إن لم يكن يستعمل مشاعر الفتاة نفسها لتفادي المحاكمة في الحالة قليلة الاحتمال أن يكتشف [. . .]. طرحت مرة المسألة على الدكتور كْواريشْما الذي كان صدفة في أحد أسوأ أيامه، فلم يعرف كيف يجيبني.

- أن يكون الأمر ممكناً، هذا ممكن. مع شخص خبيث من هذه الطينة ليس ذلك أمراً مستحيلاً، ليس كذلك. وشخصياً لم أتمكن من معرفته! ثم صمت في حزن.

مكتبة الرمحي أحمد

اختفاء الدكتور ريبيش غومش

مكتبة الرمحي أحمد

[1 - الدكتور ريبيش غومش]

كانت قضية اختفاء الدكتور ريبيش غومش، ليلة 7 فبراير 1907، في سلاليم العمارة رقم 34 بشارع فانكيروش، من أكثر القضايا التي وقعت في لشبونة غموضاً وإدهاشاً، من دون شكّ. وقلّما واجهت التحقيقات من النوع البوليسي قضية بهذه الإثارة، شبيهة بتلك التي تجود بها أقلام كتّاب الخيال في رواياتهم الموجّهة للشعب.

ما حدث هو أن الدكتور ريبيش غومش، الذي استُدعيَ لزيارة مريضة في الطابق الرابع من العمارة المذكورة، اختفى. نعم، اختفى تماماً، بين البوّابة والطابق الذي كان يصعد نحوه دون أن يُسمع صوت أي باب أثناء ذلك بين نقطة انطلاقته وتلك التي كان من المفروض أن تكون نقطة وصوله، دون أن يكون من الممكن تحديد العلو الذي بلغه وهو يصعد وبعد أي نقطة كَفَّ عن الصعود.

قد يبدو هذا الملخّص الموجز عبثياً للغاية كي نُسلِّم به بأي طريقة كانت؛ ولو أن القارئ تأنّى في قراءته، لتكوَّن لديه الانطباع بأن هذه العبثية تنتج، حتماً، عن الإيجاز في عرضه، لكن ما أن يُسرد بكثير من التفاصيل حتى يبدأ شيء من الوضوح، أو بعض الضوء يلوح حوله. الأمر ليس كذلك. وسيستنتج القارئ من هذه الرواية المفصّلة التي سأشرع فيها شيئاً مفارقاً: في هذه القضية العبثية، كلما زادت معرفتُنا، كلما قلّ ما نعرف.

مكتبة الرمحي أحمد

بعد هذه المقدمة، أمرُّ لسرد الوقائع التي رأت النور حول اختفاء الدكتور ريييش غومش.

أوسكار ريييش غومش، طبيب تخرّج من جامعة باريس سنة 1901، وبعد عودته إلى البرتغال فتح عيادة فور المصادقة على امتحانه من مدرسة الطب والجراحة في لشبونة. كل سكان لشبونة يعرفون من دون شكّ الصفيحة المعدنية التي تحمل اسمه في شارع الذهب، عند زاوية شارع فيتوريا، في الطابق الثاني، فوق ورّاقة بروغريسو.

نجح الدكتور ريييش غومش، في وقت قصير نوعاً ما، في أن يكوّن عدداً مهمّاً نسبياً من الزبائن. كان متخصِّصاً في أمراض القلب، وهناك من الناس من يقول، بحقّ أو من دون حقّ، إن لشبونة، نظراً إلى وعورة تضاريسها وما تتطلبه من مجهود في التنقل، هي مدينة المصابين بأمراض القلب. على أي حال، لم يكن المصابون بأمراض القلب هو ما ينقص الدكتور ريييش غومش كزبائن. سنة اختفائه كانت مكانته الطبية راسخة في أوساط أهل لشبونة. ورغم أنه لم يكن يُعد شخصية علمية هامة، فقد كان يعتبر رجلاً ماهراً ودقيقاً، يملك علماً، إن لم يكن واسعاً، فهو كافٍ جداً، يواكب تطور الطب، كيّساً ومُطَمئناً في تصرفاته، ومن دون أي شيء يُذكر خارج حياته المهنية قد يضرُّ بمساره الطبي.

تزوّج ريييش غومش سنة 1905 البنت الوحيدة لبارونات مدينة ريو، اللذين توفيا في نفس التاريخ. وكان يسكن منذ زواجه في شارع بيلا فيشتا، بحسب لابّا، في عمارة تقع بزاوية رصيف إشتريلا. كانت حياته منظّمة ومضبوطة، تمر تماماً بين بيته وعيادته. ونادراً ما يغادر لشبونة، ولو في شهور الصيف. والانشغال الوحيد

الذي كان لديه، عدا مهنته، كان ذا طبيعة هادئة: كان يجمع الطوابع البريدية، ويملك منها مجموعة رائعة.

وقد كان هذا الاهتمام المسلّي هو ما جمَعَنا وجعلني أكون شاهداً -رغم أننا قد نكون شاهدين على شيء لم نرَه، بحكم طبيعته الجوهرية- على اختفائه.

تعرّفت إلى الدكتور ريبيش غومش وقتاً قليلاً قبل المشهد الذي أحكيه. ربما تعرّفنا إلى بعضنا عند نهاية شهر أغسطس من سنة 1906. أذكر أن ذلك كان خلال شهر من الأشهر الأولى التي وصلت فيها حكومة جواو فرانكو[1] إلى السلطة. تمَّ التعرُّف أمام محل هافانيزا[2]، ذات ظهيرة، بينما كان مشي من عيادته إلى بيته. حصل بيننا تفاهم، وساهم الاكتشاف المفاجئ بأننا معاً من هواة جمع الطوابع البريدية في توطيد هذا التفاهم العفوي.

التقينا كثيراً بعد ذلك، تقريباً في نفس المكان المشار إليه، حيث عادة ما كنت أتواجد في الساعة نفسها التي يكون فيها قادماً من عيادته في اتجاه إشتريلا. زرتُ بيته مرتين، مرة لأطّلع على مجموعة طوابعه البريدية، ومرة أخرى لأرى مقتنيات جديدة تغني تلك المجموعة. لم يقدّمني إلى زوجته، التي أظن أنها لم تكن في البيت خلال المناسبتَين معاً. وبدوره زارني الدكتور ريبيش غومش مرة

---

(1) جواو فرانكو (1855-1929): سياسي برتغالي، عُرف ببراعته في فنّ الخطابة. تقلّد عدة مهام وزارية، واعتزل السياسة مع سقوط النظام الملكي. (المترجم)

(2) يتعلّق الأمر بمحل لبيع التبغ العادي والسيجار بشارع شيادو، قرب مقهى برازليرا الذي كان يتردد عليه فرناندو بيسوا، حيث نجد اليوم تمثالاً من حديد يمثّل الشاعر وهو جالس في المقهى. (المترجم)

مكتبة الرمحي أحمد

واحدة ليرى مجموعتي. من جهة أخرى، كانت لقاءاتنا وأحاديثنا الطويلة، ليس فقط حول الطوابع البريدية، بل حول مواضيع أخرى، تجري إما أمام باب هافانيزا، وإما مساءً عندما يكون عائداً من بايشا فيلقاني قرب مقهى مارتينيو[1].

هكذا كانت علاقتي بالدكتور رييش غومش، محدودة وودية.

أذكر كل هذه التفاصيل على سبيل «التقديم» وليس لأنها تمثّل أو قد تمثّل فائدة بالنسبة إلى القضية التي تعرضها هذه الرواية.

تعرّفت إلى الدكتور رييش غومش، الذي لا أذكر من قدّمه إلي، في النادي الأدبي، حيث كنتُ أذهب من حين إلى آخر، لألعب الشطرنج[2]. كان قد مرَّ عام أو عامان على معرفتي به حين وقع الاختفاء. ورغم أننا لم نكن نلتقي كثيراً، ولا نسعى إلى ذلك، فقد تفاهمنا معاً، دون سبب، أظن، سوى العفوية الغامضة للتفاهم. ولم تكن السياسة هي ما يقرّبنا، لأننا كنا خصمين، ولم تكن موضوع أحاديثنا؛ ولم تكن تجمعنا لعبة الشطرنج، التي كنتُ أمارسها، ولم يكن هو يحبها؛ ما كان بيننا من اهتمامات مشتركة، وكان يؤدّي، عدا إن كانت أحاديثنا تدور حول شعاب الفراغ المتيقظ، إلى أن نتسلّى معاً هو أننا كنا معاً هاويين شغوفين ومحنكين من هواة جمع الطوابع البريدية. كانت مجموعتي جيدة، ولا تزال؛ وكانت مجموعته أحسن بكثير، ربما ليست هي التي أملكها اليوم (والتي ازدادت قيمتها في السنة الماضية)، بل تلك التي كنتُ أملكها في الفترة التي تعرّفت فيها إليه.

---

(1) مقهى آخر، وسط لشبونة، كان يتردّد عليه فرناندو بيسوا. (المترجم)

(2) يقدِّم بيسوا روايتَين مختلفتَين لطريقة تعرُّف السارد إلى الدكتور رييش غومش. (المترجم)

أكاد لا أعرف شيئاً عن الحياة الخاصة للدكتور ريبيش غومش. أين كان يسكن، ومع من -ما ذكرته أعلاه- عرفته فيما بعد، حين أُنجز التحقيق حول القضية. لم تكن تدور حوله أية إشاعة ذات أهمية تذكر، أو كانت الإشارات إليه نادرة. عن ريبيش غومش الطبيب، كان يروج ما ذكرته سلفاً، أما ريبيش غومش الإنسان فقليلاً ما يأتي ذكره. لم يكن من المعربدين، على الأقل علناً؛ لم يكن إنساناً كثير المعاشرة، على الأقل بشكل مثابر، ولم يكن رجل دراسة، يقضي الوقت في بيته وفي الاعتناء بزبائنه. صحيح أنه كان مشغولاً جداً، لكنه كان يأتي إلى عدة أماكن للاجتماع بانتظام. لا يتردد على النادي كثيراً ولا نادراً؛ لا طويلاً ولا كل مرة. من المعروف أنه كان يعيش ميسوراً، يربح ما يكفي بفضل لائحة زبائنه الطويلة. كان دائماً حسن الملبس وأنيقاً؛ والشيء الوحيد الذي يمتاز به أنه كان يستعمل حلياً قديمة، يغيرها كثيراً. أذكر أنني رأيته يستعمل أشياء غريبة من زمن آخر، أشياء فظيعة لكنها تجد من يقتنيها.

وأنا أروي على عامة الناس اللغز المدهش الذي يمثّله اختفاء ريبيش غومش، أشعر بخجل طبيعي ينتابني وباحتراس مبرَّر فيما يتعلق بقدرتي على عرض غرابة القضية وعمق وفطنة الاستدلالات التي كشفت عن السر. أشعر أنني عاجز عن أن أنقل بدقّة، ولا بالكامل، اللغز كما حدث، ولا الطريقة الدقيقة التي تمَّ حله بها. سأقوم بكل ما في وسعي لأسرد القضية بدقة، وأقول كيف وقعت وما ترتب عنها، ولأنقل التحقيق بكامله، وتلك [. . .] شبه الشيطانية التي حلت به. لكنني لن أفلح -أنا آسف على ذلك- في أن أجسِّد اللغز وأمنحه الحياة، ولا أن أجعل حجج كُواريشْما حية وممتعة في روايتي.

مكتبة الرمحي أحمد

بعد القيام بهذا التوضيح الأولي، حتى يسامحني القارئ، إن استطاع، سأباشر روايتي، لأنني، على الأقل، يمكن أن أقدِّم شهادة مباشرة، لأنني واكبت عن قرب منذ ذلك الحدث المثير الذي وقع في البداية إلى غاية آخر نتائج التحقيق.

[2 - الاختفاء]

ليلة السابع من فبراير من سنة 1907، كنتُ أصعد، ببطء، شارع شيادو لأعود إلى البيت، حين التقيت ريبيش غومش وهو ينزل الشارع بسرعة. تحدّثنا، وقال لي بما أنه لم يرَني منذ خمسة عشر يوماً (لأنني، بالفعل، كنتُ في بورتو)، فإنه كان مسروراً بلقائي ليحكي لي قضية غريبة وقعت له لها علاقة بهواية جمع الطوابع البريدية. هل كنتُ أرغب في أن أرافقه إلى غاية شارع فانكيروش، حيث طلبوه ليرى مريضة تفاقم وضعها الصحي؟ قلتُ له نعم عن طيب خاطر، لأنني لم أكن على عجل من أمري. أثناء الطريق، لاحظ، يمكننا أن نتحدّث، وإن كنتُ أرغب في انتظاره هناك، بما أن الزيارة لن تستغرق طويلاً، ستكون فرصة لنتحدث مطولاً، خصوصاً عن تلك القضية الغريبة التي أخبرني عن وجودها للتو.

لم يكن لدي ما أقوم به؛ قبلتُ اقتراحه. نزلنا عبر شارع شيادو، عرجنا على شارع نوفا دو ألمادا، اختصرنا الطريق عبر شارع كونسيساو إلى غاية شارع فانكيروش. كانت العمارة التي تقطن فيها زبونة ريبيش غومش تقع عند ذلك المستوى. أثناء مسارنا، تحدثنا عن السياسة، موضوع مهيمن وقتئذ، عشية دكتاتورية جواو فرانكو، التي لن نتأخر في معاينتها. أما القضية الغريبة المتعلقة بجمع الطوابع البريدية فقد احتفظ بها صديقي لوقت مناسب، بعد زيارة المريضة.

مكتبة الرمحي أحمد

قلنا تفاهات، لا قيمة لها ولا وجهة خاصة عن السياسة. كانت آراؤنا السياسية تقريباً هي نفسها -كنا معاً من أنصار الجمهورية[1]- وكان يغيب حافز الخلاف ليغذّيه الحديث المثير أو الحماسي. هكذا وصلنا إلى شارع فانكيروش. كانت الأجراس تعلن عن منتصف الليل حين مررنا بشارع كونسيساو، عند شارع فانكيروش تقريباً.

وصلنا إلى رقم 34 من شارع فانكيروش؛ وفي النافذة الإفريزية المواربة في الطابق الرابع كان أحد ما ينتظر، لأنه ما كدنا نصل حتى سألونا من أعلى:

- الدكتور، أليس كذلك؟

- نعم، نعم، قال ريبيش غومش من الأسفل.

- إن الباب الرئيس مفتوح، أجابونا، والمصراع موارب فقط. ادفع من فضلك. سأشعل الأضواء في السلاليم.

- لا داعي للنزول، صاح ريبيش غومش. يكفي إشعال الأضواء من أعلى. يمكنني أن أصعد السلاليم. أعرفها جيداً.

وعندئذ دفع البوابة، التي انفتحت.

- إنني أنتظرك هنا. قلتُ وأنا أستعد لأبقى في الرصيف.

- لا. ادخل على الأقل إلى هنا وانتظر قليلاً. لن أتأخر كثيراً.

دخلت تحت البوابة. في الأعلى، كان يُسمع صوت باب يُفتح. أخذ الدكتور ريبيش غومش يصعد السلاليم بسرعة، بخُطى خفيفة لشخص يعرفها حقّ المعرفة. بقيتُ قرب البوابة، التي ظلت مفتوحة،

---

(1) كان النقاش السياسي السائد في العقد الأول من القرن العشرين في البرتغال يدور حول مشروعية الملكية كنظام أو استبدالها بالنظام الجمهوري الذي اعتمدته البلاد ابتداء من سنة 1910. (المترجم)

وأخذت أدخّن. انقضت دقيقتان تقريباً، ربما أقل، عندما سمعتُ أحداً ينادي من أعلى، بصوت مرتفع:

- دكتور! إيه دكتور! ألن تأتي حالاً؟ يمكن لصديقك أن يصعد إن شاء ذلك، وينتظر هنا، في الأعلى، ريثما تفحص جدتي.

احترتُ فصحت نحو الأعلى:

- لقد صعد الدكتور، يا سيدتي. ألم يصل بعد؟

[3 - التحقيق]

شحب المفوَّض سانتوش قليلاً.

- كيف؟ لدينا الآن ألغاز أخرى؟ لا يكفي أن يتبخّر شخص في الهواء، ها هو نفس الشخص يتواجد في مكانَين مختلفَين في الوقت ذاته؟

- لا تقل حماقات! قاطعه المفوَّض غيديش. لا علاقة لقضية بأخرى. إن اختفاء رجل بشكل غامض مسألة يجب التحقيق بشأنها، لأنه من الممكن أن يختفي رجل بشكل غامض. أن يكون رجل في مكانَين مختلفَين في الوقت ذاته -والأدهى من ذلك في مكانَين بعيدَين عن بعضهما البعض- أمر لا يدعو لإجراء تحقيق لأنه ليس مشكلة. هذا مستحيل لأن رجلاً لا يمكنه أن يكون في مكانَين مختلفَين في الوقت نفسه. إن بدا أنه قد فعل ذلك، فإنهم إما يخادعوننا وإما يستهزئون بنا. أو أن الأمر يتعلق برجلين، أو بحالة اختلاق جريمة من هذا الطرف أو ذلك. لن أقوَل أكثر من هذا.

سانتوش، الذي ظلَّ ينصت دون قلق، هزّ كتفيه وعلّق قائلاً:

- حسناً، غيديش، حسناً. لكني مندهش لأنه في حالة واحدة، أو بالأحرى في حالتَين تبدوان مرتبطتَين، نجدُ ظرفَين غير عاديَّين بتاتاً ومحيرَين. هذا كل ما في الأمر.

- أين هما، إذاً، الظرفان غير العاديَّين والمحيرَين في كلتا

الحالتَين؟ إن قضية شارع مادالينا[1] محيّرة وغير عادية في الحقيقة. لا بدَّ أن هناك تفسيراً، ولو أنني لا أعرفه؛ لكنه لا بدَّ أن لها تفسيراً. القضية الأخرى لا تشبهها، إلا إذا انطلقنا من المبدأ الذي لم يبرهن عليه أي شيء، وهو أن فيليسيان بريسون وريبيش غومش هما نفس الشخص. لكن، أن يكون واحد في لشبونة والآخر في باريس، في الوقت ذاته، يثبت فوراً أنهما شخصان مختلفان، فينتفي الغموض. إن تشابه بريسون الجسدي مع ريبيش غومش، ووجود نقطة مشتركة (على الأقل بحسب ما يبدو) في الجريمة التي ارتكباها قد يجعلنا نعتقد أنهما متطابقان. بعد ذلك، بما أنه وقعت هنا قضية غامضة تتعلق بريبيش غومش، فأنت تنقل هذا الغموض إلى قضية بريسون، التي لا تنطوي على أي شيء استثنائي إذا لم تلحقها بقضية ريبيش غومش.

- لقد توصلنا بنتائج التحقيقَين اللذين أجرتهما الشرطة الفرنسية والشرطة الإسبانية. تمَّ إنجازهما بشكل رائع. وهذه تفاصيل التحقيقَين. . .

- والنتيجة، سيدي؟

- تمَّ إثبات تطابق ريبيش غومش وفيليسيان بريسون بشكل تام. إنهما نفس الشخص.

شَعَرَ المفوَّض سانتوش، رغم ذلك، برعشة، ورمى غيديش بنظرة حائرة، تتخللها ومضات انتصار خفيفة.

- مستحيل! قال غيديش.

---

(1) يتردّد الكاتب مرة أخرى بخصوص أماكن الأحداث. في الفصل السابق ذكر أن الاختفاء حدث في شارع فانكيروش. (المترجم)

مكتبة الرمحي أحمد

لكن الجميع لاحظ أنه شحب.
قال المفوض باستوش معلِّقاً:
- لدينا لُغزان، لغز فوق لغز.
- ليس لدينا لغزان بالمرة، قاطعه غيديش. لا يوجد أدنى تشابه بين القضيتَين، عدا أنهما تدوران حول نفس الشخص، وهذا ليس تشابهاً. أن يختفي رجل في سلاليم، دون أن نعرف في أي جهة من ذلك المكان اختفى، هذا لغز. لكن أن يوجد رجل في مكانَين في الوقت ذاته هذا ليس لغزاً: هذا مستحيل.
- إذاً، من يكون فردناند بريسون[1]؟
- وما أدراني؟ إنه ليس هو الدكتور ريبيش غومش، لأن الدكتور ريبيش غومش كان في لشبونة يوم 8 مارس[2]. الآن، ثمة شكوك بخصوص هوية الشخص الذي كان في لشبونة يوم 8 مارس، أي أنه إذا لم يكن الشخص الذي اختفى في شارع مادالينا بالصدفة هو الدكتور ريبيش غومش، فسأسلِّم، إذاً، بأن السيد بريسون والسيد ريبيش غومش هما نفس الشخص. وإلا فإننا جميعاً نستحق أن نذهب إلى ريليافوليس[3].
- بالله عليكم، كيف يمكن أن يوجد شخص يستطيع أن يخدعنا ويقدِّم نفسه على أنه ريبيش غومش...؟
وبقوله هذا، فضح باستوش غضبه.

(1) يتردّد الكاتب بخصوص اسم الشخصية. في الفقرات السابقة كانت هذه الشخصية تُدعى فيليسيان بريسون. (المترجم)
(2) هنا يتردّد الكاتب في تحديد زمن الأحداث. في الفقرات السابقة ذكر تاريخاً آخر، وهو 7 فبراير. (المترجم)
(3) مستشفى الأمراض العقلية في لشبونة وقتئذ. (المترجم)

- هكذا إذاً. . . لقد حصل أنه كان هناك في السابق توائم يتشابهون بشكل كبير، بل كان هناك أيضاً أشخاص يتشابهون بشكل كبير دون أن يكونوا توائم. معظم الناس لا يتقنون الملاحظة، بالعين والأذن، وهناك الكثير من الخلط الممكن بخصوص هذه النقطة أكثر مما تظن. نعم، أعرف أن الحالات التي يتشابه فيها التوأمان تماماً هي حالات نادرة، ومن النادر جداً أن نجد حالات شخصين ليسا بتوأمين ويتشابهان تماماً. لكن أن يوجد شخص ما في مكانَين في الوقت ذاته، فهذا أفظع من نادر ومن نادر جداً: إنه مستحيل.

- إنك تفضِّل التسليم بفرضية أنه قد يكون ثمة شخصان يتشابهان إلى حدٍّ كبير، لدرجة أنه يمكن الخلط بينهما. . .

- أن يكون شخص ما في مكانَين في الوقت ذاته؟ طبعاً، أسلِّم بهذا. هذا جميل! إنه أمر لا يستحق السؤال. . .

- كل هذا غامض ومُلغز. . .

ثم أخذ المفوَّض باستوش الذي كان فوق الطاولة بحركة مرهقة وتوجَّه نحو الباب. تبعه غيديش.

- آه، غامض ومُلغز، إنه فعلاً كذلك! لا أحد ينكر ذلك. لكن، أن تكون ثمة معجزات، فالمسافة تبدو بعيدة. حالياً، ما نفهمه هو أن هذا الأمر لا يستعصي على الفهم. وهذا كل ما لدينا إلى حدّ الآن. عجباً! وهذا كافٍ جداً. . .

* * *

نظر المفوَّض غيديش إلى باستوش مبتسماً.

- إذاً، سانتوش، اختفى السر، أليس كذلك؟

بدوره نظر سانتوش إلى المفوَّض غيديش، لكن دون أن يبتسم.

مكتبة الرمحي أحمد

- لقد تدخّل في هذه القضية خمسة أشخاص. ولم يجنِ أي واحد منهم ربحاً مالياً، تمَّ توقيف اثنين، واحد جُنّ، والآخران انتحرا. فأين خسر الغموضُ المعركة؟

توقف سانتوش لحظة.

- كل شيء يجد تفسيره بكل سهولة، أعرف ذلك جيداً. لكن ها هي النتائج... صحيح أم غير صحيح؟

كفَّ غيديش عن الابتسام. نظرَ القاضي إلى سانتوش بوجه وقور يخلو من أي تعبير. حدّق فيه كُواريشْما بنظرة المُهتم. انتابتني قشعريرة.

- لقد فشلت هذه الطريقة في خلط الأسرار الغامضة لأغراض دنيئة. أليس كذلك؟

* * *

- الواقعة الوحيدة، بالمعنى الحصري لكلمة واقعة، التي لدينا الآن...

- إنها الاختفاء، قاطعه فيرّيرا.

- لا، إنها ليست الاختفاء حقاً، كذّبه كُواريشْما.

- إنه لغز الاختفاء، حاولتُ أن أصحّح.

- ولا هذا أيضاً، أجاب كُواريشْما. بالمعنى الحصري، الواقعة هي **اللغز الظاهر للاختفاء**. هذه هي الواقعة. يمكن تفسير اللغز في النهاية، ومعه أيضاً طريقة الاختفاء وهدفه. لكن ما سيبقى دائما كواقعة أولية، هو اللغز الظاهر للاختفاء. وبما أننا في بداية التحقيق، لنتوقف عند هذه الواقعة الأولية، وهي الشيء الوحيد الذي

لا يقبل الجدل حقاً، وبتعبير آخر إنه يمثل الواقعة الحقيقية التي لدينا إلى حدّ الآن.

- من دون شكّ، قال المفتش. وما الذي سنتوصل إليه بالتحقيق حول هذه الواقعة؟

- هذا ما سنراه، أجاب كْواريشْما.

[4 - استدلال أبيليو كْواريشْما]

- القضية بسيطة. إن الاختفاء بهذه الطريقة ليس له من معنى سوى التشديد بأكبر قدر ممكن على الاختفاء، وتقديمه بطريقة يكون فيها أدنى شيء يشمله البحث. وهذا يفترض فوراً علاقات سرية بين عدة أشخاص، لأنه حتى يختفي شخص ما عن أنظار الشرطة والسلطات، قد يكون من الأحسن الاختفاء بطريقة أكثر بساطة، دون أن نعرف نقطة بداية الاختفاء. إننا على يقين بأن الاختفاء قد أُنجز كي يعتبره أشخاص -ما زلنا لم نعرف من قد يكونوا- شيئاً لا يُفسَّر بتاتاً، ويحسبونه أمراً نهائياً ومحيِّراً.

والحال أن هذا، بعد أن أنجزه شخص بذكاء ريبيش غومش، سرعان ما يقود إلى استنتاج: الذكاء الأدنى للأشخاص الآخرين، والسمعة التي لا بدَّ أن ريبيش غومش يتمتع بها في أعينهم. لو كان هؤلاء الأشخاص رجالاً أذكياء، فإن الطابع المُلغَز للاختفاء كان سيتركهم حائرين، لكنه ما كان ليخلق هذا الرعب المُتطيّر الذي قد يكون قاتلاً بالنسبة إلى أشخاص أمّيين. لو أنه لم يكن يحظى بهيبة لدى هؤلاء الأشخاص، فإنهم كانوا سيشكّون في اختفائه المُلغَز، لأنه قد يخطر على بالهم أنه «لا يمكن أن يحصل هذا الأمر بهذه الطريقة».

والحال، أن الأشخاص الذين ارتبط بهم ريبيش غومش لتكوين ما يشبه جمعية سرية ربما كانوا يشكّلون جماعة محدودة نوعاً ما. لا

يمكن أن تكون جمعية مثل الماسونية، بوسائل بحث مهمة، بل ذات طابع دولي. هؤلاء الأشخاص -مهما كان رأيهم في الاختفاء- كان بإمكانهم أن يطوِّروا نشاط بحث أكثر دقة وضبطاً، إلى حدٍّ ما، من بحث الشرطة.

نفترض أن الدكتور رييش غومش كان ينتمي إلى ما يشبه جمعية سرية محدودة تتشكل من أفراد لهم أصول وضيعة ومستوى فكري رديء، يمكن أن نفترض أنهم متطيّرون ومستعدّون ليرعبهم اللغز، ويحظى لديهم بهيبة كبيرة. هذا كافٍ لنستنتج أن الأمر يتعلق بتجمُّع أو عصابة من المجرمين، ربما كان رييش غومش إما رئيسهم، وإما أحد رؤسائهم.

ربما كان هو الرئيس في هذه الجمعية، لأن الرجل الذي خطّط لهذا الاختفاء، بكل هذه المهارة وكل هذا الحدس السايكولوجي الكبير لا بدَّ أنه كان داخل جمعية أو عصابة من هذا النوع، **هو من يخطّط** للسرقات أو الجرائم. ربما كان يجمع بواسطة مساعديه أو مساعده التفاصيل عن الأماكن التي سيهاجمونها، يضع الخطة، ويعطي التعليمات لتنفيذها، وبعد ذلك يقومون بإنجازها في الواقع.

رجل كهذا، ذو مهارة مدهشة، لا يورِّط نفسه بشكل متسرِّع. ومن هنا أستنتج أنه ربما لم يكن يتعامل سوى مع مساعد أو نائب رئيس -لنسميه هكذا- وليس مع كثرة منهم. وباتخاذ نفس الاحتياطات، كان سيلتقي به في مكان يمكن أن يكون أقل إثارة للشكوك؛ فلم يكن هناك أحسن من عيادة طبيب، بما أنه يزاول هذه المهنة. لكن كان عليه ألا يستعمل عيادته في شارع الذهب، أولاً لأنها أكثر ظهوراً للعيان، لا يتردد عليها الناس كثيراً -مثل أي عيادة طبية متخصصة في الأمراض غير العادية- وقد تكون، طبعاً، الزيارة

مكتبة الرمحي أحمد

المتكرِّرة لشخص ما، نفترض أنه لا ينتمي إلى الطبقات التي تستطيع -وهو ما نلاحظه من مظهرها- أن تؤدي مقابل استشارة طبية خمس آلاف ريال في المرة الأولى، وألفين وخمسمئة في المرات الموالية. ومن هنا أستنتجُ أنه ربما التقى حتماً بهذا الشخص في العيادة متعدّدة التخصُّصات. بما أنه كان في حاجة إلى عيادة متعدّدة التخصُّصات لهذا الغرض، أستنتجُ كذلك ربما حاول بإلحاح أن يدخل إليها.

وأنا أفكّر ملياً، مع ذلك، في النفوذ الذي كان لا بدَّ منه حتى يعطي الاختفاء المُخطَّط له الأثر الضروري، وفي الطابع التشاؤمي المفترض في الأشخاص المعنيين، والذين يُفترض أنهم كُثر، وأقل احتمالاً لإثارة الشبهات، ولا يكون هناك حرج في الحديث إلى أكثر من واحد في المرة الواحدة، استنتجتُ أن زُوّار الدكتور ريبيش غومش في العيادة متعدّدة التخصصات ربما كانا، أكثر من على الأرجح، رجلاً وامرأة. هكذا، كل شيء يجد تفسيراً واضحاً.

من المرجّح أن امرأة قد شاركت في هذه العملية. ولم يكن من المحتمل، مع ذلك، أن تكون امرأة واحدة فقط، وبما أنه لم يكن هناك شيء كبير ليثير الشبهة -بل لا شيء تقريباً- في أن يتردّد زوجان لهما هيئة فقيرة على العيادة متعدّدة التخصصات -إن ظهرت الحاجة إلى ذلك- استنتجتُ أن نائبَي رئيس العصابة ربما يكونان رجلاً وامرأة. رجل له سوابق، على الأرجح، لكنه كان في السجن قبل مدة قليلة، وامرأة عادية، لكنها ماكرة.

كل الوقائع، كما أثبتناها، وفحصناها باستدلال صارم، تقودنا إلى هذا الاستنتاج.

بما أنه كان طبيعياً، مع تفادي كل الاحتمالات الواردة، أن يتردّد رجل وامرأة على العيادة متعدّدة التخصُّصات، فإن أبسط

الأمور كانت هي أن يكون هو من يرافقها، أن تكون هي المريضة وليس هو، استنتجتُ أيضاً، بخصوص الزيارات التي قام بها أحد الزوجين إلى العيادة متعدّدة التخصُّصات، أنه ربما هي من قامت بها، سوى في حالة أو حالتَين نادرتَين. ومن هنا يمكن أن نستنتج أيضاً أنها ربما كانت شخصاً ذكياً نسبياً، وتمارس نفوذاً على عشيقها أو زوجها.

لكن لصوصاً بهذه المهارة، وهذه التجربة الواضحة، لا يمكن أن يكونوا إلا لصوصاً لهم سوابق. لكن، بعد أن وجّههم شخص بحذاقة الدكتور ريبيش غومش، ربما لم يعد يُلقى عليهم القبض، لأنه كان هناك خطر أن يؤدّي توقيفهم إلى انهيار كل البناء بشكل مفاجئ ويصلوا إليه هو أيضاً. إذاً، كانت الأمور موجّهة بطريقة تمنع الاعتقال المحتمل للمتواطئَين الأقرب إليه.

علينا إذاً أن نبحث عن زوجَين من المجرمين -لصّين طبعاً، لأنه لا يمكن أن يتعلق الأمر بجريمة من نوع آخر- قضيا مدة في السجن وبعد ذلك لم يعد يُلقى عليهما القبض، رغم أنهما كانا مشبوهَين في مناسبة أو مناسبتَين. هذان الزوجان، وخاصة المرأة، لا بدَّ أنها زارت مرات كثيرة العيادة متعدّدة التخصُّصات في شارع سانتا مارتا.

لنرى الآن سبب الهروب. ليس من المحتمل جداً أن الدكتور ريبيش غومش قد وجد وضعيته آمنة تماماً؛ فعالِم نفس محنّك، ومتبحِّر في علم الإجرام لا يمكن أن يفكر في الأمر. كان من الضروري أن يبحث لنفسه عن هروب ممكن. ما الذي يمكن أن يتسبب في هذا الهروب؟ خطر الاعتقال. في هذه الحالة، لم تكن ثمة أية جدوى من إنجاح عملية اختفاء بكل هذا التعقيد، لأنه بعد إثبات مسؤولية الطبيب قد نعرف سبب الاختفاء، وسيبحثون عنه،

مكتبة الرمحي أحمد

سيبحثون عنه في الخارج، وكان هناك احتمال كبير للعثور عليه. . .
لا: لا بدَّ أن القضية كانت مختلفة. لا بدَّ أن الدكتور رييش غومش كان يفكر منذ مدة في الهروب. واحد من أمرَين: إما أنه كان يملك منذ مدة المال للقيام بذلك، وإما أنه كان مضطراً للحصول عليه. لو كان يملكه منذ مدة، دون خطر أن يقبضوا عليه، لماذا يقوم مرة أخرى بتدبير عملية اختفائه؟ فقط ليورِّط الناس الذين كانوا منخرطين معه؟ نجد أنفسنا في نفس النقطة مرة أخرى؛ لأن الخطر المحدّق به، هنا أو في الخارج، كان نفس الخطر. إن لم يكن معرَّضاً لخطر الاعتقال، فلماذا قطع فجأة أي علاقة مع هؤلاء الناس؟ لماذا؟ احتمال واحد يخطر على بالنا؛ وهو أنهم يهدِّدونه. لكن، بالإضافة إلى أنهم معرَّضون لنفس الخطر، فإن هذا لا ينسجم مع الفكرة التي توصّلتُ إليها، أي تلك الهيبة التي كان لا بدَّ أن يحظى بها لديهم حتى يضمن نجاح مناورته الغامضة.

بقيت فرضية واحدة. أن رييش غومش، قبل أن يهرب، ليجدَ نفسه في مأمن من كل إمكانات الاعتقال، انتظر فرصة أن يضع يده على قدر كبير من المال. هذا القدر، كي يكون لا بأس به، لا بدَّ أنه كان مالاً مسروقاً ولم يقتسمه بعد مع شريكَيه. في هذه الحالة، بالنسبة إلى عملية اختفائه، كان لا بدَّ له أن يكون في ظروف جيدة للقيام بها بعد الحصول على كل هذا المال؛ ويرجع سبب هذا الاختفاء إلى أنه كان عليه أن يخفي عن شريكَيه أنه أخذ المال. لم يكن ثمة خطر التبليغ لأنهما كان متورِّطين في القضية، ولأنهما كانا هناك حاضرَين وأكثر ظهوراً للعيان منه، حتى لو رغبا في الهروب. بقي خطر الانتقام، ولتجنّبه كان عليه أن يختفي بطريقة مُلغَزة، بطريقة تثير اندهاش هؤلاء الناس [. . .].

قضية القُفل الثلاثي

أو

سرقة في بنك غاليسيا

مكتبة الرمحي أحمد

[1 - وصف ظروف القضية واكتشافها]

لو أنه سبق مرة، في قضية مفعمة بالحياة -أي بعيداً عن أي علاقة بالظواهر التي اعتدنا أن نسميها «إخفائية»- أن اجتمعت ظروف غامضة ومحيِّرة، فقد كانت تلك بالتأكيد هي قضية السرقة المدهشة التي حصلت في مايو 1915 في بنك غاليسيا في مدريد. هذه القضية، التي بالكاد تناولتها الصحف، تمَّ كتمانها تماماً، بعد ذلك؛ لكنني حصلتُ على ترخيص من مديرَي البنك الحاليَّين حتى لا أقصي، من سلسلة هذه الروايات، قضية تشكِّلُ من دون شكّ واحداً من أكبر فتوحات الدكتور أبيليو كْواريشْما. وعلاوة على ذلك، فقد مات من كان بإمكانه، بعد كتمان القضية، بحقّ أو من دون حقّ، أن يشتكي من ذيوع هذه الرواية. لذا، فإنّني لا أتردّد ولا أشعر بأي ذنب في القيام بذلك.

إنني أدين بالوقائع التي تشكِّلُ هذه الرواية إلى السيد ماليرو سيلفا، تاجر بورتو الكبير (الذي كان في مدريد عندما وقعت القضية، وبما أنه كان صديقاً مقرّباً لأحد مديري البنك في تلك الفترة، فقد حصل بواسطته على معرفة مباشرة بأحداثها)، وإلى كْواريشْما نفسه، الذي عندما حدّثته عن القضية، تمّم رواية السيد ماليرو سيلفا بعرض استدلالاته، التي ألقى بفضلها الضوء على هذا اللغز.

بعد هذا، أبدأ روايتي.

مكتبة الرمحي أحمد

إن بنك غاليسيا، الذي يملك كل الصفات عدا صفة الانتماء إلى غاليسيا، يوجد مقرّه، كما قد لا نعرف ذلك في البرتغال، في مدريد وله فقط فروع في أهم الأماكن التي يستمدُّ منها اسمه. أُسِّس سنة 1902 وازدهر بشكل مدهش خلال، بحسب ما يقال، الحرب. يقع البنك في شارع «أ»، حيث يشغل مجموعة من البيوت ونصف المنازل المطلّة على شارعي «ب» و«ج». ليس له مدخل على شارع «أ». يشغل ثلاثة طوابق وما يشبه طابقاً علوياً، شيئاً ما في الخلف، على شكل سقيفة فوق السطح نفسه. كل نوافذ الطابق الأرضي، كما نوافذ الطابق العلوي، مزوَّدة بقضبان حديدية قوية. نوافذ الطوابق الوسطى غير مزوَّدة بقضبان، لكنها تطلُّ على ثلاثة شوارع، وخلال ساعات الليل والنهار يستحيل أن يحدث شيء غير عادي في أي واجهة من تلك الواجهات الثلاث للبنك دون أن يتم الانتباه إليه؛ لأن الشوارع الثلاثة توجد تحت مراقبة صارمة على مدار الساعة، بل إن هناك أيضاً مركز حراسة مدني في الشارع «ب»، تحديداً أمام مدخل البنك في هذا الشارع. ويتصل الحائط الرابع لمبنى البنك بحائط البناية المجاورة، دون أي اتصال داخلي بينهما؛ وهذه البناية أقدم من بناية البنك، لها نفس العلو ومزوَّدة بكُوات، وقد يمكن، من دون شكّ، المرور من سطح إلى آخر، لو كان ذلك في صالح أحد ما، ولو كانت نوافذ الطابق الأخير، كما قلتُ، غير مزوَّدة بقضبان حديدية قوية.

* * *

لكن بعض الاستنتاجات كانت بديهية. أولاً، سواء فُتحت بمفاتيح حقيقية، أو بمفاتيح مزوَّرة، فإن الأقفال الثلاثة للخزنة فُتحت

بواسطة مفتاح، وبمعرفة تامة بسرّ المفاتيح الثلاثة، لأنه من دون ذلك ما كانت المفاتيح لتفيد في شيء. بعد ذلك، وقع فتحها المشؤوم ليلاً، وفي هذه الحالة، ما كان ذلك ليتم من دون تواطؤ الحارس الليلي (حارس البنك) أو تنويمه؛ ونهاراً، يستحيل القيام بذلك في أي ساعة، يستحيل فتح قاعة الخزنة، فكيف يكون ممكناً نقل طن من الذهب من داخل البناية إلى خارجها.

لم تكن هناك فرضية يمكن تصورها، تنسجم، ولو من بعيد، مع الظروف؛ والأفظع من ذلك أنه، في غياب أي فرضية ملموسة، ما فتئ شكّ غامض يحوم حول هذا الشخص أو ذلك من الأشخاص الثلاثة الذين كانوا يتوفّرون على أسرار القفل الثلاثي، وكل واحد منهم يملك سرّ القفل الذي هو من اختصاصه. وبدأ جو مريع يخيّم وسط أطر البنك العليا. ومن هنا، جزئياً، كانت تلك السرية التي أحاطت بالتحقيق الرسمي. كان الجميع (مذنباً كان أم غير مذنب) يخشون الحقيقة، نظراً إلى السمعة الجيدة التي كانت تتمتع بها المؤسسة.

لكن الحقيقة لم تكن تبدو على عجل من أمرها لتظهر.

[2 - تحقيق المفوَّض مانويل غيديش]

- إذاً، هؤلاء الموظّفون الثلاثة في البنك مشتبهون لأنه، حتى يثبت العكس، هم الثلاثة فقط الذين كان بإمكانهم أن يفتحوا قاعة الخزنة...

- عفواً، تدخّل المستشار. بالنسبة إلي، إنهم من أشرف الناس.

غضب المفوَّض غيديش.

- إن الشرطة لا تريد أن تعرف ما يمثلونه بالنسبة إليك. ما تريد الشرطة أن تعرفه، هو من يكونوا... كل الناس شرفاء قبل أن تنتفي عنهم هذه الصفة، تصوّر...! شخص يُعتقل خمسين مرة لم يتم اعتقاله أبداً قبل المرة الأولى. يجب أن ننظر إلى الأمور دون اتهام أحد وبالاحتراس من الجميع. إلى أن نثبت من هو الجاني، أو على الأقل أن نثبت أي نوع من الناس هو الجاني، أي شخص يمكن أن يكون جانياً.

توقف غيديش. ثم عاد إلى نقطة البداية.

- ما أريد قوله، سيدي المستشار، هو ما يلي. المديران وأمين خزنة البنك، وهم الأطر الثلاثة الذين بإمكانهم أن يفتحوا مجتمعين الخزنة، هم من تقع عليهم أكبر الشبهات، وتحديداً لهذا السبب، حتى يظهر معطى جديد، إما يثبت أنهم ليسوا جناة، وإما يثبت أن شخصاً آخر يمكن أن يكون هو الجاني أو أشخاصاً آخرين. لا أقول

شيئاً آخر غير شبهة، لكني أقول شبهة، وأتمسك بكلمة شبهة. إذاً، هؤلاء الأطر الثلاثة هم الأشخاص الوحيدون الذين يذهبون إلى الصندوق -أعني الخزنة- كل أسبوع. هم من يؤكِّدون لي أن سبعة صناديق قد دخلت الخزنة؛ وهم من يؤكِّدون لي أن الصناديق السبعة كانت هناك يوم السبت من الأسبوع الماضي؛ وهم من يقولون لي إن أحد الصناديق قد اختفى يوم السبت الماضي. لا أحد سواهم يؤكد هذه الأقوال. إن شهادة ثلاثة أشخاص قد تُأخذ بعين الاعتبار لو أن هؤلاء الأشخاص الثلاثة لم يكونوا في مقدمة المشتبهين. وما داموا كذلك، فإن أي قول اتفقوا عليه -يتفقون عليه، لاحظ جيداً- له علاقة بهذه القضية لا يمكن أن يقبله كقول صحيح تماماً أي شخص يملك شيئاً من الرشد والصواب. لا أدري إن كنت تفهم جيداً الآن. . .

- إنني أفهمك، أجاب المستشار ببرودة. نعم، إنني أفهم وجهة نظرك.

- أكرِّرُ وجهة نظري، كما تسميها، أكَّد المفوض. ليس لدي الدليل -دليل يكون دليلاً فعلاً، بالنسبة إلي- بأن سبعة صناديق قد دخلت إلى الخزنة، وأنه كانت هناك سبعة صناديق يوم السبت، وأن أحدها اختفى يوم السبت الماضي، أو بالأحرى تمَّ الانتباه إلى اختفائه يوم السبت الماضي. أعرف أن هناك ستة صناديق الآن، لأنني رأيتها. أعرف أنهم يقولون لي هذه الأشياء الأخرى التي ذكرتها للتو. وأعرف أن من يقولون لي هذه الأشياء هم من تحوم حولهم أقوى الشبهات في هذه اللحظة. ولا أعرف أكثر من هذا إلى حدّ الساعة.

[3 - تدخُّل كْواريشْما]

عزيزي غيديش (تقول الرسالة)

حاول أن تعرف، من حارس أو حرّاس صناديق البنك المُؤجَّرة،

(1) مَن مِن عادته، ممن يستأجرون تلك الصناديق، أن يأتي باكراً -ما أن تفتح الخزنة أبوابها- ويأتي أيضاً متأخِّراً جداً، عندما تكون على وشك أن تغلق؟ ولا أستبعد أن يظهر هذا الشخص أيضاً عدة مرات في اليوم.

(2) إذا كان هناك، في هذه الظروف، أكثر من شخص واحد -وهو ما ليس كثير الاحتمال- مَن مِن هؤلاء الأشخاص ينتعل أحذية ذات نعلَين مطاطَين؟

إذا كان هناك شخص تتوفر فيه هذه المواصفات، يمكنك، بكل ثقة، أن تضعه في السجن الاحتياطي. إذا لم يكن هناك شخص تتوفر فيه هذه المواصفات، يمكنك، بكل ثقة كذلك، أن تضع في السجن الاحتياطي حارس الخزنة.

أود أن أحضر استجواب السجين، وهذا يمكن القيام به رسمياً، لو تحسّنت صحتي.

إن لم يكن السجين هو الحارس، فمن الضروري المطلق أن

تجبر الحارس، بتهديده إن دعت الضرورة لذلك، على ألا يطلع أحداً على الأسئلة التي طرحتَها عليه.

ومن الضروري المطلق أيضاً أن يتم التعامل مع اعتقال مستأجر الصندوق بأدنى دعاية ممكنة، حتى لا يعلم الرأي العام بالأمر.

صديقك الأبدي
كْواريشْما

قرأ غيديش الرسالة بانتباه، وأعاد قراءتها بانتباه، ثم ضغط على زر الجرس.

- قل للمفتش آلفِش أن يحضر إلى هنا، قال متوجِّهاً إلى المفتش الذي فتح الباب.

دخل آلفِش وقال التحية.

- اجلس هنا، يا آلفِش، قال المفوَّض. سأطرح عليك سؤالاً يجب أن تجيب عنه بصراحة، أليس كذلك؟

- طبعاً، أجاب آلفِش مرتبكاً بعض الشيء.

- هل أنا حمار، أتان، حيوان من ذوي الأربع أو طائر من طيور السَّقاوة؟

نهض آلفِش من كرسيه شاحباً. في ذهنه، مرتبكاً، بدا له أن المعنى الوحيد لهذا السؤال (إلا إذا كان ذلك مؤشِّراً على أن غيديش قد جُنّ) هو أن أحدهم نسب إليه، هو آلفِش، استعمال هذه العبارات للحديث عن رئيسه...

- أنا... أنا... أوه! سيدي المفوَّض، لكن من تَجَرَّأ على أن يقول...؟

مكتبة الرمحي أحمد

- من تَجَرَّأ على قول ماذا؟ من نعتني بهذه الأوصاف؟
- نعم، سيدي.
- لا أحد. . . أنا من أقول مع نفسي إنني ربما أكون كل هذا -تابع غيديش- يا إلهي كيف نُسمّي حيواناً كلما وضعنا أمامه الأمور واضحة، كلما قلّ فهمه؟

* * *

- هل تنتعل دائماً أحذية ذات نعلَين مطاطيَّين؟

أمام هذا السؤال السخيف، نظر السجين ملياً إلى كُواريشْما. لكن، مهما كان ذلك بديهياً، فإنه لم يكن سهلاً بالنسبة إلى من طُرح عليه السؤال؛ فصعد شيء ما مختبئ في ثنايا السؤال وانتشر فجأة على محياه شحوب جلي، لا يُفسَّر.

- إن كنتُ أنتعل دائماً أحذية ذات نعلَين مطاطيَّين؟ نعم، أنتعلهما. لكن. . . لكن أين هو المشكل في هذا الأمر؟

- لا شيء، قال كُواريشْما، لا شيء. إنه مجرّد سؤال. شيء آخر: هل تستأجر صندوقاً في خزنة بنك براغا؟

تفاقم شحوب الشخص المستجوَب. وصار توتره بادياً. بسبب هذا السؤال؟ بسبب تجاور هذا السؤال مع السؤال السابق، الذي كان مختلفاً تماماً؟

- نعم، قال، بشيء من المشقة.

- ليس في قاعة خزنة البنك، لا. . . ألستُ على حقّ؟ ذكّره كُواريشْما مبتسماً. في مدخل قاعة الخزنة، أليس كذلك؟

وأمام أعين المساعدين، ازداد توتر المتّهم بشكل ظاهر للعيان، كأنه زئبق في محرار ساخن.

- نعم. في مدخل قاعة الخزنة. هذا صحيح. توجد الصناديق في مدخل قاعة الخزنة. أعني أن كل مدخل لقاعة الخزنة هو عبارة عن قاعة للصناديق.

- آه، طبعاً، استأنف كْواريشْما كلامه مبتسماً وكأنه اختار نوعاً من الحديث العبثي. مدخل قاعة هو أيضاً خزنة... شيء آخر: هل أنت متزوِّج أم أعزب؟

بدا أن هذا السؤال الثالث، المتنافر بطبيعته مثل السؤالَين السابقَين، لم يرعب الرجل المستجوَب على الفور، بل أربكه، كما لو أنه كان يتساءل عن القصد من طرحه، ولهذا كان يخشى ما سيأتي. وبدا ذلك جلياً لأنه تردّد للحظات قبل أن يجيب، كما لو أنه يُضمر في داخله شكّاً بخصوص إن كان مخطئاً أم لا. وكانت الفكرة المباغتة للمقصود بذلك السؤال تترك أثراً في حياته.

- أنا أعزب، أجاب.

- أين تسكن؟

- رقم 17، شارع... الطابق الثالث، بيت رهن إشارتك، أضاف وابتسامة صفراء تعلو محيّاه.

- هذه معلومة خاطئة، قال كْواريشْما وهو يرد على ابتسامته. خذ حذرك... لا يجد تسلية في مثل هذه الأمور إلا من كان على حقّ... إذاً، أنت تسكن بشارع...؟

- نعم، سيدي، أعاد جوابه متوتراً.

- مع من تسكن؟

- مع أمي وإحدى خالاتي.

ثم استأنف كْواريشْما، قائلاً:

مكتبة الرمحي أحمد

– هل تحب أمك وأختها كثيراً أن تريانك تقضي الليل غالباً خارج البيت؟

لم يسبق أن لوحظ فرق بهذا الحجم بين المعنى الظاهر لسؤال معيّن وما يخلّفه السؤال من وقع على الشخص المستجوَب. سحنتُه كانت، حرفياً، بلون الرماد. صوتُه، لبعض الثواني، ارتعش كما لو أنه مَقصبة في مهب الريح، بل إنه واجه صعوبة كبيرة في أن يبدأ الكلام.

* * *

كان الدخان يملأ الغرفة وتفوح منها رائحة التبغ. كان كْواريشْما لا يزال يذرعها وهو يتصبّبُ عرقاً، مشعّث الشعر، لكنه حيوي وسعيد.

– يا إلهي، كم كان صعباً! صاح وهو يصافح التاجر.

– «وجدت الحل»، كما تقول... إذاً...؟

– وجد كل شيء طريقه إلى الحل. طبعاً وجدتُ الحل. لست أدري هل هو تعب السفر أو أي شيء آخر، لكني وجدتُ صعوبة في أن أجد المدخل. وما أن وجدته حتى صار كل شيء على ما يرام... هيا لنتحدث مع المفتش المكلّف بهذه القضية...

– إنه هنا في الرواق...

– نادي عليه... نادي عليه...

خرج ماليبروش سيلفا، وسرعان ما عاد رفقة المفتش الذي تحدّث عنه. بعد التقديم، وبعد أن هدأت نظرات الاهتمام الممزوجة بالشكّ والسؤال، طلب كْواريشْما الإذن وسحب الإسباني إلى ركن من الأركان ضدّ إرادته، أو بالأحرى دون أن يتمكن من سماعهما،

لم يستطع التاجر مقاومة رغبته في تفحُّص تعابير وجهَي المتحاورَين.

امتدَّ الحديث لوقت قصير. كان واضحاً أن كْواريشْما لم يكن يقوم سوى بعرض استنتاجات الاستدلال الذي أنجزه لوحده. وعلى محيّا الإسباني كانت التغيّرات مفاجئة وهائلة. من موقف فضول شكّ بدائي انتقل إلى تعبير غير محدَّد، ثم إلى مظهر المهتم، ومن هنا، بغتة، إلى ركود في الملامح ينم عن الدهشة. لحظات بعد ذلك، انتعشت تعابيره أكثر، فنزل بلكمة حماس على الصوان المجاور.

- صه! انفجر قائلاً. هذا رائع! مذهل! لا يمكن أن يكون شيئاً آخر! سوف أتكلَّف حالاً بالضغوطات...

ثم، بعد أن صافح كْواريشْما فجأة، غادر من دون أن يودّع تقريباً.

- ضغوطات؟ سأل التاجر، الذي وجد صعوبة في كبح جماح فضوله.

- نعم، ثلاث ضغوطات، قال الدكتور كْواريشْما مبتسماً.

وسكت دون أن يضيف شيئاً إلى جملته.

وبالفعل، مساء ذلك اليوم نفسه أُنجزت الضغوطات الثلاثة.

[4 - استدلال كُواريشْما]

- حين نكون أمام واقعة، كيفما كانت، يبدو أنها تنطوي على جريمة، فإن تحقيقنا يتمثل في توضيح ثلاثة أشياء على التوالي: (1) ماهي الواقعة التي حدثت؟ (2) هل الواقعة شيء تافه، هل يتعلق الأمر بحادث، أو بجريمة؟ (3) إذا كان الأمر يتعلق بجريمة، فمن ارتكب هذه الجريمة؟

كل هذا قد يبدو في غاية البساطة. قد يقول الجميع كل هذا معروف جداً.

فيما يتعلق بالتحقيق حول الجريمة في حدّ ذاتها، فإن النقط التي ينبغي التحقيق حولها هي كالتالي: (1) أين ومتى ارتُكبت (2) كيف ارتُكبت (3) لماذا ارتُكبت؟

حين نقوم بالتحقيق، نختار، كعنصر أول، نقطة من هذه النقط الثلاثة تقدِّم إمكانية أقل عدد من الفرضيات، أي تلك التي لا تثير سوى عدد محدود من الافتراضات. لنأخذ عنصر الزمن، على سبيل المثال. متى ارتُكبت الجريمة؟ هذا العنصر يمكن أن يكون في غاية الأهمية لإنجاز التحقيق، لكنه يمكن أن يكون دون أهمية تماماً. إن الظروف التي تجعل منه عنصراً مهمّاً أو غير مهم جدّ مختلفة، ولكن هناك بالتأكيد ظرف واحد هو الذي يمنحه الأهمية أو يجرّده منها. إنه يتمثل في القدرة، أو عدم القدرة، على تحديد الساعة، أو تحديدها بشكل جد تقريبي. إذا علمنا، بكل دقّة، بأن جريمة ما قد

ارتُكبت عند منتصف النهار وخمس دقائق، أو، بتوسيع الهامش، بين منتصف النهار ومنتصف النهار وعشر دقائق؛ وإذا ما تعلّق الأمر بجريمة تستوجب حضور الجاني -لأن هناك من الجرائم، مثل جريمة القتل بالسُّم، لا يتطلب حضور منفِّذها-، فإن التحقيق يسهل أمامنا نظراً إلى أنه في مكان محدّد وفي مدة خمس دقائق، لا يكون عدد الأشخاص الحاضرين كبيراً على العموم، ولا عدد الأشخاص الذين يمكن أن نفترض -نظراً إلى أسباب تحدِّدها حجج أخرى- أن لهم مصلحة في ارتكاب الجريمة.

- هل تسمح يا دكتور؟ قاطعه المفوَّض غيديش. كل هذا مهم جداً، لكن هل أنت بصدد إلقاء محاضرة حول الجريمة؟

- نعم، قال الدكتور كْواريشْما.

- حسناً، أجاب المفوَّض غيديش. تابع، من فضلك.

* * *

- لقد قمنا بمراقبة كاملة...

- لا توجد مراقبة كاملة، قال الدكتور كْواريشْما.

- وضعنا أحسن وأشمل دفاع يمكن تصوره.

- الدفاع دائماً يشكل نقصاناً. والهجوم يمثل تفوّقاً هو من خاصيته.

المراقبة غير المضبوطة دائماً ما تواجه بعض العقبات. ولتكون كاملة، يجب إعدادها تحديداً بالنظر إلى ما قد يظهر من عقبات... إذا كان أعداء المراقبة يعرفون ذلك، إن لم يكونوا أغبياء، فإنهم يستغلّون هفوات المراقبة.

* * *

مكتبة الرمحي أحمد

«هناك شيئان هنا. كما نفرِّق العدو لنهزمه، كذلك نفرِّق الطريقة المستعملة لحلّ المسألة. في هذه الحالة، عدد المسائل اثنان: كيف تمّت السرقة؟ وكيف تمَّ إخراج الذهب من البنك؟

وبما أن هذه المسألة الأخيرة هي الأسهل دون منازع، فلنبدأ بها».

* * *

– ثمة مسألتان أساسيتان، مسألتان جوهريتان: أولاً، كيف دخل اللص إلى الخزنة؟ كيف خرج منها، دون أن يراه أحد، ودون أن يرى أحد صندوقاً يزن أكثر من خمسين كيلوغراماً وحجمه متر ونصف على خمسة وسبعين سنتيمتراً؟

– إن المسألة الأولى هي التي تحيّرني، أجاب كُواريشْما، المسألة الأولى...

– كيف؟ هل ترى أن المسألة الثانية بسيطة؟

– المسألة الثانية، أظن أنني حللتُها.

– إيه؟ حللتَها؟ ماذا تقول؟

– نعم، حللتُها. حسناً، هذا ما يبدو لي. أتفهم، يا غيديش...

– لا، يا دكتور، لا أفهم...

– اسمع. لحلّ المسألة الأولى هناك حلّان ممكنان، وكلاهما له نفس الاحتمال. لست أدري أي الحلَّين سأختار... بالنسبة إلى المسألة الثانية، هناك أيضاً حلّان ممكنان، لكن الأول محتمل والثاني بعيد كل البعد عن الاحتمال. أعتبر أن هذه المسألة قد حُلّت لأن أحد الحلَّين بعيد كل البعد عن الاحتمال.

حدّق المفوض في كُواريشْما بعينيه؛ ثم هزّ كتفيه وابتسم:

- لن أسألك عن الحلَّين الممكنين أيضاً بالنسبة إلى المسألة الأولى... أعرف أنك لا تحب أن يُطرح عليك هذا النوع من الأسئلة ما لم تحل المسألة من جهتك. لكن، إن لم يكن لديك مانع، وبما أنني أظن أنني قد حللتُ المسألة الثانية، أود أن أعرف -إن أردت أن تقول لي ذلك- ما هما الحلّان لهذه المسألة، الحل المحتمل والحل غير المحتمل.

- لا أرى مانعاً من أن أقول لك ذلك، وسترى... الحل الأول، وهو غير المحتمل، هو أنه كان ثمة شخص ليُخرج من البنك بطريقة غير مرئية صندوقاً يزن أكثر من خمسين كيلوغراماً وحجمه متر ونصف على خمسة وسبعين سنتيميراً.

- وما هو الحل المحتمل؟

- هو أنه كان ثمة شخص لم يقم بإخراج الصندوق من الخزنة ومن البنك.

كانت سيدتان تمرّان بالقرب منهما. ارتجفتا من الغضب وأسرعتا الخطى. لقد فاه المفوض غيديش بكلام فاحش بصوت عالٍ وواضح.

* * *

- صحيح، قال كُواريشْما، أفهم جيداً ما تشعر به. هناك دائماً أخُوّة بين الناس الذين يستعملون رؤوسهم لشيء آخر غير توسيخ القبّعات. نعم، لا يسعنا إلا أن نأسف لأنه بسبب فعلنا سيدخل رجل مهم جداً إلى السجن، إلى الإصلاحية أو سجن الأشغال الشاقة. رجل، يا غيديش، من طينتنا وقيمتنا...

طوى فكّاك الرموز وثيقة الإقرار بوقار وسلّمها إلى المفوَّض. نظر إليه فجأة وهو يقوم بذلك.

كان جوزي بينتِش يبكي.

- لم أرتكب غير خطأ واحد. كنت أجهل أنه يمكن أن يوجد في العالم، وبالضبط في بلدنا، طبيب يُدعى أبيليو كُواريشْما. بارتكاب هذا الخطأ، اعتديتُ على أذكى رجل، وهو فوق ذكائه هذا عرّاف ونبي.

أعترف بهزيمتي؛ لكن اسمح لي أن أقول لك ذلك، لا أعترف أنني انهزمتُ هزيمة تخلو من المجد.

[5 - خاتمة]

- هل قرأتَ كل شيء؟ سأله غيديش.
- نعم، قال كْواريشْما.
نهض المفوَّض غيديش من كرسيه وقال، بصوت متهدِّج ومتلعثِم...
- تصوّر، يا دكتور. تصوّر أن يكون على رأس البلد، بدل هؤلاء الأوغاد، واللواطين، وأبناء العاهرات ممن يحكموننا، رجل بعقل مثل عقلك وكفاءة مثل كفاءتك. إيه؟ سينجو البلد، سينجو عشرات المرات...
ثم ران صمت من التمجيد العبثي[1].

(1) جملة غير مؤكّد من صحتها. (محقّقة النص آنا ماريا فريتاش)

مكتبة الرمحي أحمد

قضية الغرفة المُغلقة

مكتبة الرمحي أحمد

الفصل الأول

جريمة قتل

- هل نظرتم عبر ثقب القفل؟

- نعم. لا نستطيع أن نرى شيئاً. يمنعنا المفتاح من رؤية أي شيء.

انحنى ماتييوش ونظر.

- نعم، هذا صحيح. لكن، انتظروا قليلاً. لا بدَّ أنه ليس من الصعب أن ندفع المفتاح نحو الداخل. إذا كان يحجب النظر بهذه الطريقة فلأنه في مكانه الصحيح، أو يكاد يكون. هل لديكم أي دبّوس، دبّوس صلب؟

- نعم، لدي واحد، قالت إحدى الفتاتين الشابتين.

- إذاً، هاتني دبّوساً.

سحبت الفتاة دبّوساً من شعرها وسلّمته إلى ماتييوش. قوّمه ماتييوش ثم أدخله بحذر في ثقب القفل. حرَّكه جيئة وذهاباً متّخذاً كل ما يلزم من الحذر. ثم دفعه قليلاً. وسُمع صوتُ المفتاح وهو يسقط على السجّادة.

- انتهى الأمر، قال ماتييوش. القفل فارغ الآن. يمكننا أن ننظر عبر الثقب.

إنني لا أرى شيئاً، استطرد قائلاً بعد أن نظر لبضع ثوانٍ وبعد

مكتبة الرمحي أحمد

أن حاول قدر المستطاع النظر يميناً ويساراً. وبتركيز كبير من الممكن رؤية أرجل السرير على اليمين وزاوية إحدى الحقائب المسندة إلى الحائط على يسار النافذة. ما من حلٍّ سوى تكسير الباب. أهذا ما تريدون؟ قال وهو يلتفت نحو المدير.

انحنى المدير وتأكَّد من المعلومات التي قدّمها ماتييوش.

- حسناً، نعم، قال. بما أننا لا نملك أي حل آخر...

احتشد عدة أشخاص، زبون أو زبونان من الفضوليين وعدة مستخدمين. كان ماتييوش يفحص الباب، على مستوى القفل.

- إنه ليس من أقوى الأقفال ولا من أكثرها هشاشة. هل ثمة شيء ما يمكن أن يُستخدم لكسر الباب دون إحداث خسائر كبيرة.

- ربما هذا الشيء الذي يصلح لفتح الصناديق، اقترح أحد المستخدمين الذي وصل قبل قليل.

- جيد، قال ماتييوش. أحضره.

ثم اختفى المستخدم الذي تحدّث. وبينما هم ينتظرون، كان أفراد الجماعة يرمون بعضهم البعض بنظرات قلق ويتبادلون بعض كلمات عبثية. عاد المستخدم يحمل كُلّاباً، أو لست أدري أي شيء، يُستخدم لفتح الصناديق؛ وكان يرافقه الشاب الذي ذهب ليسأله عن الكُلّاب، يدفعه الفضول.

أخذ ماتييوش الكُلّاب، ثم أدخله بين الباب والكِفاف عند مستوى القفل. دفع دفعة قوية ومفاجئة. أنَّ الباب، لكنه صمد. ثم دفع مرة أخرى، بشكل أعنف. بدا أن الباب أخذ ينفتح، يطقطق، لكنه لم ينفتح بعد. حينئذ استعدَّ ماتييوش بشكل عنيف، وارتمى بكل ما أوتي من قوة على الكُلّاب. فسمعت طقطقة مفاجئة، مدوية، صوت كسر، فتكسّر القفل ومُفصّلته بالداخل، رغم أنهما ظلّا

عالقين. دفع ماتييوش الكُلّاب بعض الشيء ورجَّه بعنف. وأخيراً انفتح الباب. وبدفعة واحدة، جعله ماتييوش يسقط منقلباً.

وصعدت صيحة رعب بشكل متزامن من الجماعة المحتشدة. باشر ماتييوش حركة تراجع، ثم ترك الكُلّاب يسقط فجأة.

كان زبون الغرفة ممدّداً بشكل منحرف فوق السرير، يرتدي منامة، وتظهر حنجرته التي ذُبحت من الوريد إلى الوريد بضربة رهيبة، ومنها سال الدم فوق المنامة وفوق غطاء السرير، لأن السرير لم يكن معدّاً. ذراعه الأيسر يتدلّى إلى جانب الرأس. أما الأيمن، الذي كان يتدلّى من الجهة الأخرى، لكنه داخل السرير [. . .]، فأطلق في النهاية موسى مضمّخة بالدماء.

وسرعان ما أغمي على إحدى الخادمات. وللحظة عابرة ظلّ الجميع ينظرون، باندهاش. ثم جمع ماتييوش الكُلّاب وتقدّم نحو السرير. فتبعه المستخدمون وإحدى الخادمات.

حتى أقل الناس معرفة بالطب والجرائم لن يخامره أدنى شك. تقدَّم ماتييوش حتى بلغ السرير ولمس برفق يد الجثة؛ فحذا حذوه اثنان من الحاضرين.

- إنه بارد جداً، قال ماتييوش. لا بدَّ أنه مات منذ وقت طويل.

- لا شكّ في ذلك، قال أحد الاثنين.

- قتل نفسه، المسكين! قال أحد من الجماعة.

- صحيح، قال ماتييوش. لكن، لماذا قتل نفسه يا إلهي؟

- من الصعب معرفة ذلك، سيد ماتييوش، قال أحد المستخدمين. هل تعرف جيداً السيد بابتيشتا؟

- كنتُ أعرفه، لكن لم يكن لدي الانطباع بأنه رجل لديه أمر يؤرقه لدرجة أن. . .

مكتبة الرمحي أحمد

- إننا لا نعرف أبداً ذلك الأمر، قالت الخادمة التي جاءت قرب السرير. إن الناس، عندما يقتلون أنفسهم، فليس لأسباب يحكونها للآخرين.

- نعم، أنتِ على حقّ يا آنسة، قال ماتيبوش. لكن، ما يجب القيام به هو أن نطلب طبيباً، وأن ننادي على الشرطة، قبل كل شيء. فليتصل أحدكم بقسم الشرطة.

- مدير الشرطة؟

- الشرطة، تباً لك. انتظر، من الأحسن أن تخرج إلى الشارع وتُحضر أول شرطي تصادفه. بعد ذلك، ما عليه إلا أن يتصل بالهاتف إن شاء ذلك. هل يوجد طبيب في الفندق؟

- لماذا، سيد ماتيبوش؟ سأل المدير.

- كي يثبت الوفاة، قال الآخر وهو يهز كتفيه. صحيح، كان لبابتيشتا أخاً، أليس كذلك؟ سمعتُه يتحدث عنه مراراً.

- هناك أخ، تماماً، قال أكبر المستخدمين سنّاً. إنه بابتيشتا صائغ الحلي في شارع بالما.

- آه، إنه صائغ حلي هو أيضاً.

- نعم، سيدي، ويملك محلّاً لبيعها.

- إن كان لديه هاتف، ابحثوا عن رقمه وأخبروه. لا يجب تضييع الوقت في مثل هذه الأمور. المسكين... !

وأخذ ينظر إلى الجثة بحزن.

وأخيراً استدار. أمام الباب احتشدت جماعة من الناس، من زبائن ومستخدمين. كان المدير يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، في قلق.

- إنها أشياء بغيضة جداً، قال. أعرف جيداً، من وجهة نظرنا، أن عمليات السرقة أسوأ، لكن هذا، هذا فظيع!

وفجأة انحنى قريباً جداً من الباب.

- ها هو المفتاح هنا، فوق الأرض.

- نعم، لقد جعلته يسقط نحو الداخل، كي نستطيع أن نرى، فسقط هنا.

- أعرف ذلك. سمعته. يجب إعادته إلى الباب، كما كان.

- هذا لا يهم. هنا يبدو لي أنه ليس ثمة شكّ. على أي حال، من الأحسن تفتيش الغرفة.

نظر أحد المستخدمين تحت السرير، الذي كان منخفضاً جداً حيث لا أحد يمكن أن يختبئ تحته. فتح المدير حافظة الثياب، نظر إليها وفتشها. ثم ألقى نظرة إلى الخلف، مرّر يدَهُ وفتّش اللوالب التي كانت فوق صفيحة صغيرة تُغلقُ الباب المؤدّي إلى الغرفة المجاورة. «إنه لا يتحرك»، قال، وكان واضحاً أنه يقول الحقيقة. ليس ثمة في الغرفة مكاناً ربما يكون شخص ما قد اختبأ فيه. قمتُ مرة أخرى، غريزياً، بنفس التفتيش الذي قام به المدير والمستخدم. كل هذا تبرئةً للذمة، لأنه كان من المستحيل، نظراً إلى تلك الظروف، أن يتعلّق الأمر بشيء آخر غير عملية انتحار.

في تلك اللحظة، وقعت حركة داخل الجماعة التي كانت لا تزال، رغم ازدياد عددها، أمام الباب، وفي الرواق. إنها الشرطة. دخل المفوَّض لوبش، من مفوّضية الشرطة «المسرح الوطني»، يتبعه شرطيان، كلاهما بالزي الرسمي. قمتُ أنا، والمدير، وماتييوش، بمساعدة جملة أو جملتين قالهما المستخدمان والخادمة الذين دخلوا إلى الغرفة، بإخباره بإيجاز بما وقع. حرّك المفوَّض لوبش رأسه في إشارة موافقة، ثم أشعل من جديد سيجارته بولّاعة آلية.

مكتبة الرمحي أحمد

- لا يوجد أدنى شك؛ إنه انتحار. لكن لماذا قتل نفسه؟

باشرتُ أنا وماتييوش والمدير حركات جهل مختلفة.

- ليست لدي أدنى فكرة، قلتُ. لم يكن يبدو شخصاً قد يلقى نهايته هكذا.

- هذا لا يعني أي شيء، قال المفوَّض لوبش. هذا من الأشياء التي نعجز عن إيجاد الأسباب التي أدّت إليها، وغالباً ما لا نصل إلى معرفتها.

- هذا صحيح تماماً، سيدي المفوَّض، قالت الخادمة التي سبق لها أن عبّرت عن شعور مماثل.

- بالنسبة إلى الجرائم، استأنف المفوَّض لوبش كلامه، رغم أنه يصعب أحياناً أن نجد سبب ارتكابها، فإننا دائماً ما نتوصل إلى ذلك نوعاً ما. لكن، بالنسبة إلى عمليات الانتحار... الأمر المفيد في الانتحار هو أننا لسنا في حاجة إلى البحث عن المجرم، لأن (وهنا ابتسم المفوض) المجرم يختفي مع الجريمة.

استدار المفوض لوبش، كما فعلنا نحن، لأنه وقعت حركة معيّنة أمام باب الغرفة. دخل رجل. وتعرّفه المدير.

- آه، إنه الدكتور إشتيفيش.

حيّاه المفوض لوبش.

- كيف حالك، يا دكتور؟

كان الدكتور مندوباً مساعداً في الصحة.

كانت بعض الثواني كافية لإثبات الوفاة.

- لقد مات منذ عدة ساعات، قال الدكتور إشتيفيش وهو ينسحب وينهض بعد أن فحص الجثة.

لحظتها، دخل إلى الغرفة وهو يدفع بمرفقيه الجماعة، التي

صارت قليلة أمام الباب، رجل يبدو مذعوراً، يكفي تشابهه مع الميت، رغم أنه ليس صارخاً، ليشير إلى أنه أخوه. لم تكن مسافة بعيدة تفصل الفندق عن شارع بالما؛ ولم يكن مفاجئاً أيضاً أن يحضر بسرعة بعد المكالمة الهاتفية.

دخل، توجّه نحونا، مذعوراً، ثم شرح على عجل:

- إنه أخي...

كان يسيطر عليه تأثر عنيف وطبيعي...

- ميت؟ سأل وهو ينظر إلينا الواحد تلو الآخر.

أومأنا بنعم. وتكلّم الدكتور إشتيفيش:

- نعم، إنه ميت، المسكين، ومنذ عدة ساعات. ربما يكون انتحر، في رأيي، قبل منتصف الليل.

- انتحر! انتحر! صاح الآخر. إنني لا أفهم! لا أفهم كيف يكون هذا ممكناً! لماذا يكون قد انتحر؟

- ربما وحده هو من كان يعرف ذلك، قال المفوَّض آلفش. (ثم التفت إلى أقرب خادمة منه) ألا يمكن أن نجد هنا غطاء نغطّيه به؟

استدارت الخادمة نحو الباب وطلبت من خادمة أخرى أن تحضر غطاءً. اختفت الخادمة الأخرى.

- انتحر! استأنف الصائغ. ولماذا قد لا يتعلق الأمر بجريمة؟

- هذه فكرة جيدة، قال المدير. ولماذا قد لا يتعلق الأمر بجريمة؟

- هل تعرف شخصاً ما له أسباب لقتل أخيك؟ سأله المفوض لوبش دون أن يبدي اهتماماً وبنبرة فيها شيء من التنازل.

 مكتبة الرمحي أحمد

- لا، لا أعرف أحداً. لكني لن أصدق أن الأمر يتعلق بانتحار ما لم يتم إثبات ذلك. لماذا لا يكون المجرم قد قتل أخي المسكين، ثم بعد ذلك وضع الموسى حيث هي الآن. إنها هناك حيث وجدتموها، أليس كذلك؟

- لم نلمسها، قال المدير وهو يسبقنا جميعاً.

- لماذا لا يكون المجرم قد فعل هذا، لماذا؟

- ومن أين خرج بعد ذلك؟ سأل المدير بنبرة غاضبة شيئاً ما، بينما كان المفوَّض لوبش ورجلا الشرطة يبتسمون، ولم نكن نبتسم كما كانوا يفعلون لأننا لم نكن مستعدين لذلك.

أثناء ذلك، ذهبت الخادمة التي كانت معنا إلى الباب لتأخذ الغطاء من يدَي الخادمة الأخرى، وبعد أن بسطته غطّت به الميت. وساد ارتياح عام، رغم أنه لم ينظر أحد جهة السرير.

- يجب أن لا يتأخر نقلُه إلى غرفة الأموات، قال المفوَّض لوبش.

- من أين خرج؟ قال الصائغ مرة أخرى. لكن، هل كانت الغُرف مغلقة، مغلقة تماماً؟

- كانت مغلقة تماماً، قال ماتييوش. كان الباب مغلقاً بالمفتاح، من الداخل. أنا من دفعتُ المفتاح ليسقط نحو الداخل ونتمكن من النظر لأنه وُضع في القفل بطريقة تحجب الرؤية تماماً.

- لم يكن مجدياً أن ننظر، على أي حال، أضفتُ قائلاً، لأنه لم نكن نرى سوى نصف الغرفة حتى النافذة عبر القفل.

- بعد ذلك، كنتُ مضطراً لأخلع الباب، كما ترى، تابع ماتييوش.

- مع ذلك، ومن باب تبرئة الذمة، قال المدير، نظرنا تحت

السرير وداخل حافظة الملابس. لا شيء. من الواضح أنه لا يوجد أي شيء. النافذة. . .

- صحيح، قال ماتييوش؛ لم نفتش النافذة.

- إنها عالية جداً، قاطعه المدير.

ذهب أحد الشرطيَّين إلى النافذة وفحصها.

- حتى لو كانت منخفضة، قال. . . لم يمر أحد من هنا.

كانت النافذة من الصنف القديم، بها سَقّاطة مركزية، وقد أغلقت من فوق ومن تحت بمزلاجَين مشدودَين إلى مرتاج. وهي من ذلك النوع من النوافذ التي يستحيل إغلاقها من الخارج.

كان الصائغ ينظر، تائهاً، إلى كل الغرفة.

- وهذا الباب، هناك، وراء حافظة الملابس.

- هيا اذهب وانظر، قال المدير بنفاد صبر.

تقدّم الصائغ وانبرى يفتش تماماً كما كان يفعل المدير. ثم التفت نحونا وقد ازداد تيهاً وحيرة.

- اطلب من كل هؤلاء الناس أن يغادروا وأغلق الباب، قال فجأة المفوَّض لوبش إلى المفتش الآخر.

ما أن امتثل هذا الأخير للأمر، حتى التفت نحو الصائغ.

- دون النظر إلى أي شيء آخر -أي أنه لم يكن من الممكن أن تكون قد وقعت جريمة قتل هنا- ما الذي يجعلك تظن أن الأمر لا يتعلق بعملية انتحار؟

- لا شيء، أجاب الآخر؛ لن أقول أي شيء آخر الآن. لكن يمكنني أن أقسم أن أخي لم يكن إنساناً يميل إلى الانتحار، ولم يكن له من داعٍ لينتحر.

- آه، لو لم يكن كذلك. . . تدخّل الطبيب. هذا شيء لا

مكتبة الرمحي أحمد

يمكنك أن تؤكده، يا سيدي العزيز، حتى لو كانت علاقتك بأخيك جد حميمية. كان بإمكانه أن ينتحر لدرجة أنه أقبل على هذا الفعل. إنني لا أرى، حقاً، أي فرضية أخرى.

وكما لو أنه كان مقبلاً على إجراء فحص حاسم، له علاقة بتخصصه، عاد الطبيب مرة أخرى نحو السرير، رفع الغطاء من طرفه الأعلى ثم انحنى ليتفحّص ملياً وجه الجثة.

حين نهض وحدق فينا بعينيه، كان وجهه مضطرباً بعض الشيء.

– على الفم وحوله ثمة علامات لا أهمية لها، لكني مع ذلك لا أفهمها جيداً. ولماذا نزفت لِثَّته؟

ثم نزل صمت ثقيل علينا جميعاً نحن الحاضرين.

– هل فعلاً نزفت لِثَّتُه؟ سأله المفوَّض لوبش.

– نعم، من دون شكّ، وبقدر ما أستطيع تخمينه فقد حدث النزيف قبل مدة طويلة من هذا الأمر (وأشار إلى ضربة الحنجرة).

ثم ركّز...

– لكنّ هناك دماً كثيراً على مستوى اللثتَين.

– دم كثير؟ سأله المفوَّض.

– نعم. يبدو كأنهما نزفتا دماً لكن تمَّ تنظيفهما، وإن بطريقة غير تامة. ويبدو –ثم فتح مرة أخرى فم الجثة وضغط عليه من الداخل– يبدو أنه تلقى ضربة قوية...

– لقد حدّثني قلبي بذلك! صاح الصائغ من جديد.

واصل الطبيب، باهتمام يبدو متزايداً، فحصَ فم الميت. فجأة، صدر عنه تعجُّب أصم؛ انحنى أكثر، ونظر بتمعُّن كبير. ثم نهض، أخرج من جيبه علبة، وأخرج من العلبة، بعد أن فتحها، ملقطاً. أدخله بحذر في فم الميت. بدا وكأنه اقتلع بلطف شيئاً ما. سحب

الملقط ونهض. ثم استدار نحونا، وأرانا، بعد أن شدّه بالملقط، خيطاً صغيراً انحنينا حوله جميعاً. كان يبدو كأنه خيط ثوب خشن، لكنه كان صغيراً حتى أننا لم نكن نرى منه غير ذلك. لكن يبدو أن الطبيب كان يفهم القضية أحسن منا.

- هذا، قال بنبرة واثقة، خيط من ثوب سميك، وبالضبط من الثوب الذي تُصنع منه الخرق وما يشبهها.

أخرج المفوَّض لوبش من جيبه ظرفاً مستعملاً، ثم وضع فيه الخيط. عاد الطبيب قرب السرير وفتح من جديد فم الميت. ثم التفت نحو الصائغ.

- إنني لا أفهم شيئاً. هذا يبدو لي غامضاً. يبدو أنه ليس هناك احتمال جريمة، لكن ثمة جوانب هنا تستعصي على الشرح. لا أحد ينظِّف وجهه بخرقة.

- هذا أمر لا شكّ فيه، قال المفوض.

- لو أن هذا الرجل لم يلحّ كثيراً، استدرك الطبيب قائلاً وهو يشير إلى الصائغ، ما كنتُ رأيت شيئاً من هذا كله. فاحتراماً له، لطمأنته، ولكي نتجنب التفكير في جريمة، قمتُ بهذا الفحص، والحقيقة أنني لا أدري ماذا أفهم منه. مهما يكن، أيها المفوَّض لوبش، أترك القضية بين يديك.

- بين يدي، إذا جاز التعبير، أجابه المفوَّض لوبش. إيه، 23، اتصل هاتفياً بقسم التحقيقيات الجنائية. كل هذا غريب جداً!

الفصل الثاني
نغمات متنافرة

لم يفد تشريح الجثة، ولا التحقيق الذي أجري بالموازاة مع ذلك، في تقدُّم المسألة، إن كانت هناك مسألة فعلاً.

لم يكن في طبيعة الضربة ما يشير إلى أن الضحية لم يوجِّهها إلى نفسه. كان ثمة، بالتأكيد، ما يشبه كدمات خفيفة حول الفم، وقد نزفت اللثتان بعض الشيء. ومع ذلك، لا شيء من هذا كله كان قوياً بما يكفي حتى يقارَن بالاحتمال الكبير للانتحار، نظراً بالخصوص إلى الظروف التي تمَّ فيها اكتشاف الجثة من عدة شهود داخل غرفة مغلقة بإحكام، حيث كانت لوحدها.

ظلَّ الصائغ، أخ الميت، يتحدّث -طبعاً بضجيج أقل- عن حدسه، الذي كان، على ما يبدو، يثق به؛ رغم أنه فقد يقينه المطلق، الناتج عن أفكاره المسبقة وحدسه، بسبب الاكتشاف العرضي الذي توصّل إليه مندوب الصحة.

حتى مندوب الصحة نفسه لم يعر اهتماماً كبيراً لما اكتشفه. لقد كان أمراً غريباً، أقرَّ؛ لكن هذا لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يصمد أمام عدم الاحتمال الكبير -حتى لا نقول استحالة- لجريمة قتل.

إذا كان تشريح الجثة لم يدفع بالتحقيق نحو الأمام، إن لم نقل لم يحرِّكه تماماً، فإن التحقيق لم يوصل أحداً إلى أبعد من ذلك. إن لم يكن من السهل الكشف عن سبب للانتحار، كذلك كان الأمر بالنسبة إلى الكشف عن دافع إلى الجريمة. ولم يوجد من بين معارف الميت وأصدقائه شخص واحد قد تحوم حوله أدنى عداوة تجاه الضحية، بالأحرى حقد يكون دافعاً لارتكاب جريمة قتل. على المستوى المهني، كان بابتيشتا حِرَفياً ذا سمعة طيبة، جدياً، نشيطاً ونزيهاً. ورغم أن عمله كان يتمثل في تزيين الحلي بالأحجار الكريمة، وهو ما يفترض أنه كان معرّضاً للغواية، لم يسجَّل أي شيء ضدّه بهذا الشأن، ولا حتى بخصوص أمور أخرى أيضاً. عدا هذا، لم يُسجَّل أي شيء استثنائي؛ لا علاقات غرامية، ولا أنشطة سياسية، ولا أي سبب من الأسباب المعتادة أو القابلة لخلق العداوة أو الانتقام. لقد عاش الرجل دائماً حياة متواضعة ومن دون إثارة. هذا كل -أي لا شيء- ما أسفر عنه التحقيق بعد استجواب أولاً سواريش، مالك محل الصياغة الكبير حيث كان يشتغل بابتيشتا، ثم أصدقاء الميت ومعارفه العاديين.

كما لم يسفر التحقيق حول ما قام به بابتيشتا في الأيام التي سبقت موته وما قام به يوم موته أيضاً عن أي شيء يذكر. لقد عاش، على ما يبدو، على نفس الوتيرة التي ألفها دائماً. يوم موته، كان آخر شخص رآه في الخارج، بحسب ما تمَّ إثباته، هو مدير الفندق، الذي تحدّث معه في الساعة العاشرة والنصف مساء، عندما عاد بابتيشتا الذي، بعد أن خرج بعد العشاء، عاد إلى الفندق وهو يقول إنه سينام مبكِّراً. قبل ذلك، وحدنا أنا وماتييوش تحدّثنا طويلاً بعض الشيء معه، حول الطاولة، حتى حدود الساعة السابعة. في ذلك اليوم، من

مكتبة الرمحي أحمد

جهة أخرى، كنتُ قد وصلت قبل الوقت، على الساعة السادسة والربع. وقد وصلا هما قبل ذلك بقليل. لم يحدث أي شيء غير عادي أثناء الأكل، كما لم يحدث أي شيء غير عادي أثناء الحديث القصير -لمدة خمس دقائق تقريباً- الذي أجراه بابتيشتا مع مدير الفندق عندما عاد إلى الفندق. بعد العشاء، خرجنا نحن الثلاثة: أنا وماتييوش وبابتيشتا. ودّعَنا ماتييوش عند باب الفندق؛ قطعتُ الطريق نحو مقهى في الجهة المقابلة، رفقة بابتيشتا الذي ركب تراماً يصعد الشارع، بينما دخلتُ إلى المقهى.

كان بابتيشتا يعرف عدة أشخاص في الفندق، لكنها كانت معرفة سطحية. ارتباطه كان أقوى بي أنا وبماتييوش، لكننا لم نكن، مع ذلك، صديقَيه الحميمَين. كانت أحاديثنا دائماً مبتذلة ولا تدور حول أي شيء خاص.

في البداية، اندهش المحقِّقون لكون بابتيشتا يسكن في فندق؛ لكن بما أنه كان صانعاً ماهراً، ومتخصِّصاً فوق ذلك، يربح ما يكفي ليسمح له بذلك، وهو ما لم يكن مهماً، لأن الفندق لم يكن باهض الثمن؛ ثم إنه، فوق هذا وذاك، كما قال لنا مراراً، كان يفضِّل الحياة الحرّة في فندق على إكراهات الفنادق العائلية وغرف الكراء. لذا لم يكن في الأمر ما يثير الاستغراب.

لم يكن لبابتيشتا من أقارب عدا أخيه الصائغ، الذي كان يتفاهم معه جيداً، دون أن يصل ذلك إلى حدّ الحميمية القوية. كان يوفِّر بعض المال، ليس بالكثير، الذي ورثه عن أبيه، الذي كان بدوره صائغاً، لكنه صفّى تجارته. بعد أن مات الأب وتلقّى الأخوان الإرث، تابع بابتيشتا ممارسة الحرفة التي تعجبه وتكفيه لأنه لم يكن ذا طموح كبير، بينما قام أخوه، بعد أن اتّخذ لنفسه شريكاً، بفتح

محل صياغة، لأن المحل الذي ورثه لم يكن كافياً ليقيم تجارة لوحده.

ولم يعاين التحقيق أدنى سرقة، وذلك بمساعدة أخ بابتيشتا، الذي كان إلى حدٍّ ما على اطّلاع بما يملك أو ما قد يكون في ملكه. ولم يظهر أي دافع آخر لارتكاب الجريمة، بل لم يلح أي مؤشّر على ذلك في الأفق.

بقيَت حتماً فرضية الانتحار، التي كان كل شيء يشير إليها. لكن لم يتم التوصل إلى دافع هذه الفرضية أيضاً: لم يكشف تشريحُ الجثة عن أي مرض. كان الميت ذا بنية ضعيفة لكنه كان سليماً. ولم يسفر التحقيق عن شيء آخر يتعلق بأسباب الانتحار الممكنة. لكن الانتحار لا يتطلب أسباباً منطقية كتلك التي تتطلبها جريمة قتل. عدا سبب منطقي، قد لا يعلمه سوى الميت لوحده، هناك أيضاً الاندفاع المفاجئ، الميول العضوي إلى الانتحار، الذي ربما يستطيع الطبيب النفساني لوحده، ولو بصعوبة، تحديده.

هذه هي النتيجة الباهتة التي تمخّض عنها التحقيق حول موت ليونيل بابتيشتا المسكين.

لكن أخ سِلفارِش[1]، متوتراً، مضطرباً، ومحركاً يديه، ظلَّ يرفض، بطريقة أو بأخرى، فرضية الانتحار. كان يعترف، أكثر من أي كان، بمزاج أخيه المرضي، ويعرف جيداً حالة إنهاكه العصبي المعتادة، ويعرف ما هي انشغالاته الوسواسية. لكن المعرفة الدقيقة

(1) يتردد الكاتب بين اسمين لشخصية واحدة حيث إنه أحياناً يقول بابتيشتا وأحيانا أخرى يقول سِلفارِش. (المترجم)

مكتبة الرمحي أحمد

لهذه الحالة كانت تدفعه ليؤكِّد قطعاً بأنه لا يمكن أن يكون قد وقع أي انتحار.

- مسألة الحالات المرضية هذه، قال، سلاح ذو حدين. إن الإصابة بحالة مرضية قوية يمكن أن تفيد في تفسير انتحار بشكل مطلق كما قد تفيد في التأكيد قطعاً بأنه لم يكن من الممكن أن يحدث. إن الحالة المرضية لأخي كانت من النوع الذي لا يدفع أبداً إلى الانتحار. لا، إنني عاجز عن تقديم سبب علمي لذلك. لكني أعرف أنه، من بين كل الهواجس التي أعرفها لدى أخي، لم أجد أبداً لديه هاجس الانتحار، ولقد رأيته يمر بمواقف، حقيقية أو خيالية، كان من الممكن أن يكون فيها الانتحار هو أحسن مخرج لو أنه كان رجلاً يفكِّر في هذا الحل. هنا، ما وقع جريمة قتل. لا أعرف كيف، ولا أدري لماذا. لكني أعرف أن ما وقع جريمة قتل لأن ما وقع لا يمكن أن يكون انتحار.

- لكنّ اندفاعاً مفاجئاً...

- لا يوجد اندفاع مفاجئ، بل حتى نصف اندفاع مفاجئ! لم يكن أخي اندفاعياً، بل مكتئباً. كانت تنتابه نوبات غضب مفاجئة، وتقلبات مزاج قوية، لكنه لم يكن عرضة لاندفاعات عنيفة بالمعنى الحصري، من ذلك النوع الذي يدفع إنساناً لقتل نفسه. أؤكِّد لكم ذلك، وأقسم لكم بحب أبنائي، أنه لم يقتل نفسه: لقد قتلوه. ولن أرتاح ما لم أعرف من قتله.

- سيد سِلفارِش، لاحظتُ، إذا لم تكن تؤمن بالانتحار لأنك لا ترى دافعاً لذلك، قُل لي ما قد يكون الدافع لارتكاب جريمة قتل. إن مزاج أخيك، تقول، لم يكن ليدفعه أبداً إلى الانتحار. إذاً، قل لي، ما الذي يكون قد قام به ليدفع أحداً آخر ليقتله؟ لو كان

كذلك، فما هو هذا الشيء؟ لو وجدناه وسط الشارع، لتعلَّق الأمر باعتداء عرضي، وقد يتعلق الأمر، في هذه الحالة، باعتداء مع آلاف الدوافع الطبيعية، كالاعتداء من أجل السرقة، والاعتداء لخلطه بشخص آخر. لكن، في هذه الحالة، علاوة على أننا لا نفهم كيف قُتل شخص داخل غرفة مغلقة تماماً، فأي دافع حمل قاتلاً ليبحث عنه؟ لأنه، لو كانت هناك جريمة -وهو ما أرفض أن أصدّقه- فإن الأمر يتعلّق بجريمة مصمَّمة بإتقان، ولا بدَّ أن لها سبباً عميقاً، يسهل الكشف عنه. إن إنساناً ما لا يقدِّم لإنسان آخر أسباباً ليقتله دون أن يكون قد قام تجاهه بشيء لا يصعب تماماً كشفه. رغم أنه حزين ومكتئب، لم يعطني أخوك أبداً الانطباع بأنه متحفِّظ، ومن أولئك الذين يحتفظون بالأسرار. كم من مرة تحدّث على هواه، دون احتياط، عن طموحاته ومشاريعه! والحال أنني لا أتصوره يملك سرّاً مفرطاً في الخطورة، كما قد يكون ذلك السر الذي قد يدفع شخصاً آخر ليقتله. ثم إنه لم يكن غنياً، ولا صاحب نفوذ. فلأي سبب يكونوا قد قتلوه؟

انفجر فرانسيشكو سِلفارِش غاضباً.

- أقول ذلك بدافع حدس خالص، حدس طبيعي لدي، لم يخيبني قط في حياتي. لم يكن لي حدس خاطئ في حياتي قط! كلما حدستُ شيئاً وقع ذلك الشيء، سواء تعلق الأمر بشيء كان سيقع أو بشيء وقع ولم يكن أحد على علم به.

ثم سرعان ما حكى، كدليل على ذلك، عدة حكايات، غريبة أيضاً، ليبرِّر حدسه العفوي، بخصوص أمور مختلفة، ذات طبيعة مختلفة، وفي مواقف مختلفة.

استمعنا إليه، دون أن نتفق معه؛ وأظن أن لا أحد كان يوافقه.

مكتبة الرمحي أحمد

لو فكّرنا لحظة، لوجدنا كم كانت أطروحته عبثية، خصوصاً إذا فكرنا في الظروف، لنقل المادية، للقضية: الغرفة المغلقة بإحكام، ومجموعة الظروف التي تدفع إلى التسليم بالانتحار كأمر محتمل بشكل مطلق.

من جهتي، مع ذلك، أقرُّ بأن ما قاله فرانسيشكو سِلفارِش بخصوص طبيعة أخيه، غير الميّالة بتاتاً إلى الانتحار، قد زعزع شيئاً ما اعتقادي. وفعلاً، في البداية، وجدتُ أنه من الطبيعي أن ينتهي الأمر بشخص مريض إلى الانتحار. لكن محاجاة فرانسيشكو سِلفارِش بخصوص حالة أخيه المرضية الخاصة جعلتني متردِّداً ومحتاراً. من دون شكّ، وبعد عمق تفكير، لم تكن تلك الحالة المرضية من النوع الذي يؤدّي إلى الانتحار. كانت الاندفاعات التي تدفع إلى التصرُّف جد سطحية وعرضية لدى هذا المزاج المتميّز بالهستيريا والإنهاك العصبي. كان اكتئابه إما عميقاً جداً وإما فاتراً جداً ليقوم بحركة عنيفة، حتى ضدّ نفسه. ثم إن السلاح الذي تمَّ اختياره للقيام بالانتحار كان هو الأقل ملاءمة لما يمكن أن تصوره بالنسبة إلى هذا الشخص. رصاصة في الرأس، كمية من السُّم، رغم أنهما لا تلغيان عبثية الانتحار الأساسية، كان بإمكانهما أن تكونا إمكانيتَين غامضتَين على الأقل. أما موسى تشدُّها يد قوية وتمرِّرها على الحنجرة، فلا تناسب في شيء طبع جوزي سِلفارِش.

كنتُ مضطراً لأعود إلى الواقع حتى لا أتيه في سلسلة من التخمينات التي ربما كانت عبثية في جوهرها. هذه القضية، ما أن ننظر إليها بطريقة عملية، حتى نستبعد بشكل قوي كل ما لا يمكن أن يكون انتحاراً بحيث يصبح من العبث التسليم بفرضية أخرى. كل هذه الحجج عن الطبع، والمزاج، والطبيعة كانت تفتقد لجوهر يميّز

كل الحجج السايكولوجية. ما قيمتها أمام الحقيقة الدامغة للوقائع، أمام الواقعة الأساسية المتمثّلة في العثور على رجل ذُبح بموسى يدوية، ممدَّداً على السرير، داخل غرفة أُغلقت أبوابها ونوافذها من الداخل، دون أدنى إمكانية للخروج بالنسبة إلى مجرم مفترض بشكل غامض؟ طردتُ من فكري نوعاً من الحلم أغرقتني فيه إيحاءات فرانسيشكو سِلفارِش، وعدتُ إلى الواقع. على أي حال، لا أحد يستطيع أن يستبعد، في عصر يؤمن بالتحليل مثل عصرنا، تأثير حجة ترتكز على الاحتمالات أو اللّاحتمالات النفسية.

تخللت هذه الأفكار عقلي لبضع ثوانٍ. أمامي كان فرانسيشكو سِلفارِش يعبث مضطرباً بفنجانه نصف المملوء بالقهوة. وكان المفوَّض سيلفا، جالساً في ركن من القاعة، يستمع إلى حديثنا باهتمام، نصف مبتسم ونصف حائر.

في تلك اللحظة، ارتفع من جهتي على اليمين، في الطاولة الأخرى، في خلفية القاعة، صوت مرتعش بعض الشيء، لكنه واضح و [. . .]

- سيدي، هل تسمح لي أن أستجوبك قليلاً في موضوع مزاج أخيك؟ فقط لأستجلي هذه النقطة من المسألة. فقط لأترجم إلى عبارات منطقية، وفكرية، ما يتمثل لديك على شكل حالة من الحدس، الذي يمكن أن يكون أيضاً استدلالاً مركَّزاً حدسياً مثل استدلال عاطفي، وبالتالي لا قيمة له.

- اطرح علي من الأسئلة ما تشاء. إن كنتُ قادراً على الجواب. . . فأنا مستعد لأقبل كل ما يمكنه أن يجلو هذه القضية. . .

مكتبة الرمحي أحمد

- حسناً، قال الغريب. سوف نوجّه المسألة. إن الظاهرة التي نسميها الانتحار يمكن أن تحدث لثلاثة أنواع من الأسباب: أسباب مرتبطة بالمزاج، أسباب اجتماعية، وأسباب عَرَضِيّة. يمكن أن تكون نتيجة لطبع الفرد؛ يمكن أن تكون نتيجة لتأثير قوي لمجموعة من الظروف الاجتماعية على مزاج غير مُهيّأ للانتحار؛ ويمكن أن تكون نتيجة لاندفاع عَرَضي تماماً.

- والحال أنه، إذا كانت هناك ثلاثة أنواع من الانتحار، فإن كل نوع يجب أن يتوفر على خصائص تميّزه عن النوعَين الآخرَين.

سطحية السبب في الحالة الأولى، أهميته في الحالة الثانية، وأهميته القصوى في الحالة الثالثة.

في الحالة الأولى، لا بدَّ أن الإنسان قد فكّر مراراً في الانتحار، وهو دليل على أن مزاجه يجبره على ارتكابه. وبما أنه قد فكّر في الانتحار، لا بدَّ أنه قد فكّر في طريقة إنجازه. يجب أن يكشف الانتحار، بعد إنجازه، عن تعمُّد، قد يكون، إن صحَّ التعبير، غريزياً، وفقاً لما يلزمه به مزاجه.

إن المنتحر لأسباب اجتماعية، كما يثبته هذا الأمر، إنسان شديد الحساسية تجاه التأثيرات الاجتماعية، وهو يقلِّد أفعال الآخرين بحكم طبعه. يخضع انتحاره، إذاً، إلى هذه الغريزة المُقلِّدة، سيكون انتحاراً يشبه ما حدث من عمليات انتحار أخرى، لا ينم عن أصالة، انتحار يليق بالمنتحر، وبوضعه الاجتماعي و[. . .]

إذا كان إنساناً من عامة الشعب، فقد يختار النهاية الشعبية

المتمثلة في الإلقاء بالنفس من نافذة الغرفة أو ابتلاع حمض الكبريتيك؛ أما إن كان من طبقة اجتماعية أخرى، فإن المسدس هو الوسيلة التي يُشار بها حتماً.

لِنرَ الانتحار لأسباب اجتماعية. إن الفرد الذي ينتحر لهذا النوع من الأسباب لا يبتعد عن الانتحار النمطي لافتقاره إلى الشجاعة. إن الفرد الذي، بسبب مزاجه، عادة ما يقتل نفسه بطلقة نار، يمكن أن يقتل نفسه باللجوء إلى السُّم لأنه قد لا يملك الشجاعة لاستعمال المسدس بكل برودة. لكن من لا يملك الشجاعة على رمي نفسه برصاصة حاسمة، لا يمكن أن يملك الشجاعة لاستعمال موسى يدوية. لا يتعلق الأمر، إذاً، في هذه الحالة بمنتحر لأسباب اجتماعية.

* * *

- لم يكن أحد آخر في الغرفة غير الميت. لقد فتشنا كل شيء، وكان كل شيء مغلقاً من الداخل. رأيت هذا كله، وبانتباه كبير، فماذا تريد أن يكون رأيي فيه؟ اللثتان، رائحة القذارة والخيط الخشن ربما تكون أشياء يصعب تفسيرها، لكنها لا تصمد أمام التراكم الهائل من الظروف التي تشير إلى الانتحار.

حرك إشتيفيش رأسه موافقاً.

- لدي نفس الرأي، قال. شخصياً، كما قلت لك، ما كنتُ لأقوم بأدنى فحص دقيق لوجه هذا الرجل، إلا من من باب تبرئة الذمة، رغم أن الهدف كان مناقضاً لذلك -طمأنة أخ الرجل، وأنا أبرهن له أن دراسة الجثة كانت تؤكد ما كان بديهياً- بسبب الظروف

مكتبة الرمحي أحمد

الأخرى. بما أن هذا الشخص كان لديه ذلك «الحدس» المعروف، لم يكن يكلفني شيئاً أن أعمِّق فحصي وأقول له أي شيء.

- آه، الحدس... قلتُ مبتسماً.

- هذا يتوقف على الظروف.... قال الدكتور كُواريشْما. إذا كنا نعني بالحدس، فكرة تخطر على العقل بشكل غامض، ولا يمكن حصرها في استدلال -أي أنها نوع من **الإحساس** وليست **استنتاجاً**- فلا علاقة لي بهذا النوع من الحدس، ولا أريد أن أسمع عنه شيئاً. لا أستطيع أن أنفي إمكانية وجود أحاسيس تختلف عن الأحاسيس العادية، لكن بما أنني لا أملك غير العادية، ليست لدي الوسائل لأعرف من أين وكيف ندرس وجود هذه الأحاسيس الأخرى لدى أشخاص آخرين. لكن، إذا كنا نعني بالحدس نتيجة استدلال شبه واعٍ -إذا كان الحدس استنتاجاً يتم الحصول عليه بسرعة وبطريقة غير واعية- في هذه الحالة يستحسن ربطه بكل الاستدلالات السريعة جداً التي يشكِّل نتيجتَها؛ وبوصفه استدلالاً أرى، في هذه الحالة، عناصر دراسة لا أجدها في الحالة الأخرى.

- في حالة أخ بابتيشتا... قاطعته.

- في حالة أخ بابتيشتا، ما يمكن التكهُّن به هو أن الأمر يتعلّقُ بحدس من هذا النوع. وأقول إنه كذلك لسبب بسيط: **لأنه حدس سلبي**، أي أنه حدس **احترازي**؛ وفي حالة الاحتراز أو الشكّ ثمة دائماً استدلال مخبوء يبعث على الشكّ. يمكن أن يكون الحدس من نوع آخر، تماماً كما يمكن أن يكون لا شيء. إنه حدس مثل «ليحفظك الله»، غالباً ما يكون إيجابياً ويظهر بصفة عامة في مواضيع يمكن أن نصفها بغير المنطقية.

- لقد عبّرتَ عن ذلك جيداً، قال إشتيفيش.

- ما في ذلك من شكّ، قلتُ، لكن. . .

- في حالة مثل هذه، استأنف كْواريشْما، ما علينا القيام به هو أن نترجم لغة اللاوعي إلى لغة الوعي، أي أن نقوم بطريقة منظَّمة وتحليلية، داخل دماغ من شعر بالحدس، بإعادة بناء ما ظهر بشكل حدسي، وبالتالي، غير منظَّم، فقط على شكل استنتاج، ولهذا السبب مثل تركيب خالص. لكن، طبعاً، مع ما يلزم من تحفُّظ من أن الصائغ يمكن أن يتوفر على عناصر لم يُطلعنا عليها، فيكون حدسُه شبيهاً أكثر باستدلال عادي، أُنجز دون أدنى صعوبة. مع هذا التحفُّظ، أقول، سنرى إن كان من الممكن ربط هذا الحدس المفاجئ مع العناصر التي تشكله. هل كنتَ تعرف الميت جيداً، يا سيدي؟

- ليس بشكل حميمي. لكن، رغم أن معرفتنا لم تكن حميمية، فقد عرفته معرفة لا بأس بها، أعني أنني عاشرته كثيراً، وتحدثنا كثيراً مع بعضنا البعض. . . إلخ.

- ما أعنيه هو إن كنتَ عاشرته بما يكفي لتُكوِّن عن طبعه، على الأقل بصفة عامة، فكرة تبدو لك مقبولة.

- آه، نعم، لقد عاشرتُه بما يكفي لتكون لي فكرة كهذه.

- فأي نوع من الرجال كان بابتيشتا، في رأيك؟

- من أي وجهة نظر؟

- من وجهة نظر عامة: صفة الذكاء أو نوعه، نوع الطبع. . .

- آه؛ كان يبدو لي رجلاً متوسط الذكاء، من دون أي ثقافة خاصة -كما هو متوقع-، شهم، يعطي الانطباع بأنه جدّي ومسالم، من ذلك النوع الذي عادة ما نقول عنه إنه لا يستطيع أن يؤذي ذبابة.

مكتبة الرمحي أحمد

لقد كان، في نظري على الأقل، بمنأى عن العنف، والانفعال القوي، والطموحات الكبرى. نموذج مبتذل وعادي للبرجوازي المتوسِّط، بمزاجه الهادئ، رغم أنه يبدو شيئاً ما ضعيفاً بالنسبة إلى هذه الفئة.

- حسناً. رجل عادي من الطبقة المتوسطة حضارياً، يقوم بواجباته كما ينبغي، لا هو بالذكي ولا بالغبي، مسالم تماماً. أليس كذلك؟

- هذا بالضبط. ولهذا السبب لا يمكنني أن أصدِّق الجريمة. فشخص لا يستطيع أن يؤذي ذبابة...

- عفواً، قاطعني كُواريشْما، إنه ليس متّهماً بقتل شخص آخر: إنه متهم بقتل نفسه. وليقتل نفسه، فإنه ليس في حاجة إلى أن يكون عنيفاً: بل يستحسن ألا يكون هكذا.

- آه، هذا، هذا بديهي، قلتُ مبتسماً.

- حسناً، هنا بالضبط، وأنت تُنسب إليه هذا الطبع، تجدُ أن قتلَه للغير أقل احتمالاً من قتله لنفسه.

- لكن، لم أفترض أبداً أنه قادر على القتل! صحتُ.

- ولكن، ألم تقل لي إنك تجد فرضية الانتحار أكثر احتمالاً؟ وماذا يكون الانتحار غير القتل، قتل الذات؟

بدا لي هذا مثل جدلية مرحة، وبالتالي، نظراً إلى مجموع الظروف، في غير محلها، كنتُ أتأهب للاحتجاج بخشونة، لكن كُواريشْما لم يمهلني وقتاً.

- لا تعتبرني شخصاً سطحياً، ولا تعتبر هذه الحجة مزحة سيئة الذوق. إنني أتحدث بكامل الجدية. كنت تريد أن تقول لي إن

الانتحار والقتل شيئان يختلفان تماماً من الناحية السايكولوجية؛ وأن هناك أشخاص قادرون على قتل أنفسهم، لكنهم غير قادرين على قتل الغير؛ وأنه من الممكن أن يوجد كذلك أشخاص قادرون على قتل الغير لكنهم قد لا يقتلون أنفسهم أبداً.

- لكن هذا يبدو لي بديهياً. لا أرى أن هناك من شبه سايكولوجي بين قاتل ومُنتحر.

- هذا يتوقف على طبيعة الانتحار، أجاب كْواريشْما. إذا كان هناك، بصفة عامة، فرق بين قاتل ومنتحر، فهناك أيضاً أنواع مختلفة من الانتحار. وهناك من نقط التشابه بين بعض أشكال الانتحار والقتل أكثر مما يوجد بين بعض أشكال الانتحار وأشكال أخرى من الانتحار.

- إنني لا أفهم جيداً.

- سأشرح لك. بصفة عامة، أي عمومية، يشبه فعل عنيف فعلاً عنيفاً آخر. كلاهما فعل عنيف.

- نعم، طبعاً، قلتُ بشيء من الغضب.

- في الانتحار، تابع كْواريشْما، يمكن أن يكون أو لا يكون ثمة عنف؛ ويمكن أن يكون ثمة عنف دون أن يقع بالضرورة فعل عنيف.

- إثباتُك الأول جيد، وأفهمه تماماً. أما الثاني، فلا أفهمه.

- سوف تفهم. إن المنتحر الذي يلقي بنفسه تحت قطار، أو يُلقي بنفسه من النافذة يَلقى موتاً عنيفاً أو يسعى إليه، لكنه لا يمارس فعلاً عنيفاً. لقد وضع نفسه سلبياً، إن صحَّ التعبير، في وضع الضحية، حتى يأتيه من الخارج موت عنيف. إن العنف ليس فيه

مكتبة الرمحي أحمد

هو، بشكل مباشر، ولا حتى بشكل غير مباشر: إنه في كتلة القطار المتحرِّك، وفي علو الطابق الذي ألقى نفسه منه. والحال أن المنتحر الذي يقطع حنجرته لا يسعى فقط إلى موت عنيف بل إنه يسعى إليه بشكل نشيط؛ يوجّهه إلى ذاته بصفته **فاعلاً مباشراً**.

- نعم، إنني أرى كل شيء! صحتُ. لا داعي لتقول أكثر من هذا.

- لو أنك قلت لي، تابع كُواريشْما، إن هذا الرجل، الذي وصفتَ لي طبعه للتو، انتحر بتناول السُّم، لوجدتُ ذلك لا أقول **أكيداً**، لأن الواقعة هي الأكيدة حقاً، لكن على الأقل **محتملاً**؛ ولو قلت لي إنه قد وضع حدّاً لحياته بإلقاء نفسه إلى الشارع عبر النافذة، أو تحت قطار، لوجدتُ أن ذلك أيضاً لم يكن بعيد الاحتمال.

ثلاثة أنواع من الانتحار: الانتحار لأسباب مزاجية، الانتحار لأسباب اجتماعية، والانتحار لأسباب عرضية. سأعطي أمثلة عن النوعَين الأخيرَين، وبفضلهما نفهم النوع الأول بسرعة. إن الانتحار لأسباب اجتماعية هو الذي يقدم عليه الفرد الذي يضع حدّاً لحياته تحت ضغط أفكار تمثل رأي المجتمع أمام حالة معيّنة خلقها هو لنفسه أو خلقها له الغير، وتضعه في صراع مع هذه الآراء المجتمعية.

في كل حالات الانتحار يجب أن نرى، أولاً، قدرة الفرد على الانتحار، أي أنه كي يقدم شخص ما على الانتحار، لا بدَّ أن يتوفر على مزاج لا أقول انتحاري، بل مزاج شخص يستطيع، في ظروف معيّنة، أن ينتحر. وهذا، ببساطة، لأنه ينتحر فعلاً. ثانياً، علينا أن نرى الأسباب التي تجعله ينتحر. وثالثاً، يجب أن نرى الطريقة التي ينتحر بها.

بما أن الشيء المُهيمن والمركزي في هذه الأشياء الثلاثة المتضمِّنة في فكرة الانتحار هو أسباب الانتحار، علينا أن نبني محاجّتنا حوله.

بحسب طريقة انتحارهم، ينقسم الأفراد بدورهم إلى ثلاث فئات: أفراد يقتلون أنفسهم بطريقة خاصة وغير عادية، باللجوء إلى طرق أصيلة أو مبتكرة؛ أفراد يقتلون أنفسهم باللجوء إلى طرق مبتذلة جداً، تكاد تكون عادية، يمكن القول، إن صحَّ استعمال هذه الكلمة بخصوص هذه القضية؛ وأفراد يقتلون أنفسهم باللجوء إلى طرق عرضية تماماً، مثل ذلك الفرد الذي، تحت تأثير اندفاع من اليأس، يلقي بنفسه من النافذة، مع أنه لو أن انتحاره كان متعمّداً، لاختار -بحكم مزاجه- طريقة أخرى.

* * *

- ها قد وصلنا تقريباً إلى كيلوش، قال كُواريشْما وهو ينظر عبر النافذة. أنا سأنزل في كيلوش. شيء آخر: من هو الشرطي الذي تكلّف بالقضية؟

- إنه المفتش ليموش، أجبتُه.

- هل هو رجل طويل القامة، مكتنز، ذو شارب كثّ؟

- تماماً.

- حسناً.

سكت قليلاً، ثم قال:

- أود أن أطلب منكم خدمة: اعدوني أنكم لن تخبروا أحداً بما قلته لكم للتو، ولا أنني أبديت اهتماماً بهذه القضية وبحلِّها.

باشر الوكيل حركة. وسرعان ما أخذتُ الكلمة:

مكتبة الرمحي أحمد

– آه، هذا بكل سرور. لن أخبر أحداً. أعدك بشرفي. . .

شكرني كُواريشْما بابتسامة وانحناءة رأس عابرة.

– لا ينقص سوى معرفة شيء واحد أو بالأحرى هذا الشيء.

– إذاً، أنت متأكد أن الأمر يتعلق بجريمة؟ سألتُه.

ابتسم كُواريشْما ابتسامة صريحة، فيها عذوبة ذكية.

– لو كنت لا أعرف غير هذا، لذهبت سمعتي كممارس للاستدلال أدراج الرياح. حتى أنت تعرف أن الأمر يتعلق بجريمة، لأنني أثبت لك ذلك. . .

– لكن، ماذا يمكن أن تعرف كذلك، يا دكتور؟ سألتُ بشيء من الاندهاش.

حدّق بي كُواريشْما بنظرة وديعة ونافذة.

– لا أعرف فقط أن جريمة قد وقعت، قال بنفس النبرة، بل أعرف أيضاً من ارتكبها، وكيف ارتكبها. أعرف ذلك كما لو كنتُ هنا ورأيت كل ما حدث. أعرف أيضاً سبب الجريمة، لكن هذا أمر آخر لا أعرفه تماماً. إنه الشيء الوحيد الذي بقي لي أن أعرفه. بعبارة أخرى –وهذا قد وصلنا إلى كيلوش–، أعرف سبب الجريمة بوصفه ممكناً، بقي لي أن أعرفه بوصفه واقعة.

– لكن، قلتُ حائراً، ما هي العناصر التي تتوفّر عليها، لمعرفة كل هذا؟

– ما قلتَهُ لي، أجاب كُواريشْما. أية عناصر أخرى بإمكاني أن أتوفّر عليها؟ حكايتك كشفت لي عن كل شيء. حاول أن تفكر. هناك في ما قلتَه لي ما يكفي من العناصر لِ. . . .

[. . .]

– ماذا؟ رائحة خرقة؟

[...]

- الخيط بين الأسنان...

كان كْواريشْما قد نهض، وقاطعني:

- هذا لا أهمية له. هذه العناصر كلها ليست ضرورية لاستدلالي. لقد كانت مفيدة في توجيه المسألة نحو الحل وتمكين هذا الأخير، بطريقة ما، من الوصول إلي. لكن، كان بإمكاني أن أستغني عنها تماماً. إنها لم تفدني بتاتاً في استدلالي... إن العناصر المهمة، أضاف وهو يشد على يدي وعلى يد زميلي، هي الانتحار باستعمال الموسى... و...

فتح كْواريشْما باب العربة.

- وماذا؟ قلنا معاً نحن اللذان كنا نصغي إليه.

- والمفتاح الثالث، قال كْواريشْما.

الفصل الثالث

فصل للنقاش

كانت الأيام التي تلت لقائي بكْواريشْما، بالنسبة إلي، أيام تفكير جهنمي. أقول جهنمي لأنني كنتُ أتعذب دون أن أجدَ حلّاً. ومهما حاولت أن أضع نفسي في عقل الدكتور كْواريشْما وأن أستخرج من الوقائع التي يعرفها، وهي التي أعرفها أنا أيضاً، ما يشبه حلّاً للمسألة، لم أتوصل إلى أي شيء، لم أتوصل إلى أقل من لا شيء، لأن كل شيء كان يبدو أكثر فأكثر غموضاً.

وما كان يشغل بالي بشكل عميق في كل هذا، بسبب طابعه الدقيق والمخادع، كان هو إشارة كْواريشْما إلى المفتاح الثالث. ثم أين هو المفتاح الثاني حتى يكون هناك مفتاح ثالث؟ كنتُ أعيد التفكير مرات لا تحصى في حادثة فتح الباب، والتي ربما تكون هذه الإشارة، أو التلميح، الغامض نوعاً ما، مرتبطاً بها.

كنتُ أفكر وأفكر. فهمتُ أنها كانت محاولة لإيهام من كان خارج الغرفة بأن الباب قد أُغلق من الداخل [...].

لكن، ما دام أن المفتاح كان في القفل! ما دام أنني رأيتُه، بما أننا رأيناه جميعاً! بما أنني كنت لا أزال أتوفر على الدفع بالغيبة، متكرراً الآن، لأنني نظرتُ بعيني عدة مرات عبر ثقب القفل.

لقد رأينا جميعاً المفتاح في القفل، موضوعاً بداخله. ثم رأيناه

كيف دُفِع، بل سمعنا كيف سقط بعد أن دُفِع بالكامل خارج القفل. ورأينا جميعاً كيف التُقط من الأرض. لكن، ما الذي يفيده كل هذا، من جهة أخرى، ما دام أنه سقط في الداخل وسمعناه؟

إذا كانت غرفة ما مغلقة، فلا يمكن أن نُدخِل من الخارج في القفل أدنى مفتاح، سواء كان مفتاحه أو أي مفتاح آخر.

أن المفتاح كان في القفل، **في الداخل**، هذا أعرفه، لأنني عاينته. أنه دُفع وسقط، هذا رأيته، وسمعته، لأنني سمعته يسقط ورأيتُ بعد ذلك عبر ثقب القُفل بعد أن أُجلي.

«مفتاح ثانٍ»، هذا كان ممكناً؛ لكن شريطة ألا يكون المفتاح بالداخل، في القفل، كما رأيتُه، وكما رأيناه جميعاً. نعم، لو أنه، مثلاً، كان مفتاح الباب في جيب الميت، أو على الأرض، أو في أي مكان آخر غير القفل، في الداخل، لكانت القضية بسيطة: مفتاحان للباب، ربما يكون القاتل قد استعمل واحداً منهما ليغلق الباب، من الخارج، كما يجب. لو أن باب الغرفة كان يتوفر على جبهة عادية، لكان بالإمكان أن نتصور، مثلاً، أن شخصاً طويل اليدين ربما يكون قد استطاع أن يعيد المفتاح إلى الباب... لكن، عدا عبثية كل هذا، لم تكن أبواب الفندق تتوفر على جبهات...

لكن وجود المفتاح بالداخل كان أقل المعطيات توقُّعاً، وهذا يَستبعد تماماً احتمال مفتاح ثانٍ، فكيف بمفتاح ثالث، غامض.

أو هل يكون هذا المفتاح -فكرتُ في ذلك فجأة، كما يحدث حين نشعر بحدس- هو **مفتاح باب آخر أو منزل آخر**؟ نعم، بما أنه كان من المستحيل أن يوجد مفتاح ثانٍ -فكيف بوجود مفتاح ثالث-

مكتبة الرمحي أحمد

للباب المؤدّي إلى الرواق، لا بدَّ أنه كان يوجد مفتاح -ثانٍ، ثالث، أو لست أدري- لباب آخر، لمنزل آخر؟

حينئذ، خطر على بالي، فجأة، في لحظة إلهام، أنني كنت مخطئاً حين فهمتُ فهماً حَرفياً تلك الجملة المُلغَزة عن قصد التي قالها الدكتور كْواريشْما. كل تخميناتي حول المفاتيح كانت عبثية. إن المفتاح -المفتاح الثالث- الذي كان كْواريشْما يلمِّح إليه مبتسماً، لم يكن هو مفتاح **الباب**، بل كان هو «مفتاح» المسألة. وهكذا، إذا كانت المسألة لم تنجلِ تماماً، فقد بدأت تتضح بطريقة ما وأخذت تفقد شيئاً من ظلامها المنيع الذي تستمده من أي تأويل حرفي لكلمة «مفتاح»، بل حتى العبارة الغامضة «مفتاح ثالث» نفسها أخذت تفقد غموضها. «مفتاح ثالث» كانت تعني فقط «فرضية ثالثة». إن «الفرضية الثالثة» كانت هي الحقيقة في ذهن كْواريشْما. والحال أنه لم يكن من الصعب على شخص يعرف بعض الشيء ما معنى الاستدلال أن يكتشف ما هو ذلك «المفتاح الثالث»، وإن كان هذا الاكتشاف لا يوضِّح كل شيء تماماً. حكّمت الثقافة الفلسفة الأساسية، ولم يكن ذلك هباء. هناك ثلاث «مراحل» في جدلية أفلاطون: الطريحة، والنقيضة، والجميعة. وحتى إن لم يكن ذلك صريحاً في منطق أفلاطون، فإنه كان يتم حدسياً لدى أي إنسان يستعمل استدلالاً. في أي موضوع، هناك دائماً طريحة، وطريحة مضادة، تُسمّى، في مقابل هذا، نقيضة؛ والفرضية المتمثلة في الجمع بين الطريحتَين النقيضتَين، وهو ما يُسمى الجميعة. إذاً، كان لدينا في قضية الفندق كطريحة الانتحار؛ وكنقيضة جريمة القتل، فكانت الجميعة واقعة لا بدَّ أنها كانت تجمع بين الانتحار والقتل.

وهنا، من دون شكّ، كان يكمن «المفتاح الثالث» لكْواريشْما. كان يكفي تقديم المسألة بهذا الشكل كي تصبح، إن صحَّ التعبير، واضحة من مقدّماتها. إن هذه الفرضية التي تقول إن الأمر كان يتعلق بانتحار وقتل، وأنه لا بدَّ أن ذلك كان انتحاراً وجريمة قتل في الوقت ذاته، كان سلفاً على الطريق الصحيح للاستدلال والفهم. فأخذتُ أركّز على دراسة إمكانات هذه الفرضية، هذا «المفتاح الثالث» والمنطقي للمسألة.

كيف يمكن لواقعة ما أن تكون، في الوقت ذاته، انتحاراً وجريمة، أي انتحاراً وقتلاً؟ كانت ثمة بعض الفرضيات، رغم قِلّتها. وكانت الفرضية التي سرعان ما فكرتُ فيها، بإلحاح من «حدس» شعرتُ به -لم أجد بدّاً من التمسُّك بها وأنا أذكر ما قاله كْواريشْما عن «الحدس» الذي ليس سوى استدلال غريزي، مركّز وتركيبي-، فرضية إيحاء، ذو طبيعة تنويمية مغناطيسية أو ما يشابهها، ربما يكون دَفَع بسيّئ الحظ إلى الانتحار رغماً عن إرادته الخاصة والأصلية. هذا يفسِّر كل شيء. بالنسبة إلى المنوِّم المغناطيسي، منذ اللحظة التي استطاع أن يملك ما يكفي من السلطة على سيّئ الحظ ليحمله على الانتحار، لا بدَّ أنه قد أوحى إليه بأن ينتحر بالذبح بدل أي شيء آخر، لأن هذه الطريقة كانت تضمن نسبة من النجاح أعلى من أي طريقة أخرى.

لم تخطر على بالي سوى فرضية واحدة، لكنها حين خطرت سرعان ما اندهشت للوضوح، وإن كان غريباً (لكن كل القضية غريبة)، الذي كانت تلقيه على القضية.

كم كانت هذه الفرضية، هذا «المفتاح الثالث»، تجعل كل هذا

 مكتبة الرمحي أحمد

اللغز، مبدئياً على الأقل، مفهوماً! وبالفعل، وحده الإيحاء التنويمي كان قادراً على توحيد فرضيتَي الانتحار والقتل، خصوصاً في قضية كهذه. كان كْواريشْما قد قال إن العنصر المهم الآخر بالنسبة إلى الحل الذي وجده، كان هو «طبع الميت». وبالضبط، كان هذا الطبع الهادئ، الضعيف، سهل التأثُّر، يجعل مستحيلاً التفكير في الانتحار العنيف الذي يبدو أنه وقع، من جهة، ويضاعف إمكانية القبول، من جهة أخرى، بفرضية الإيحاء بالتنويم المغناطيسي، لأن ذلك قد يكون أكثر سهولة واحتمالاً على كائن ضعيف، له استعداد قبلي، من شخص أقل ضعفاً أو شخص أقوى.

كما أن طبيعة الطريقة الأكثر احتمالاً في حالة عنف مباشر لم تكن بدورها غريبة على منطق القضية. لم يكن الذبح هو الطريقة الأكثر احتمالاً في حالة عنف مباشر ربما كان المقصود منه التمويه بالانتحار؛ كانت أيضاً الطريقة الأكثر احتمالاً في حالة الإيحاء بالتنويم المغناطيسي، ما دام أن منفِّذ العملية كان يملك -والوقائع تدل على ذلك- ما يكفي من القوة للإيحاء بذبح الذات. وكانت هي الطريقة الأكثر احتمالاً في هذه الحالة، لأن هامش الفشل كان أكبر في الطرق الأخرى. في حالة ما ألقى شخص بنفسه من النافذة أو تحت عجلات عربة ثقيلة، بيّنت التجربة أن هناك حالات تكاد تكون معجزة ينجو فيها الشخص، ويخرج فقط برضوض وجروح لكن دون أن يموت. والشنق أيضاً كان محفوفاً بالمخاطر، لأنه في هذه الحالة، ليس من النادر أن ينقطع الحبل أو ينكسر الشيء الذي شُد إليه. أما تناول السُّم، إن كان هناك من شكٍّ يحوم حول الانتحار أو الجريمة، فقد كان أكثر الطرق إثارة للريبة، كما أشار إلى ذلك كْواريشْما بدوره. أما السلاح الناري فكان طريقة غير أكيدة أكثر من

كل الطرق الأخرى، نظراً إلى إمكانية الفشل، أو النجاح النسبي. يبقى، إذاً، الذبح الذي، حتى إن لم يُنفَّذ بطريقة تامة، قد يتسبب على أي حال في نزيف غزير، ربما يحقِّق ما لم تحقّقه ضربة السكين نفسُها.

كيف صار كل شيء منطقياً، منسجماً! ما أن سلَّمنا بفرضية الإيحاء بالتنويم المغناطيسي -فرضية غير عادية، لكنها ممكنة، وهي الوحيدة التي تستطيع أن توفِّق بين كل الخصائص المتناقضة لهذه القضية- حتى رأينا صعوبات الانتحار العنيف تختفي لدى رجل ضعيف وخجول، كما اختفت الصعوبات المادية للغرفة المغلَقة، لأن المنتحر نفسه هو من أغلقها كما يجب وبشكل عادي. ما لم أكن أفهم بعد هو كيف استطاع كُواريشْما، انطلاقاً من المعطيات التي زوَّدتُه بها، أن يجد ليس فقط الحل للطريقة التي تمَّ بها ارتكاب الجريمة -توصلتُ بدوري إلى هذا الحل- بل من ارتكبها، وحتى سبب ارتكابها، إلى حدٍّ ما. بحسب علمي، لم يكن أي أحد ممن اقترب من الميت، داخل الفندق أو خارجه، يحمل أدنى إشارة أو علامة على أنه قد يكون منوَّماً مغناطيسياً -وقوياً، فوق ذلك- أو ربما يكون قد مارس على [. . .] تأثيراً، مهما كان، قوياً جداً. لم يكن كُواريشْما يعرف عن هذا أكثر مما كنتُ أعرف، لأنه كان يعرف فقط ما أخبرتُه.

هنا كنتُ أتعثر نهائياً. لم أتمكن من أن أرى، ولو بشكل عابر، ليس فقط من يكون المجرم، ولا السبب التقريبي للجريمة، بل لم أرَ حتى كيف يمكن أن نحدِّد هذا الأمر أو ذلك، بتلك المعطيات التي كنتُ أتوفّرُ عليها، والتي توصّل بها كُواريشْما مني. لا أعتبر

مكتبة الرمحي أحمد

نفسي -وأنا أقول هذا، أظن أنني أتحدث من دون تواضع، لكن دون خيلاء أيضاً- شخصاً يستدلُّ بطريقة خرقاء. أسلِّم بطيبة خاطر بتفوق كْواريشْما في مجال الاستدلال؛ لكن الاستدلال سلاح مشاع، وإن لم أكن مندهشاً بأن كْواريشْما يمارسه بسرعة تفوق سرعتي، فقد كنتُ بالتأكيد مندهشاً لكونه يمارسه بطريقة ما ولدرجة لم أكن أعرف مداها. الأكيد أنه، بعد حلّ الإيحاء بالتنويم المغناطيسي، الذي توصّلت إليه بصعوبة مع ذلك، لم أكن أتقدم قيد أنملة على طريق إشارات كْواريشْما. هذه الإشارات -أي الحلول التي كان يقول إنه قد وجدها بخصوص مرتكب الجريمة و، جزئياً، دافعها- كان من الممكن أن تكون خاطئة أيضاً، وهو أيضاً، بمهارته في فنّ الاستدلال من دون شكّ، ربما يكون قد سقط في الخطأ الشائع لدى كبار ممارسي الاستدلال -الإفراط في الذكاء- الذي يدفعهم إلى البحث عن حلول معقّدة، بينما قد تكون الحلول البسيطة كافية؛ ولا يبحثون عن الحلول إلا بالاستدلال، بينما لا تقبل طبيعة الموضوع حلّاً باللجوء إلى المنطق فقط، بل يجب استكمالها بالملاحظة والتحقيق العملي؛ ويبحثون عن حلول سريعة، بينما، نظراً إلى غياب الأدلة، لا يمكن وجود حلول سريعة، أو عندما لا توجد حلول بتاتاً، ما دام أن هذه الأدلة لم تظهر.

على أي حال، ومهما كان كل هذا منطقياً، لم أتمكن من معرفة ما إذا كانت الجمل التي قالها كْواريشْما تحوي خطأً واحداً أو خدعة مسلية. كانت ثمة لست أدري أي جزئية غامضة في طريقة حديثه -شيء ما لا أعرفه في نبرة صوته، في نظرته، بل حتى في كلامه- يرسِّخ لدي فكرة أنه لا يمكن أن يكذب، ولا أن يخطئ. لكن، تبرئةً للذمة، أقنعتُ نفسي أن كل هذا مجرد انطباع كان لدي،

وهو بالتأكيد غير كافٍ ليصمد أمام أكبر احتمال يقول إن كُواريشْما يستحيل أن يكون قد توصل إلى مثل هذه الاستنتاجات من المعطيات النادرة التي كنت أعرفها مثله، إن لم يكن أكثر.

وكان المشكل يزعجني خصوصاً أنني لا أستطيع، دونِ أن أخلف وعدي، أن أتحدث عنه مع شخص آخر. فكان علي أن أحرِّك لوحدي كل هذه الأفكار، غير المثمرة في جُلِّها. كنت كل يوم، رغم إرادتي، في نهاية الأمر، أجترُّ ذهنياً هذا المشكل. كل يوم، لمدة حوالي عشرة أيام. وبالفعل، بعد عشرة أيام على حديثنا في القطار، باغتنا في الفندق مبعوث من قسم الشرطة، وزّع علينا أنا، [...] وعلى المدير استدعاءات لنوقعها وتدعونا لنمثل جميعاً في اليوم الموالي بقسم التحقيقات الجنائية، دون إشارة إلى سبب الدعوة، لأن الوثيقة لم تكن تفيد حتى أننا سندلي كشهود. انتظرتُ اليوم الموالي بفضول محموم. لا شكّ، فكرت، أن كُواريشْما قد وجد في النهاية ما كان ينقصه. فماذا كُنَّا قادمين على معرفته؟

الفصل الرابع
فنُّ الاستدلال

- إذاً، نظراً إلى وجود موت عنيف، علينا أن نفكر في ثلاث فرضيات: حادثة، انتحار، أو قتل.

في قضية مثل هذه، أعني، ولفحص الفرضيات الثلاث، نستعمل الطريقة التالية في الاستدلال: نستبعد، أولاً، الفرضيات التي أظهر الاستنتاج الموجز والمباشر للوقائع أنها غير مقبولة: ثم نفحص في البداية، من بين تلك التي يمكن أن تبدو محتملة، تلك الفرضيات التي يظهر أنها تتوفر على أعلى درجة من الاحتمال. لماذا نتصرف بهذه الشكل؟ أولاً، لأنه، أمام مشكل يبدو بطريقة ما معقّداً، تكون الحلول الأقل احتمالاً، بعد الحلول العبثية، هي الأقل احتمالاً، وينتج الغموض عن لا احتماليتها.

- إن هذه القضية، بدأ كُواريشْما قائلاً، لا تمثّل صعوبة بالنسبة إلى من يعرف كيف يمارس الاستدلال فعلاً. لكن قليلون هم من يستحقون أن نعتبرهم ممن يعرفون كيفية ممارسة الاستدلال.

أولاً، ما هي المعطيات الدقيقة للقضية؟

ثانياً، ما هي المعطيات، أو التضارب بين المعطيات، التي

تجعل القضية إشكالية؛ أي، ما هي النقط التي تحدِّد وجود الأشياء المجهولة؟

ثالثاً، ما هي الصيغة التي يحلها التضارب بين المعطيات؟

وأعني بمعطيات مسألة ما، تلك الظواهر التي تبدو لنا حقيقية. يتمثل أول عمل للاستدلال في تحديد، بطريقة تمييزية، ما هي الوقائع الحقيقية وما هي الوقائع الظاهرة، ما هي الوقائع الأساسية وما هي الاستنتاجات العفوية التي نستخلصها منها والتي تبدو لنا بدورها كوقائع. مثال: مسدس على الأرض في غرفة ورجل قُتل برصاصة. المسدس تنقصه رصاصة، والرصاصة الناقصة من نوع رصاص المسدس. أن نقول إن الرجل قد قُتل بهذا المسدس ليس تأكيداً لواقعة، بل احتمالاً أكاديمياً، وهذا أمر مختلف.

إذاً، سوف نبدأ، في هذه القضية، بتحديد ما هي الوقائع الأساسية، الوقائع وليس الاستنتاجات:

أولاً، على الساعة التاسعة صباحاً، طرق ثلاثة أشخاص [. . .] باب غرفة جوزي سِلفارِش. لم يأتِ الجواب من الداخل. خلع هؤلاء الأشخاص الثلاثة الباب. رأوا أنه كان ممدوداً على ظهره فوق السرير، وقد قُطعت حنجرتُه بموسى؛ يمسك بيده موسى مضرّجة بالدماء. لاحظ الأشخاص الثلاثة الذين دخلوا أن أبواب الغرفة وزجاج نوافذها كانت مغلقة، ولاحظوا أن باب الغرفة المؤدّي إلى الرواق كان مغلقاً بمفتاح. هذه هي الوقائع الأساسية والملموسة.

نوع آخر من الوقائع، أُضيفت فيما بعد، مكّنت من الوصول تماماً، لا أقول إلى نفس النوع من الوقائع، بل إلى الاستنتاج الذي

نستطيع أن نستخلصه منها. هذا الاستنتاج هو أن الأمر كان يتعلق بانتحار.

* * *

ثم انسحب؛ وظلت الموسى في اليد الرخوة، أو على الجانب. بما أن الضربة لم تُنجَز بطريقة دقيقة تماماً، فإنه ربما تكون قد أُنجزت من طرف المنتحِر أكثر من أن تكون من طرف شخص ثالث، ولا توجد سوى آثار خفيفة -لو وُجدت- حول الفم، أو على الفم نفسه، أثر ضغط بخرقة. ما رأيكم في هذا الاستدلال؟

- رائع! صحتُ. رائع! لكن، والغرفة المغلقة بالمفتاح، يا دكتور، الغرفة المغلقة بالمفتاح! كيف يمكن تفسير **هذا الأمر**؟

- افترضْ، سيد سانتوش، أنك ستقتل رجلاً وتريد أن توهم الناس أنه انتحر مغلقاً على نفسه داخل غرفة. لا تفكر حينئذ في الطريقة التي ستستعملها لتوهم بأنه قد أغلق على نفسه من الداخل. هذا خطأ آخر. أي نوع من «الانتحار» ستختار؟ إنطلق من مبدأ أنك رجل قوي، عازم وعديم الذمة. فأي نوع من الانتحار قد تصطنعه؟ انتحار بطلقة نار؟ هذا يحدث ضجيجاً ويجعل أي اصطناع أمراً مستحيلاً، خصوصاً في مكان يعجُّ بالناس مثل فندق. انتحار بتناول السُّم؟ أن يكون شخص ما قد أغلق على نفسه من الداخل في غرفة لا يعني أنه لم يُسمَّم من قبل، لأن كل السموم يكون مفعولها بطيئاً؛ وبعد أن أغلق على نفسه، لوحده، إذا كان السُّم سريعاً، لأنه كي يستطيع أن يتناول سُماً دون إرادته، لا بدَّ من أن يوجد في عين المكان شيء ما يحتوي السُّم وأن يغيب واضع السُّم، الذي يتوفر على عدة طُرُق، إن كان ماهراً، كي يجعله يبتلع السُّم دون أن يكون

حاضراً، وهذا ما يكتسي أهمية قصوى في الترتيبات الخارجية التي تجعل الانتحار وحده أمراً يمكن فهمه.

إنك لن تلقي بهذا الرجل من النافذة، لأنه يجب أن تكون هناك معه، وفوق هذا وذاك، يمكن أن لا يموت. وقد حدث هذا لأشخاص ألقوا بأنفسهم من النافذة، ومن طوابق عالية جداً.

الشنق والذبح هما الطريقتان المتبقيتان. الشنق هو أقرب الطريقتَين إلى الطبيعة، لكنه أكثرها صعوبة في فرضها على الغير، دون استعمال عنف أولي، يمكن أن يترك على المشنوق علامات قد لا ننسبها بتعقل فقط إلى الحبل حول العنق. يبقى الذبح، بوصفه أسهل طريقة من بين كل طرق الانتحار. بالتحكم السريع في الضحية، وهو ما يتأتّى بسهولة إذا كان المعتدي أكثر قوة بكثير: خرقة على الفم، شَجّة سريعة بالموسى، وها قد تمَّ كل شيء. وتبقى الخرقة لحظة تسد الفم؛ [. . .].

الفصل الخامس

استنتاج

حينئذ أدخَلَ بلطف في ثقب القفل نصف المفتاح ذاك، الذي سيراه شخص ما في اليوم الموالي، كدليل على أن المفتاح كان بالداخل، يحجب نور النهار القادم من النافذة التي كانت مفتوحة على مصراعيها.

تحت عنف الانفعال وأمام فظاظة هذه الاكتشافات المباغتة، انذهل ماتييوش وأُغمي عليه.

- نعم، دكتور كُواريشْما، إنه هو. منذ اليوم الأول الذي سمعتُ فيه بهذه القضية، عرفتُ أنه هو، لأنني رأيته ينحني تحت الباب المخلوع، ورأيته يترك شيئاً يسقط منه قرب الباب.

- لكن انظر إلى وجهه، يا رجل! إنه دموي، قوي، مقدام، شجاع. لو كان اتهامي خاطئاً، لسَخَط، ولو سخط لما شحب. إن شحب فلأنه خائف، ولو كان خائفاً، أخبرني، ما الذي يجعل رجلاً لا يخاف يشعر بالخوف؟ الخطر الحقيقي، صدقني، الموت، النحس، الخطر الحقيقي الذي يحدِّق بالمرء. انظر إلى وجهه!

الانتظار القصير الذي تلى كلام كُواريشْما كان لحظة عصيبة، معلّقة، وصامتة.

- انظر، قال كْواريشْما، إنه دموي عنيف وجريء، لكنه ذكي. لماذا لا يتصرف؟ إنه يتساءل مع نفسه ما هي الحركة «الطبيعية» التي قد لا تورطه إلا بشكل أقل. لا تفعل ذلك، تصرف كأنني لستُ هنا. هيا، يا رجل، تكلم! ماذا فعلت؟

تغيّرت ملامح ماتييوش، القلِق فعلاً، بشكل مفاجئ. وبتزامن صادم، ترك شحوبه المكانَ لاحمرار مفرط، مع تدفق دم مفاجئ نحو الرأس. تظاهر بفتح فمه، وباشر حركة غامضة. ثم -كل هذا تتابع بسرعة- سقط كُتلةً على الطاولة التي نهض منها.

- الدليل الحقيقي، قال الدكتور كْواريشْما. احتقان الدموي المنهزم.

* * *

- مسحتُ يدي بالخرقة. وأين كان لي أن أمسحهما سوى بالخرقة التي جلبتها معي؟

عوَّضتُ المصباح بمصباح محترق أحضرته معي.

ذهبتُ إلى النافذة وفتحت المصراعين، **لأن ذلك كان ضرورياً لأجل جزء آخر من خطتي.**

توجّهتُ نحو الباب. أصغيتُ. عندما لم يمر أحد وصار الفندق هادئاً، أخرجتُ المفتاح الثاني من جيبي -وهو يشبه المفتاح الذي كان على الأرض- وفتحتُ الباب. ثم أغلقته مباشرة من الخارج مرة أخرى. سحبتُ المفتاح ووضعته في جيبي.

- إذاً وضعت يدك في جيبك، جيب صدريتك أو جيب سروالك، أظن، وفيه وضعت آخر دليل من أدلة هذا اليوم: **المفتاح الثالث.**

- المفتاح الثالث؟ صاح المفوض.

- نعم، المفتاح الثالث، كرّر كُواريشْما. مفتاح كل هذه القصة. المفتاح من دون مفتاح. المفتاح من دون رأس.

وسرعان ما انكشفت أمام عيوننا تقنية الجريمة، التي ظلت إلى حدّ هنا غامضة بالنسبة إلينا جميعاً. واختفى لغز الغرفة المغلَقة بمفتاح في لحظة واحدة.

ما بقي لم يكن شيئاً كثيراً. أفضى التحقيق، دون [...]؛ وحاول ماتييوش، دون [...]، ودون شجاعة، نَحّات الأحجار الكريمة، خشناً ونزيهاً؛ تحقيق سريع ونهائي، لأنه كان موجَّهاً سَلَفاً.

هذا ما اكتشفناه بعد ذلك، كان النهاية، التي لا قيمة لها الآن، لمأساة انتهت فعلاً في ذلك اليوم. وخرجنا جميعاً بتثاقل من قسم الشرطة.

جريمة

مكتبة الرمحي أحمد

[1 - القضية]

كان المفوَّض مانويل غيديش، عن مصلحة الجرائم، قد انتهى للتو من كتابة بعض الأسطر من نصٍّ ما، بينما وقف في الجهة الأخرى من المكتب، مفتشٌ يحملُ أوراقاً في يديه، وينتظر. انتهى غيديش من الكتابة، وضع القلم، وبعد أن تأمّل، دون شكّ، نوعاً ما فيما كتبه، اتّكأ نحو الخلف على الكرسي، فتحوّلت تعابير وجهه الرجولي، الطيب بطبعه، نحو التواصل بعد أن ظلت منفتحة حتى تلك اللحظة، والتي كان يمنحها شيء ما -قد يكون الذكاء، أو عيوب الحرفة، أو كلاهما معاً- تلك النبرة الصارمة. لمس للحظة أقصى شاربه الأيمن المتراوح بين الأسود والرمادي؛ ثم رفع عينيه نحو المفتش.

- نعم يا بّيرايرا، ماذا هناك؟

رفع المفتش الأوراق التي كان قد وضعها فوق الطاولة.

- اجلس هنا يا بّيرايرا، قال غيديش.

جلس المفتش على الكرسي المشار إليه، على يمين المفوَّض، ثم وضع الأوراق فوق المكتب.

- سيدي المفوَّض، ها قد حضر ذلك الشاب، لوبش، الذي غادر حفل الشبيبة الكاثوليكية رفقة من وجدوه مقتولاً في النهر.

- آه، دعه يدخل.

مكتبة الرمحي أحمد

فدخل شاب ذو بنية تفوق المتوسطة، يرتدي لباساً محترماً أزرق داكناً. كان ذا وجه عادي وظريف، يكاد يكون ثاقباً، وعينين يمكن أن نقول إنهما سوداوين ذابلتين. هذا ما كان يبدو بعد أول شيء نراه فيها في تلك اللحظة، شكله الكئيب، وعيناه المنتفختان من البكاء.

- اجلس، أمره المفوض غيديش.

فاستجاب الشاب لأمره.

- هل كنت صديقاً مقرّباً من ذلك الشاب المسكين، مونتيرو، الذي ظهر مقتولاً في النهر؟

- كنت أقرب أصدقائه، كما كان هو أقرب أصدقائي.

- اسمك، يا سيدي، جوزي أنطونيو لوبش، أليس كذلك؟ تابع المفوَّض بنبرة محايدة. تبلغ من العمر واحداً وعشرين سنة وتسكن بشارع. . .

- نعم، سيدي.

- حسناً، ما هي آخر مرة رأيت فيها صديقك على قيد الحياة؟ أعني، في أي ساعة، بأكبر قدر من الدقّة، رأيته على قيد الحياة؟

- يمكنني أن أقول لكم ذلك بدقّة: خمس دقائق بعد منتصف الليل.

- من أول أمس، طبعاً.

- نعم، بالطبع.

- كيف لك أن تعرف الساعة بكل هذه الدقة.

- الأمر في غاية البساطة، سيدي المفوض. كان علينا أن نذهب إلى حفل الشبيبة الكاثوليكية التي ننتمي إليها معاً. مرّ إلى بيتي، وكان يسكن بعيداً بعض الشيء من منزلي، أعني بعيداً نوعاً ما إذا ما توجّهنا من بايشا نحو بِياتو. تستغرق المسافة الفاصلة بين بيتي

وبيته حوالي خمس دقائق، وإن أسرع المرء الخطى. حسناً، بما أننا كنا صديقين كبيرين تجمعنا علاقة جيدة، حتى أنه لم يحدث أدنى نزاع بيننا، فقد كنا نفضّل أن نلتقي كلما كان ذلك ممكناً. وفي مناسبات مثل هذه المناسبة، فقد كان الأمر أكثر سهولة لأننا كنا نسكن في نفس الجهة، ونقصد معاً نفس الحفل. ربما كان ذلك قبيل الثامنة والنصف (لا أعرف الساعة بالضبط) عندما مرَّ ببيتي لنذهب معاً إلى الحفل؛ أقول ربما كان ذلك قبيل الثامنة والنصف لأننا وصلنا إلى مقر الشبيبة الكاثوليكية عشر دقائق قبل التاسعة -وكان موعد الحفل هو التاسعة- وأعرف ذلك لأنني قطعت تلك الطريق عدة مرات، بطريقة مشيي وبطريقة مشيه أيضاً التي لا تختلف عن طريقتي، إذ تستغرق المسافة بين بيتي ومقرّ الشبيبة الكاثوليكية مدة نصف ساعة بالتحديد.

- حسناً، حسناً. تابع حديثك. هذا بالضبط ما أريد أن أعرف.

- ذهبنا إلى الحفل، وهناك بقينا، لكن الحفل ظلّ مستمراً، فرأينا أن الوقت قد تأخر لأنه كان علينا أن نستيقظ باكراً. لم أنتبه إلى الساعة التي غادرنا فيها الشبيبة الكاثوليكية بالضبط، لأنه بعد أن قررنا أن نغادر المكان، بقينا متأخرين نتجاذب أطراف الحديث بعض الوقت. لكن بما أنني وصلت إلى البيت خمس دقائق بعد منتصف الليل، وأننا مشينا بنفس السرعة المعتادة، ربما نكون قد غادرنا مقر الشبيبة الكاثوليكية قليلاً بعد الحادية عشرة والنصف. لا أدري إن. . .

- جيد، جيد. لا تخشَ أن أملّ كلامك. كلما زوّدتني بالتفاصيل، كلما قلّ مللي.

تابع الشاب كلامه، وقد شجّعه الاهتمام الذي أبداه القائد لحكايته البسيطة، ولحالة الاكتئاب التي كان عليها.

مكتبة الرمحي أحمد

– عندما بلغنا باب منزلي افترقنا، فصعدتُ مباشرة بينما تابع هو طريقه. (بدأ صوت الشاب يرتجف). تلك كانت آخر مرة رأيته على قيد الحياة.

– ألم تظلّا تتحدثان عند باب بيتك؟

– لا. كنا معاً على عجل كي نذهب للنوم. صعدتُ مباشرة ونمتُ بعد عشر دقائق، رغم الناس الذين كانوا هناك خارج البيت. لم يكونوا من النوع المتكلِّف، لذا اعتذرتُ لهم وذهبت لأنام... آه، سيدي المفوض، تريد أن تعرف كيف أنني أعرف الساعة بالضبط، ساعة وصولي إلى البيت. كان ذلك كما يلي. ما إن دخلت إلى قاعة الأكل حتى ألقيتُ نظرة على الساعة فرأيت أنها تشير إلى منتصف الليل وخمس دقائق. سألني الأب أَبيل -اسمه أَبيل نونش- وهو صديق قديم لأبي، وهو من الأشخاص الذين كانوا هناك في البيت، بطريقة مازحة من أي عربدة جئت عند منتصف الليل وخمس دقائق، ونظر إلى ساعته ليتأكد من الوقت. لذا أعرف الساعة بالضبط، من خلال ساعتين: البندول وساعة اليد.

– ممتاز.. هذا صحيح، ولكن من كان هناك بالإضافة إلى الأب أَبيل نونش؟

– من كان هناك؟ قال الشاب وقد بدا عليه شيء من الدهشة. من الضيوف؟

– من الضيوف ومن أهل البيت.

– من أهل البيت كانت هناك عمتي، ومن المطبخ كانت الخادمة. ومن الضيوف كان هناك، بالإضافة إلى الأب أَبيل، اثنان من أبناء عمتي، الرجل وزوجته، وهما متقدمان في السنّ. لكن...

ابتسم المفوض غيديش.

- سأشرح لك. حين يموت شخص ما ويمكن أن يتعلق الأمر بجريمة. . .

- لكن كيف أمكن أنه. . .؟

- انتظر: سآتي على هذا الأمر. حين يموت شخص ما ويتعلق الأمر بجريمة قتل، فإن أول الأشياء التي علينا أن نعرفها هو أين كان، ساعة القتل المفترضة، الأشخاص الذين التقت بهم الضحية لآخر مرة، أو أولئك الذين لديهم رغبة أو مصلحة ما في موته.

- لكن، كيف أنا، أنا. . .! صاح الشاب مرعوباً.

- هدّئ من روعك، قاطعه غيديش مبتسماً. إنني لا أضعك ضمن هذه الفئة. هناك من الوجوه ما لا أستطيع تفرّسها، بيد أن وجهك يمكن قراءته بشكل جيد، ولن يخطر ببالي أبداً أنك يمكن أن تقتل أحداً، خصوصاً إذا تعلق الأمر بأقرب أصدقائك، وعيناك تشيان أنه كان كذلك. لكن يجب أن نطبّق المسطرة على الجميع. ثم إنك لست ضمن لائحة المشتبهين، بل ضمن لائحة من رأوا الضحية قبيل ساعة القتل المفترضة. وإذا كنتَ أول من أطرحُ عليه هذه الأسئلة، فلإنك ببساطة أول شاهد أسألُه، باستثناء، طبعاً، من وجدوا الجثة والشرطي الذي نادوا عليه. لذا لا تغضب. لنتابع. إذاً، الأمر أنك كنت، كما تعلم، آخر شخص رأى السيد مونتيرو وتحدث إليه قبل أن يموت، مع الافتراض، طبعاً، أنه لم يمت مقتولاً، وإلا فإن آخر شخص رآه قد يكون هو القاتل.

- عفواً، سيدي المفوَّض، ليس الأمر كذلك تماماً. عدا قصة القاتل هذه، والتي لا أصدِّقها -أعني أنني لا أصدق أن آلفارو مات مقتولاً- من كان يريد قتله؟ عدا هذا، هناك على الأقل شخص واحد، لا أعرف بالمناسبة من يكون، رأى مونتيرو وتحدّث إليه من بعدي.

- كيف حدث ذلك؟ صاح غيديش متعجِّباً. ألم تقل إنك قد صعدت على الفور؟ هل اقتربت من النافذة؟ أو أنك تعرف ذلك الشخص الآخر بطريقة غير مباشرة؟

- المسألة بسيطة، سيدي المفوَّض غيديش. عندما وصلنا إلى باب بيتي، افترقنا على الفور، كما أخبرتك، وتابع آلفارو طريقه مباشرة نحو البيت، عبر الرصيف من جهة بيتي. حسناً، بين اللحظة التي يُخرِج فيه المرء المفتاح من جيبه، ثم يُدخله في القفل ويفتح الباب تنقضي بعض الثواني. بينما كنت أقوم بكل هذا، كنتُ أنظر نحو الجهة التي كان يتابع فيها آلفارو سيره. كنت قد أدرتُ المفتاح للتو حين انتبهت، وأعترف أن ذلك كان مصحوباً بشيء من الدهشة، أن شخصاً كان في الجهة الأخرى من الشارع، في الظلام، وربما ظلَّ هناك واقفاً، وإلا لسمعت، في تلك الساعة، خطواته. انتبهتُ إلى أن هذا الشخص كان يرتدي معطفاً وقبعة رخوة سوداء. قطع الطريق واتجه صوب آلفارو. يبدو أن آلفارو كان يعرفه، إذ قطع الطريق بدوره وتوجه ليلاقيه. التقيا عند منتصف الشارع تقريباً، تصافحا، ثم تابعا السير معاً.

- أوه لالا! أوه لالا! قال غيديش. وأنت تقول، يا سيدي، أنك لا تعرف من يكون ذلك الشخص؟ هل تمكنت من رؤيته جيداً؟

- تمكنت من ذلك، عندما قطع الشارع. إن هذه الجهة من الشارع، رغم قلة الضوء، كانت دائماً أكثر إنارة من الجهة الأخرى، التي كانت مظلمة تماماً. ولكن الظلام كان دامساً حتى أنني لم أرَ ذلك الرجل، الذي ربما ظلَّ واقفاً هناك، إلا عندما تقدّم نحو آلفارو.

- وأنت تقول، يا سيدي، إنك لا تعرف ذلك الشخص، أو أنك لم تتعرّفه؟

- ليس أنني لم أتعرّفه، بل إنني في الحقيقة لا أعرفه. لدي موهبة في التعرُّف ليس فقط إلى الوجوه بل أيضاً إلى قامات الأشخاص وطريقتهم في المشي. لم أرَ ذلك الشخص بشكل جيد، لكن يمكنني أن أؤكد لك أنه لم يسبق لي أن رأيته. وهو ما يدهشني، لأنني أعرف تقريباً كل معارف مونتيرو.

- كيف كان شكله؟ هل يمكنك أن تتعرّفه لو رأيته مرة أخرى؟

- آه، ربما لن أستطيع ذلك. الشيء الوحيد الذي أستطيعه، لو قدموا لي أحداً وسألوني إن كان هو ذلك الشخص، هو أن أقول إن كان يشبهه أم لا، أو إن كان من نفس النوع. هل تعلم، سيدي المفوض، أن لدي قدرة على تعرُّف هيئة الأشخاص ووجوههم، لكن، طبعاً، إن أنا رأيتُ الوجوه والهيئات لمرة واحدة على الأقل. أما هذا الشخص، فرأيته بشكل سيّئ.

- كيف كان شكله، انطلاقاً مما استطعت أن ترى؟

- كان رجلاً شاباً -ليس شاباً مثلنا أنا وآلفارو-. لكن، انطلاقاً من هيئته العامة، وجسامته، وما استطعت أن أرى من وجهه، أي لا شيء تقريباً، يبدو أنه كان رجلاً يناهز الثلاثين، أو في الثلاثين من دون شكّ.

- حسناً. وماذا عن قامته وملابسه؟ هل رأيت وجهه؟

- كان رجلاً طويل القامة. قامته تفوق قليلاً قامة آلفارو، الذي... الذي كان بقامتي تقريباً. وكان أيضاً أكثر جسامة من آلفارو، وربما تكون هذه واحدة من الأشياء التي جعلتني أرى أنه يكبرنا سنّاً. لم أرَ شيئاً كثيراً من وجهه، ليس بسبب الضوء، بل لأنه كان يضع قبعة لبدية رخوة، سوداء أو داكنة بعض الشيء، تغطّي شيئاً

مكتبة الرمحي أحمد

ما عينيه. لاحظتُ عموماً أنه كان يضع نظارة، من ذات الإطار المصنوع من ذيل السلحفاة، وهيئته تشبه هيئة شخص يهودي.

- هذه هيئة مألوفة لدى البرتغاليين.

- نعم. . . كان ذا شارب داكن، لكني لم أرَ إن كان قصيراً أم طويلاً، أو بينهما معاً.

- هل كان شارباً بأطراف طويلة أم شارباً مقصوصاً؟ طبعاً، أنت لم ترَ ذلك.

- لا، لم أستطع. رأيتُ أن له شارباً بسبب الظل الذي يغطّي شفته العليا.

- حسناً. ومع ذلك لاحظتُ شيئاً ما.

- لدي قدرة كبيرة على الملاحظة، وهذا الأمر حيّرني فتساءلت من يكون هذا الرجل الذي لم يسبق لي أن رأيته، لا مع آلفارو ولا مع غيره، والذي برز فجأة في ذلك المكان وبتلك الطريقة. طبعاً، لم يخطر ببالي أنه يمكن أن يحدث شيء فظيع في ذلك المكان. ولا أفترض ذلك الآن حتى. لم يكن لآلفارو عدو من أي نوع كان. لم يكن من ذلك النوع من الأشخاص الذين لهم أعداء، ولم يكن له أي عدو. نظراً إلى صداقتنا الحميمة، كنتُ أعرف كل شيء عن حياته، ولو كان له أي عدو لعرفت ذلك.

- إلا إذا كان هو يعرف أن لديه أعداء. . . يمكن أن يكون لنا أعداء دون أن نعرف ذلك.

- لكنه لم يكن بطبعه من النوع الذي يصنع لنفسه أعداء.

- يمكن للمرء أن يخلق لنفسه أعداء دون أن يكون طبعه ميالاً إلى ذلك، أيها الشاب. . . الأمر أنك أنت، أقرب أصدقاء مونتيرو، لا تعلم بوجود أعداء له، أو بسبب يجعل لديه أعداء، أليس كذلك؟

- تماماً.

- إذاً، لنمرَّ إلى أمر آخر. خلال ذلك اليوم، أو خلال آخر حديث جرى بينكما، هل كان ثمة من شيء قاله، أو أي موقف اتخذه، يمكن أن يشير إلى أنه كان يفكر، ولو بشكل غامض، في الانتحار؟

كان التعبير السلبي للمدلي بشهادته عنيفاً إلى حدٍّ ما.

- لم يذكر شيئاً أثناء ذلك الحديث، ولا في أي حديث آخر منذ تعرّفنا إلى بعضنا، ونحن نعرف بعضنا منذ سنّ العاشرة في المدرسة. سيدي المفوَّض، ربما تكون محقّاً بخصوص مسألة الأعداء، لكن بخصوص مسألة الانتحار، أؤكِّد لكم تماماً أن الأمر غير وارد. فلم يسبق له أن تحدّث عن هذه النزعة، ولم يتحدّث قط عن الانتحار، إلا ما تعلَّق بخبر في الجريدة أو أي شيء آخر من هذا القبيل، كما يمكنك أن تتحدث أيضاً عن ذلك، سيدي المفوَّض غيديش. ثم إنه إن كانت مناسبة كان فيها آلفارو أكثر سروراً وفرحاً، فلن تكون أكثر من تلك المناسبة. لا أدري إن كنت تعرف أمراً آخر: لقد كان مقبلاً على الزواج في غضون ستة أشهر...

- آه! كان مقبلاً على الزواج؟ مع من؟ هل تعرف الشابة؟

- أعرفها. إنها شابة جميلة جداً، رقيقة جداً، وطيبة للغاية...

- مهلاً، لدينا هنا سبب لوجود عداوة محتملة. هل تعرف إن كان له منافسون، ليس بمعنى أن الشابة كانت متردِّدة بينه وبين أشخاص آخرين...

- آه، لا أعرف هذا حقاً...

- دعني إذاً أحدّثك! ليس بهذا المعنى، بل بمعنى إن كان هناك من كانوا يطلبون يدها فرفضتهم، وهذا هو الأسوأ، فحسدوه على

مكتبة الرمحي أحمد

حظوته وزاد حسدهم لأنها رفضتهم. هل تعرف جيداً هذه الفتاة؟ هل تعرف عائلتها؟ هل تعرف معارف عائلتها؟ هل تعرف الأشخاص الذين تتعامل معهم، بالإضافة إلى من تعرفهم وأفراد العائلة؟ وما هو عملها؟

- إنها تشتغل أمينة صندوق في شارع براتا؟

- هل تعرف اسم الشركة ورقم عنوانها في شارع براتا؟

- نعم. شركة «بينتو وآنغيجا»... شارع براتا.

سجّل غيديش العنوان.

- هل تعرف أيضاً الأشخاص الآخرين الذين يشتغلون في هذا المحل؟

- انظر، سيدي المفوَّض، صراحة أنا لا أعرف غير الشابة. لم أدخل إلى المحل الذي تشتغل فيه سوى مرة واحدة (إنه محل لبيع ملابس الموضة أو شيء من القبيل)، وذهبت أحمل إليها رسالة من آلفارو، الذي كان يلزم الفراش من الحمّى. لم أنتبه إلى الأشخاص الذين كانوا هناك. أما بخصوص عائلتها، فلا أعرف منهم أحداً، ولم يسبق لي أن رأيت منهم أحداً. أعرف أن أبويها لا يزالان على قيد الحياة، وأن لها أخوَين، واحد مهاجر سياسي في إسبانيا منذ سنوات، وآخر هنا. ولكني لم أرَ أي أحد من كل هؤلاء الأشخاص.

- لكن، ألم يحدّثك مونتيرو عن أي منافسات ممكنة؟

- أبداً، على الإطلاق.

- هل كان بوسعه أن يحدّثك في هذه الأمور؟ إنك تعرف أن هناك أشخاصاً، بحكم طبيعتهم، يحتفظون بأشياء لأنفسهم، حتى إن كانت أشياء لا قيمة لها أحياناً، ولا يخبرون بها أقرب الأصدقاء إليهم.

- ما كان آلفارو ليخفي عني أشياء من هذا القبيل. كان دائماً يسرُّ لي أكثر الأمور حميمية، أو يحدّثني عنها ونتكلم في الأمر، مهما كان الموضوع.

- هل كانت العائلتان، كل واحدة على حدة، راضيتَين عن هذا الزواج؟

ولأول مرة، منذ أن بدأ يدلي بشهادته، تردّد لوبش.

- من جهته هو، من جهة عائلته، إن صحَّ التعبير، أمه فقط، والتي ما زلت على قيد الحياة، كانت راضية عن الزواج وتحب الفتاة التي كانت تتناول العشاء معهم من حين إلى آخر. الشيء الوحيد الذي كان يحزنها أن عائلة الفتاة تضم أفراداً من أصحاب الفكر المتحرِّر والنزعة الجمهورية. يبدو أن الأب كان ماسونياً. لكنها كانت راضية عن هذا الزواج.

- إذاً كانت المعارضة تأتي من أصحاب الفكر المتحرِّر؟

فكر المدلي بشهادته قليلاً.

- معارضة، معارضة... ليس كذلك تماماً. شيء ما تقريباً مما كانت تشعر به السيدة أدِلايدي، أم آلفارو، تجاه الفتاة، لكن لسبب معكوس، وبشكل ربما أكثر حدّة. لم تكن هناك، في الحقيقة، معارضة حقيقية ضدّ زواج الفتاة، التي كانت ستضل قاصراً في غضون ستة أشهر -حينئذ ستبلغ سنّ العشرين-، بموافقة والديها، وفي الكنيسة بالطبع.

- حسناً، إن كان كذلك، فلا وجود لأي معارضة حقيقية من والدَي الفتاة؟ وماذا عن الأخوين؟ إن معارضتهما لا يمكن أن تمنع الزواج، لكنها يمكن رغم هذا، بل بسببه، أن تكون كبيرة بعض

مكتبة الرمحي أحمد

الشيء. هل تعرف شيئاً عن الأخوين، عدا ما قلته لي عن ذلك الأخ الذي هاجر إلى إسبانيا لأسباب سياسية؟

- لا. لا أعرف غير هذا، وأعرف أن الأخ المقيم هنا يشتغل في مكتب بحي بايشا، لا أعرف ما هو، وأنه يعمل مساعد محاسب، وأنه حين لا يكون في المكتب أو على مائدة الأكل في البيت، يقضي وقته بمقهى برازيليرا في ساحة روسيو يتحدّث في أمور السياسة. هذا كل ما أعرف. هذا ما أعرف عن طريق آلفارو. لم يكن يروقه أن يتحدث عن أخ الفتاة الذي يقيم هنا، لأنه هو من كان يبدو أشد المعارضين لهذا الزواج. كان آلفارو يحدّثني أن هذا الشاب كان يبدي غضباً شديداً من زواج أخته بشخص من اليسوعيين... «هذا كل ما كان ينقصنا، أن تتزوج بيسوعي» كان يقول، بحسب قول آلفارو. وكانت الفتاة هي من أخبرته بذلك. آه، وأعرف أيضاً شيئاً واحداً آخر، فقط. أعرف أن هذا الأخ كان يُدعى مانويل، مانويل كونيا، لأن الفتاة اسمها أَليس كونيا.

- تقول إنه لم يسبق لك أن رأيت أي شخص من عائلة كونيا، عدا تلك الشابة. لكن ربما يكون مونتيرو، مثلاً، قد قدّم لك وصفاً خارجياً لمانويل...

- لا، لم يقم بذلك قط.

- هل كان مونتيرو يعاشر مانويل كونيا هذا؟

- كان يعرف عائلة الفتاة، عدا أخيها المقيم في إسبانيا. كان هو ومانويل يتحدّثان لبعضهما، لكنهما لا يفعلان ذلك إن كان بإمكانهما الاستغناء عن الكلام. عندما كان آلفارو يذهب للعشاء في بيت الفتاة، كان مانويل كونيا يفعل كل ما في وسعه ليتناول العشاء خارج البيت. كانا يتحدثان لبعضهما، ببرودة في الحقيقة، لكنهما

كانا يتبادلان الكلام مع ذلك. يبدو أن كونيا، حباً لأخته، لم يكن يرغب في أن يدفع بالأمور لدرجة تُهينها. كان آلفارو يتفاهم جيداً مع أب أَليس وأمها؛ ثم إنه لم يحدث له أي سوء فهم مع أمها...

- صحيح أنه لا جدوى من أن أسألك عن هذا الأمر، لكنه لا بدَّ لي من طرح هذا السؤال: ألم يبرز أي عائق يحول دون زواج الفتاة، أو أي خلاف معها؟ (وسرعان ما رأى المفوَّض غيديش نفياً قاطعاً يرتسم على وجه المدلي بشهادته). حسناً، أفهم أنه لم يحدث شيء من هذا... إذاً، في نظرك، لا يمكن بأي حال من الأحول أن يتعلّق الأمر بحالة انتحار، وترى أيضاً أنه لا يمكن أن يتعلق الأمر بحالة قتل؟

- تماماً، سيدي المفوض.

- حسناً، لنطرح الآن فرضية الحادث. أخبروني أنكما قد خرجتما معاً مقرّ الشبيبة، وأنكما قد بالغتما في الشرب. هل هذا صحيح؟ لا تخجل من قول ذلك. حدث لي هذا عدة مرات، بدوري.

- نعم، سيدي المفوَّض، لقد بالغنا في الشرب بعض الشيء، وقد شرب آلفارو شيئاً ما أكثر مما شربتُ، لكن لا أحد منا كان سكران. أثناء الطريق التي قطعناها للوصول إلى بيتي، كنا قد استرجعنا معاً كامل وعينا. وكنا على أحسن ما يرام عندما افترقنا عند باب بيتي. الشيء الوحيد الذي انتابنا هو النوم.

- حسناً. الآن، هناك أمر آخر: هل كان من عادة صديقك أن يقوم بتلك الجولة ليلاً على ضفاف النهر؟ أعرف أنه كان يقوم بتلك الجولة نهاراً، لكن ليلاً...؟

- انظر، سيدي المفوَّض، لأول مرة أسمع أنه كان يقوم بتلك

مكتبة الرمحي أحمد

الجولة، ليلاً أو نهاراً. لدرجة أنني صُعقت لما علمت بأنهم وجدوه مقتولاً هناك. لو تعلق بحادثة سير بواسطة سيارة وسط الشارع، لفهمت الأمر.

- إذاً، أنت الذي كنت ترافقه دائماً تقريباً، لم يسبق لك أن مررت من هناك رفقته، ولم تكن تعلم أنه يمر من هناك أحياناً؟

- لا، سيدي المفوَّض، أؤكِّدُ لك أنني لم أكن أعلم ذلك. لم يكن الأمر مهمّاً جداً حتى يشعر بالحاجة إلى أن يحدثني عن تلك العادة، إن كان ذلك من عادته. ثم إن هناك أمراً آخر: كنا نقضي معظم وقتنا في حي بايشا وكان بيته أبعد عن حي بايشا مما كان عليه بيتي. فكنا نغادر الحي معاً، أتوقف عند باب بيتي ويتابع هو طريقه نحو بيته؛ نذهب معاً إلى بايشا، يمر إلى بيتي وأذهب معه. لذا، ورغم صداقتنا، ومع تكرّر زيارته لي كل يوم، ومرتين في اليوم تقريباً، أو أنه يمر من هناك، يمكن تعداد المرات التي زرت بيته، منذ أن استقر هناك، أي منذ سنتين ونصف.

- حسناً، فهمتُ كل شيء. أظن أنه، على الأقل الآن، لستُ في حاجة إلى شيء آخر منك. لقد كنت واضحاً وصريحاً في كل ما أدليت به، وهذا ما أسرَّني. ألا يخطر ببالك شيء آخر يمكن أن يلقي مزيداً من الضوء -الذي لا يظهر منه أدنى بصيص إلى حدّ الآن- على هذه القضية؟

- لا، سيدي المفوَّض، لا أرى أي شيء آخر. أظن أنني قلت كل ما أعرف وأنا أجيب عن أسئلتكم المختلفة...

- حسناً. لدي اسمك وعنوانك. أين تشتغل؟ يجب أن أعرف ذلك، في حالة ما برز أي طارئ...

- في مختبر مِتشيل. أشتغل كمساعد للمحللين البيولوجيين. يقع في شارع إيفانس، رقم 33، الطابق الثاني، رقم الهاتف. . .

- لا يهم. لا بدَّ أنه في دليل الهاتف. . .

- نعم، سيدي، إنه في دليل الهاتف.

- إذاً، اتفقنا. لا تخلف الموعد. عليك أن تحضر إلى هنا على الساعة الخامسة زوالاً، بالضبط. لا تسأل عني هناك في الخارج، بل عن المفتش راموس، ذلك السيد الذي تراه هناك. (وأشار إلى رجل مربوع وأشقر ظلَّ طول مدة الإدلاء يكتب في طاولة عند الركن). حسناً، لا تخلف الموعد. إلى اللقاء.

وصافح المفوَّض غيديش يد الشاب.

وما أن غادر الشاب حتى نظر غيديش إلى المفتش الذي رفع بالحدس عينيه نحوه.

- اسمع، يا راموس، حوالي الساعة الثالثة والنصف، اذهب أنت، أو أي أحد آخر، إلى شركة بينتو وآنغيجا، في شارع براتا. . . وأحضر إلى هنا الشابة أَليس كونيا، التي تشتغل هناك أمينة صندوق. قل لها بصراحة أن ذلك من أجل أن تقدِّم تصريحاتها بخصوص موت خطيبها، وأننا لن نضجرها أكثر من اللازم. حاول أن تجعلها تأتي فوراً، خذ لها سيارة أجرة وأرسلها إلى هنا. اشرح كل هذا في المحل حتى لا يحصل أي سوء فهم. لا تتركها تتكلم في الهاتف؛ ولتفادي ذلك، دبّر أمرك كما استطعت.

- من البديهي أن أحداً يمكنه أن يتكلم باسمها بعد أن تغادر المحل.

- يجب أن نخاطر، إن كان هناك من مخاطرة. لكني لا أظن

مكتبة الرمحي أحمد

أن ذلك سيحدث. عندما تُحضرها أدخلها فوراً إلى هنا. عندما سيعود إلى هنا، على الساعة الخامسة، ذلك الشاب، لوبش...

- سآخذه إلى الغرفة المجاورة...

- تماماً... (نهض المفوَّض غيديش وتمطط) انظر، راموس، هل استمعت إلى هذا الإدلاء؟

- نعم. كنت أكتب، لكني سمعت كل شيء. هذا الشاب يشرح الأشياء بشكل جيد وكل شيء يبدو لي أكيداً.

- نعم، إنه يبدو كذلك. ما رأيك في هذه القضية؟

- بصراحة، يبدو لي أن هذه القضية تنطوي على أمر مشبوه.

- بالفعل، وهذا رأيي أيضاً. مفاجأة ذلك المجهول الذي خرج من الظلام ليحدّث مونتيرو، ربما دقائق معدودة قبل موته، لا تعجبني إطلاقاً. لدي فضول لمعرفة كيف هو مانويل كونيا. لكن، في البداية، علينا أن نقوم بتحقيق بسيط حول أخته الصغرى. لا يروقني الأمر كثيراً، إذا كانت كما يصفها الشاب لوبش. ولكن القضية لا تسمح بإضاعة الوقت.

ثم توجّه إلى البواب، الذي دخل للتو، وهو يمد إليه رسالة:

- نونش، أيها الطيب، اذهب واشتري لي علبتَين من السجائر، نفس السجائر كما العادة...

[2 - تحليل أبيليو كْواريشْما]

- كما فهمتَ، إن النقطتَين الأساسيتَين لحلِّ هذه القضية هما كالتالي: حالة السكر القليل أو المنعدم التي وصل فيها مونتيرو ولوبش إلى باب بيت هذا الأخير، ووجود شخص التقى بمونتيرو على مسافة قريبة من بيت لوبش.

إن النقطة الأساسية في هذا المشكل، والعنصر المولِّد لكل ما فيه من تعقيدات هو الشهادة التي أدلى بها هذا الشاب لوبش. إنها شهادة فريدة من نوعها في نقطتَين؛ أي أنها لا توافق شهادة أخرى حول نفس النقط. وهذه النقط المريبة، لأنها غريبة، ربما لن يكون لها أية قيمة لولا وجود ثلاثة مقاطع من هذه الشهادة نفسها تثير بطبيعتها شكّاً بخصوص صدق الإدلاء برمّته.

الأمر الأول أن لوبش، الصديق الحميم لمونتيرو، يجهل أنه كان من عادة هذا الأخير، كما كان ذلك جلياً هنا، أن يمر، في الطريق من وإلى بيته، عبر الأرصفة. أليس من الممكن خلال السنتين ونصف السنة التي أقام خلالها مونتيرو بذلك البيت، وكان يلتقي بلوبش كل يوم، أن يكون قد أخبره أنه يفضِّل المرور من هناك؟ هذا أمر لا يصدق؛ وإن كان كذلك، فإن سهو لوبش كان مقصوداً. لنسجِّل هذا المعطى الأول.

الأمر الثاني أن لوبش، الذي كان دائماً برفقة مونتيرو، لم يسبق له أن رأى مانويل كونيا. ألم يصادفا قط، عندما كانا معاً، خلال لا

مكتبة الرمحي أحمد

أدري كم من سنة، مانويل كونيا؟ ألم يريا ولو مرة واحدة مانويل كونيا -كما يقول هذا الأخير- وهو يعبر الطريق، ليلتقي بمونتيرو ويتحدّث إليه؟ ألم يحصل قط، في هذه الحالة أو تلك، أن قال مونتيرو للوبش -الذي وصف نفسه بأن «لديه قدرة كبيرة على تذكر الوجوه»-: «انظر، هذا هو صهري في المستقبل»، «انظر، هذا هو صهري الذي لا يستطيع أن يراني»؟ إنه أمر لا يصدّق، يا عزيزي غيديش؛ وإن كان كذلك فلأن سهو لوبش كان مقصوداً. لنسجّل هذا المعطى الثاني.

الأمر الثالث وهو أنه، لدعم هذه النقطة الثانية، بشكل سلبي إن صحَّ التعبير، فإن الوصف الذي قدّمه لوبش عن الشخص المجهول يطابق، في خطوطه الكبرى الطبيعية والكافية، مظهر المدعو مانويل كونيا الذي، بشكل لا يُفسَّر، لم يسبق له أن رآه. فينضاف إلى أمرَين غير طبيعَين -سهو لا تفسير له- أمر غير طبيعي بطبيعته، وهو التطابق. قل لي، يا غيديش، ألا يشكِّلُ كل هذا أموراً كثيرة في الوقت نفسه؟

الآن، ونحن نتوفّر على كل هذه الأسباب لنشكّ في صدق شهادة لوبش، لنحتفظ بهاتين الحجّتَين، ولنفحص القضية في ضوء شهادات أخرى، كما لو أن لوبش لم يكن له وجود. فأي استنتاج سنتوصل إليه طبيعياً، في غياب هذه الشهادة؟

لدينا شاب، ليس من عادته أن يسكر، لكنه ذلك اليوم، أو تلك الليلة، شرب أكثر من اللازم. لوبش نفسه، الذي كان موثوقاً به بخصوص هذه النقطة، يقول إن مونتيرو قد شربَ أكثر منه، وهو الذي كان معتاداً على شرب الخمر. الطبيعي هو أنه عندما وصلا

أمام بيت لوبش، فإن هذا الأخير استعاد حالته الطبيعية؛ لكن قد يكون ذلك مستحيلاً بالنسبة إلى مونتيرو. وهنا بالضبط نجد أحد التصريحات الغريبة، أي غير القابلة للتأكيد، التي أدلى بها لوبش، والتي تقول إن مونتيرو بدوره قد استعاد حالته الطبيعية.

لدينا شاب اعتاد أن يذهب إلى بيته مروراً بالأرصفة لأنه، بحسب أقوال خطيبته، كان يحب تنشق الهواء البارد. لم يكن من عادته أن يذهب إلى هناك ليلاً، لكنه ربما كان سكران تلك الليلة. وبما أنه كان سكران، ربما عنّ له أن يبحث، وهو في طريقه إلى البيت، عن مكان بارد، مكانه البارد المعتاد في طريقه، أي بمحاذاة الأرصفة.

ما وقع لا يمكنني أن أعرفه ولا أن أتكهّن به. ولكن إذا ضاعفنا المعطيات التالية: سكر، رصيف وليل مظلم نوعاً ما، فإنه ليس من الصعب أن يكون الحاصل هو ما استقاه الشرطي 24 من الدائرة 3 في اليوم التالي. هل هو مجرد توازن مفقود أم ورطة؟ هل هو تعثر بحجرة أو وتد، مع عجز السكر على رد فعل سريع؟ لن نستطيع معرفة ذلك. لأنه، بطريقة الطرح هذه، فإن هذه الفرضية تنسجمُ تماماً مع أقصى الاحتمالات التي تقدِّمها الوقائع. وتتعزز هذه الفرضية باستحالة الانتحار، التي أكَّد عليها الجميع. وتتعزز بالاستحالة الواضحة للقتل، نظراً إلى المعطيات التي نتوفّر عليها، لأنه لا أحد يبدو أن لديه ما يكفي من المصالح لينساق وراء هذا العنف ضدّ مونتيرو المسكين، ولا أحد يملك ما يكفي من الأسباب حتى تكون له مصلحة في قتله.

والاحتمال الأكبر هو أن يكون مونتيرو قد مات نتيجة حادثة وقعت بسبب حالة السكر التي كان عليها، والظروف المشؤومة التي

مكتبة الرمحي أحمد

حملته ليتجول في مكان محفوف بالمخاطر عادة، خصوصاً إذا كان المرء على تلك الحالة.

إذاً، ما الذي يبرز، دون شكّ، من شهادة لوبش بعد حذف كل النقط المثيرة للشك؟ أولاً، الأمر التالي: إنه كان يحب كثيراً خطيبة صديقه (هل هذا فعلاً أم لا ما يُستشف بالطبع من الطريقة التي ذكرتَ أنه تحدّث بها عنها؟).

إنه كان صديقا مقرّباً من مونتيرو، وهو ما لا تسمح عدة ظروف، بما فيه إغماءه وانهياره، بالتشكيك فيه.

إنه كان على علم بأن أحد العوائق التي تقف أمام زواج مونتيرو هو معارضة مانويل كونيا، تلك المعارضة التي كان مصيرها النهائي هو الإحباط رغم أنها كانت دائماً عنيدة ولا يمكن إنكارها.

من هنا نستنتج أنه، بعد موت صديقه على إثر حادثة، أو، كما هو الشأن هنا، لأي سبب من الأسباب، ودون أن يخون الصداقة التي تجمعهما، يجد لوبش إمكانية الزواج من خطيبة صديقه. وأنه، نظراً إلى تقارب حسّه الديني من الشعور الديني لصديقه، بل ربما أسوأ منه، لأنه كان يمارس شعائره بقوة أكبر، فإن معارضة أخ الفتاة ستستمر أو تتقوى. وأن ظروف موت صديقه تمنحه فرصة مواتية، إن هو بحث بشكل جيد، كي يحلّ على الأقل جزءاً من المشكلة.

– فهمت، يا دكتور.

– هذا بديهي. قضى يوماً بكامله في السرير، يرتاح، ليهيّئ خطته. ويجب أن أقول أنه قد هيّأها على نحو رائع. أظن أنه قد خدعك؛ واسمح لي يا غيديش على هذا التعبير.

– لا داعي للاستسماح. لقد خدعني فعلاً. الشيطان! لا أحقد عليه. لقد كان ظريفاً حقاً...

- كان ظريفاً وذكياً. بالنسبة إلى شاب في سنّه، فإن تحكُّمه في الظروف وتوظيفها لصالحه جديرة بمُخطِّط حقيقي.

فما الذي فعله؟ ببراعة، وذكاء، وجد حلاًّ ما أن رأى أن احتمال الجريمة أمر يمكن قبوله، فحمّل مانويل كونيا مسؤولية الجريمة، ليزيح بذلك، من خلال ما قد يناله الجاني من سنوات السجن أو النفي، أكبر عائق يقف أمام زواجه المحتمل، كما وقف أمام زواج صديقه الميت. هكذا، اخترع -أنا متأكد من ذلك- عدم تأثُّر مونتيرو بالسُّكر عندما ودّعه عند باب بيته، وهو أمر لا تستطيع أية شهادة أخرى أن تضحده. ابتكر وجود ذلك الشخص الغامض، الذي أسند إليه أهم سمات مانويل كونيا، ولا شكّ أنه قال مع نفسه، علماً أن كونيا كان مُنحلاًّ ومتآمراً (يبدو من الصعب ألّا يكون مونتيرو، خصوصاً في حالات الغضب، قد أخبره بكل هذا)، أنه من الصعب أن يجد إثبات غيبة، إما لأنه كان يتآمر، وإما لأنه لا يذكر المكان الذي كان يتواجد فيه، وإما لأنه كان رفقة أشخاص لا تحظى شهادتهم بثقة الشرطة. فكّرَ في كل هذا، وعلى هذا الأساس بنى حكايته، حريصاً على التلميح بأنه يجهل الملامح الخارجية لكونيا وعادة صديقه بالمرور قرب الأرصفة. كل هذه الأمور تبدو غريبة، إن نحن فكرنا فيها، لكن، إن لم نمعن التفكير، فإنها تبدو مقبولة، كما صوّرها لك، عند الإدلاء بشهادته.

- تماماً.

- لقد سجّل نقاطاً ضدّك. حصل على أن يُسجن كونيا. لا بدَّ أنه شعر بالحماس والخوف. شعر بالحماس نظراً إلى البداية الجلية لنجاحه؛ وأحسَّ بالخوف لأنه أدرك طبيعة الخطيئة التي أقدم على ارتكابها. إنها لغريبة تلك الطباع التي تمتزج فيها عاطفة قوية بذكاء

مكتبة الرمحي أحمد

نافذ. إنها قادرة على اقتراف جرائم مروِّعة، شريطة ألا تكون عنيفة، وأن تشعر بندم عظيم، قد يذهب بها إلى حدّ تعنيف الذات. أظن، أن هذا هو حال هذا الفتى المسكين، من خلال الوصف الذي قدّمته لي.

صمت الدكتور كُواريشْما لحظة.

- وقد تدخّل في هذا الطبع، استطرد قائلاً بصوت هادئ، ذلك الشيء الغامض الذي ندعوه أحيانا العناية الإلهية. . . والطريقة التي تجلّت بها العناية الإلهية، في حالة العقوبة هذه، كانت هي محاضرة الأب جوزي مارتينس، أو بالأحرى قرار لوبش أن يحضرها، ليسلي عن نفسه قليلاً.

- هذا أمر غامض بالنسبة إلي غموض الليل، يا دكتور. لا أستطيع أن أتصور علاقة المحاضرة بكل هذا.

- في هذه الحالة من الحماس والخوف ذهب لوبش ليستمع إلى محاضرة الأب مارتينس. فماذا كان موضوع المحاضرة؟ كان حول مبادئ الفروسية في العصور الوسطى، حول مبادئ الإخلاص والشرف، حتى إن تطلّب ذلك التضحية، بما أنها مبادئ تعني المحارب والمؤمن معاً. وهو، الذي قام بتبليغ كاذب، وخيانة دنيئة -هذا ما فعل وهذا ما شعر به- سمع من خلال الصوت المؤثِّر لذلك الراهب الذي يمثّل القديس والجندي، كما لو أن الرَّب يقولها مباشرة -وربما سمعها كذلك- إدانة لكل ما كان يبدو له قبل بضع ساعات براعة من إنجازه، والتي لا بدَّ أنه أصبح يراها الآن عملاً شائناً.

أرى جيداً ما جرى بعد ذلك. عاد إلى بيته، ثم تعلّل بآلام رأس -أمر طبيعي بعد كل الأحاسيس التي عاشها- وقضى ليلة بيضاء. نهض وقال إنه سيذهب ليعترف بذنوبه، لكنه لم يذهب إلى الكنيسة المعتادة، ولا إلى أي كنيسة أخرى؛ بل ذهب ليعترف بذنوبه إلى

الأب مارتينس في بيته. هذا، طبعاً، ينطوي على شيء من مبدأ اللازمة[1]، واسمح لي عن هذا التعبير، ولكني أرى أنه انطلاقاً مما عرضته سابقاً يمكن أن نستنتج أن لدى هذا الشاب ما يشبه ذلك بشكل كبير.

- أكيد، يا دكتور. هذا يفسِّر غيابه عن الاعتراف، وأننا لم نتمكن من أن نعرف أين كان كل ذلك الوقت. من البديهي أنني، دون الاستماع إلى حججك، ما كنت لأفكر في الأب مارتينس.

- طبعاً... ذهب الشاب عند الأب مارتينس واعترف له بذنوبه، بوصفه راهباً أو بشكل شخصي، أجهل ذلك، لأنني لست على علم بكل هذه الأمور، ولا أعرف كيف تجري. وهنا وقعت المأساة، يا غيديش. ما رأيك، لو أن ذلك حدث بهذا الشكل، أن يتلقّى لوبش نصيحة أو أمراً من الأب مارتينس؟ ما الذي يمكن أن يكون الأب مارتينس، مؤمن وجندي، مخلص، صارم وصلب، قد أمر هذا الشاب أن يقوم به، دون انتظار؟

- هذا أمر يسهل التكهُّن به، يا دكتور... أن يذهب إلى الشرطة ويعترف بأنه كذب و قال أشياء لا تصدق... إن لم يكن كذلك...

- هذا ما حصل بالضبط، طبعاً... وأيُّ وقع تظن كان لهذه النصيحة الفظيعة -فظيعة في تطبيقها- على فكر مشتّت سلفاً بطرق مختلفة؟

- لا تقل أي شيء آخر يا دكتور: الانتحار. الانتحار الفوري،

---

(1) مبدأ ينتمي إلى ميدان المنطق والرياضيات. في المنطق هو مقولة تُعتبر نتيجة لمقولة سابقة؛ وفي الرياضيات هو نتيجة مباشرة لنظرية تمّت برهنتها. (المترجم)

مكتبة الرمحي أحمد

الاندفاعي، دون تفكير، نظراً إلى العجز الإنساني على إيجاد حل لمشكل من هذا القبيل.

ثم تخلّل الحديث صمتٌ قصير.

- هل تظن أن القضية قد وجدت حلّاً، يا غيديش؟

- لقد حُلّت تماماً. كل شيء صار واضحاً كالماء الزُّلال.

- الأمر أنه لا شيء مثبت بشكل تام، لا بالنسبة إلي ولا بالنسبة إليك. هذه المشكلة الشطرنجية، كما قدّمتَها لي، ذات طبيعة تسمح لي بأن أنجز «مات» بحركتين. لدينا هنا الحركة الأولى، وهي الأصعب. أما الحركة الثانية فسهلة. عليك أنت أن تقوم بها، وتكمن فقط في الأمر التالي: أن تذهب عند الأب مارتينس وتسأله إن كان لوبش قد زاره يوم الخميس صباحاً. تكفي هذه الواقعة، على اعتبار أن لوبش لم يكن يعرف الأب مارتينس، كي تتخذ إمكانية حجتي بسرعة شكل حقيقة.

نهض المفوَّض غيديش.

- سأذهب حالاً عند الأب مارتينس. سوف أسأل عنه لأعرف أين هو، ثم أذهب حالاً. سأرى إن كنت أستطيع أن أحصل على تأكيد أكثر شمولية من هذا التأكيد الذي يمكن اعتباره كافياً.

- غيديش، أتظن أنه يمكنك أن تنتزع من رجل كهذا سرّ اعتراف؟

- ربما أنتزعه منه، يا دكتور، ربما أنتزعه منه... هذا شأني. أنت تعرف، يا دكتور أنك زوّدتني بالفكرة العامة، أما الفكرة الخاصة فلا تنقصني... دكتور، اسمح لي أن أغادر الآن. شكراً، ألف مرة. إلى اللقاء، وأتمنى أن تتحسن أحوالك الصحية.

المتواطئان

أو

المحكمة

مكتبة الرمحي أحمد

[1 - في المحكمة]

حضرات السادة القضاة المحترمين؛

إن المنطق والحق يقفان إلى جانبي؛ لذا لن أحيي أحداً في البداية. أنتما، الماثلان أمام العدالة، معفيان من التحية؛ وأنا بدوري أعفي بقية المجلس من ذلك. فالمنطق لا يستعمل المجاملة، والحق يزدري المنطقَ الذي يلجأ إليها.

إن الظروف التي جعلتني أكون، في هذه اللحظة، وفي هذه المحكمة، ممثِّلاً للطرف المدني، ليست بالضبط هي تلك التي يمكن أن نظن. إنني لستُ هنا والآن لأن الضحية من أقربائي، وصديقاً من أصدقائي القدامى؛ بل أنا هنا لأنه لا بدَّ أن يقف هنا شخص ليتحدّث باسم الحق والمنطق. إنني هنا، لأنني منذ ولجتُ -وهو ما حدث في ساعة مشؤومة ومواتية في الوقت ذاته- مكتب ضحية هذه الجريمة التي تُعرض اليوم أمام المحكمة، لأنني أقسمتُ منذ تلك الساعة لنفسي أن أساهم، بكل ما أوتيت من وسائل، في إدانة المجرمين. إنني لست هنا كإنسان عاطفي ضال، ولا حتى كمحامٍ محترف؛ إنني هنا بدافع الواجب، ليس لأن ضميري يفرض عليَّ ذلك، بل فقط لأن ذكائي الخاص يأمرني به. إنني لا أمثِّل، في هذا المكان، قريباً للقتيل أو صديقاً له؛ إنني أمثِّل الحق والمنطق لا غير. سأتحدث من دون حماس، عدا حماس الحقيقة؛ ودون قصد، عدا

مكتبة الرمحي أحمد

قصد الحق. إنني لستُ هنا لأوجِّه التُّهم، بل أنا هنا لأنه من واجبي أن أوجِّه التُّهم.

حضرات السادة القضاة المحترمين؛

أمامكم، لن أكون غير مفوَّض سامٍ يشرفُ على التحقيق الجنائي. سوف أفكُّ خيوط الجريمة، وسوف أوجِّه التُّهم لأنني سأكون قد فكّكتها، وانطلاقاً مما سأكون قد كشفته. بعبارة أخرى، لن أوجِّه التُّهم لأنه علي أن أوجِّه تُهماً، بل سأوجِّه التُّهم لأنني أستطيع أن أقدِّم البراهين.

بعد قولي هذا، سأخوض في الموضوع.

إن الاستنطاق المطوَّل للشهود، والذي كان علينا أن نحضره كالعادة، لم يضف شيئاً جديداً لما قدّمته لي ملاحظتي الخاصة منذ البداية؛ أي منذ أن دخلت، لسوء حظي وليس لسوء حظ العدالة -أتمنى ذلك صادقاً- مكتب صديقي القتيل وتمكّنت من جسِّ نبض الحقيقة. سوف أعرض الأشياء وفق الترتيب المنطقي الذي بدا لي، منذ البداية، وبعد مرور ارتباك اللحظات الأولى.

أيها السادة القضاة؛

إنني أكثر ذكاء من المُتّهمَين، لأنني فاجأتهما رغم إنكارهما، ورغم كل ما اتّخذاه من احتراس، في حالة تلبُّس بتواطؤ واضح.

محاجّة محامي الطرف المدني:

1) لدينا هنا شخصان لهما سجلّ أخلاقي مثل سجلّ المُتّهمَين، انقطعا عن معاشرة بعضهما، ثم استأنفا هذه المعاشرة من أجل هدف غير حميد، بل إن هذا الانقطاع ربما مكّنهما من بناء تحالف لهدف

غير حميد، يمثّل مصلحة مشتركة لهما معاً، ويمكنهما من تفاهم أحسن، ذي طبيعة مختلفة.

2) لدينا هنا شخصان خاضا الكثير في تجربة الحياة الحزينة، يعرفان جيداً طبيعة البشر، ويدركان أن الطريقة المتمثلة، بالنسبة إلى كل واحد منهما، في الإفلات من اقتناع الغير بمسؤوليته الجنائية، تكمن في تقاسم البراهين، هذه ضدّ تلك الأخرى، وتلك ضدّ هذه، حتى أن العدالة، مثلها مثل الرأي العام، سوف تتردّد، وأن تبرئتهما ستكون نتيجة لهذا التردُّد. ووُجود عدواة سابقة بينهما يسهِّل كل هذا الأمر. لكننا هنا أمام تقاسم جد متوازن للبراهين الظرفية. ثلث منها يتّهم الأول، وثلث منها يتّهم الثاني، ويتقاسمان معاً الثلث الآخر بتساوٍ لا وجود له في الحياة من دون خطة أو حيلة. وكلاهما جانٍ. لا أحد يمكن أن يؤكد أن المتهم «أ» أكثر جناية من المتهم «ب»، لأنه، بحسب الأدلة المتوفرة، لا يميل المنطق إلى هذه الجهة ولا إلى تلك.

إنني أعتمد أساساً على الطابع المستقيم للبراهين. لقد تقاسما المسؤوليات الممكنة بشكل مضبوط وأخوي، حتى أن التواطؤ ينكشف لمن أراد أن يرى ما تخفيه المظاهر. شريكان قديمان، يتفاهمان على أحسن ما يرام، لأنهما يعرفان جيداً بعضهما البعض، ظلّا يتفاهمان على أحسن وجه، رغم انقطاع عشرتهما، ما دام أن من مصلحتهما ارتكاب جريمة.

أحيي ذكاء المُتّهمَين، أو بالأحرى ذكاء المتهم «أ»، الذي أظنُّ أنه كان المحرّض على دوّامة العار المدهشة هذه.

ما لم يخطر بباله هو أنه يمكن أن نشك في التواطؤ، وما أن نشك في ذلك حتى نرى جلياً ما كان يبدو مظلماً. وتقول حكمة

مكتبة الرمحي أحمد

قديمة إن ما من فقير إلا وكان من هو أكثر فقراً منه، كما كتب كالديرون[1] قصيدة عن ذلك الحكيم الذي ظنَّ نفسه فقيراً فأخذ يقطف الأعشاب، وانتبه إلى أن شخصاً آخر كان يلتقط تلك الأعشاب التي كان هو يرميها. لذا، لا يمكن لأحد أن يعتبر نفسه ذكياً لدرجة أنه لا وجود لمن هو أذكى منه بعض الشيء. يجدر أن نوصي كل المجرمين ألا يغفلوا هذه الإمكانية. لا أعرف جريمة أحسن تدبيراً من هذه، لكنني أعرف الجريمة، وهي ما يمنحني أفضلية على المُتّهمَين اللذين ظنّا أنهما يمكنهما تمويه الجميع.

محامي الطرف المدني:

- ثم إن كل هذا دقيق بشكل عجيب! لا وجود لبراهين محدّدة لأي شيء كان؛ وأما البراهين غير المحدّدة، فستّة منها في جهة، ونصف دزينة في الجهة الأخرى. إذا ما توفر دليل ضدّ المتهم «أ»، وُجِد حالاً دليل ضدّ المتهم «ب»: إذا ما وُجِد مؤشّر بسيط ضدّ المتهم «ب»، ثمة أيضاً مؤشّر آخر، توأمه تماماً، ضدّ المتهم «أ». كل شيء مضبوط تماماً، محكم التنظيم.

أيها السادة القضاة؛

إن الحياة ليست بكل هذا التنظيم المحكم: الإنسان هو من يصنعه. الحياة منسابة، متقلِّبة، ومضطربة؛ الإنسان هو من يرتب ومن يُجزِّئ. إن العدالة بدورها، والتي نريد أن نطبّقها ضدّ قساوة الطبيعة وخشونتها، ما هي إلا محاولة للتصنيف.

---

(1) كالديرون دي لا باركا (1600-1681): كاتب مسرحي إسباني. عُرف بأعماله ذات الطابع الديني والفلسفي، مثل مسرحية **الحياة حلم**. (المترجم)

إن هذه القضية، في الحقيقة، بسيطة جداً، ومحاولات المُتّهمَين لتعقيدها لا تفضي إلى أي شيء إذا ما فحصناها بدقة، إذا ما نظرنا إلى الوقائع مباشرة، تماماً كما تبدو لنا في هذه الدعوى.

لا يمكن أن يكون هناك شكّ، بل لا وجود لأدنى شك، بأنه لم يكن في المكتب شخص آخر قادراً على ارتكاب جريمة غير المُتّهمَين. كان هناك أشخاص آخرون -موظفة وموظف- لكنهما، بالإضافة إلى أنهما كانا بعيدَين، ويراقبان بعضهما، دون إرادة منهما، لكن حتى إن تواطأ أي واحد منهما مع أي من المُتّهمَين -مع إضافة هذا التواطؤ- فإن المسؤولية الجنائية لأي واحد من المُتّهمَين تبقى قائمة، ولا يخفِّف تواطؤ طرف ثالث من حدّتها في شيء.

إننا نسجِّل ما يلي: أطلق أحد المُتّهمَين النار وقتل «ف». لا غبار على هذا الأمر. يبقى أن نعرف مَن مِن المُتّهمَين أطلق النار. إن البراهين تبيّن لي، أيها السادة القضاة، أنه حتى إن كان واحد منهما فقط هو من أطلق مادياً النار، فإن كلاهما قد أطلقا النار، من وجهة نظر أخلاقية.

إذاً، هل يلتقي المتَّهمان، وهما عدوان لدودان، صدفة، في نفس الساعة، ثم يقوم أحدهما بالتخطيط للجريمة وتنظيم الأمور بدقة لدرجة أننا لا نستطيع أن نعرف إن كان هو أم الآخر. وهكذا، يتصرف هذا المتّهم بلطف، بطريقة ما، كي يكون صديقه حاضراً هناك، حتى يؤمِّن دفاعه، ولا تؤول كل الأدلة ضدّه، بل يوزّعها، بسخاء، بين الاثنين؟ فأي لعبة جديدة هذه التي يلعبها الفكر الإنساني، أيها السادة القضاة، لأن [. . .] من طبيعة عقلية سكان المريخ أو القمر، لكنه ليس من طبيعة عقلية أهالي كوكبنا الأرضي.

* * *

مكتبة الرمحي أحمد

حضرات السادة القضاة المحترمين؛

آه! كم كان بودّي أن أبدأ مرافعتي بالكلمات السعيدة التي لجأ إليها زميلي العلّامة الأستاذ جورج سامبّايو عند بداية مرافعته! بدأ بتقديم نفسه على أنه تلميذ للأستاذ ماركو آلفش. آه! ليتني أستطيع أن أقول مثلها. أولاً، سأكون أكثر شباباً. ثانياً، سأتعلّم، بفضل المعاشرة الجامعية لزميلي العلّامة، كي أكتب خطبتي بحيث أبدو أنني على حقّ. ثم، لِمَ لا أقرّ بذلك؟ يمكنني أن أتحدث باسم المنطق والحق، وهو امتياز كبير، سادتي القضاة، امتياز كبير. أنا لا أستطيع أن أتحدّث باسم المنطق والحق. لا يمكنني أن أتحدّث إلا باسم الحقيقة.

حسناً، يُقال إن الحقيقة تقبع في قاع بئر، وفي سنّي أنا وهيئتي، قد يكون سلوكاً بذيئاً لو تنكّرتُ في شكل بَكرة. ومع ذلك سألعب دور البكرة قدر المستطاع. صدّقوني، أيها السادة، ربما لن أرفع الحقيقة حتى مثابة البئر، لكنها تظل بداخله، ولذلك أنا هنا.

لطالما وقفت في هذا المكان دون أن يكون لي هذا الأمل في قاع البئر. لطالما وقفت هنا بحكم الواجب المهني، كأنني مجرد قادُوس في ناعورة الأدلة... لكنني اليوم متأكد أن الحقيقة تقبع في قاع البئر. فلتقدني كل الآلهة حتى أستطيع أن أضعها أمام أعينكم، أيها السادة القضاة.

حسناً، إن هذه القضية ترتكز على نقطتَين أساسيتَين: أنه لا وجود لأي دليل قاطع ضدّ أي كان، وأنه لا وجود لأي دليل ضدّ موكّلي. كلاهما يبدوان بريئَين؛ وموكّلي بريء. لستُ أدري ما الذي قد يعنيه هذا أمام المنطق والحقّ، أو، على الأقل، أمام منطق وحقّ زميلي، الأستاذ ماركوس آلفِش. أنا مرتاح أمام الحقيقة، تلك

القابعة في بئري المسكينة. وأودُّ أن أؤمن أنكم أنتم أيضاً، أيها السادة القضاة، لن ينال منكم عدم رضى الطرف الآخر شيئاً.

وإلا، لنرى... ما هي الدلائل التي تظهر ضدّ موكّلي؟

... ثم، إذا ما تحدّثنا عن تواطؤ، لماذا لا ننسب الجريمة إلى تواطؤ بين المتّهم فييرا ومحاميه العلّامة، زميلي الأستاذ... (يقفز فييرا، وينهض سامبّايو واقفاً في هيئة ساخطة).

سامبّايو: كيف ذلك؟ كيف ذلك؟ (فيقاطعه القاضي، رئيس الجلسة).

- إنها مجرد فرضية، لكن لاحظوا، أيها السادة القضاة، أنها ليست فرضية أكثر عبثية من تلك التي قدّمها الأستاذ ماركوس آلفِش. وإذا ما قدّمتُ هذ الفرضية فلأضحد تلك الأخرى. لا ينبغي لأي أحد أن يشعر بالإهانة من فرضيتي المُضحكة. لكن، انظروا، أيها السادة القضاة... من جهة المتّهم فييرا، الباب ليس مغلقاً، والمسدس مخبأ في مكتب الأستاذ سامبّايو، والحقد المشترك الذي يكنّه كل من المتّهم فييرا والأستاذِ سامبّايو للضحية...

سامبّايو: هذا غير مقبول. إن حقدي ضدّ الضحية لم يكن غير مجرد سوء فهم...

س: صحيح، تماماً كما حدث لموكّلي... ثم إن الحياة بكاملها ليست سوى سلسلة من سوء الفهم... الحياة بدورها سوء فهم لأنها تؤدّي إلى الموت، الذي هو نفي للحياة... لكن، فيما يتعلق بفرضيتي الخاصة والعبثية كذلك...

(مقاطعة أخرى).

لاحظوا جيداً، أيها السادة: من جهة المتّهم فييرا، الباب ليس مغلقاً، والمسدس مخبأ في مكتب محاميه الشهير؛ وسوء الفهم

المشترك بينهما وبين الضحية؛ المتّهم فييرا وعدم ميوله إلى المسدسات، زميلي العلامة سامبّايو القناص والرامي البارع.

(مقاطعة أخرى).

- اسمحوا لي بحرّية الافتراض، أيها السادة القضاة! هل يجب أن أكرِّر ما قلت...؟ إذاً، سأتابع... تلك النقط الثلاثة: الظاهرة السمعية الغريبة للأستاذ سامبّايو، الذي سمع صوتاً يأتي من الغرب بينما انطلق دويّه من الجنوب؛ ظهوره العجيب في بهو المكتب، طبعاً بسبب الظاهرة السمعية التي أشرتُ إليها؛ المتّهم فييرا دائماً عند النافذة، رغم أنه لا يشبه في شيء الفتيات الباحثات عن خطيب؛ الظاهرة السمعية للمتّهم فييرا نفسه، الذي وإن كان على بُعد خطوتَين من طلقة النار -أيّاً كان من أطلقها- لم يفهم جيداً... لم يسمع جيداً... ذلك الصوت الكتوم الذي سمعته الشاهدة أميليا مِندِش في الشارع، والأستاذ ماركوس آلفِش عند مدخل العمارة تحديداً... ثم هناك السهولة التي تمَّ بها اصطناع نداء الضحية، موقع الغُرف الثلاث: مكتب الضحية، مكتب الوكيل، ومكتب الأستاذ سامبّايو، زميلي العلّامة. لو انسقنا وراء خيال فكري مثل خيال السيد الأستاذ ماركوس آلفِش، فما هو مآلنا؟ ربما سأكون هنا، ليس للدفاع عن موكّلي، بل للدفاع عن زميلي السيد جورج سامبّايو. سأقوم بذلك عن طيب خاطر، لأن فرضيتي واحدة بالتأكيد، وسأضحد، وفق ما استطعت، الحجج لتي قد يجدها الأستاذ ماركوس آلفِش في اتهامه.

أحد المتّهمين هو الجاني. إليه أوجِّه كلامي، دون أن أعرف من هو. ضميره -حين لن تكون هناك محكمة أخرى يُعرف فيها كل شيء ولا تكون ثمة حاجة إلى تقديم البراهين- قد يعاقبه، ما دام أن العدالة الإنسانية لا تستطيع أن تعاقب قانونياً حيث تتردّد.

ماذا سيكون مصير فرضيتي، إذا ما، بدل تخميني المتواضع والمضحك، عُرضت بواسطة البراعة المنطقية لزميلي العلّامة، السيد ماركوس آلفِش، أستاذ القانون وأستاذ الحجج؟ ماذ سيكون مصيرنا، أيها القضاة المحترمون، لو وقعت هذه الأمور، لو وقعت للسيد الأستاذ ماركوس آلفِش؟

ماركوس آلفِش (يردُّ): إذا كان زملائي العلّامة يتصورون أنه بالإمكان أن نزحزح القضية عن مسارها المنطقي، أو اللجوء إلى البلاغة فقط، كما فعل الأستاذ جورج سامبّايو، أو باللجوء إلى السخرية، كما فعل الأستاذ ليبتي بورجس، فإننا مخطئون... فلا الحقيقة تنسجم مع البلاغة، ولا الموت موضوع يمكن أن يكون قانونياً موضوع دعابة ومزاح.

(عند نهاية الفصل الثالث، يتقدّم ماركوس آلفِش مبتسماً نحو سامبّايو، الذي ما زال متوتراً فوق دكّته، ويشرع في الحديث معه بصوت خافت... يخرج الآخرون تباعاً).

(الساعة تشير إلى التاسعة وخمس وثلاثين دقيقة بالضبط).

* * *

كان رد محاميَي الدفاع متألّقاً، كما كان منتظراً من زملاء جد [...]، بيد أنه كان ردّاً غير ذي جدوى. إذ لم تصمد أية آلة بلاغية قوية أمام السور الذي شيّدتُه اعتماداً على الوقائع. زملائي العلّامة أفصحوا -لم أكن أنتظر ألا يفعلوا غير ذلك قط- وأدهشوا -كذلك لم أكن أنتظر ألا يفعلوا غير ذلك قط- لكنهم لم يقنعوا. لم تكن الوقائع حليفتهم. ويُقال إنه ما من حجج تصمد أمام الوقائع، غير أن هذا ليس صحيحاً تماماً. فضدّ الوقائع هناك حجّة وقائع أخرى. ولا

مكتبة الرمحي أحمد

يقدّم زملائي العلّامة وقائع أخرى تضحد تلك التي أقدِّمها؛ لقد تحدّثوا ببلاغة تستحق الثناء، وهي ما لا يسعفني سوى أن أعتبره ذرائع.

لا شيء، حضرات السادة القضاة المحترمين، ينفي الظروف الخمسة التي سأذكّر بها: فعليها اعتمدت، وعليها أعتمد من جديد، وعليها تنبني الحقيقة ذاتها، تلك الحقيقة التي تمكّنتُ من كشفها أثناء هذه الجلسة.

أولاً: إن المُتّهمَين قد ارتبطا ببعضهما منذ مدة؛ يعرفان بعضهما جيداً، ويتفاهمان أيضاً إن هما رغبا في ذلك.

ثانياً: كفَّ المتّهمان عن الالتقاء منذ مدة، وهما بذلك يتوفّران على ظروف مثالية ليتشاورا بنية مشتركة دون أن نشكّ أنهما قاما بذلك، والأمر يصبح أكثر تأكيداً، إذا ما تعلّق، كما هو الشأن هنا، بنية إجرامية.

ثالثاً: إن المُتّهمَين من ذوي السلوك المريب، رغم أنهما لم يقعا في نزاع مع العدالة، وهو ما لا يثبت نزاهتما، بل يؤكِّد ذكاءهما.

رابعاً: إن المُتّهمَين كان لهما، كل واحد من جهته، أسباب قوية ليرغبا في موت الضحية.

خامساً: إن الجريمة قد ارتُكبت في ظروف مخطَّط لها بعناية -واسمحوا باستعمال هذه العبارة، أيها السادة القضاة-، وبعناية عالية حتى أنه يستحيل ترجيح هذا الجانب أو الآخر، وهي الطريقة الوحيدة التي يملكهما شخصان ربما فكّرا في دفع القضاة إلى أن يتردّدوا فيفلتا كلاهما من العقاب.

هذه هي النقط التي اعتمدتها كحجج؛ وأنا مصرٌّ عليها. ولم

يكن ثمة في خطب زملائي العلّامة شيء يمكن أن يلغي، أو يبدو أنه قادر على أن يلغي، بدرجة ما، جزءاً صغيراً واحداً مما تقدمت به. لقد أَثبتُّ حالة الإجرام المشتركة للمُتّهمَين، لأنني أثبت ليس فقط إمكانية حالة الإجرام هذه، بل استحالة أي فرضية أخرى. والأطروحتان معاً لا تنضافان إلى بعضهما: إنهما تتضاعفان. بعبارة أخرى: أَثبتُّ، إذا ما كان هناك من شيء يقبل الإثبات في هذا العالم المتقلّب، مسؤولية المُتّهمَين الإجرامية وتواطؤهما. انتهى كلامي.

* * *

لقد ثبت أن المُتّهمَين معاً لهما أسباب واضحة كي لا يُكنّا أي حب للضحية. ولقد ثبت أنهما كانا معاً في ظروف تسمح لهما بقتل الضحية. يمكن القول إن أي واحد منهما ربما قام بذلك. لكنه لم يثبت إن كان الفاعل هو هذا المتّهم أو ذلك، ولا من المرجّح أن يكون هذا أكثر من الآخر، ولا نستطيع القول إنه بالإمكان إثبات تواطئهما، الذي حاول العلّامة محامي الطرف المدني أن يلخّص القضية من خلاله.

نظراً إلى هذه الظروف، ورغم أن المحكمة قادرة على أن تؤكّد دون خشية المسؤولية الإجرامية لأحد المُتّهمَين، فإنها عاجزة عن أن تؤكّد من منهما يتحمّل هذه المسؤولية؛ هكذا، وانطلاقاً من أنه إذا ما خاطرنا بأن نخطئ، فمن الأحسن أن نخطئ بأن لا نعاقِب الجاني على أن ندين البريء، فإن المحكمة في مجملها تبرّئ ساحة المُتّهمَين بارُّوش وفييرا.

لقد انتبه محامي الطرف المدني جيداً إلى هذه الصعوبة التي تواجهها المحكمة. ولم يفلح -رغم ذكائه الكبير والثاقب- في أن

يحسم في أن يحدِّد للعدالة هذا المتّهم أو ذاك؛ فقرّر أن يحدِّد لها كلاهما. وفرضيتهُ هذه نفسها تعادل استسلاماً. إن المحكمة تتفق، ليس مع هذه الفرضية، بل مع التردُّد الذي برّرها. وكما هو شأنُ الأستاذ العلّامة، تقر المحكمة اضطراراً بأن واحداً من المُتّهمَين هو المجرم؛ وكما هو شأنُ الأستاذ العلّامة، لا تعرف المحكمة إن كان الأمر يتعلق بهذا المتّهم أم بذاك. لكن، لهذا السبب بالضبط، لأنها لا تترافع، بل تصدر الأحكام، فالمحكمة لا تقبل الفرضية التركيبية التي لجأ إليها الأستاذ العلّامة ليقوم، كما كان يجب عليه ذلك، بتوجيه التُّهم.

telegram @ktabpdf

[2 - استدلال أبيليو كْواريشْما]

- هل أنت من كان يريد أن يتحدث إلي، يا سيدي؟ هل أنت هو الدكتور أبيليو كْواريشْما؟

- تماماً.

- هل كان ذلك لأمر مستعجل؟ هل تفهم يا سيدي، لست أدري إن كنت قد حضرت المحاكمة...

- نعم، حضرتها: ولهذا السبب بالضبط...

- إذاً لا بدَّ أنك تفهم أنني متعب بعض الشيء... هل يمكن أن نلتقي غداً؟

- اسمح لي، كنت فقط أريد أن أهنئك، يا أستاذ...

- آه، شكراً جزيلاً... هل هذا ما كنتَ تريد؟ شكراً جزيلاً...

- كُنت أريد أن أهنّئك على براعة دفاعك...

- أي دفاع...؟! تقصد توجيه التُّهم....

- ربما أقصد توجيه التُّهم... على أية حال، من وجهة نظر اجتماعية، النتائج أكيدة: قُتل وغدٌ، ونذلان حُكم عليهما بأقصى العقوبات.

آلفِش (مبتسماً):

- في الحقيقة...

مكتبة الرمحي أحمد

- إن سبب تهنئتي هو أننا معاً الوحيدان اللذان يعرفان أن النذلين بريئان. . .

- نحن الوحيدان اللذان يعرفان. . .؟ كيف ذلك. . .؟ لماذا. . .؟

- لأننا الوحيدان اللذان يعرفان أنك أنت هو القاتل.

آلفِش (تحت تأثير انفعال قوي، لا يستطيع أن يتحكم فيه): إنك تتهمني بـ. . .

- إنني لا أتّهمك: إنني لا أتّهم أبداً. أؤكّد. أؤكّد وأُقيم الدّليل.

- لكن، أي سبب لدي لأقتل ابن عمي جوزي؟

- خيانة زوجتك مع ابن عمك جوزي. يبدو لي هذا سبباً كافياً. . . إن رجلاً ذا مزاج قوي وذهن منتبه مثلك، يجمع بين العجرفة والبرودة. . . الخيانة الزوجية واضحة، والجريمة لا تقلّ وضوحاً. . .

(صمت).

- دكتور أبيليو كُواريشْما، إنني ألقي إليك مقاليد أمري. أنا مضطرب بعض الشيء، لأنك فاجأتني. لكن كل ما تقوله صحيح. ماذا تريد مني؟ لماذا أتيت لتقول لي هذا الأمر؟

- لأهنئك، لأنك على حقّ في مرافعاتك: أنه مهما كنّا أذكياء، علينا أن نتوقع أن هناك من يفوقنا ذكاء. إنك ذكي جداً، يا أستاذ، لكن العجوز مُحب الألغاز أبيليو كُواريشْما فكَّ ألغازاً أصعب من لغزك هذا. . . سأشرح. وضعتَ نصب عينَيك هدفاً هو في النقيض الآخر مما يبدو أن مرافعاتك كانت تشير إليه. وضعتَ نصب عينَيك هدفَين: تبرئة ساحة المُتّهمَين، لأنه يستحيل تحديد من منهما

المجرم؛ وإقناع القضاة وكل الناس، أنه لا يمكن أن يكون المجرم إلا أحد الاثنين. وبوضع هذا الهدف المزدوج نصب عينَيك، كيف كان يمكن أن تبلغه؟ بتوزيع الذنب بينهما بشكل عادل؛ ولم يكن ذلك ممكناً إلا بأن تتهمهما بالتواطؤ، لأنك تعرف أنه، حتى لو جعلت هذا التواطؤ محتملاً، لا أحد سوف يصدّقه تماماً. فماذا يتبقّى؟ يبقى شكٌّ يُوزَّع بالتساوي بين المُتّهمَين، وتكون تبرئتهما شيئاً مضموناً. كنت تعلم أن المحاميَين سيتقاسمان الأدوار بالتساوي، فيُنسب كل واحد منهما الجريمة إلى مُوكِّل الطرف الآخر. وبما أنك كنت تعرف أن محامي سوارِش، الأكثر براعة، سيظهر قضيته، اعتبرتَ سوارِش الشريك الحقيقي في الجريمة، كي تحافظ على توازن كفّتي الميزان، وتوزِّع دائماً التواطؤ بشكل متكافئ. (ينظر إليه آلفِش بذهول طوال كل هذا الخطاب). أُكرِّرُ: كنتَ تريد تبرئة ساحة المُتّهمَين، يا أستاذ، بأن تترك الشكّ الذي يستحيل إثباتُه يحوم حول ما إذا كان المجرم هو هذا المتّهم أم ذاك. لقد أنجزتَ دفاعك جيداً لأنك حصلت على ما تريد: الحكم والاعتبارات التي قام بها القضاة هي، في الحقيقة، تتويج لمَجدك.

آلفِش (متردِّداً بعض الشيء):

– لكن، دكتور كْواريشْما، لماذا أكون قد رغبتُ في القيام بكل هذا؟

كْواريشْما:

– كي تتفادى أن يكون هناك أدنى شك في أن المجرم يمكن أن يكون أحداً آخر غير المُتّهمَين. لدرجة أنك ارتبكت فعلاً حينما قام الأستاذ... في ردّه على مداخلتك، بتقديم فرضية تواطؤ بين... والمتهم فييرا. لقد شحب وجهك، يا أستاذ، رغم أنني لم أرَ

شحوبك، لأنك كنت تقف بعكس الضوء، لكني أعرف أن وجهك قد شحب، وأنك ألقيت نظرة على الأرض، لأنك أردت أن تواري علامات قلق يمكن أن يُقرأ في عينيك اللتين اعتراهما، من دون شكّ، تعبير مرادف لشحوبك المفاجئ.

آلفِش (بابتسامة مصطنعة):

- باسم السماء، دكتور كْواريشْما! هل تفترض أنني آمنتُ للحظة بتواطؤ سامبّايو وفييرا في ارتكاب هذه الجريمة؟

كْواريشْما (مبتسماً):

- أعرف أنك لم تؤمن بذلك. ولم تخشَ فقط أن يؤمن بذلك غيرك، بل ما ما كنتَ تخشاه أكثر هو أن يُحشر سامبّايو في القضية، ولو على سبيل الفرضية، أو أن يقوم أحدهم بافتراض ذلك للحظة، مثلاً أن يكون قد ارتكب الجريمة لوحده؛ فهذه الفرضية تُلغي تأثير حججك حول التواطؤ، وتثير في الوقت ذاته فرضية وجود مجرم لا يمكن أن يكون لا فييرا ولا سوارِش، مجتمعَين أو متفرّقَين.

آلفِش:

- أن يكون سامبّايو قد ارتكب الجريمة لوحده؟ من كان سيصدِّق هذا؟ كيف كان بإمكانه أن يقوم بذلك؟

كْواريشْما:

- لقد مرّ عبر باب مكتبه إلى مكتب... خلف فييرا الذي كان وراء النافذة، مديراً ظهره للغرفة؛ قتل الضحية؛ وعاد إلى مكتبه عبر الطريق نفسه. فييرا، كما قال ذلك فعلاً، بالكاد سمع طلقة النار، وكان دائماً يدير ظهره.

آلفِش (بصوت أكثر ثباتاً):

- باسم السماء، دكتور كْواريشْما! هذا مستحيل!

كْواريشْما :

- لا ، هذا ليس مستحيلاً ، لكنه بعيد الاحتمال تماماً ، هذا صحيح. تصوَّر، يا أستاذ، أن شخصاً يقتفي أثر فرضية. . . (محامي سوارِش) فيهتدي إلى تصوُّر هذه الاحتمال الغامض. . . ما كان مشروعك لينجح : كان من الممكن التفكير في إمكانية أن المجرم ليس هو سوارِش ولا فييرا ، مهما كانت هذه الإمكانية غامضة. . . وهذا ، فوق كل شيء ، هو ما لم تكن ترغب فيه!

آلفِش :

- لأجل ماذا؟ لإنقاذ سامبّايو؟

كْواريشْما :

- لا ، لأنك تعرف جيداً أن القاتل ليس هو فييرا ، ولا سوارِش ولا سامبّايو.

آلفِش (بصوت يحاول عبثاً أن يرفع من درجة ثباته):

- أنا أعرف؟ لماذا؟

كْواريشْما (بصوت يخلو من أي تأثُّر، وهو يحدِّق فيه):

- لأن المجرم هو أنت، يا أستاذ.

* * *

- لقد انطلقتَ من المبدأ التالي: يجب أن أقتل ابن عمي جوزي. ثم أضفتَ هذه اللازمة الطبيعية: يجب أن أقتله دون أن أعاني من ذلك، لأن الانتقام يفقد قوته إذا ما أصبح المنُتقِم هو الضحية الأخيرة. وحتى لا أعاني، علي أن أجعل موته يبدو وكأنه حادثة، وهو أمر يصعب تحقيقه مادياً ؛ أو كانتحار، وهو ما يصعب تحقيقه أخلاقياً، إذا لم تكن للضحية نزعات انتحارية ولا أسباب

مكتبة الرمحي أحمد

للقيام بهذا الفعل؛ أو أن تكون الجريمة جلية، شريطة إلقاء المسؤولية على ذمّة طرف ثالث.

بصفتك رجلاً ذكياً وغير مجرم بطبعه، بل إنك كذلك حتى النخاع، فقد قرّرتَ أمرَين: أولاً، كيفما أُلقِيت المسؤولية على طرف ثالث، يجب أن يكون ذلك بطريقة لا تثير أدنى شكّ حولك؛ ثانياً، إذا كان لا بدَّ أن تقع المسؤولية على أحد، فمن الأفضل أن تقع على شخص من مستوى اجتماعي أدنى، وأن يكون مجرماً إن أمكن ذلك، حتى لا تكون العقوبة ظالمة، حتى إن كانت كذلك بالنسبة إلى هذه الجريمة بالذات. وكي تُلصق التُّهمة بطرف ثالث دون أن يكون لذلك أي نتائج عليك، كانت ثمة منهجية واضحة: أن تخلق التردُّد بين شخصين؛ لأنه إذا ما أُلصقت التُّهمة بشخص واحد، سيكون هناك خطر وجود عدة فرضيات إذا ما تمَّ إثبات أن هذا الشخص كان بريئاً، بينما إذا ما حدث تردُّد بين جانيَين محتملَين، لا يفكِّر أحد سوى في الاختيار بين الاثنين، ولا أحد يفكر في طرف ثالث.

إذا ما تعلّق الأمر بجانٍ واحد محتمل، نقول: إنه هو، أو إنه ليس هو؛ إن لم يكن هو، فمن يمكن أن يكون؟ فيبدأ الشك يخيّم ويستقر في ذهن الجميع. أما في حالة جانيَين محتملَين، فإن الانتباه يتشتت بين الاثنين فيفقد قوته للذهاب بعيداً. نقول: مَن مِن هذين الاثنين يمكن أن يكون هو الجاني؟ هل هو هذا، هل هو ذلك؟ وإذا ما تردّدنا بين هذا وذاك، ننسى أنه يمكن أن يكون ثمة جانٍ ثالث... المهم أن نقيم التردُّد حتى نجعل الشك يستقر بين هذين الاثنين وأن نتردّد بينهما، حتى لا يكون لنا وقت للتفكير في شخص ثالث. هل وصفتُ جيداً ما فكرتَ فيه؟

- كأنك كنتَ في داخلي ورأيتَ ما يدور في خلدي.

- ثم قُلتَ مع نفسك، يا أستاذ، أن رجلاً مثل ابن عمك، بصفته محامياً متورِّطاً في نزاعات خطيرة وبصفته رجلاً طالما تدخَّل في مغامرات غرامية، قد يكون جلبَ لنفسه عداوة عدد لا يستهان به من الناس، وأن عدداً كبيراً من هؤلاء قد يكون لديهم «سجل أخلاقي» مُثقَل كما وصفتَه، ربما ليس ليقتلوه بل لافتراض أنهم يمكن أن يقتلوه. وكان لا بدَّ من اختيار شخصَين من بين هؤلاء الأشخاص، شخصَين يمكن أن يحوم حولهما الشكّ بسهولة. ثم مكّنتكَ تحرياتُك من أن تجدَ هذين النذلَين، ثم إن كونهما لا يتعاشران هو ما قادَكَ لتخلق تعقيداً ثالثاً. خلقتَ ذلك التواطؤ المُقَنَّع الذي استثمرتَه ببراعة في مرافعتك، في كلتا مرافعتيك.

- إن هذين الرجلين ذكيان، لكنهما لا يملكان درجة الذكاء التي نسبتها إليهما. وبغرض توجيه التهمة، نسبتَ إليهما، يا أستاذ، نوعاً من الذكاء يوازي ما تتمتع به أنت من ذكاء. إن شخصَين من هذا النوع لا يتوفران على نفس الفطنة النفسية التي أردت أن تُنسبها إليهما. لقد بلّغت عن نفسك وأن تتظاهر بالتّبليغ عنهما.

لو أن هذين الرجلَين تواطآ لتنفيذ جريمة، لكان آخر شيء يفكران فيه هو أن يجعلا المسؤولية الإجرامية تقع بالتساوي على كل واحد منهما، بل إن ما كان ممكناً أن يفكِّرا فيه هو أن يجعلانها تقع على شخص ثالث، بل أنت بنفسك، ما كُنتَ لتفكِّر في أن تُنسب إليهما هذا القصد لو لم تهيّئه بعد ألف حساب. فكِّر جيداً. . . لو أن هذه القضية عُرضت عليك بشكل عادي، هل كُنت ستقدر على أن تتصور أن شخصَين استطاعا وضع خُدعة بهذا المستوى الفكري؟

مكتبة الرمحي أحمد

ما حصل هو أن توزيع الشبهة بالتساوي بينهما سرعان ما برَّأتهما معاً، وجعلت الشبهة تحوم حول الشخص الذي برّأهما. وهذا الشخص كان حاضراً قبل ذلك بقليل، ثم عاد بعد ذلك! أستاذ مِندِش[1]، لو لم تكن حاضراً هناك، لشكّكتُ، فقط بالاستماع إلى حججك، أنك لم تكن هناك. لكنك، يا أستاذ، كنتَ هناك مرتين، وهذا هو ما أعطاني للتو الانطباع بأنك ما عدتَ هناك إلا لتُدمِّر دليلاً. وقد أثبت الشهود أمرَين: أنك ذهبتَ في المرة الأولى لوحدك إلى المكتب حيث حصلت جريمة القتل، وأنك ذهبت مرة ثانية لوحدك إلى المكتب حيث حصلت جريمة القتل.

حسناً، بما أن هذين الرجلين كانا في الغرفتين المقابلتين لغرفة ابن عمك جوزي، وبما أن أي منهما لم يكن هو الجاني، فإن الطلقة النارية لم تأتِ من باب هذه الغرفة أو من باب تلك الغرفة الأخرى، بل من باب البهو، على اليسار. وبما أن الضحية سقط على طاولة مكتبه، التي تمّ سحبها، ما يدل على أنها قد فُتحت، وبما أن الهاتف كان فوق طاولة صغيرة على اليسار، فمن الطبيعي أن يكون القتيل قد وضع الهاتف على الطاولة، ثم استدار نحو باب البهو، وتلقّى الطلقة النارية بتلك الطريقة.

لماذا ذهبتَ مرتين إلى هذا المكتب، يا أستاذ؟ هذا أمر بسيط. في المرة الأولى، تظاهرت بأنك تسجِّل معلومة، كتبتَها، لتذهب إلى البهو وتدير المفتاح، وكذلك قفل الباب المؤدّي إلى السلاليم، لتفتحه؛ وفي المرة الثانية، ذهبت لتدير مفتاح ذلك القفل، وكذلك

---

(1) يبدو أن الكاتب قد تردّد في هذا المقطع واستعمل اسم «مِندِش» بدل ماركوس آلفِش كما جاء سابقاً في النص. (المترجم)

الأقفال الأخرى، كي تغلق الباب، لتُبيّن أنه يستحيل، ظاهرياً، أن يكون أحدهم قد دخل من هذه الجهة.

دخلتَ إلى مكتب المدّعي العام، دخلتَ إلى مكتب المحامي الآخر ثم ألقيت بالمسدس الأول في سلة المهملات. وأطلقتَ منه طلقتين في حالة ما إذا اضطررتَ لتطلق طلقتين كي تقتل، وألا يحدث صوت طلقتَين ناريتَين، ألّا يكون ثمة أثر طلقتَين ناريتَين ورصاصة واحدة.

[. . .]

- هل كنتُ دقيقاً في ما قُلتُ، أستاذ ماركوس آلفِش؟

- تماماً. لقد كشفتَ كل شيء. لم تخطئ سوى في بعض التفاصيل التي لا قيمة لها. المسدس الذي استعملتُه لم يكن مشحوناً بالكامل: لم تكن في داخله غير رصاصتَين. لو أنني اضطررتُ لإطلاق النار مرتين لأصبح من دون ذخيرة. لكني، في النهاية، لم أضطر لإطلاق النار إلا مرة واحدة. عندما خرجتُ، مباشرة بعد أن قمتُ بالقتل، وضعتُ المسدس في جارور [. . .] في البهو. لم يكن من مصلحتي أن أحمل مسدساً في جيبي. أزحتُه من هناك لاحقاً.

- برافو، يا أستاذ! لقد فكرتَ في كل صغيرة وكبيرة.

- فكرتُ في كل شيء عدا في إمكانية وجود دكتور اسمه أبيليو كُواريشْما.

- أوه! هذا لا يهم. إن وجود هذا الشخص لا يمكن أن يصيبك بسوء.

- شكراً. . . لكن أخبرني. كيف استطعت أن تكتشف كل هذا؟ لأنني أنا، في النهاية، من خططتُ لكل شيء ونفّذتُ خطتي. أما

مكتبة الرمحي أحمد

أنت، يا دكتور، فأي معطيات توفرتَ عليها لتصل إلى هذه الاستنتاجات؟

– تلك التي قدّمها الشهود، عند الإدلاء، وما قدّمته أنت، يا أستاذ، في مرافعتك...

– ما قدّمتُه أنا في مرافعتي!

– نعم، ما وصفتَه لي في مرافعتك. كما أخبرتُك، كل ما أعرف عن هذه القضية، علمتُه هنا، في هذه القاعة. إن المعطيات التي قدّمها الشهود، وما قدّمته أنت في مرافعتك، عدة مرات، كافية لتحديد من هو المجرم، وما هو دافعه، وكيف وقعت الجريمة، ولنسميها كذلك.

– ألا يزعجك أن تشرح لي؟ بالإضافة إلى فضولي الشخصي، فأنا أشعر بنوع من الفضول الفكري.

– سيكون عرضاً عن التحريات حول الجرائم؛ لكني سأكون مُختصراً قدر الإمكان.

* * *

– أولاً: طبع الضحية، زير نساء، متمسّك بعاداته ومزهوٌّ بنفسه.

ثانياً: إمكانية أن تكون زوجتك.

ثالثاً: طبعُك أنت.

– طبعي أنا؟ كيف تعرف طبعي؟

– إن مُحبي البرهنة الكبار من الفلاسفة يمكن أن يكونوا باردين وقصيين؛ إنهم ليسوا كذلك دائماً لكنهم يمكن أن يكونوا كذلك. إن محبّي البرهنة من البراغماتيين هم أشخاص منغلقون دائماً، لهم

أحاسيس قوية ومكبوتة. في المرافعتَين اللتين قدّمتَهُما -في كلاهما معاً- أخرجت كل ما في داخلك من عنف: كل أحساسيك المكبوتة، التي كانت كذلك، انفجرت؛ رغم أنه لم يكن حبّ المنطق والحقّ هو ما يحدِّد هذا الإحساس.

أولاً: التوزيع المضبوط للشبهات، التي كانت تشير إلى وجود شخص ثالث.

ثانياً: هذا الشخص الثالث، شخص ذكي، شخص قريب من الضحية، شخص قادر على أن يفكر فيما يلي: أن يجعل الشريكَين القديمَين يكونان هناك في الوقت ذاته، وكان عليه أن يقوم بذلك عبر المحامي، كان عليه أن يكون شخصاً على صلة بالمحامي.

ثالثاً: الشخص الوحيد المقرّب من المحامي الذي كان هنالك تلك الليلة هو أنت، يا أستاذ.

رابعاً: لم يكن ذلك بوسعك، إلا إذا تواطأت مع أحد الرجلَين، أو معهما معاً. وما يثبت أن ذلك لم يحصل، ليس هو طبعك المنغلق والمتعجرف، الذي يستبعد التعاون مع المتواطئين، بل إصرارك على تعيين المُتّهمَين كمجرمَين. من دون أي متواطئ، لم يكن بوسعك أن تطلق النار من أي غرفة من الغرف المقابلة للمكتب، ولا أن تغادر تلك الغرف. كان عليك أن تطلق النار من الرواق وتنصرف.

زاوية إطلاق النار لا تلغي هذا الطرح...

خامساً: كي تطلق النار انطلاقاً من هذه الغرفة، كان عليك أن تفتح الباب المؤدّي إلى السلاليم؛ لكنه كان لا بدَّ أن تغلقه للتو، كي تحذف أي شكّ حول إمكانية المرور من هناك. بعبارة أخرى، كان

مكتبة الرمحي أحمد

عليك أن تذهب مرتَين إلى المكتب، مرة قبيل الجريمة، ومرة بعد ذلك. إذاً، ذهبت إلى هناك مرتَين، مرة قبيل الجريمة، ومرة بعد الجريمة.

سادساً: لم تكن ثمة بصمات أصابع على مفتاح باب البهو المؤدّي إلى السلالم. والحالة أن هذا الباب كان عليه أن يكشف بصمات الموظفين، على الأقل.

الأمر أن أحدهم، بعد أن فتح الباب مستعملاً منديلاً، لم يترك فقط بصماته الخاصة بل إنه (بالضرورة) محا بصمات الموظفين.

سابعاً: لا يمكن لصفحة من أجندة الضحية أن تكون قد انتُزعت إلا بغرض ألّا يُلاحَظ أنه سجّل فيها موعداً. هذا الموعد كان لا بدَّ أن يشير إلى الساعة التي سيأتي فيها أحد ما. إن الذي عمل على حضور هذين الشخصين قد حثّ الضحية على أن تستدعيهما معاً، وكان من مصلحته ألا يُعرف ذلك، خصوصاً إذا كان ينوي اتهامهما ويستعمل، من بين حجج أخرى، فرضية أن لا أحد منهما تلقّى استدعاء، وهو ما كانت ستبطله صفحة الأجندة.

ثامناً: لا بدَّ أن المسدس كانت تنقصه بعض الرصاصات، لأن [. . .].

تاسعاً: إصرارُك على بصمات الأصابع، وهو ما لا نقوم به أبداً إذا كنا في مكان الجريمة، ولو للحظة واحدة فقط، إلا إذا كنا واثقين أننا لم نترك أي بصمة، وهو ما يؤكد حكاية المنديل.

– هناك عنصر آخر من عناصر الأدلة، إنه المسدس الذي وجد في سلّة المهملات بمكتب المحامي. تمَّ إطلاق رصاصتين. والحال أنه لم يكن بإمكانك في المرة الثانية التي ذهبت فيها إلى المكتب أن

تترك المسدس هناك، لأنه لم يكن لديك ما يكفي من الوقت ولم يكن بإمكانك أن تمر عبر أي غرفة أخرى دون أن يراك أحد: في غرفة المدّعي العام كان هناك «ب»، وفي قاعة الانتظار كان هناك «أ»، وبعيداً كانت هناك الموظفة. إذاً وضعتَ المسدس في المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى المكتب، على ما يبدو عندما جئتَ لتسجّل بعض الملاحظات. كان من السهل أن تعبر مكتب المدّعي العام، أن تخطو خطوتين داخل مكتب المحامي الآخر، وأن تعود. هذا يعني أنك حصلتَ على مسدسَين، وأن المسدس الذي كان في سلّة المهملات بمكتب المحامي الآخر لم يكن هو المسدس الذي استعملته في تنفيذ الجريمة. والدليل على أنك وضعت هناك المسدس عند زيارتك الأولى هو أنه كانت تنقص رصاصتَين من المسدس. وأنت تفكر في كل صغيرة وكبيرة، قررتَ أن تطلق النار مرتين كي تقتل. والحال أن مسدساً أُطلقت منه طلقتان لم يكن بإمكانه أن يطلق غير طلقة واحدة هذه المرة، ولكن مسدساً لم تخرج منه غير طلقة واحدة، لا يمكن أن يطلق طلقتَين ناريتَين إذا ما فشلت الطلقة الأولى أو لم تؤدِّ إلى موت الضحية. لا مجال للشك، إن فكَّرنا في الأمر جيداً. . .

هذه هي النقط العشر التي يشملها عرضي.

- لا، إنها الأخطاء العشرة التي ارتكبتُها.

- كلا، إنها ليست الأخطاء العشرة. إنك لم ترتكب أدنى خطأ. وقد أثبت الحكم الصادر ذلك بشكل واضح: اليوم لا أحد يشك فيك. إنك لم ترتكب أدنى خطأ: لقد رسّخت قناعات لدى الجميع وفي كل نقطة من النقط. الخطأ هو أن نملك عيوناً لنرى الأخطاء. . . [. . .]

[3 - اعتراف ماركوس آلفِش]

- هل هذه قارورة؟ سأل، وهو يعرف بالحدس نصف الجواب.
- وماذا تريدها أن تكون؟ قنينة؟ أجبتُه سائلاً، ثم ضحكنا معاً. أسند ظهرك للحائط، يا رجل، كي أرى كيف تتصرف.
- حسناً، ثم أسند ظهره للحائط. صه! لقد حدّبتُ قبعتي...
- يجب أن تُحدّب أكثر من هذا، أجبتُه... عليك أنت أيضاً أن تُحدّب، يا رجل... اتكأ على هذا المكان، كي تأخذ مقاس الأشياء كما يجب...

يُقال إنه لا توجد غير السخرية الكتابة أو الكلام. لكن سخرية الظروف والمناسبات أحسن من هذه ومن تلك معاً. إلى حدّ الآن كان بداخلي اضطراب عصبي خفيف. بعد هاتين الجملتين، بقيت هادئاً، ساكناً، بارداً مثل منظر شتوي.

- هل معك السّم؟ انتبه كيف تستعمله، هل فهمت؟ كان عليهم أن يسموك بورجيا وليس بورجيس[1]...

أعترف أنني أحسستُ، ضدّ أي مجهود مباشر لإرادتي، ببردٍ مفاجئ يغزو قلبي.

- أو بورجيس، هذا يكفي يا رجل... أجبتُ برقّة تقريباً، نعم

---

(1) مرة أخرى، يُغير الكاتب هوية شخصية ماركوس آلفِش. (المترجم)

برقّة صادقة تقريباً. لقد كانت القضية مأساوية، ولكنه، رغم ذلك، كان صديقي في أغلب الأحيان. عزيمتي لم تخبو. ومرّ مسلسل تلك الأحداث مثل سحابة في خلدي. لكنه مرّ، وبقيت هادئاً كما كنتُ، ومنتبهاً لما سأقوم به.

ضغطتُ على الزناد. ودوت الطلقة كما لو أنها فجّرت الأرض. ربما تكون قلة تمرُّني على السلاح هي التي جعلت الصوت مدوياً. ثم سقط، مثل حمامة، لأنه، في هذه الحياة، يكون المرء حمامة عندما يثق بالآخرين...

كنتُ على وشك أن أتراجع، لكني فتحت ذراعَي وأمسكتُ به. ثم فكرتُ، وتركته يسقط: ربما كان من الضروري أن يسقط بقوة، نظراً إلى الآثار التي بقيت فوق الأرض، في حالة ما وجدت. تركتُه يسقط بقوة، ثم نظرت إليه بعد أن سقط، دون أن أشعر بأي إحساس يُذكر. ربما شعرتُ بنوع من العزاء، بعد مرور الأسوأ، لستُ أدري. أعترف أن فكري لم يكن واضحاً تماماً، رغم تصرفي بتبصر، لأنني لا أذكر بدقة ما حدث في داخلي.

* * *

[...]

كْواريشْما: والآن، هناك أمر آخر.. اكتشافي للجريمة له ثمن...

ماركوس آلفِش: ثمن؟ أي ثمن؟

كْواريشْما: حياة زوجتك...

ماركوس آلفِش: هذا ثمن باهض، دكتور كْواريشْما، لست أدري إن كنت سأقدر على دفعه. أنا جدّ صارم كي أعفو أو أنسى...

كْواريشْما: ولكنك جد ذكي لتفهم أنه لا يمكن أن يعاقب أحد بسبب خطأ شخص آخر...

ماركوس آلفِش: خطأ شخص آخر؟ كيف ذلك، خطأ شخص آخر؟ خطأ جوزي؟ إذاً هي كانت طفلة، يمكن أن تسقط بين ذراعي أول...

كْواريشْما: لا، الخطأ خطأك أنت...

ماركوس آلفِش: خطأي أنا؟

كْواريشْما: أو بالأحرى خطأ قدرك. لأن الرجال مثلك دائماً تخونهم النساء. الأقوياء دائماً تخونهم النساء. شمشون في الكتاب المقدس، ونابليون في الوقت الحديث، مثالان ناطقان على ذلك.

لأنك شخص قوي، يا أستاذ، والنساء يغفرن كل شيء، عدا القوة... يمكن للمرأة أن تتغاضى عن التظاهر بالقوة، يمكنها أن تتغاضى عن القوة التي تعتريها لحظات ضعف؛ بل يمكنها أيضاً أن تتغاضى عن القوة الاندفاعية وغير المنظَّمة. لكن قوة المرأة الفطرية لا يمكنها أن تحتمل القوة الحقيقية، القوة الساكنة والهادئة، القوة القوية. إنها دائماً تُعاقب بحسب ما يتوفر لديها من وسائل: إما بالخيانة المباشرة مثل حالتك، وإما بالخيانة غير المباشرة، كما في حالة أخوات نابليون، اللواتي لم يقمن سوى بخيانة شقيقهنّ.

[...]

ماركوس آلفِش: لو كانت هي المرأة الوحيدة في حياته، كما كانت بالنسبة إلي، لقبلت الأمر؛ لكانت المعركة نبيلة، ولكان هو

المنتصر. . . لكنها هي، التي كانت الوحيدة في حياتي، كانت، بالنسبة إليه، المرأة رقم مئة، ألف، أو لست أدري أي رقم وسط ذلك السرب من الممثّلات، والخَيّاطات، وكل ذلك الغثاء من النساء اللواتي يفتحن سيقانهنّ للعالَم. . . هذا ما لم أكن أستطيع أن أغفره: إن قتلتُه مثل كلب، فلإنه كان كلباً؛ [. . .]

كْواريشْما: آه، وا أسفي على إنسان مسكين، على مثالي حزين! القوي يفتح كل جيوب الأرض، لكنه لا يغزو قلب امرأة. وتلك حدود نصره. . . (نحيب).

كْواريشْما: آه! حمداً لله، ها قد أصبحتَ ضعيفاً في نهاية الأمر! إنك على درب الخلاص. . . لو علمت أنك قتلتَ، لعشقتك بجنون، لأن الضعيف هو من يَقتل؛ أما القوي فيَحتقر.

ماركوس آلفِش: لم أعرف امرأة أخرى في حياتي، دكتور كْواريشْما. . .

كْواريشْما: هذا أمر سيّئ. إما نساء عديدات وإما ولا أية امرأة. . .

ماركوس آلفِش: ربما، ربما. . . لكني هذا، أو بالأحرى هكذا كنتُ، أو لم أعد أدري ما أنا ولا ما كنتُ. . .

ماركوس آلفِش (تعلو وجهه ابتسامة حزينة): أتنصحُني إذاً بأن أغفر لها. . .؟

كْواريشْما: لا، إنني لا أنصحك بأن تغفر لها، لأنني لا أنصحك بما لا تستطيع فعله. لكني أنصحك بنسيانها. قد يبدو لك شيء من المفارقة في هذا الأمر، لكن النسيان أسهل من العفو. اهجرها، إما بالطلاق وإما بأي وسيلة تبدو لك هي الأنسب. اهجر

هذا البلد، ارحل بعيداً، رتّب حياتك من جديد. إن فردانيتك، التي خلقت للعزلة، سوف تتجدّد بعيداً عن الحب. سوف تنتصر. كل شيء ممكن بالنسبة إلى الرجال الأقوياء، عدا أن يحظوا بالحب.

كْواريشْما: لأن النساء يكرهن الرجال الأقوياء تماماً، الرجال الذين يستغنون عنهنّ عاطفياً. النساء يعشقن الرجال الذين يبدون أنهم أقوياء ولكنهم ليسوا كذلك في الحقيقة. إن غريزة المرأة لا تحتاج إلى رجل تحبه فحسب، بل هي في حاجة إلى الرجل الآخر. إنك من طينة الرجال الذين ليسوا في حاجة إلى أي شيء يأتي من خارج ذاتك. لهذا السبب تعرّضتَ للخيانة...

إن غريزة المرأة تشترط أن يكون الرجل في حاجة إليها بشكل أو بآخر، وليس فقط بشكل عاطفي؛ وأن يتوقّف عليها بشكل أو بآخر. والحال، يا أستاذ، أن الرجال مثلك يهينون المرأة بشكل لا يغتفر لأنهم ليسوا في حاجة إلى أحد في أي شيء كان. لهذا السبب يتعرضون للخيانة. هذه حكاية تقدّم أمثلة معروفة، من شمشون إلى نابليون. أما لاحظت أن النساء لا يبدين حباً كبيراً للرياضيّين؟

ماركوس آلفِش: طبعاً، لأن الرياضيّين لا يعشقون النساء كثيراً.

كْواريشْما: وأنت، يا أستاذ؟

ماركوس آلفِش: بالفعل، أنا لست عاشقاً كبيراً... إنني أفهم حجتك... (بنبرة مختلفة) أقبل اقتراحك، دكتور كْواريشْما، وسأدفع ثمنه... يمكنك أن تذهب مرتاح البال بخصوص زوجتي. لن أقوم بأي شيء...

كْواريشْما (بنظرة منحرفة): هذا جيد. سوف أذهب مرتاحاً. ها هو الحاجب يبدو متذمّراً لأننا تأخّرنا. حسناً، هذا كل ما في الأمر... وكل هذا يبقى بيننا إلى الأبد مثل سرّ مهني مشترك...

ماركوس آلفِش (مبتسماً): بين طبيب ومحامٍ؟

كْواريشْما: لا، بين من يقول الألغاز ومن يَحلّها. (يرفع صوته) لقد سُررت بمعرفتك، يا أستاذ.

ماركوس آلفِش (يشدُّ على يده اليمنى بيديه المبسوطتَين): وأنا أيضاً، يا دكتور كْواريشْما.

مكتبة الرمحي أحمد

قضية فارغاش

مكتبة الرمحي أحمد

الفصل الأول

موت في الطريق

يبدأ بظهور كوشتوديو بورجِس في بينفيكا وينتهي بوصوله رفقة بافيا مِندش، وتصريح المفتش الحاضر الذي يفيد أن المسألة قد تتعلق بانتحار.

صبيحة يوم 12 فبراير من سنة 1907، باكراً جداً، ليس بالنسبة إلى النهار، بل بالنسبة إلى عادات أهل لشبونة، ظهر في طريق بينفيكا، شخص يعلو محيّاه شيء من القلق. كان رجلاً تجاوز الشباب قليلاً، متوسِّط القامة، نحيفاً، ونوعاً ما شاحباً. توجّه نحو مخفر الشرطة، وسأل المفتش الحاضر هناك عن عنوان ضابط البحرية بافيا مِندش. لم يكن أحد في المخفر يعرف بالضبط، لكن أحد رجال الشرطة كان لديه انطباع، لا يدري كيف، أن قبطان سفينة يُدعى بافيا مِندش، أو شيئاً من هذا القبيل، كان يقطن هناك بعيداً بعض الشيء في الجهة العليا، على اليمين، وبالضبط في طريق بينفيكا.

قدّم السائل شكره على عجل وصعد الزقاق بخطى حثيثة. بعيداً بعض الشيء، وفي دكان كان يفتح أبوابه -كانت الساعة قد تجاوزت

مكتبة الرمحي أحمد

السابعة والنصف- طرح نفس السؤال ثانية، لكن البقّال لم يكن يعرف شيئاً.

مرّ بقربه بائع حليب، فنقل إليه الرجل الشاب سؤاله. توقّف البائع، تسمّر في مكانه وأكّد. لم يكن يعرف رقم باب البيت، لكن قبطان سفينة يُدعى بافيا مِندش كان يسكن هناك بعيداً نحو الأعلى على اليمين في منزل أبيض من طابق واحد، أمام حديقة عمومية صغيرة، وله بوابة حديد من جهة الحاجز المطلّ على الحديقة. لا مجال للخطأ. لم يكن ثمة منزل آخر بهذا اللون. على الأقل قبل بلوغ هذا المنزل، لم يكن هناك بيت بهذا الشكل. المنزل الأول على اليمين، من طابق واحد، وله بوابة على الجانب... إلخ.

شكره الغريب بحرارة ثم استأنف سيره بخطى سريعة في نفس الاتجاه. على بعد مئة متر من هناك وجد المنزل الذي دلّوه عليه. نظر من فوق بوابة الحديد فلم يرَ أحداً في الحديقة. توجّه نحو الباب الرئيس المؤدّي إلى الشارع. هناك توقف كأنه يتردد؛ أخرج ساعته ورأى أنها تشير إلى الثامنة إلا ربعاً. تردّد مرة أخرى، ربما لأن الوقت كان باكراً جداً. وأخيراً، صمّم وطرق الباب.

ظهرت خادمة مسنّة بعض الشيء، ورمته بنظرة أدهشت شيئاً ما الوافد الجديد. لقد رأت رجلاً لا يزال شاباً، نحيفاً نوعاً ما، ذا قامة متوسطة ووجه شاحب. ورأت كذلك أنه يبدو مشغول البال.

- هل هنا يسكن القبطان بافيا مِندش؟ سأل الرجل على عجل.

- نعم، سيدي، إنه يسكن هنا.

- و... هل يمكنني أن أتحدث إليه...؟ اسمحي لي... أرجو أن يعذرني القبطان. أعرف أن الساعة غير ملائمة للزيارة

وخاصة إذا تعلّق الأمر بشخص لا نعرفه. لكن الأمر مستعجل، وأنا أستعجل الحديث معه... ربما يكون مستيقظاً.

وبما أن المرأة، متردِّدةً، كان تهمهم: «مستيقظاً، نعم، بالضبط، إنه كذلك، لأنه اشتغل طوال الليل في مكتبه... لكن...»، أضاف الرجل:

- من فضلكِ، أخبريني شيئاً. هل تناول العشاء هنا مساء أمس أحد أصدقائنا يُدعى كارلوس فارغاش؟

رفعت المرأة صوتها، وبشيء من الدهشة قالت:

- نعم، سيدي، لقد تناول العشاء هنا، نعم... إنه شخص طويل القامة، قوي الـ...

- إنه كذلك، بالضبط، إنه هو. لكن، أخبريني من فضلك، ألم يبقَ هنا هذه الليلة، ألم يقضِ الليلة هنا؟

- قضى الليلة هنا؟! قالت المرأة متعجِّبة. لا... لقد غادر في وقت متأخِّر جداً، أتدري... كنتُ قد اضطجعت فرافقه صاحب البيت حتى الباب؛ أذكر أنني سمعت الباب يُفتح. ربما كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة.

- أوه! يا إلهي! صاح الوافد الجديد بدوره. ما الذي حدث؟

فقالت المرأة، بقلق:

- سأنادي على صاحب البيت.

هنا، ومن الداخل، علا صوت رجل، تلاه صاحب الصوت نفسه، وقال بجفاء: «ماذا هناك، يا تيريزا؟».

استدارت الخادمة، في اللحظة ذاتها التي برزَ فيها من إحدى الغرف الداخلية رجل طويل القامة، أهيَف لكنه قوي البنية، يضع رداء فوق سرواله القديم وينتعل خُفَّين، ويبدو أنه استيقظ منزعجاً.

 مكتبة الرمحي أحمد

- هذا الرجل يسأل عن السيد الذي كان هنا بالأمس يا سيدي.

- كيف؟ كيف؟ قال صاحب البيت وهو يتقدم بسرعة.

ثم انتبه إلى شكل لباسه، فقال:

- ادخل من فضلك. اسمح لي عن هذه الهيئة؛ لقد اشتغلتُ طوال الليل.

ثم أضاف مضطرباً:

- ما الأمر؟

- سأشرح لك، قال الوافد الجديد، وهو يتقدم بضع خطوات نحو القبطان. أنا صديق قديم لكارلوس فارغاش، الذي أظن أنه قد تناول العشاء هنا بالأمس.

- فعلاً، قال سيد البيت وخادمته في آن واحد.

- لقد وعدني، لسبب هام يخصني، أن أكون في البيت، في منزلي أو في منزله -أنا أقطن بالقرب من بيته- حوالي منتصف الليل وثلاثين دقيقة أو الواحدة صباحاً. سأعطيك مزيداً من التفاصيل...

- تفضل من هنا، قال القبطان.

بعد ذلك، أبعد الخادمة، التي دفعها الفضول لتمكث، ثم أدخل الزائر إلى صالون صغير، وأغلق الباب.

- سأشرح لك، وأطلب منك مسبقاً أن تسمح لي عن الإزعاج. لكن محاولتي لا تصدر عمّا يتسبب لي في هذا الأمر من متاعب؛ بل عن القلق الذي ينتابني، عمّا أشعر به من انشغال بشأن فارغاش... كان سيسلمني مبلغاً من المال.

- أعرف ذلك تماماً، قاطعه القبطان؛ بالأمس، وهو يودّعني، قال لي: «كان بودّي أن أتابع هذا الحديث، ولكن هناك صديق

ينتظرني في البيت، وعلي أن أسلّمه مالاً ليسافر إلى بوروتو غداً صباحاً. . .».

- هذا بالضبط. أنا من كان بانتظاره.

- لذلك ودّعني لهذا السبب. ولكن لم يكن بإمكانه أن يكون هناك لا عند منتصف الليل ولا في الواحدة صباحاً، لأنه عندما غادر هذا المكان كانت الساعة تشير وقتئذ إلى الواحدة والنصف.

- نعم. هذا صحيح تماماً. كنت بانتظاره هنالك، أذرع الشارع جيئة وذهاباً. لكن أسوأ ما في الأمر إلى غاية هذه اللحظة، أي حتى تلك الساعة التي غادرت فيها كامبو دي أوريكي، أي عند السادسة والنصف، لم يكن قد عاد إلى بيته بعد. . . حسناً، من عادته أن يسلك طُرُقاً صعبة وهو عائد إلى البيت، لذا أخشى أن. . . . وأتساءل ما الذي حدث له. . .

فجأة بدا القبطان بافيا مِندش قلقاً.

- نعم، وإن كنت منشغلاً، أقول لك ذلك بكل صدق، من أجله. قد تجتمع كل العيوب في كارلوس فارغاش، لكنه يستحيل أبداً أن يترك صديقاً في ضائقة. ما كان ليخلّ بالتزامه معي لو لم يصبه مكروه. إلا إذا لم يحصل على المال، وهنا كان سيأتي ليخبرني. . . لكن المال كان معه، هل تعلم. لا بدَّ أنه كان معه. قال لي: «سأحضر لك المال». كان يتحدث كمن يحمل معه مالاً. . . هذا ما حصل. في الأخير، قلت مع نفسي إنه ربما بقي هنا، وأنه نام في بيتك لأن حديثكما طال أكثر من اللازم. لم يبدُ لي الأمر كثير الاحتمال، ولكن في الأخير. . .

قاطعه ضابط البحرية:

مكتبة الرمحي أحمد

- لم ينم هنا، لا. (وفجأة، قام بحركة [. . .]) ثم إنه أخذ معه تصاميمي. . . !

- كيف ذلك؟ تصاميمك؟

أمسك بافيا مِندش رأسه بكلتا يديه متشنّجاً.

- نعم. تصاميم غواصتي.

فنظر إليه الزائر مذهولاً.

- تصاميم غواصتك؟ ماذا؟ هل كان يحمل معه، في تلك الساعة المتأخرة من الليل، وثائق ذات طبيعة هامة؟ نعم، أتصور أن الأمر يتعلق باختراع، وهو شيء مختلف، أليس كذلك. . . ؟

- هذا بالضبط، هذا بالضبط، بل يتعلق الأمر باختراع ذي أهمية قصوى. . . قال الآخر بصوت ناعس.

- آه! يا إلهي! أي طريق سلك ليذهب من هنا إلى كامبو دي أوريكي؟

- قال لي إنه سيسلك طريق بروشا، لأنه هو الأقرب، وأنه لا يخشى شيئاً لأنه كان يحمل معه سلاحاً؛ بل إنه أراني المسدس الذي كان بحوزته.

- طريق بروشا؟ آه! يا إلهي! هذا ما ينذر بشؤم كبير[1]. . . أين يوجد طريق بروشا، وما هو ذلك الطريق المشؤوم الذي يذهب من هنا إلى إشتريلا؟

- شيئاً ما نحو الأسفل، ليس بعيداً، قبل الوصول إلى مخفر الشرطة. يمكن اعتباره طريقاً مختصراً، لكن. . . اسمع، هل يمكنك

---

(1) يأتي هذا التشاؤم من اسم الطريق التي سلكتها الشخصية، طريق بروشا، لأن كلمة بروشا (Bruxa) باللغة البرتغالية تعني الساحرة. (المترجم)

أن تنتظرني بضع لحظات؟ سوف أُهيّئ نفسي، لن أتأخر كثيراً، وسنذهب لنرى الأخبار. عندي تقريباً هاجس بأن حادثاً قد وقع، سوءاً... لحظة... لست أدري أي هاجس لدي.

* * *

... من يكون هذا النذل الذي...؟

- لا تشتمه، قال المفتش. لم يكن نذلاً.

- كيف ذلك؟ قال بورجِس متعجِّباً.

- هو من قتل نفسه، قال المفتش، وهو يشير إلى الجثة.

- هو من قتل نفسه؟ هو... يا للعجب! صاح الآخر، بحيوية واندفاع.

ثم استدار المفتش نحو مهندس البحرية.

- إنه انتحار، لا شكّ في ذلك...

- انتحار؟

كانت دهشة بافيا مِندش تعادل دهشة بورجِس.

- هذا مستحيل، قال بورجِس بصوت واثق. أي سبب كان لديه كي ينتحر؟ لم يكن لديه أدنى سبب...

- هل أنت واثق من ذلك؟ ردَّ عليه المفتش بصوت جاف نوعاً ما.

- بحسب علمي... قال الآخر مخفِّفاً من جزمه، ومرتبكاً. (ثم صار صوته واثقاً من جديد) من ذا الذي يختار طريقاً لينتحر؟

- وتصاميمي؟ سأل بافيا مِندش.

هزّ المفتش كتفيه.

- ما أعرف هو أنه انتحر. أؤكِّد لكما ذلك. وضعه يشبه

مكتبة الرمحي أحمد

[. . .] وضعَ الملازم فييرا من الفيلق الذي كنتُ ضمنه، حين انتحر ملقياً بنفسه في نهر كوانزا(1). لا أعرف دوافع انتحاره، ولا أعرف شيئاً عن هذه التصاميم، لكن، أتعرفان (ثم استدار نحو بورجِس)، ليست التصاميم هي الوحيدة التي اختفت. . . لم نجد شيئاً في جيوبه.

- إذاً؟ سأل بورجِس.

- إذاً المسألة أكثر بساطة، أكثر بساطة بكثير لو اختفت التصاميم فقط. إنه انتحر. مرَّ شخص من هناك ووجده ميتاً. احتفظ بالسرّ كي لا يعرِّض نفسه للشبهة، لكنه أخذ كل ما في جيوبه.

- هذا ليس أمراً مستبعداً، فكّر بافيا مِندش بصوت مرتفع. وبشكل ما، هذا يمنحني بعض الاطمئنان.

- لماذا؟ سأله بورجِس.

- لأن التصاميم لو وقعت بين يدَي لص عادي، أو شيء من هذا القبيل، لا تمثل سوى كومة أوراق ليس إلا. لكنها إن وقعت في يدَي شخص يمكن أن يستعملها، فإنها تمثل شيئاً آخر مختلفاً تماماً.

- هذا صحيح، قال المفتش، فحرّك بورجِس رأسه موافقاً.

- لكن انتحار! صاح بورجِس متعجِّباً. انتحار! هذا أمر مُلغَز ألف مرة أكثر من أي جريمة قتل.

هزّ المفتش كتفيه.

* * *

(1) يتعلق الأمر بنهر كوانزا في أنغولا، وهي مستعمرة برتغالية سابقة. (المترجم)

- هل تعرف، يا بورجِس، لم يعد ثمة الآن أدنى شك.
- بخصوص أي شيء؟
- بخصوص الانتحار. لقد تأكدنا من رقم المسدس في دفتر تراخيص حمل السلاح في إدارة الحي. إنه بالفعل رقم هذا... (وأشار إلى المسدس).
- هذا عجيب...
- أعرف، يا سيدي، هذا ما كنت أتوقعه... لن تقول لي مع ذلك أن القتيل أخرج المسدس من جيبه ومدّه إلى شخص آخر كي يقتله؟
- بالتأكيد لا، قاطعه بافيا مِندش. في هذه الحالة، هو من كان يريد الموت، فقتل نفسه بكل بساطة. إلا إذا لم يكن له ما يكفي من الشجاعة... هناك حالات...
- لا، الشجاعة، ليست هي ما كان ينقصه...
- آه! قال بعد فترة، لقد سمع أحدهم طلقات نار.
- طلقات نار؟ طلقة نار: لم تكن هناك غير طلقة نار واحدة. شرطي البلدية الذي كان يقوم بالحراسة في المخفر من الشهود؛ الشاهد الآخر هو شخص كان عائداً إلى بيته بعيداً بعض الشيء قبل أن يصل إلى طريق بروشا، أما الثالث، وهو الأهم، فكان رجلاً يسكن بيتاً قرب الطريق.
- ألم تكن هناك غير طلقة نار واحدة بالفعل؟
- بالتأكيد. آه! كنتَ تقول لي إن...
- نعم، إنه يمكن أن يكون قد وقع ما يشبه المبارزة، أفهمت...
- لا، ليس هناك أدنى شكّ. لم تكن هناك غير طلقة نار واحدة.

مكتبة الرمحي أحمد

وضع مفوَّض الشرطة يده على كتف بورجِس.

- ليس لدي أدنى شكّ، يا سيدي العزيز. إن الأمر يتعلق بعملية انتحار.

- ولكن، لماذا، يا ربّ، لماذا؟ قال صديق القتيل مُهَمهِماً.

* * *

- لا، لم يكن ذلك مستحيلاً، قال بورجِس وهيئته تدل على التأمُّل. لا أظن أنه أقدم على هذا الفعل، وقد كان، على ما يبدو، على وشك أن يدخل في مفاوضات حول الغواصة.

- آه! هل كانت المسألة لها علاقة بالمال؟ قال غيديش وهو يشير إلى الحمّالين أن يتجهوا بالنقّالة نحو الأسفل.

- نعم، قال بورجِس باحتشام.

ثم تابع قوله متوجِّهاً إلى بافيا مِندش:

- لا أفهم كيف أنه أقدم على فعلها هنا، وفي هذا المكان بالضبط... على أي، لا أعرف... تنهّد، وكان تنهّده ينم، على ما يبدو، عن شيء من الغمّ، غمٌّ أناني وإنساني بسبب المال الموعود الذي لم يتسلّمه في النهاية.

وأخذت الجماعة تسير في صمت باتجاه طريق بينفيكا. انحرفوا جهة اليمين، ثم بعد بضع خطوات، بلغوا مخفر الشرطة. كان عدد كبير من الناس قد وقفوا أمام الباب. مفوَّض الشرطة، الذي ظهر عند الأسفل، وكان يسير باتجاه الطريق، أصدر أمراً بإبعادهم. ثم دخلت جماعة الطريق، ومعها الزميلان اللذان ظهرا بسرعة، إلى مخفر الشرطة دون أن يحدثوا ضجيجاً.

الفصل الثاني

يعرض التحقيق الأولي، الذي يشمل الشهادات التي أدلى بها كل من بورجِس، وبافيا مِندش، وشرطي البلدية الذي كان يقوم بالحراسة، والشخص الذي يسكن البيت في الملكية الصغيرة، والذي سمع طلقة النار ليلاً. وينتهي بأقوال كل من بورجِس وبافيا مِندش اللذين يؤكّدان أن التصاميم كانت بحوزة فارغاش.

كان أول من أدلى بشهادته هو دومينغوش سيلفا، بنّاء يبلغ من العمر ثمانية وعشرين سنة، يسكن بشارع. . . صرّح أنه، بُعيد الثامنة صباحاً، وبينما كان ينزل عبر طريق بروشا، رأى فجأة، عند اللفّة الأولى من منعطف الطريق (الطريق له منعطفان أو زاويتان)، جثة منهارة فوق الأرض. واندهش حين عاين رجلاً بلباس أنيق، ثم دنا منه. وسرعان ما لاحظ أنه ميت، قُتل بطلقة نارية، ففكر أنه قد قُتل، لأنه لم يرَ المسدس. بقي لحظة دون أن يعرف ما يقوم به ثم قرر أن يخبر مفوضية بينفيكا بما عثر عليه. لم يفكر في مخفر البلدية، الكائن قريباً نحو الأسفل، وإلا لذهب إليه من الأفضل لأنه أقرب. وليذهب إلى المخفر، عاد على أعقابه، قطع الحقول، ونزل عبر طريق بِّنيد، البعيد بعض الشيء، والذي يعرف أنه يؤدي إلى مخفر الشرطة. ثم

مكتبة الرمحي أحمد

إن هذا المسار بدا له أكثر بساطة، أو هكذا ظن على الأقل، عوض أن ينزل عبر طريق بروشا أو أي طريق آخر ثم يأخذ بعد ذلك طريق بينفيكا. كانت الساعة تشير إلى الثامنة والربع حين وصل إلى المفوضية، وأطلع المفوض، الحاضر هناك، بما وجده. لم يكن يعرف أي شيء آخر عن القضية.

التفت المفوض باستوش نحو رئيس المخفر:

- أخبرني، يا مواريش، كيف لم يتم العثور على الجثة مبكراً؟

هزَّ المفتش كتفيه.

- من جهة، طريق بروشا لا يسلكه الكثير من الناس، ولو نهاراً. أما ليلاً، فكل هذه الطرق تكون مهجورة، بالطبع. طريق بروشا يبدأ أمام الحقول الزراعية، بينما الطريقان القريبان، طريق «العجوز»، باتجاه بينفيكا، وطريق تورينيا، باتجاه لشبونة، يبدآن هناك حيث تلتقي الطرق القادمة من الأسفل، و بذلك يشكلان الامتداد الطبيعي لهذه الطرق. ثم إنهما طريقان ممتعان لأنهما مستقيمان، بينما طريق بروشا منعرج؛ وحتى نهاراً فإن طريقاً مستقيماً أحسن بكثير من طريق منعرج. من جهة أخرى، ربما يكونوا قد وجدوه في وقت سابق. هناك العديد من الناس القادرين على القيام بهذا النوع من الاكتشاف ولا يقولون شيئاً. إما خوفاً وإما سعياً إلى راحة البال. . . إلخ.

- فهمتُ، قال باستوش. لكن، لماذا صعد فارغاش عبر هذا الطريق؟

- الأمر بسيط، ردّ رئيس المخفر. إنه الطريق الأول الذي وجده لدى خروجه من بيت القبطان مِندش. ومن عادته أن يسير نحو

الأسفل، لأنه كان يسير في هذا الاتجاه، نوعاً ما. لا أدري إن كان فارغاش يعرف جيداً هذه الأماكن والطرق التي تنطلق من هنا باتجاه كامبو دي أوريكي.

- أظن أنه كان يعرفها، قال بورجِس مقاطعاً كلامه.

* * *

- لكن لماذا كنت منشغل كل هذا الانشغال بسبب غياب فارغاش، سيد بورجِس؟ هل كان لديك من سبب ما للشكّ في أي أمر؛ انتحار، جريمة قتل، أو أي شيء آخر؟

- لا شيء من هذا. كنتُ منشغلاً لسببين اثنين. الأول، أن فارغاش وعدني بأن يوفر لي مبلغاً مالياً كي أتمكن من الذهاب إلى بورتو -وأنا من مدينة بورتو- وأمكث هناك بعض الوقت. أخبرني أنه سيجلب لي المبلغ من بايشا(1)؛ وأنه سيذهب للعشاء عند بافيا مِندش، وأنه سيسلمني المال ليلاً، هناك، في كامبو دي أوريكي، لدى عودته من بيت بافيا مِندش. حسناً، كل من هو في حاجة إلى مال يعرف جيداً ذلك الاضطراب الذي ينتابنا حين يعدنا الآخرون بمال، ولا يصلنا هذا المال. تخطر ببالنا كل الأفكار. نتصور أي شيء. يكون حالنا مثل حال تلك الأم التي لا يعود ابنها إلى البيت في الوقت المعتاد: لقد سقط تحت عجلات الترام، أصابه مكروه، وتتخيل كل مصيبة تخطر ببالها. وعدني فارغاش بأنه سيسلمنى المال

(1) تعني كلمة Baixa في اللغة البرتغالية السفلى، والمقصود بها المنطقة السفلى وسط مدينة لشبونة حيث تتواجد البنوك ومكاتب الشركات الكبرى. (المترجم)

مكتبة الرمحي أحمد

حوالي منتصف الليل أو منتصف الليل وثلاثين دقيقة، وهي الساعة التي كان يعتزم أن يعود فيها من بيت بافيا مِندش. طبعاً، لم أكن في حاجة إلى المال في تلك الساعة بالضبط. لكن، هكذا، لم أكن في حاجة إلى المال، لكني كنت أريد أن أرى فارغاش، أفهمت؟

[. . .]

لكني أعترف أنني في لحظة معيّنة بدأت أشعر بالخوف. كنت قد عدت إلى البيت على الساعة الحادية عشر والنصف، ومررت بالصدفة أمام بيت فارغاش، طرقتُ الباب وسألت القيِّمة إن كان فارغاش قد عاد. لم يكن قد عاد، لكني لم أكن أنتظر ذلك. سألت من أجل متعة السؤال لا غير. . . عدتُ إلى البيت، وقرأت بعض الوقت. بعد ذلك، حوالي منتصف الليل وبضع دقائق، خرجتُ من جديد. كان ثمة ضوء في غرفة القمة، لكن لا ضوء في غرفة فارغاش، التي توجد أيضاً على جانب البيت وتطل على الفضاء بين عمارته وعمارتي، ولم يكن ثمة ضوء أيضاً في مكتبه، الذي يطل على الواجهة. كنتُ على وشك أن أطرق الباب مرة أخرى، لكني لم أجرؤ. وبما أنني التقيت الحارس الليلي فقد سألته إن رأى فارغاش يمر. فأجابني بالنفي، وأنه شخصياً لم يبرح تلك المنطقة. طلبتُ منه أن يُخطرني بأن يناديني من الشارع، إن هو رأى فارغاش يمر. بقيت في البيت، لكن لم أكن ساعتها قادراً على القراءة. . . لم يناديني الحارس الليلي. ربما كانت الواحدة وبضع دقائق حين خرجت من جديد. لم يكن ثمة ضوء في أي ركن من أركان بيت فارغاش. ثم عدت إلى البيت ثانية. ورغم الضجر، بدأ النوم يغلبني. وبُعيد الثانية، كان من الضروري أن أخرج مرة أخرى. سألت الحارس الليلي مرة ثانية إن كان قد رأى فارغاش يمر. لم يرَه بعد. . . لم

أقاوم. ذهبتُ لأطرق باب بيته وإن كان في الأمر شيئاً من الفظاظة... أخبرتني القيّمة، التي لم يرقها الأمر، أنه لم يعد بعد إلى البيت، ثم أغلقت الباب في وجهي. في تلك اللحظة بالضبط، بدأت أتساءل، أي أنني بدأت أطرح على نفسي أسئلة لسبب وجيه. تذكرتُ حينئذ أن فارغاش قال لي إنه سيعود إلى البيت عبر كامبو دي أوريكي، وأنه سيطرق باب بيتي ليسلّمني المال. تذكرتُ أنه سيأتي عبر كامبو دي أوريكي لأنه سيمر ويطرق باب بيتي؛ لكن بيتي ليس على الطريق حين نأتي من إشتريلا، بل فقط حين نأتي من كامبو دي أوريكي. وفارغاش لا يغيّر مساره أبداً: حين يأتي من بايشا يركب دائماً المصعد ليذهب إلى إشتريلا: يصعد شارع شيادو ويركب مصعد ساحة كامويش. قلتُ مع نفسي، وأظن أنني لم أكن مخطئاً حين فكّرتُ كذلك، إنه لو أتى من كامبو دي أوريكي فإنه ينوي أن يأتي من بينفيكا مشياً؛ وتذكرتُ أنه ليس بعيداً جداً من هنا. فهل لم يكن ذلك طريقاً مؤنساً كي يقطعه الناس ليلاً؟ هنا انتابني الخوف، لأنني تذكرتُ أن فارغاش أخبرني أنه لن يتأخر في العودة، وأنه لا ينبغي لي أن أقلق -قال لي ذلك وهو يضحك- لأنه يحمل معه سلاحاً، لأن عليه أن يجلب شيئاً ذا قيمة من بيت بافيا مِندش. لم يخبرني عن ذلك الشيء ولا عن طبيعته، وأنا بدوري لم أسأله، لأن مجرد قول «شيئاً ذا قيمة» يكفي ليدل على أنه لم يكن يرغب في الكشف عن طبيعته؛ وإلا لأفصح لي عن ذلك في الحين. قلتُ مع نفسي إنه لا بدَّ أن الأمر يتعلق بمال أو بمجوهرات. كان فارغاش خبيراً بالمجوهرات، ومن المحتمل أنه كان يجري صفقة في هذا المجال. طبعاً، ما كنتُ لأشكّ أن الأمر يتعلق بتصاميم غواصة، وهو ما كان بالفعل، بحسب ما أعرف الآن.

والحال أن قضية المجوهرات أو المال هذه هي التي زادت من مخاوفي. يمكن أن يكون أحدهم على علم بذلك فيهاجمه؛ أو ربما يتعرّض لهجوم دون أن يعلم أحد شيئاً. كان فارغاش رجلاً متميزاً، وأنيقاً، يمكن لأي قاطع طريق أن يظن أنه يحمل في حافظته رزمة سميكة من الأوراق النقدية. وهذا فعلاً ما كان يجب أن يحمل معه، عدا التصاميم، إلا إذا لم يتمكن من الحصول على المال. مليون ريال؛ وهذا طبعاً مبلغ مهم على أي حال، ومن فتّش جيوبه لا بدَّ أنه لم يذهب خاوي الوفاض...

وباختصار... تحدّثت قليلاً مع الحارس الليلي، ودخلت إلى بيتي؛ ثم سرعان ما خرجتُ من جديد، وفي النهاية قضيت الليلة أثرثر مع الحارس الليلي وأرافقه في جولته عبر أرجاء الحي. وفي الصباح الباكر، بعد أن عدت إلى البيت لأستحم، ذهبت وطرقت باب بيت فارغاش. ومرة أخرى، شتمتني القيِّمة، وعلمتُ أن فارغاش لم يعد إلى بيته. لم تكن القيِّمة مندهشة للأمر أكثر من اللازم لأن فارغاش عادة ما لا ينام في بيته. كنتُ أعرف ذلك، لكن الأمر بدا لي مريباً تلك الليلة. حينئذ تملّكني الخوف حقاً: كنتُ قلقاً على نفسي وعلى المال -والمرء دائماً أكثر أنانية مما يظن- لكني كنتُ قلقاً أيضاً على هذا الشاب. طبعاً، كانت كذلك إمكانية التقائه بامرأة -لم تكن لدي إمكانية أخرى، ويمكن أن تكون إمكانية صالحة لأي ليلة- لكني وجدت أن ثمة مبالغة في أن يتركني قلِقاً بعد أن وعدني أنه سيكون هنا عند منتصف الليل. لكن امرأة تشفع له عن أي شيء... كان واضحاً أنني لم أكن أصدِّق هذا التفسير... ظلت مخاوفي قائمة. أخذت وجهة بايشا، وذهبتُ إلى المكتب لهذا الغرض، فاغتنمت الفرصة لألقي نظرة على دليل الهاتف وأتأكد إن

كان المدعو بافيا مِندش هذا يملك خطّاً هاتفياً في بيته، وحين رأيت أنه لا يملكه، قررت أن أوقف أول سيارة لأذهب إلى بينفيكا، وألا أتردد وأذهب للتو عند بافيا مِندش. ربما يكونان قد تحدّثا حتى وقت متأخر من الليل فألحَّ بافيا مِندش على فارغاش، الذي كان يسكن بعيداً نسبياً، أن يبقى هناك. غريب، لم تخطر تلك الإمكانية - الطبيعية في نهاية الأمر- على بالي إلا في تلك اللحظة فقط، وعوض أن أخاف، كنت غاضباً ضدّ هذا الشخص الذي تخلّف عن موعده معي، بعد كل ما وعدني به، فقط لأنه انساق وراء الحديث حتى وقت متأخر من الليل... لكن، في الواقع، قليلاً بعد ذلك، ودون أن أدري لماذا، طفت مخاوفي من جديد... لأن فارغاش، في الحقيقة، لم يكن رجلاً يخلف وعده: كان من طينة الرجال الذين يقولون نعم أو لا، لكنه إن قال نعم، فإنه لا شيء يناقض قوله «نعم» إلا إذا لم يكن بوسعه أن يقوم بغير ذلك. أن يعدني بتوفير المال ولا يجد مالاً، هذا أمر مقبول، لأنه لا يتعلق بإرادته، لكنه في هذه الحالة ليس من ذلك النوع من الرجال الذين لا يأتون، فقط ليخبرني بذلك، بل إنه خطر ببالي أنه لم يجد المال، وأنه غادر بيت بافيا مِندش مبكّراً، وذهب عند شخص آخر وعده بهذا المال. هذا الأمر قد يغيّر مجرى الأحداث، لأن هذا الشخص ربما يقطن بعيداً جداً من بيت بافيا مِندش... لكن، باختصار، كل ما كنتُ أفكر فيه وأنا في السيارة باتجاه بينفيكا لم يكن ليطمئنني تماماً، وعندما وصلت إلى بيت بافيا مِندش كنتُ في غاية الارتباك. طبعاً، حين علمتُ أن فارغاش قد غادر المكان على الساعة الواحدة وبضع دقائق، وأنه أخبرهم بأنه لن يصل متأخراً جداً إلى إشتريلا لأن معه شيئاً عليه أن يسلّمه إلى شخص ما -أي أن معه المال الذي كان موجّهاً إلي- كل

مكتبة الرمحي أحمد

هذا أكّد مخاوفي، فلاحظت، يمكن أن أقول إنني لاحظتُ، أن مخاوفي كانت عبارة عن هاجس.

ليت الأمر لم يكن كذلك. . .

* * *

- حسناً، رقم 54، هل رأيت الجثة؟

- نعم، سيدي، رأيتُها.

- وهل تعرّفتها؟

- إن لم أكن مخطئاً، يا سيدي، كان شخصاً صادفته، حوالي الواحدة والنصف، عندما كنت أقوم بالحراسة.

- أين رأيته، وفي أي ظروف؟

- كنت أقوم بالحراسة، أذرع المكان جيئة وذهاباً أمام المخفر، عندما رأيت هذا الشخص، يرتدي نفس الملابس التي ترتديها الجثة الآن، بل إنني رأيتُ أيضاً وجهه تحت ضوء الفانوس عند زاوية الطريق. كان قادماً من أعلى، من نواحي بينفيكا. فجأة، حين قطع ليدلف الطريق، لأنه كان قادماً من القارعة في الجهة الأخرى من الطريق، سمعتُ وقع خطى على الطريق من جهة لشبونة، فإذا هو شخص لم أسمعه قادماً كان يلوّح بيده كأنه يناديه. وبما أنه مرَّ أمام ضوء الباب، لمحه الآخر، نظر إليه، فبدا كأنه تعرّفه، وقال له: «أأنت هنا في هذه الساعة المتأخرة؟».

- أسمعتَ ذلك بكل بوضوح، رقم 54؟

- كما أسمعك الآن، أيها القائد.

- حسناً. وماذا كان جواب الآخر؟

- لم أسمعه، أيها القائد. أجاب بشيء ما، لكنه كان قد اقترب

من الآخر وأخذ يتحدث بصوت خفيض. ثم إنني كنت أدير له ظهري في تلك اللحظة.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- بعد ذلك، توجّه من كان قادماً من الأسفل نحو الآخر، وتصافحا، ثم أخذا يتحدثان عند مدخل الطريق، قرب الفانوس. حينئذ رأيتُ بوضوح وجه القتيل، لأنه هو من كان يدير وجهه نحوي.

- كم استغرق حديثهما؟

- لم يستغرق وقتاً طويلاً، أيها القائد، لكنهما تبادلا أكثر من كلمتين.

- خمس دقائق تقريباً؟

- من الأرجح أنها كانت أكثر من ذلك، أيها القائد...

- أي نوع من الحديث دار بينهما؟ أعني: هل كانا يتكلّمان كما نتكلم أثناء حديث عادي، أو أنهما كان يتحدثان بحدّة، أو يتخاصمان؟ هل اكتفيا بالكلام أم أنهما أخرجا وثائق، أو أي شيء من هذا القبيل...؟ على أي حال، ماذا رأيت؟

- كان لدي الانطباع بأن ما دار بينهما من حديث كان طبيعياً، أيها القائد، مثل شخصين يعرفان بعضهما. لم يتخاصما ولم يتحدّثا بحدّة. لم يكن حديثهما لا بصوت مرتفع ولا بصوت منخفض. كنتُ أسمع صوتيهما، لكن لم أكن أسمع ما يقولانه لأنهما لم يكونا بالقرب مني. لم أرَ أي شيء آخر، أيها القائد. دون أن ننسى، أيها القائد، أنه خلال نصف ذلك الوقت، وبينما هما يتحدثان، كنت أسير في الاتجاه المعاكس، أدير لهما ظهري.

- طبعاً، طبعاً. وبعد أن انتهيا من حديثهما؟

مكتبة الرمحي أحمد

- افترقا. تصافحا مرة أخرى، لكن الذي قُتل صعد ببطء عبر الدرب، بينما صعد الآخر عبر الطريق. لم أرَ أي شيء آخر، أيها القائد.

- جيد جداً. والآن، 54، حاول أن تصف لي بكل ما تستطيع من دقّة ذلك الشخص الذي قدم من أسفل الطريق وتحدث مع القتيل.

- كان رجلاً أنيق الملبس، لا هو بالطويل ولا هو بالقصير -يقصرني في القامة بعض الشيء، أيها القائد- له شارب أسوِد ويضع نظارة.

- هل رأيت وجهه جيداً؟ ألا تستطيع أن تتعرّفه؟

- لا، أيها القائد، أو هذا ما أظن، على الأقل.

- قلت إنه كان أنيق الملبس. ماذا كان يرتدي؟

- كان يرتدي ملابس داكنة اللون، تبدو في مجملها ذات جودة عالية: قبعة رخوة سوداء، أو جد داكنة على الأقل، معطف من نفس اللون، كان يضع لفاعاً رمادياً أو ضارباً إلى الرمادي، ويضع لفافات فاتحة اللون. آه، نعم، نسيت، أيها القائد: كان يحمل حقيبة في يده اليسرى.

- كيف ذلك؟ حقيبة سفر؟

- حقيبة سفر، لست أدري، أيها القائد. ليست من نوع تلك الحقائب التي يمكن أن نضع فيها بزة. كانت من تلك الحقائب الصغيرة.

- فهمتُ. من تلك الحقائب التي نضع فيها قميصين وبضعة مناديل...

- تماماً، أيها القائد.

– حقيبة سفر لمدة قصيرة. هل رأيت مما صنعت الحقيبة؟

– مما صنعت؟ آه، نعم: كانت حقيبة جلدية. كانت تبدو من نوع تلك الحقائب الثمينة، أيها القائد.

– جيد جداً، 54. والآن، هناك شيء آخر: سمعتَ الطلقة النارية، أليس كذلك؟

– نعم، أيها القائد؛ كيف كان من الممكن ألا أسمعها؟ صوت واضح، في تلك الساعة من الليل...!

– طبعاً، ألم ترَ أي صلة لذلك مع الشخص الذي رأيته قادماً وهو يصعد الدرب؟ بعبارة أخرى، ألم تفكر فيه حين سمعت الطلقة النارية؟

– أنا؟ لا، أيها القائد. كيف كان لي أن أفكر في ذلك؟ ثم إنني، أيها القائد، لم أفهم جيداً من أي جهة أُطلق النار، بل بدا لي أن الطلقة لم تأتِ من الطريق؛ بل كأنها بالأحرى جاءت من جهة لشبونة، وأنها جاءت من إحدى الضيعات، من تلك المتواجدة بالقرب من هنا.

– حسناً، 54، لم تعد لي بك حاجة الآن. لكن، لا تذهب فوراً. ربما نحتاجك لنطرح عليك بعض الأسئلة.

* * *

– حسناً، هذا ليس سابقاً لأوانه! احكِ، احكِ...

– قبل عشرة أو اثني عشر يوماً، حوالي الساعة التاسعة والنصف صباحاً، بعد أن غادرتُ البيت توجّهت إلى ساحة إشتريلا، كما أفعل كل يوم عدا يوم الأحد، مروراً بشارع دومينغوش سيكيرا

والشارع الذي ينزل من كامبو دي أوريكي باتجاه الساحة، فوجدتُني أمام شخص أنيق الملبس يبدو أنها كان هناك في انتظار أحد ما. وكان ينتظرني أنا، في نهاية الأمر.

كان شخصاً يفوقني في القامة، أنيق الملبس، كما قلتُ، له لحية سوداء كثيفة، ويضع نظارة ذات إطار ذهبي.

الفصل الثالث

وفيه عرض للتحقيق المترتِّب عن الأحداث السابقة، والذي تكلّف به التحقيق القضائي وكل من المفوَّض باستوش والمفتش غيديش. يجري البحث عن الشخص الغامض، ويدلي بورجِس بشهادته حوله، كما يستمر تحقيق غيديش بخصوص إثباتات الغيبة التي تقدَّم بها كل من بورجِس وبافيا مِندش. (يبدأ الفصل أياماً قليلة بعد نهاية الفصل الأول، وتجب الإشارة أننا أثناء ذلك لم نعرف شيئاً كثيراً عن الشخص الغامض، ولم يأتِ أي خبر عن التصاميم، ولا من يكون ذلك الشخص الغامض الثاني، الذي برز في أعلى الطريق قليلاً بعد أن سُمعت طلقة النار).

«هناك الكثير من الرجال من ذوي القامة القصيرة، واللباس الأنيق، والشارب الأسود»، قال بورجِس بصوت متردِّد. وإذا ما بحثتُ جيداً، يمكنني أن أجد أكثر من اثني عشر فرداً من بين الأشخاص الذين أعرف أن فارغاش يعرفهم، دون احتساب أصدقائه وعلاقاته التجارية المحضة، لأنني لا أعلم عنها الشيء الكثير. أما بخصوص النظارتين، فهذا أمر آخر. . . لقد فكرتُ جيداً، حتى وأنا أتحدث في هذه اللحظة، أنني لا أعرف غير شخصين اثنين بكل هذه

مكتبة الرمحي أحمد

المواصفات: واحد منهما هو شافيير لوبش، تاجر المجوهرات بشارع أورو[1]، وهو واحد من ملّاك شركة لوبش ومن معه؛ أما الآخر فلا أعرف من هو، لأنه لم يسبق لي أن رأيته؛ أعرف أنه أحد أصدقاء فارغاش، وأنه رجل غني ويسكن جهة شارع كابّيليشتاش حيث رأيتُه أكثر من مرة وهو يتحدث إلى فارغاش. ليست هذه إشارة ذات قيمة كبيرة، لكن ثمة فيها ما قد يفيدك: ليس له شارب إلا منذ بضعة أشهر. سابقاً، كانت لحيته كاملة، على شكل قرن. هذا كل ما في الأمر. . .

– حسناً، قال المفوض باستوش، هذا خير من لا شيء. شافيير لوبش، هذا الذي تعرفه، هل تعلم أي نوع من العلاقات كانت تربطه بفارغاش؟

– علاقات صداقة عادية، أظن، مع أنها لم تكن صداقة حميمة. لكن، إن تفهّمتَ موقفي، فأنا لا أستطيع تأكيد ذلك. كما قلتُ لك، لم أكن أعرف أي شيء تقريباً، إلا ما كان يصلني من معلومات متفرِّقة، وهي معلومات سطحية فوق ذلك، حين كان يقول لي شيئاً ما بخصوص أصدقاء فارغاش.

– وماذا عن الرجل الآخر، ذلك الذي لا تعرفه؟ ألا تعرف اسمه؟

– لا. . . على أية حال، سمعتُ فارغاش يذكر اسمه، لكني لا أتذكره. لن يكون من الصعب معرفة من هو. كان يتحدث مع فارغاش، دائماً تقريباً، قرب باب [. . .].

---

(1) هناك في وسط لشبونة شارعان يحملان اسم المعادن النفيسة التي كانت البرتغال تجلبها من المستعمرات السابقة، الأول هو شارع «أورو»، أي شارع الذهب، والآخر هو شارع «براتا»، أي شارع الفضة. (المترجم)

الفصل الرابع

شخصيات المسرحية (Dramatis Personae). تحقيق المفتش غيديش حول كارلوس فارغاش، كوشتوديو بورجِس، بافيا مِندش... إلخ؛ بالإضافة إلى التخمينات العابرة التي قام بها المفوَّض باستوش.

- إذاً؟ قال المفوَّض باستوش.

- كل ما نحن متأكدين منه أنهما معاً بقيا في بيتهما في الساعات التي تهمُّنا. لكن، بالطبع، هذا ما لا نستطيع أن نسميه يقيناً...

- وما كان علينا أن ننتظر أن يكون كذلك. أن تثبت أن أحداً ما كان في مكان معيّن وفي ساعة محدَّدة ليس بالأمر الهيّن، وخصوصاً أن نثبت أنه كان في بيته ساعة النوم؛ لأنه ليس ثمة شهود مباشرون، ومن يمكن أن يكونوا كذلك -زوجة، أصدقاء، أو رفقاء غرفة- دائماً ما تحوم حولهم الشبهات.

- على أي حال، أيها المفتش، في كلتا الحالتين كان من الممكن أن يكون الأمر أسوأ مما هو عليه. لنأخذ، مثلاً، بورجِس. ما قاله صحيح. تمكنتُ من الحديث مع الحارس الليلي في المنطقة مع صاحب المنزل الذي يسكن فيه؛ إنه شخص يدعى جوزي

مكتبة الرمحي أحمد

كوشتا، موظف بمكتب الدراسات الجيوديسيّة، الذي، كما تعرف، مجاور لكنيسة إشتريلا.

- أعرف ذلك جيداً.

- بحسب أقوال الحارس الليلي، وصل بورجِس إلى إشتريلا أو إلى كامبو دي أوريكي، وفقاً للتسمية التي قد نطلقها عليه، حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف. سأل الحارس الليلي إن كان قد رأى فارغاش يمر عائداً إلى بيته، فأجابه الحارس الليلي أنه لم يره وذهب ليطرق باب بيت فارغاش. بعد ذلك، عاد ليلتقي بالحارس الليلي، وأخبره أن فارغاش لم يعد إلى بيته بعد، وأنهما قد اتفقا على أن فارغاش سيسلِّمه شيئاً ما، وطلب منه أن ينادي عليه -أعني بورجِس- حين يرى فارغاش عائداً إلى بيته. قال إنه سيعود إلى بيته لينتظر، وأنه سيطالع في انتظار أن يعود الآخر، وأن ما على الحارس الليلي سوى أن يناديه من النافذة، أي من نافذة الطابق الأول التي كانت مضاءة وموازبة، وأنه سينزل بسرعة. مكتبة الرمحي أحمد

قليلاً بعد هذا الحديث، خرج بورجِس من جديد، وذهب ليرى الحارس الليلي، طرح عليه نفس السؤال، وأوصاه بألا ينسى أن يُخطره حين يصل فارغاش، ثم عاد إلي بيته. طبعاً، لم يظهر فارغاش. ظلت النافذة مضاءة طوال الليل، ومن حين إلى آخر، كلما سمع الحارس الليلي يمر في الشارع أمام بيته، كان بورجِس يطل من النافذة ويسأل إن كان فارغاش قد عاد. تكرر ذلك خمس أو ست مرات طوال الليل، إلى حدود الساعة الرابعة أو الرابعة وبضع دقائق، عندما أطفأ بورجِس الأضواء، خرج من بيته، وتوجه إلى الشارع، متوترا وقلِقاً، كما هو طبيعي، ليثرثر مع الحارس الليلي ليتسلى إلى أن ذهب هذا الأخير، أي في الساعة الخامسة والنصف.

حينئذ عاد بورجِس إلى البيت، بحسب قوله، ليستحم ويذهب إلى بايشا، ليعرف إن حدث أي شيء لفارغاش. عندما علم الحارس الليلي، أثناء حديثهما، أن فارغاش قد ذهب إلى بينفيكا، قال إنه قد استطاع أن يأتي مباشرة، عبر الحقول، وأن المكان خطر، تَملَّك الخوفُ بورجِس المسكين، لأنه لم يفكر في ذلك الطريق، الذي ما كان ليخطر على باله، حتى نهاراً: عادة نذهب من إشتريلا إلى بايشا، ثم نتابع باتجاه بينفيكا عبر شارع نوفاش وطريق بينفيكا.

أكّد صاحب البيت الذي يقيم فيه بورجِس كل هذا، في حدود ما تسمح به قدرته على التأكيد. كوشتا ليس من أصحاب النوم العميق، ويذكر أنه سمع بورجِس يتجول جيئة وذهاباً طوال الليل. خرج مرة واحدة، في الساعات الأولى من النهار، على ما يبدو -كان ذلك على الساعة الواحدة، بحسب ما قاله الحارس الليلي-، لكنه عاد بسرعة ثم بدأ يذرع الغرفة من جديد إلى أن خرج باكراً جداً، عندما كان الظلام لا يزال سائداً. كان كوشتا قد استيقظ على الساعة السادسة. عاد بورجِس، وسمعه كوشتا وهو يستحم، ثم يخرج ثانية. البيت صغير وكل شيء يُسمع بوضوح. أثناء الليل، بحسب ما قالته زوجة كوشتا لاحقاً، ربما يكون دخّن خمسين أو ستين سيجارة -أنا من يقول هذا الرقم- لأنه ترك مرمدة وما يشبه قدحاً صغيراً مليئاً بأعقاب السجائر وأعواد الثقاب. هذا ما لدينا بخصوص بورجِس.

- هذا يكفي، بل يفوق الكفاية. لم نكن في حاجة إلى كل هذا، ولكنك تقوم بالتحقيق على ما يرام، يا بُني. إننا لا نتهم بورجِس ولا أي أحد آخر. كل هذا، كي لا يكون لدينا أدنى شكّ. لاحقاً كان التحقيق سيكون أكثر صعوبة. ما اكتشفتَه يتناسب تماماً

مكتبة الرمحي أحمد

مع كل ما كان متوقّعاً. لا يمكن أن نتوقع أكثر من ذلك، بل بصفة عامة، لا يمكن أن نتوقع أقل منه، بل أقول ما هو أكثر من هذا: ما قد يثير الشكوك، هو أن تكون لذلك صلة بساعات محدَّدة، أن يكون كل شيء مرتّباً ومبرمجاً بحسب كل ساعة ودقيقة، لأنه قد لا يبدو طبيعياً. وماذا عن القبطان؟

– نفس الأمر ينطبق على القبطان، لكن كان لا بدَّ أن نتصرف بمزيد من الحذر في هذه الحالة. الشخص الوحيد الذي كان بإمكانه أن يزودنا بمعلومات هو القيِّمة على بيته. إنها الشاهد الوحيد، شاهد فقط، وهو شاهد لا يمكن أن يكون موثوقاً بشكل كبير، لمجرد أن الأمر يتعلق بالقيِّمة على بيته، وطبعاً، كان لا بدَّ من مزيد من المهارة كي يتّخذ الحديث الوجهة التي نريدها. على أي حال، أظن أنني توفقت في ذلك، وأنها لم تبدِ أي ارتياب. شرحتُ لها أنني أريد أن أعرف إن كانت قد سمعت أشخاصاً في الشارع أثناء الليل... إلخ. ولحسن الحظ أنها مثل الأخريات: تحب الكلام. بفضل هذا الحديث توصلت في نهاية الأمر إلى معرفة ما كنت أريد أن أعرفه. على أي حال، ما نحن في حاجة إلى معرفته، وباختصار: أمرها القبطان أن تذهب للنوم عند منتصف الليل، الواحدة صباحاً، وهو ما فعلت. وبما أنها تجاوزت سنّ الشباب بكثير، فإن نومها ليس بالعميق؛ لذا سمعت فارغاش يغادر البيت والقبطان يغلق باب الشارع ويضع المزلاج، ثم يذهب فوراً إلى غرفته التي أغلق بابها ونام. نام بحسب ما قالت، لكن من البديهي أنها لم تسمعه ينام. لاحقاً -لا نعرف في أي ساعة- سمعت سيدها يفتح باب الغرفة ويذهب إلى مكتبه، وهو ما يقوم به حين يشتغل ليلاً، طوال الليل. لكنه هذا المرة لم يكن يشتغل: سمعته القيِّمة يمشي في الغرفة طوال

الليل، يذرعها جيئة وذهاباً، وهو ما لم يكن من عاداته، وهي نفسها كادت أن تنهض لتسأله إن كان على ما يرام. لكنها عدلت عن الأمر في النهاية. استمرَّ ذلك حتى الصباح، حين نهضت. لم ينم القبطان.

- انتظر، قال المفوَّض باستوش، إن الأمر لا يشبه تماماً، بحسب طريقة قولك، حالة بورجِس. كان لبورجِس سببان بديهيان وطبيعيان ليكون منشغلاً ولا يستطيع أو لا يريد النوم: غياب صديقه، وحكاية ذلك المبلغ الكبير من المال التي تجعل ذلك الغياب أكثر إثارة للانشغال. لكن، أي سبب كان لدى بافيا مِندش كي يحدث له ما حدث لبورجِس؟

طرح المفوَّض هذا السؤال بصوت متباطئ، دون أن يتوجّه إلى أحد، ثم استدار فوق كرسيه وهو يقطب حاجبيه. فجأة، التفت نحو غيديش.

- هل كان بإمكان بافيا مِندش أن يخرج من بيته بسهولة، مباشرة بعد أن ذهب لينام، أو في أي وقت، بالطبع، دون أن تنتبه القيِّمة إلى ذلك؟

- لا شيء أسهل من ذلك، أيها القائد، خصوصاً إن كان في غرفته.

- آه...

- للبيت مدخلان يؤدّيان إلى الشارع، أقصد. الأول هو الباب الرئيس؛ أما الثاني فهو الباب الصغير الحديدي في جانب البيت الذي نلج عبره درباً صغيراً يؤدّي إلى حديقة خلف المنزل. حسناً، غرفة القبطان تؤدّي إلى هذه الحديقة خلف البيت. لم يكن يحتاج سوى أن يقفز فوق درابزين النافذة، المنخفض بطبيعته، ويخرج عبر

مكتبة الرمحي أحمد

الباب الصغير. بعد ذلك يمكنه أن يعود عبر هذا الدرب. لم يكن بإمكان القيّمة أن تسمع شيئاً إلا إذا أحدث الضجيج عن قصد، خصوصاً أن غرفتها تطل على الجهة الأخرى من البيت.

- هذا غريب، يا غيديش، هذا أمر غريب. وهو غريب لأنه لا وجود فيه لأي شيء يثير الشبهات، ولا أرى كيف يمكن أن يتعلق الأمر بشيء آخر غير انتحار. في الواقع، وراء الأكمة ما وراءها.

- هذا ما أظنه أنا أيضاً، أيها المفتش...

- لستُ أدري ما وراء هذه الأكمة، لكنها تخفي شيئاً. ولو ثمة ما تخفيه فهي تخبّئه جهة القبطان، لكن، لسوء الحظ، أضاف، لا نرى ولو جزءاً بسيطاً مما تخفيه.

ثم ران الصمت لحظة بينهما.

- حكاية التصاميم هذه هي بيت القصيد في هذه القضية. حكاية هذه التصاميم هي الأكمة التي تخفي ما وراءها. لاحِظ معي: إنني لا أشك ولو للحظة واحدة أن فارغاش قد انتحر. هذا أمر لا غبار عليه. لكن، كيف يعقل أن رجلاً لم يفكر أبداً في الانتحار، يقدم على هذا الفعل في الطريق، ليلاً، وفي جيبه تصاميم لا تقدَّر بثمن -وقد اختفت- بعد أن غادر بيت صاحب هذه التصاميم، وبعد أن تحدّث مع شخص لا نعرف من هو، والذي برز هناك كأن الأمر يتعلق بمعجزة، في تلك اللحظة بالضبط، كأنه جنّي يخرج من كيس؟ هممم... حكاية التصاميم هذه ليست جدّية بتاتاً، خصوصاً حين تختفي التصاميم... أما أن يقدم رجل، ربما يائساً، على الانتحار، تحت تأثير لستُ أدري أي شيء، فذاك أمر لا يزيد هذه القضية إلا تعقيداً. ومهما يكن، فنحن مجبرون على ألا نقلّص في شيء

مجهوداتنا في أي لحظة كي نرى إن كان بإمكاننا أن نكتشف ما جرى. نعم، لأنه أن تقنع شخصاً بأن ينتحر كأن تقتله، يا صديقي. أن تقتله، لاحظ معي، في ظروف اجتمعت فيها كل شروط الجُبن. كأن تدل شقياً على طريق ليلي يؤدي به إلى السقوط المحتوم في وادٍ سحيق. لا، يا غيديش، لا يمكن أن نترك ذلك يمر دون أن نحرك ساكناً.

لكنها دراما إنسانية، يا للعجب! تابع المفوَّض. ثم إنه يشغل بالي كثيراً... نعم، لو تعلّق الأمر بجريمة، لكانت القضية واضحة، حتى إن استعصى الكشف عن القاتل، لكن ما يشغل بالي أكثر، أن الأمر يتعلق بانتحار. لكنه انتحار، لاحظ معي، يتوفر على كل ملابسات جريمة قتل، غير واردة في حالة انتحار. هذا ما يستعصي علي فهمه. بعبارة أخرى، كما قلتُ لك، يتعلق الأمر بانتحار يتوفر، في نظري، على كل مواصفات جريمة قتل. ثم إننا لا نفهم شيئاً، في نهاية الأمر.

- ماذا؟ أتحترز من هذا وذاك؟

- عندما لا أفهم، أحترز من الجميع. أنت، يا غيديش، ألا تشك في أن الأمر يتعلق بعملية انتحار؟ ألا تظن ذلك؟

- كلا، أيها القائد: إنه انتحار، لا شكّ في ذلك.

- إذاً، اشرح لي كيف يقدم رجل على الانتحار في الساعة الثانية صباحاً في طريق من الطرق. إذا ما تلقيتُ شرحاً لهذا الأمر، سأكفُّ عن الاحتراز، إلا إذا بدأت أحترز منك...

- لكن، فيما يفيد أن نعرف أين كان هذان الاثنان ساعة

مكتبة الرمحي أحمد

الانتحار؟ لو تعلق الأمر بجريمة، أيها القائد، أو إذا ما فكرنا أن الأمر يتعلق بجريمة. . .

– آه، نعم، آه، نعم. لكن، لنفترض، مثلاً، أنك تكتشف أن هذا الرجل أو ذاك، كان على مقربة من مكان الانتحار ساعة حدوثه. إن الانتحار يبقى انتحاراً ولا يصبح جريمة قتل، والرجل الذي كان هناك لا يصبح مجرماً. لكنه يصبح من الواجب أن نفسِّر ماذا كان يفعل هناك، ولماذا لم يقل إنه كان هناك. لا تنسَ، يا غيديش، أن لدينا هنا شيئين: انتحار لا نفهمه، وتصاميم نفهم جيداً لماذا تمَّ الاستيلاء عليها. . .

من الممكن ألا تكتشف شيئاً ما يفسِّر الانتحار، لكنه يلقي ضوءاً على مسألة التصاميم. سنكون بذلك قد ربحنا شيئاً ما. إننا لا نعرف أي شيء تماماً، ولا نعرف أي وجهة نقصد كي نعرف شيئاً ما. وإذا كان الأمر كذلك، فلنبدأ بأن نقصد هذه الوجهة أو تلك. إذا لم نقصد أي وجهة فلن نرى شيئاً. ألا ترى ذلك؟

– نعم، تماماً، أيها القائد. سأتكلّف بكل شيء مباشرة. لكني سألتُ فقط. . .

– سألتَ فقط كي تعرف. . . هذا طبيعي. حسناً فعلتَ. هناك من الناس من يسأل كي لا يعرف شيئاً. حسناً، تكلّف حالاً بهذه القضية. إلى اللقاء.

الفصل الخامس

مرت بضعة أيام (وهي قليلة، ربما). يعلم المفتش غيديش (أو المفوَّض باستوش) أن رساماً من ورشة السفن البحرية قد اتصل به، وهو من الأشخاص الذين حقّق معهم بخصوص بافيا مِندش، فزوّده بالخبر الغريب الذي يفيد بأن التصاميم الجديدة، التي قال بافيا مِندش إنه سينجزها، هي التصاميم القديمة في حقيقة الأمر. قاضي التحقيق (الذي يظهر الآن شخصياً): «أنا من سيتكلف بهذا الأمر، يا عزيزي باستوش. من جهتك، اذهب إلى بورتو، وتكلف بقضية النقود المزورة، بينما سنستمتع أنا وغيديش بهذه التفاهة. لقد بدأت الأمور تأخذ منحى أكثر فأكثر طرافة، وليس من العدل أن يتسلى الآخرون دون أن نأخذ نحن أيضاً قسطنا من التسلية». استدعاء حارس البلدية الذي كان في الحراسة، وقرار إحضار بافيا مِندش.

وجّهت الشرطة البحث عن هذا الشخص في ثلاث اتجاهات مختلفة، بأمر من قاضي التحقيق السيد فرانسيشكو دا فونسيكا، الذي حاول، في البداية، أن يحدِّد، بواسطة شهادة مباشرة، كيف كان شكل ذلك الشخص بالضبط. لكن هذه الطريق لم تذهب بعيداً، لأنه

مكتبة الرمحي أحمد

لم تكن ثمة شهادة مباشرة عدا تلك التي أدلى بها الحارس الذي كان في الحراسة، والذي رأى الشخص المجهول يتحدث مع فارغاش. ثم حاول، بعد ذلك، أن يعرف أي شخص يحمل نفس مواصفات الشخص المجهول ويسكن في الجهة الأخرى من المنطقة.

* * *

- إنه رجل في الأربعين، بل ربما يتجاوز هذا السن بكثير. . .
استوقفني وهو يلمس ذراعي، وطلب مني بصوت لطيف:
- أنت هو القبطان فاش، أليس كذلك. . .؟
أجبته بنعم.
- يمكنني أن أتحدث معك سرّياً بخصوص قضية هامة تتعلق بأحد جيرانك الذي انتحر.
فهمتُ للتو أن الأمر يتعلق بفارغاش. كنتُ مهتماً بالأمر، لكني كنتُ حذراً. في حالة ما إذا نتج عن كل هذا شيء غير سار. . .
- كارلوس فارغاش؟ سألتُه.
- نعم. هل يمكنك أن تعدني وعد الشرف، أولاً، أن كل هذا يبقى بيننا، لأن ما هناك من سبب يحول دون ذلك؛ ثانياً، أطلب منك، إن كان ذلك ممكناً، أن يظل هذا الأمر سراً مكتوماً؟
وبما أنني ترددتُ بعض الشيء، فقد شرح لي:
- إن الوعد الذي أطلب منك أن تصونه هو أن تحفظ سراً ما سأخبرك به، لأنه، كما سترى، ليس في الأمر من شيء ملزم. بعد ذلك، قل لي إن كنت قادراً على القيام بما سأطلب منك أن تنجز.
في تلك اللحظة، كان الفضول هو الإحساس المسيطر على نفسي، وبما أن تلك المطالب، بحسب طريقة صياغتها، لم تكن

تتضمن شيئاً خارقاً، فقد أسرعت بإعطائه وعدي بحسب ما كان يريد.

- حسناً، قال راضياً. إن أول شيء أقوله لك هو الآتي: إن تصاميم غواصة بافيا مِندش في حوزتي.

قفزت في مكاني، ونظرتُ إليه مذهولاً.

- كيف ذلك، التصاميم الأصلية؟

- نعم، التصاميم الأصلية.

- لكن، كيف أصبحت في حوزتك؟

- كارلوس فارغاش سلّمني إياها في طريق بينفيكا، عند منفذ طريق بروشا، حيث التقيتُه بالصدفة، حوالي الواحدة والنصف صباحاً يوم 11، أو بالأحرى 12 فبراير.

(انتفض القاضي و غيديش [. . .]).

- فهمتُ للتو. إنه هو، الشخص الذي لم نعثر عليه قط، والذي تحدّث مع فارغاش عند منفذ الطريق. هذا الرجل يناسب تماماً الوصف الذي قدّمه حارس البلدية، باستثناء أن له شارباً كثّاً، ولم يكن له شارب وحسب، بل لحية هدباء طويلة أيضاً.

هذا ما قلتُ له، فأكّده لي. تماماً، هذا هو الرجل الذي رآه الحارس، مع فارق بسيط وهو أنه أرخى لحيته منذ ذلك اليوم.

* * *

- لست أدري ما هو، سيدي القاضي، ولا أعرف كيف أشرحه. لكن، ثمة شيء ناقص. لو عرفنا هذا الشيء الناقص، لست أدري كم من الأشياء الكثيرة قد نعرف. لدي هذا الحدس الذي لا يبرحني. ماذا تريد؟

مكتبة الرمحي أحمد

- آه، سيدي، إن الشيء الوحيد الذي ينقص هو أي سلطة كانت للرجل ذي النظارة على فارغاش. من المحتمل جداً أن يفسِّر لنا هذا أموراً كثيرة، لكنه قد لا يفسِّر لنا الانتحار، لأن الانتحار، بوصفه كذلك، أمر ثابت. إلا إذا كنت ترى عكس ذلك؟

- لست أدري ما أراه، سيدي القاضي. كل هذا جيد، لكني لا أستطيع أن أخلِّص ذهني منه...

- أتفهمُ، يا غيديش، قال قاضي التحقيق، وهو يلتفت نحو المفتش، ليس لدينا هنا من سبب لإجراء أي تحقيق، لا وجود لأدنى جريمة، باستثناء التفاصيل المتعلِّقة بالسرقة التي تعرّض لها القتيل، ثم إنه لدينا مشاغل أخرى. فيما يخصني، سأحيل القضية على نفسي، ولن أتهاون في أداء واجبي. لكن لا أحب الألغاز، لا في هذا النوع من الأمور، ولا في أي أمر آخر؛ وخصوصاً في هذا الصنف من الأمور؛ إنني لا أحبها، وحين تظهر لا أشعر بالراحة إلا عندما أصل إلى النهاية. والحال أن القبطان بافيا مِندش هذا أصبح مُلغِزاً أكثر من اللازم... ألا ترى ذلك؟

- تماماً، سيدي القاضي. ربما نحتاج إلى استجواب بسيط معه، بوجود العناصر التي نتوفر عليها الآن، والعناصر الجديدة...

- نعم، هذا بالضبط ما أنوي القيام به. اسمع، يا غيديش، عليك أن تسدي لي خدمة. انزل نحو ورشة السفن البحرية، واتفق مع قبطاننا العزيز كي يزورنا هنا. غداً بعد الزوال، مثلاً، انطلاقاً من الساعة الثانية، حتى لا تشغلنا مهمة أخرى. غداً بعد الزوال، في الساعة التي يراها مناسبة له. اذهب الآن، وأخبرني بما اتفقتما عليه.

نهضَ غيديش [...].

* * *

- لكن، إنه فعلاً هو، يا سيدي القاضي!

نظر القاضي إلى المفتش غيديش، ونظر هذا الأخير إلى القاضي.

- إذاً، ماذا تقول يا غيديش بخصوص كل هذا؟

- هذا أمر مريب، سيدي القاضي، طبعاً، ليست هناك أية جريمة، لكن الأمر مريب، ما في ذلك من شكّ. عجيب، هذا الرجل كان يبدو صريحاً وصادقاً، غير قادر على أن يخفي أي شيء أو يخلق مشاكل. والآن... والآن ندرك أنه خرج تلك الليلة. هذا لا يعني شيئاً، ربما يتعلق الأمر بمغامرة غرامية...

- ... ثم يسترجع التصاميم.

- فعلاً، سيدي القاضي، هذا ما يزيد قضيتنا تعقيداً.

فكّر القاضي لحظة.

- اسمع، غيديش. إنك لا تعرف شيئاً. اكتفي بالتردُّد، لا غير. أو، على الأكثر، اشكره على [...] غداً بعد الزوال، في الساعة التي يراها هو مناسبة له. موافق؟

الفصل السادس

القبطان بافيا مِندش يدلي بشهادته الثانية.

في الساعة الخامسة والربع زوالاً -وهو الوقت الكافي كي يغادر ورشة السفن البحرية ويصل إلى المحكمة على الساعة الخامسة- طلبَ القبطان بافيا مِندش، في قصر العدالة، أن يقابل القاضي. انتظر خمس دقائق، ثم ولج مكتب قاضي التحقيق وهو يبدو متحمِّساً، لكنه لم يكن مطمئناً تماماً. استقبله القاضي بلطف وتحفُّظ كان إما مقصوداً بشكل واضح وإما، على الأقل، هكذا كان يبدو.

- لقد طلبتُ منك، أيها القبطان، أن تأتي عندي هنا، وأعتذر إن كان ذلك قد تسبب لك في أي إزعاج. أودُّ أن أطرح عليك بعض الأسئلة، وهي أسئلة لا أهمية لها، الغرض منها هو ملأ بعض الثغرات التي ظلت فارغة بخصوص قضية فارغاش.

- بالطبع؛ أنا رهن إشارتك، سيدي القاضي، إذا تعلق الأمر بأسئلة أستطيع الإجابة عنها...

ثم ابتسم القبطان.

- أظن أن الأمر كذلك. السؤال الأول هو كما يلي... انتظر... لدي هنا الشهادة التي أدليتَ بها بخصوص قضية فارغاش. تقول فيها: «غادر كارلوس فارغاش بيتي بضعة دقائق قبل الواحدة

والنصف صباحاً. ذهبتُ إلى مكتبي واشتغلتُ حتى الصباح؛ وحين كنتُ أهمُّ بالذهاب إلى النوم وصل السيد كوشتوديو بورجِس. خرجتُ معه».

توقف القاضي عن القراءة وألقى على ضابط البحرية نظرة تخلو من أي تعبير.

- نعم، قال الضابط. هذا صحيح. هذا ما قلتُه. ما الذي تريد أن تسألني عنه، سيدي القاضي؟ هل يتعلق الأمر بهذا الموضوع؟

- نعم. أريد؛ لا إنني لا أقول «أريد» بل أودُّ لو تشرح لي لماذا أخفيتَ أنك بعد أن غادرت بيتك على الساعة الواحدة والنصف صباحاً، مررت أمام مخفر الشرطة وتابعت طريقك بخطى حثيثة نحو لشبونة. هل كان لقاء غرامياً، أيها القبطان؟

صار بافيا مِندش شاحباً. فجأة، شحب وجهه بالكامل. نظر باندهاش إلى قاضي التحقيق، الذي ظل يسمره بعينيه، دائماً بتلك النظرة التي تخلو من أي تعبير، ووراء ستار خفيف من دخان السجائر، وللحظة كان عاجزاً عن قول أي شيء. علا وجهه تعبير ما. ثم استجمع نفسه، وظلَّ محترزاً؛ ينتظر أن يستأنف الآخر الكلام.

أومأ القاضي بحركة من يده.

- لك الكلمة، أيها القبطان، قال قاضي التحقيق.

تمسّك بافيا مِندش بقوة بحافة المكتب، الذي حدّق من فوقه في القاضي. ثم رفع رأسه فجأة. نظر مباشرة إلى عينيه، وقال:

- سأقول كل شيء، سيدي القاضي، سأشرح لك كل ما تريد أن تعرفه. وأقسم لك بشرفي أن ما سأقوله هو حقيقتي أنا. حين ستستمع إلي، ستفهم لماذا أخفيتُه عليك في البداية. سترى، سيدي القاضي، أن هذا الإخفاء لم يكن له أدنى أهمية.

مكتبة الرمحي أحمد

هزّ القاضي كتفيه بطريقة لا تنم عن أي مراعاة.

- هل لديك التصاميم الجديدة في البيت؟

- نعم، قال بافيا مِندش بصوت متغيّر بعض الشيء.

- حسناً. اذهب إلى بيتك، وخذ هذه التصاميم الجديدة. ضعها مقلوبة فوق الطاولة. في ظهر أحد التصاميم هناك رسالة كُتبت بخط اليد. خذ ممحاة، وامحِ هذه الرسالة: من الأحسن أن تقوم بذلك، كي لا نلاحظ أن هذه التصاميم الجديدة هي التصاميم القديمة.

حدّق بافيا مِندش في القاضي بوجه شاحب وعينين لا تعبِّران عن شيء آخر غير الفزع. حمل القاضي السيجارة إلى شفتيه، ثم ابتسم، لكن بوجنتيه فقط. أما عيناه فظلتا مسمرتين ولا تشيان بأدنى ابتسامة.

- لكن، كيف. . .

- كيف عرفتُ؟ هذا ما كنتَ تريد أن تسأل عنه؟ أم إنك كنتَ تريد أن تسأل عن شيء آخر؟ وفي هذه الحالة، عن أي شيء آخر؟

- افهمني، يا قبطان: أكثر ما أثار حنقي هو أن الشرطة، بكل حسن نية، فتشت عن تصاميمك بكل الطرق، بينما هي كانت في حوزتك. مهما كان دافعك -صائباً كان، أو هكذا بدا لك- لتخفي عن الشرطة أن التصاميم كانت بحوزتك، لم يكن من حقّك أن تخفي ذلك عن الشرطة، ولا عني أنا، مثلاً. عليك أن تفهم أنني أعتبر هذا الأمر نوعاً من عدم الاحترام، إن لم يكن أسوأ من ذلك. . .

* * *

– . . . أمام مرؤوسك.

– لكنك، أيها القبطان، قد ناقضت نفسك وتناقضت أمام هذا المرؤوس نفسه. إن مرؤوسي ليس حاضراً لإرضائي، ولا بمحض الصدفة: إنه هنا ليكون مطّلعاً، إن كان ذلك مجدياً، بكل تفاصيل هذا الحادث. عندما أدليتَ بتصريحاتك، كنت تعلم أن مرؤوسي كان حاضراً، لأنه كان بادياً للعيان. . . لماذا لم تقم، منذ البداية، بتصريحات ربما تجعلني أمتنع من أن أقول لك أي شيء قد يبدو لك مزعجاً، أمام هذا المرؤوس؟ ألا ترى أنه، نظراً إلى الوضعية الزائفة صراحة التي وضعت فيها نفسك، بقدر ما تشرح أمام مرؤوسي، بقدر ما تكون أقل اضطراراً لتفسِّر له؟ فمن المسؤول عن هذه الوضعية، المحرجة حقاً؟ أناشد فيك الذكاء، أيها القبطان بافيا مِندش، أناشد فيك الذكاء، والحس العملي، وروح العدالة.

خلال بضع ثوانٍ لم ينبس القبطان ببنت شفة.

– إذا كانت إحدى جملي قد أهانتك حقاً فإنني أسحبها منذ الآن؛ لكنني لا أستطيع أن أسحب الحالة التي تولّدت عنها تلك الجملة، إن كانت تلك الحالة قد وجدت، لأنك أنت من تسبب في وجودها، وفي الوضع الذي نحن فيه، لا يمكن تصحيحها. جملتي هي مجرد جملة، ويمكنني أن أسحبها؛ أما الحالة المعقّدة التي تسببت فيها فهي واقعة، والوقائع لا يمكن حذفها.

– أعترفُ، على أي حال، أنك على حقّ، سيدي القاضي. أودُّ فقط -كيف أعبِّر عن ذلك؟- ألا تلحّ كثيراً على هذا الأمر، لا أقل ولا أكثر.

كانت طريقة حديث المهندس تنم عن الضجر. وفي عينَي القاضي احتجب نفاذ النظر بعض الشيء، فجأة.

ثم استأنف بافيا مِندش كلامه:

- هذه القضية جعلتني أفكر كثيراً وتسببت لي في الكثير من المضايقات. وجدتُ نفسي وسط تعقيدات ما كنتُ أظنها ممكنة. أنا لستُ دبلوماسياً، ولا رجل قانون، ولا متعوِّداً، لا أقول على الكذب، بل على المراوغة وقول الجمل الملتوية. لكن الظروف أجبرتني على ذلك إلى حدٍّ ما.

ثم رفع رأسه فجأة ونظر إلى عيني القاضي:

- أستسمحك على هذه الرعونة. ربما لو تلقيت تربية مختلفة، أو، لست أدري، مارستُ مهنة أخرى، لواجهت هذه الأسئلة، أو لنسميها كما نشاء، بطريقة أكثر... دفاعية أكثر. أرى أنني لست شاهداً متميّزاً. لم أتلقَّ تعليماً يناسب هذا التمرين...

* * *

- عفواً، قال القاضي مبتسماً؛ أنا مستعد لأصدِّق كل ما ستقوله لي، لكن شريطة أن تقوله. ما تكتمه، لا أستطيع أن أصدقه، لأنني لا أعرف ما هو... الآن، وقد سمعتُ ما قلتَه لي -ولا أستطيع أن أسمع ما حذفته من أقوالك- أعلن أنني مرتاح بخصوصك. أما فيما يتعلق بما قلتَه في موضوع انتحار فارغاش، فأعلن أنني لست راضياً لأنني لم أفهم بعد.

- ولا أنا، سيدي القاضي.

- أعرف ذلك. لكن، أكرِّر، أنا لا أفهمك [...].

- أؤكِّد لك، سيدي القاضي، وأعطيك وعد الشرف، وعد

رجل وبحّار، بأن ما قلتُه لك هو الحقيقة؛ أن التصاميم لم تعد بحوزتي إلا قبل ثمانية أيام، وأنني مضطرّ، بالوعد الذي قطعته، على ألا أقول كيف عادت تلك التصاميم إلى حوزتي. لا وجود في طريقة عودتها إلي ما يُقحم العدالة في القضية أو ما يثير اهتمامك المهني. أؤكِّد لك هذا الأمر وأضع عليه خاتم وعد الشرف. ثم، اسمح لي، سيدي القاضي، أن أقول إنني لا أسمح بأن يُشكِّكَ في كلامي.

ثم صمت لحظة وأضاف:

- إنك لا تصدقني، سيدي القاضي، لكن لا داعي لكي لا تصدقني.

- هناك شيء، أيها القبطان. كم من الوقائع المحذوفة الأخرى التي غلّفتها هنا بوعود الشرف؟ يستحسن ألف مرة أن نسمعها من فمك وأن تستفيض في شرحها. وخاصة فيما يتعلق بهذه النقطة.

احمرّ وجه البحّار، ثم نهض من الكرسي متردِّداً.

- لكن، أتدري، سيدي القاضي، أنك تسبني؟

- لا، إننا لا أسبك، ردّ القاضي دون أن ينهض، بل إنه، على العكس من ذلك، استراح أكثر في مقعده. أنت من سبّنا، نحن الشرطة، لأنك لم تحترمنا... أنت [...]، ثم إنك حذفت من أقوالك أنك مررت بالطريق. إن الخطأ الذي ارتكبتَه ليس فادحاً، لكن لو تعلق الأمر بقضية أخرى لكان كذلك. ولم تكن تدري إن كنت سترتكبه أم لا. هكذا، حين تأكّد شرطة بينفيكا من أن الرجل الذي نزل عبر الطريق مباشرة بعد الانتحار هو الرجل الذي أفرغ جيوب فارغاش، أخذوا يبحثون عمّن يكون هذا الرجل. لكن، قل لي، أيها القبطان، [...] هذه، ألا يمكن أن تحتفظ بها دون أن تحوم حولك الشكوك بأنك [...]، أنت، بالضبط، بسبب الساعة؟

- أنا، سيدي القاضي؟
- أنت، أيها القبطان، كأي مشتبه فيه في دعوى قضائية.

- أشكرك على كل ما تفضّلت بقوله. أما ما لم تقله لنا، اسمح لي، فلا أستطيع أن أشكرك عليه بعد [. . .].

الفصل السابع

الشهادة الثانية التي يدلي بها كوشتوديو بورجِس. يبدو أن القضية قد طويت. غيديش لم يقتنع بعد. الإعلان عن قدوم كْواريشْما.

- إنني أعرف أشياء كثيرة، يمكن أن نصفها بالشخصية جداً، عن حياته، لكن ثمة أشياء كثيرة لا أعرفها... كما أنه لم يخبرني شيئاً، مثلاً، عن الصفقات التي كان يعقدها مع بافيا مِندش، وهناك أيضاً أمور أخرى، لا أقول كثيرة لكنها أمور أخرى، لم يحدّثني عنها من دون شكّ. ومن الطبيعي أن ما يحمل المرء على الانتحار يمكن أن يكون شيئاً شخصياً جداً. يصعب علي أن أصدِّق أنه انتحار لأنني لم أرَه مهموماً حق، ولم أكن أعلم شيئاً عن شيء يمكن أن يتسبب له في هم كبير. لكن، طبعاً، فيما يتعلق بالهموم، يمكنه أن لا يتركها تبدو عليه، حتى لا يسأل أحد عنها، أما فيما يتعلق بسببها، فيمكن أن تكون أي شيء في هذه الحياة الدنيا... إن لم يحدثني عنها، فلا أستطيع أن أتكهّن بها، ثم، أكرِّر ذلك، تحفُّظي على الاعتقاد بأنه انتحر يرجع أساساً على انشغالي العابر عندما لم أرَه يرجع تلك الليلة. على أية حال، أنا لا ألحّ.

كنتُ صديقاً مقرباً من فارغاش، لكن، افهمني، لم تكن علاقة

جد حميمة. ثم إن فارغاش لم يكن حقاً يبوح بانتظام. وهذا ربما هو حال معظم الناس، من جهة أخرى.

[. . .]

الفصل الثامن

أبيليو كْواريشْما. منذ ظهوره إلى غاية الحل الجزئي.

الرجل الذي دخل إلى مكتب القاضي، والذي سرعان ما رفع نحوَهُ هذا الأخير عينَيه الزرقاوين الهادئتين، لم يكن ينم عن أي ميزة جسدية، ولا عن أدنى ميزة جسدية تشي بميزة أخلاقية، يمكن أن تجعل منه شخصاً يلفت الانتباه وسط مجموعة من الناس. كان متوسط القامة، أصلع قليلاً بجبهة مرتفعة، له شارب ولحية لم يُشذّبا بشكل جيد، لونُهما كستنائي يميل إلى الرمادي مثل شعره. يرتدي ملابس رمادية. بزّة ومعطف باليَين نوعاً ما. شكله العام يوحي بذكاء عادي: شكل ملابسه يليق بأعزب لا هو ممن يعتنون بمظهرهم ولا هو ممن يهملون هندامهم؛ كان ذا هيئة بسيطة دون أن يكون متواضعاً فعلاً، وتعبيره مباشر دون أن يبلغ الوقاحة. تقدَّم باحترام، بطريقة لا هي أنيقة ولا هي خشنة، نحو مكتب القاضي، وحين دنا منه كثيراً، حياه بانحناءة من رأسه تخلو قصداً من أي إحساس.

– كنتَ تريد أن تتحدث معي؟ سأله القاضي. إنني مشغول بعض الشيء الآن، لكن مع ذلك أصررت على استقبالك. عن أي شيء تريد أن تحدّثني؟

– في موضوع موت رجل يدعى كارلوس فارغاش، أجابه الوافد الجديد.

مكتبة الرمحي أحمد

- هل أنت هو كْواريشْما، أبيليو كْواريشْما إن لم أكن مخطئاً؟ يبدو لي أن الحاجب قد أخبرني أن. . .

طرح القاضي أسئلة غير مجدية، رغم أن المفتش غيديش الذي، حين سمع الحديث يدور حول فارغاش، أبدى اهتمامه، فقد أدرك أن القاضي كان يريد ربح الوقت ليُقَيّم مسبقاً الأهمية الممكنة لهذه الزيارة، التي لا يُعرف عنها أي شيء بعد، ولكنها كانت على صلة بالقضية التي أشار إليها.

- نعم، أنا هو، أجاب الزائر. اسمي أبيليو كْواريشْما. في الحقيقة الدكتور أبيليو كْواريشْما. أنا دكتور في مجال الطب.

- اجلس يا دكتور. هل كنت صديقاً لفارغاش المسكين هذا؟

- لا، أنا لا أعرفه. ثم إنني لم ألتقِ به قط. سبب زيارتي ليس أن أدلي بشهادة بل لأقدِّم توضيحاً.

توقف كْواريشْما، ثم استجاب لإشارة يدوية فقط من القاضي فسحب كرسياً وجلس. بعد ذلك، رفع عينَيه نحو القاضي وقال ببساطة كبيرة:

- ليست لي أي علاقة بقضية فارغاش، لا شخصياً كما قلتُ لك، ولا رسمياً، كما تعرف بالطبع، سيدي القاضي. لكن، ظهر لي أن قاضي التحقيق لم يفكّ رموز المسألة التي تشكِّل أساس هذه القضية، وبما أنني، من جهتي، تمكّنتُ من حلّها على سبيل التسلية، بدا لي أنه ربما يكون من المهم أن أقدّم هنا المعلومات الناتجة عمّا توصّلتُ إليه أثناء فكّ رموزها. يمكن ألا ترغبوا في تلك المعلومات، يمكن ألا تكونوا في حاجة إليها بل ربما تعرفون سلفاً ما جئتُ لأقوله لكم. وفي كل الحالات، سأنسحب دون خيبة ولا

ندم. لكن، يبدو أن أي حالة من هذه الحالات واردة هنا. يبدو أن قضية فارغاش لم يُكشف بعد عن سرها. . .

– ما الذي تسمّيه «قضية فارغاش»، يا دكتور؟

أشعل القاضي سيجارة أخرى ونظر إلى الطبيب نظرة غير مبالية.

– أطلقُ اسم «قضية فارغاش» على تلك الواقعة البوليسية التي حدثت بسبب موت كارلوس فارغاش واختفاء تصاميم غواصة القبطان بافيا مِندش.

– لكن، كيف يشكِّلُ هذا شيئاً يمكن أن نصفه بـ«قضية»؟ إنك تنطق كلمة «قضية»، يا دكتور، بنبرة من يشير إلى لغز. وليس ثمة أي لغز في هذه القضية. في البداية، شغلتنا فكرة انتحار رجل على الطريق على الساعة الثانية صباحاً. لم يعد ذلك يشغلنا الآن: عرفنا بعد ذلك لماذا انتحر.

– أتعرفون؟ (ابتسم الدكتور كْواريشْما).

– نعم. لماذا؟

– لأنه، لو كنتم تعرفون، فإنكم لا تعرفون شيئاً، أجاب الدكتور كْواريشْما.

وضع قاضي التحقيق سيجارته فوق المرمدة بحركة ارتعاش خفيفة تنم عن غضب عابر، شبك يديه على حافة المكتب ونظر إلى الطبيب مباشرة في عينيه.

– ماذا تنتظر منا بالضبط، يا دكتور، أو ماذا تريد أن تقول لنا؟

– أريد أن أقدِّم إلى غرفة التحقيق هذه حلّ قضية فارغاش. فكرتُ أنها لا تتوفر على الحل. وأعرف الآن أنها لا تتوفر عليه.

مكتبة الرمحي أحمد

أعتبر أنه من واجبي -واجب فكري أكثر منه أخلاقي. . .- أن أقدِّم الحل.

- هذا صحيح. لنترك الآن قضية فارغاش. هل يعني هذا أن لديك وقائع تتعلق بهذه القضية، وأنك أتيت لتقنعنا بأهمية هذه الوقائع لأنك ترى أننا في حاجة إليها كي نلقي الضوء على بعض جوانب القضية أو على ما له صلة بها؟ نقطة أولية: هل تصريحاتك، أو بالأحرى الوقائع التي تستند إليها، لها علاقة مباشرة بكارلوس فارغاش، أم هي، على العكس من ذلك، ترتبط بتصاميم السيد بافيا مِندش؟ لنبدأ من هنا. . . ولنطرح السؤال بكل وضوح. ما الذي كنت شاهداً عليه، أو ماذا علمت، يا دكتور؟

- لم أكن شاهداً على أي شيء، لكني على علم بكل شيء، أجاب الدكتور كْواريشْما. ما أتيتُ لأقدِّمه لكم ليس وقائع، بل استدلالات؛ وبذلك فأنا لا أقدِّم فقط عناصر للكشف عن الحقيقة، بل الحقيقة نفسها. إذا فضّلتم أن أقول الأمور بهذا الشكل، سيدي القاضي، فسأقولها بهذا الشكل. جئت لأقدِّم حججاً. إن الوقائع غير موثوقة تماماً، ولا تساوي شيئاً أمام الحجج.

نظر كل من القاضي والمفتش في الوقت نفسه إلى الطبيب نظرة متشابهة ومختلفة. كانت نظرة غيديش تنم عن دهشة قلق، نظرة شخص لا يفهم شيئاً، ولا يفهم لماذا لا يفهم. أما نظرة القاضي فكانت نظرة دهشة أكثر تردداً وأقل اضطراباً؛ وبدا كأنه يتساءل مع نفسه إن كان هذا الخطاب ناتجاً عن الجنون، كما يبدو، أو عن مزاح، كما يبدو، ولو أن المكان والظروف لا يناسبان ذلك، أو مجرد تأكيد، كما يبدو قابلاً للتصديق ليس إلا، رغم أن ذلك يبدو

أكثر غرابة. ألقى الدكتور كْواريشْما نظرة على كل واحد منهما ثم توجَّه مبتسماً إلى القاضي:

- إن تأكيداتي، قال، تتخذُ شكلاً غريباً، من دون شكّ. لكنها حقيقية، بكل صرامة. فقط أردتُ أن أبيّن لك، سيدي القاضي، لماذا جئت إلى هنا. جئتُ لأنني أهتم بالمسائل، من الألغاز إلى الأساطير؛ لأنني وجدتُ في قضية فارغاش مسألة غريبة، تحتوي على ما يكفي من العناصر لحلِّها؛ وأخيراً، لأنني واثق، أو شبه واثق، بأن التحقيق لم يستخلص من الوقائع الاستنتاج المحتوم بالنسبة إلى شخص يمارس الاستدلال.

- إذاً، أنت تحكم علينا بأننا لسنا أذكياء بما يكفي، يا دكتور؟

هزّ كْواريشْما كتفيه قليلاً. ونمّت حركته الخفيفة عن موافقة عابرة.

- إنني لا أحكم، بل أرى أنكم لستم متعوِّدين على حلّ مسائل مستعصية. إن الأمر لا يتعلق بقلة ذكاء؛ إنها بالأحرى قلة ممارسة فكرية.

- حسناً، قال القاضي بصوت بطيء، ما الذي جئت لتطلعنا عليه يا دكتور؟

- الحقيقة، أجابه الدكتور كْواريشْما.

ثم وضع يديه على ركبتيه المنفرجتين، وتابع قوله:

الفصل التاسع

حول فنّ الاستدلال (التحقيق). نظرية وتحقيق أولي حول قضية فارغاش.

- إن الطريقة المثلى للاستدلال في قضية مثل هذه، قال كْواريشْما في بداية حديثه، تمر عبر ثلاثة مراحل من الاستدلال. تتمثل الأولى في تحديد ما إذا وقعت الجريمة فعلاً. وتتمثل الثانية، بعد تحديد الجريمة، في تحديد متى -وأحياناً، أين ومتى- ولماذا تمَّ ارتكاب الجريمة. وتتمثل الثالثة، باستعمال العناصر المحصّل عليها خلال المرحلتين السابقتين، وخاصة المرحلة الثانية، في تحديد مرتكب الجريمة.

كان يتحدث بطريقة كانت بالأحرى منطقية، وإن بدت أدبية، وتنتمي إلى خطاب مكتوب حتى إن اتخذت شكل خطاب دقيق.

- إن الاستدلال، أو، بصفة عامة، الذكاء، يشتغل على الأحاسيس -وهي معطيات تقدّمها الحواس، حواسنا وحواس أشخاص آخرين- وهو ما يصطلح عليه قانونياً بالشهادة. بعد أن يشتغل الاستدلال على هذه المعطيات، محدِّداً قيمة الشهادة الناتجة عن كل واحد، مقارناً بينها، محصِّلاً -كل ما كان ذلك ممكناً- انطلاقاً من معطيات (معروفة) إلى معطيات أخرى (غير معروفة إلى

حدّ الساعة)، نتمكن من الحصول على ما يُسمّى **الوقائع**. إن الاستدلال المشتغل على معطيات الحواس، يستخلص منها الوقائع، يمكن أن نطلق عليه اسم الاستدلال المحسوس. عندما تأتي من شهادات لا يمكن التحقُّق من صحّتها؛ ولا تتناقض حين نقارن بينها؛ عندما تكون الشهادات متفرِّقة، أو رفقة أخرى تؤدّي إلى اكتشافها، حين تكون متوفِّرة بما يكفي لتكوِّن الوقائع المترتِّبة عنها مجموعة متناغمة ومنطقية، ما يمكننا دون شكّ من تحديد **الواقعة** في طبيعتها، أسبابها وأهدافها، وتشكِّلُ هذه الوقائع تفاصيلها، هكذا يكون التحقيق قد انتهى، ويكون الاستدلال المحسوس كافياً لإنهائه.

لا يحدث هذا إلا لماماً، وفي مناسبات قليلة، إذا تبيّن أن الواقعة ليست بسيطة، أي أنها تتكون من عدد من التفاصيل التي يمكن التحقق منها بسهولة. انطلاقاً من اللحظة التي تكون فيها الحالة أكثر تعقيداً أو أكثر غموضاً، يصبح من الضروري الصراع ضدّ الصعوبات المرتبطة بانعدام الشهود الموثوق بشهادتهم (ويعتبر عدد كبير من الشهود غير موثوق بشهادتهم، بسبب انعدام الملاحظة، نظراً إلى افتراضات طبيعية أو عاطفية، وأيضاً بسبب سوء نية مقصودة)؛ ويعود ذلك إلى قلة المعطيات، ما يُصعّب المقارنة بينها، ويجعل من الصعب أيضاً أن نكتشف من خلالها معطيات أخرى، خفية بدورها. والحال أنه في القضايا الجنائية، تنزع المعطيات إلى أن تكون غير موثوقة، وقليلة، وبسبب قلتها تكون دون علاقة فيما بينها. إن من يرتكب جريمة، إلا إذا تعلق الأمر بجناية وقعت بشكل مفاجئ وطارئ، بسبب الانفعال أو الجنون، يسعى أن يترك أقل عدد ممكن من آثار الجريمة؛ وألا يترك، عند التحضير لها، وأثناء تنفيذها وعند نتائجها المباشرة، أي شاهد. من هنا تأتي قلة الوقائع، وبسبب هذه

مكتبة الرمحي أحمد

القلة، أو انعدام العلاقة بينها، **لأن قلتها** تحدُّ من العلاقات التي تربطها. وأخيراً، وفي مجال الجريمة، فإن أسباب **قلة** الشهود الموثوق بشهادتهم تنزع نحو الكثرة. إن الطبيعية السرية للجريمة تساهم في أن ما نلاحظ بخصوصها، أو من حولها، تكون ملاحظته غير تامة. وتنزع طبيعة الجريمة الهامة إلى توليد شهادات بطريقة تخمينية غير إرادية، وتؤدي العناصر العاطفية المترتِّبة على ذلك إلى تقديم شهادات ترتكز على أفكار جاهزة. حين تنطلق الشهادة، عرفنا ذلك أم لا، من حيث يوجد تواطؤ مباشر في الفعل أو تواطؤ غير مباشر بسبب التعاطف أو النفور، ينزع الشهود إلى التصرف بسوء نية، أي بزيف صريح. لهذا، فإنه في أغلب الجرائم العمدية، إذا كان مرتكبها ماكراً أو ذكياً، إذا لم يحدث في مسرح الجريمة أي حادث خارجي يربك المخطّط المهيّأ، أو، بعد الجريمة، خطأ يرتكبه المجرم أو تبليغ يقوم به شخص آخر يحل مكانه بعد ذلك، يترتب على ذلك قلة المعطيات، وبالتالي انعدام العلاقة بينها، وشهود تتباين درجات الثقة بشهادتهم ما يجعل الاستدلال المحسوس غير كامل، بل غير قادر على اكتشاف الواقعة في رمتها وطبيعتها.

حينئذ، وكوسيلة أخيرة، علينا أن نلجأ إلى **الاستدلال المجرّد**. من بين ثلاث طرق، يستعمل الاستدلال المجرّد طريقة واحدة أو طرقاً متعددة: الطريقة السايكولوجية، الطريقة الافتراضية والطريقة التاريخية. وحدها الطريقة السايكولوجية تندرج كامتداد لعملية الاستدلال المحسوس: تتمثل في تعميق تحليل المعطيات التي يستخلصها الاستدلال المحسوس، ليس للاكتفاء بمعرفة طبيعة الوقائع، بل كيف كانت الحالة الذهنية أو الحالات الذهنية التي تسببت في الواقعة. بعض الشهود يقولون إن واقعة ما حدثت على

الساعة الرابعة زوالاً، ويقول شاهد آخر إنها حدثت على الساعة الرابعة والنصف. على الاستدلال المحسوس أن يحدِّد، في أغلب الأحيان، في أي ساعة من هاتين الساعتين حدثت الواقعة؛ لأنه من الممكن أيضاً أن نصل إلى نتيجة تقول إن ذلك لم يحدث في أي ساعة من الساعتَين المذكورتَين. أما الاستدلال المجرّد، نظراً إلى علمه بأن أحد الشاهدَين مخطئ، أو أن كلاهما مخطئَين، فيسعى إلى أن يعرف لماذا أخطأ أو لماذا أخطآ معاً. يمكن ألا يكون للأمر أية أهمية، طبعاً، أو يمكن أن تكون له أهمية واحدة؛ وأذكر ذلك فقط لأبرز في أي شيء تشبه الطريقة السايكولوجية للاستدلال المجرّد الطريقة الوحيدة للاستدلال المحسوس، وفي أي شيء تختلف عنها، مع أنها امتداد له رغم ذلك.

تتمثل الطريقة الافتراضية، بالاعتماد على الوقائع القليلة، أو حتى المعطيات، التي نتوفر عليها، في صياغة فرضية حول ما يمكن أنه وقع. إذا ما تبيّن أن مقارنة الوقائع أو المعطيات، أو غياب وقائع أخرى قد توجد بالضرورة لو أن الفرضية تناسب الحقيقة، تجعل الفرضية من دون سند، فإننا، إذاً، نصوغ فرضية أخرى بالاعتماد، إن أمكن، على الأخطاء الجلية للفرضية الأولى؛ وهكذا دواليك إلى أن نجد الفرضية التي تفسِّر الوقائع المعروفة وتستحضر وقائع يمكن التحقق منها لتُعرف بعد، بل يجب أن نعدل عن الأمر، لأن أي فرضية من الفرضيات التي صغناها قابلة لندافع عنها. تبدو هذه الطريقة أكثر خيالاً وأقل فكراً، وتنتمي أكثر إلى مجال الأحجية منها إلى مجال التحقيق. والحال أنها ليست كذلك. إن نتيجة الخيال، بطبيعتها، غير موجودة في الواقع؛ ونتيجة التخمين الافتراضي تعتمد

مكتبة الرمحي أحمد

عليه أساساً. في الحالة الأولى، يشتغل الذهن دون حدود، أو دون حدود غريبة عن الخيال نفسه وعن التناغم والانسجام الحاصل بين هذه النتائج نفسها. في الحالة الثانية، يشتغل في حدود المعطيات أو الوقائع، مهما كانت قليلة، والتي تشكّل أساسه. هذه الطريقة في الاشتغال للتقدم في البحث هي المستعملة غالباً في مجال العلوم. بالنسبة إلى الأمور الأكثر دقة بطبيعتها، ما دامت تنقصنا عناصر للحصول على الحل العلمي، فإن هذه الطريقة هي التي يجب أن نتبناها. إذا كانت لدينا معادلتان بثلاث مجاهيل، فإنه لا يمكننا حلهما بطريقة جبرية: إلا إذا استسلمنا، فإنه علينا أن نشتغل بفرضيات، لنتوجه نحو الحل، كما يحدث في أي طريقة افتراضية، بالتخمين.

تشبه الطريقة التاريخية الطريقة الافتراضية، وتختلف عنها قليلاً في أنها تستعمل الأمثلة التخمينية. يمكن أن نجد، في ظروف واقعة معيّنة، لنقل جريمة، أوجه تشابه مع واقعة أخرى من نفس النوع، لدينا معرفة تاريخية عنها. نستطيع، في هذه الحالة، كي نفسِّر الواقعة اللاحقة، أن نصوغ فرضية، تخمينية بالتأكيد، ككل الفرضيات، لكنها ليست تخييلية. هذا لا يعني أن الطريقة التاريخية، في حدّ ذاتها، أكثر قيمة من الطريقة الافتراضية. كلا الطريقتين يمكن استغلالهما وكلاهما قابلتين للخطأ. يبدو ظاهرياً أن الطريقة التاريخية تنتمي إلى مجال الموسوعة، لكنها في الواقع ليست كذلك. طبعاً، تتطلب الطريقة التاريخية معرفة بتاريخ القضايا التي يمكن أن نصنِّف ضمنها القضية التي نحقِّق بشأنها، تماماً كما تستوجب الطريقة الافتراضية الخيال. لكن الموسوعية التاريخية المجرّدة لا تهم بقدر

ما تهم الطريقة التي نوظّفها بها؛ تماماً كما لا يهم الخيال المجرّد أكثر مما تهم طريقة الدفع به. من الضروري أن نبحث في الماضي عن مثال يقدّم تماثلاً حقيقياً مع القضية التي نحقق بشأنها، وهذا التماثل لا يكون دائماً جلياً بشكل مباشر؛ وهو ليس جلياً أيضاً بخصوص التفاصيل، ولا في ما يتعلق بالأشخاص. إن التماثل يوجد أحياناً في ما هو خفي، في النوايا التي يجب فكّ شفرتها، والمهم هو أن نعرف كيف نميزه رغم الاختلاف، لأنه لا بدَّ من وجود ولو اختلاف واحد بين الحالتين.

طبعاً، إن كل عمليات الطريقة المجردة هي، بحكم طبيعتها، تخمينية، رغم أنها كذلك بطريقة مختلفة، أي لأسباب متباينة. علينا ألا ننسى أن الذهن لا يتكون من أجزاء معزولة عن بعضها البعض، وأننا، عملياً وبشكل لا إرادي، نستعمل عدة طرق، وأنه حتى إن كان الاستدلال المجرد بطبيعته تخميني، بخلاف الاستدلال المحسوس، فإنه في واقع حياتنا الذهنية، لا نستعمل الاستدلال المحسوس في شكله الخالص، كما لا نستعمل الاستدلال المجرد في شكله الخالص. ثمة دائماً، في الأبحاث التي ننجزها بواسطة الاستدلال المحسوس، عنصر أو عنصران، مهما كانا عابرَين، ينتميان إلى التخمين، والافتراض، أي إلى الاستدلال المجرّد؛ وغالباً ما يتحول الاستدلال المجرّد إلى استدلال محسوس حتى لا يتيه. كل شيء في ذواتنا سائل وممزوج. إننا نقوم بتصنيفات كي نفهم، لكننا نعيش في جسدنا كما نعيش في ذهننا، خارج أي تصنيف.

يمكنكم أن تسألوا لماذا قمت بإلقاء هذا الخطاب المطوّل حول

مكتبة الرمحي أحمد

أُسُس التحقيق. أولاً، لقد قمت بذلك لنفهم منذ البداية ما هي الطرق التي نستعملها لإنجاز التحقيق، ما هي نقط قوتها وما هي نقط ضعفها، وأين يكمن الاختلاف ونقط التكامل بينها. ثانياً، لقد قمت بذلك لأنه، بعد تمييز هذه الطرق، سنعرف كيف نعتمد عليها متفرِّقة، دون أن نخلطها بشكل اعتباطي، لأن ذهننا غالباً ما ينزع إلى خلطها، ولأنه كلما خلطنا الطرق بشكل أقل كلما ازدادت سهولة استعمالنا إياها تباعاً، إن احتجنا إلى ذلك، كي نتمكن من النجاح. ثالثاً، لقد قمتُ بذلك لأنه علينا، نظراً إلى ضعف نتائج الطريقة المحسوسة والشك الذي يميز نتائج الطريقة المجردة، أن نكون محترزين. لأننا بالاحتراز نتوخّى الدقة. وإذا كنا دقيقين، فقد لا نصل إلى نتيجة؛ لكننا إن افتقدنا الدقة، فلن نصل حتماً إلى أي نتيجة.

بعد هذا، أيها السادة، سأدخل في صلب الموضوع.

صمت الدكتور كُواريشْما، أخذ نوعاً من النَّفَس الجسدي والذهني في الوقت ذاته، وهو يشعل بتثاقل السيجار الذي نسيه في يده اليسرى بينما كان يقوم بحركات عابرة. أشعله، ثم تابع قائلاً:

telegram @ktabpdf

الفصل العاشر

تطبيق الطريقة الافتراضية على قضية فارغاش. تحديد احتمال تجريم بورجِس.

- فيما يتعلق بهذه الواقعة هناك، بالطبع، ثلاث فرضيات: حادثة، انتحار، قتل. إن تطبيق الطريقة الافتراضية يتمثل، قبل كل شيء، في تحديد أي هذه الفرضيات هي الأكثر احتمالاً: فلنطبِّق عليها، إذاً، الفرضية التي قد تفسرها ظاهراً.

إن قضية فارغاش ليس لها شكل حادثة. ليس من المستبعد تماماً أن تكون قد وقعت حادثة، لكن الفرضية التي قد نصوغها لتفسير حادثة ربما تكون جد معقدة وجد مستبعدة حتى أنه يستحسن أن نترك جانباً، على الأقل مؤقتاً، أطروحة الحادثة، لنرى إن كانت إحدى الفرضيتَين الأخريين تناسب الخيال بشكل أفضل.

بالفعل، حتى تقع حادثة، علينا أن نفترض أن فارغاش، بعد أن دخل إلى الطريق أو ما أن بلغ نقطة معيّنة من الطريق، أخرج مسدسه. كل شيء طبيعي إلى حدّ الآن؛ إذ لو أخرج المرء مسدساً أو مشى وهو يحمل مسدساً في يده فذلك أمر عادي جداً في طريق مثل هذه. الأمر الذي يصعب التحقق منه هو الانتقال من هذا الفعل العادي حقاً إلى فعل يتمثل في وضع أنبوب المسدس على جانب

مكتبة الرمحي أحمد

الرأس (على الصدغ الأيمن). على أي حال، يمكننا أن نتصور رجلاً يحمل مسدساً بنية الدفاع عن النفس، لكن يصعب أن نتصوره وهو يوجه السلاح نحو نفسه، وخاصة نحو جزء من جسده مثل الرأس. علينا أن نصوغ افتراضاً معقّداً كي نقبل هذه الإمكانية، وهذا الافتراض هو أن فارغاش، بعد أن أخرج المسدس، كان يمشي والسلاح في يده، فانزلق فجأة -ولمس الحائط مثلاً، لأنه فعلاً احتك بالحائط- وفقد توازنه، فإذا به يرفع يده، أو كلتا يديه، كي لا يسقط، أو عندما قام بأدنى حركة في نيته الغريزية الأولى هذه. وعندما قام بهذه الحركة المفاجئة، المصحوبة بارتعاد عصبي جعله يرفع زناد المسدس، لمسه هذا الأخير لحظة في صدغه، وفي تلك اللحظة انطلقت الرصاصة. يمكننا أيضاً أن نفترض أن فارغاش أصيب بدوار، جعله يرفع يديه نحو رأسه، وعندما فقدَ توازنه لهذا السبب حوّل اتجاه المسدس، وأطلق الزناد متوتراً. هذه تنويعة لنفس الحكاية الافتراضية.

- لدينا هنا فكرة جد مبتكرة، صاح القاضي مبتسماً. إنها ليست محتملة جداً، من دون شكّ، لكنها فرضية أكثر احتمالاً مما قد يتصوره أي أحد يتبنى فرضية الحادثة. كنتُ أظن الحادثة أمر لا يمكن تصوره تماماً، ولكنك بيّنت لي للتو أنها ليست كذلك، بل أقول إنها أبعد ما تكون من ألا نتصورها. لا يوجد ما هو أكثر ابتكار من هذا.

فردّ له كْواريشْما الابتسامة.

- عندما تكون المعطيات نادرة، سيدي القاضي، فإن الإنسان المعتاد على استعمال مناهج الاستدلال لا يجد صعوبة كبيرة في صياغة فرضية، حتى بالنسبة إلى أكثر الافتراضات عبثية، كما تبدو

أولياً فرضية الحادثة في الحالة التي تهمنا. تماماً كما يحدث مع تداعي الأفكار. فبين فكرتَين، مهما كانتا مختلفتَين ومتناقضتَين بطبيعتهما، يمكننا دائماً أن نجد رابطاً منطقياً، بإقحام عدد محدَّد من الأفكار الرابطة التي تجعل الانتقال من الأولى إلى الثانية أمراً منطقياً. عندما تكون هناك ثلاثة أفكار متناقضة ظاهراً بدل فكرتَين، فإنه يكون من الصعب بعض الشيء أن نجد انتقالاً منطقياً من الأولى إلى الثانية ومن الثانية إلى الثالثة. وبتزايد الأفكار تزداد صعوبة وضع حلقات الربط بينها، إلى أن نبلغ عدداً من الأفكار تكفي كي يستحيل أن نُكوِّن بواسطتها **كلّاً** متناسقاً من التداعيات. وينطبق الأمر نفسه على معطيات أي مسألة أخرى. فمهما كانت المعطيات قليلة يمكن دائماً أن نجد حلّاً تخيُّلياً يضمّها جميعاً ويشكِّل بواسطتها واقعة منطقية. عندئذ، نجد نفسنا أمام حالتَين: 1) إما أنه لا يوجد غير حل واحد، وهو مستبعد، 2) وإما أن هناك حلولاً متعدِّدة قابلة للتطبيق بالتساوي، فيصعب، بل يستحيل اختيار واحد من بينها، مع أنها محتملة.

- مهلاً، دكتور: لماذا يجب أن يكون هذا الشيء أو ذلك؟ لماذا لا يمكن أن يكون ثمة حل واحد، لكنه محتمل؟

- لأنه كي يحدث هذا، يجب أن تكون المعطيات بسيطة في حدّ ذاتها، لأن الحل لا يمكن أن يكون بسيطاً أيضاً إلا بتوفر هذه الشروط، وأن يكون محتملاً هذا يعني أن يكون بسيطاً، لأن ما هو مستبعد، في مسألة منطقية، هو ما هو معقّد بكل بساطة. لكن، إن كانت المعطيات بسيطة، فإن عدّة فرضيات تبرز بسهولة، لأن البسيط هو ما لا يتوفر على العديد من الصفات، وما لا يتوفر على العديد من الصفات هو الذي يمكن أن نسند إليه عدداً كبيراً منها، لأنه لا

وجود لصفات أخرى تناقضها. إن الفرضية لا يمكن أن تكون فريدة ومحتملة إلا إذا تعلّق الأمر بعدد كبير من المعطيات، وهذا بالضبط ما ليس وارداً، لا في الفرضية التي قدّمتُها، ولا في الطريقة الافتراضية، ولا في استعمال الاستدلال المجرد عامة: كما قلتُ، هذا الأخير لا يفيد إلا عندما لا يشتغل الاستدلال المحسوس، ويحدث هذا عندما تكون المعطيات غير كافية.

- فهمتُ تماماً. تابع من فضلك دكتور كْواريشْما.

- لنفحص، الآن، فرضية الانتحار. إن الانتحار، في جوهره، فعل مُنافٍ للطبيعة، لأنه مواجهة مباشرة للفرد ضدّ الغريزة الأساسية من كل غرائزه، وهي غريزة البقاء. ثم إن الانتحار متناقض. فهدف من يقدم على فعله هو أن يلغي شيئاً يشكِّلُ جزءاً من حياته، شيء يرعبه ويمارس عليه قمعاً. لذا يلغي حياته نفسها. إن غريزة إلغاء شيء يمارس قمعاً أو رعباً اندفاع طبيعي، ينبع من غريزة البقاء نفسها، يرفض بشكل طبيعي كل ما يُرعب أو يمارس القمع، كما يرفض الألم والقبح، لأنه يُضعف هذه الحياة التي نريد أن نحافظ عليها.

لكن، برغبته في إلغاء هذه الرعب أو هذا القمع، فإن من يريد الانتحار يضل، تتشوش غريزته، يتناقض؛ فينتهي به الأمر بالاعتداء على هذه الحياة نفسها التي أراد أن يلغي الرعب والقمع دفاعاً عنها. هكذا، فالانتحار، كما هو واضح، فعل ناتج عن الهلع؛ وطبيعته تتلاءم وطبيعة هذا الشكل الحاد، الغريب والمفارق من الخوف. إن الحيوان يملك هبة الخوف للدفاع عن نفسه أمام الخطر، إما بالهروب منه، وإما بمواجهته بالعنف، ذلك العنف الناتج عن الخوف

نفسه. ومع ذلك فإن الحيوان، أثناء الهلع، إما يظل جامداً ومرتعداً، رغم أنه لا يستطيع لا الهروب ولا الدفاع عن نفسه، وإما يهرب مهتاجاً في أي اتجاه، وهذا يمكن أن يكون أسوأ من مصدر الخطر نفسه، إذ ربما يفر نحو مصدر الخطر أحياناً. وبذلك يعارض غريزة الهروب نفسها -هروباً من الخوف- التي تتمثل في البحث عن الأمان والخلاص.

إن الهلع يحدث لدى الفرد البشري لسببين اثنين: إما بسبب قابلية طبيعية لذلك، أي استعداد طبيعي للخوف الأقصى، أي بعبارة أخرى الجبن، الذي يحول بطبيعته أدنى خطر أو مجازفة إلى سبب للهلع؛ وإما بسبب التأثير الحاد الذي يتركه أي خطر حقيقي، أي مجازفة واقعية على الفرد، مهما كان شجاعاً بطبيعته، فتأثر عليه فيَلُوذُ مؤقتاً بالجبن.

* * *

«من بين هذه الأسباب الثلاثة التي يمكن أن تؤدي إلى الانتحار، فإن الأول والثاني غير واردين، بحسب علمنا، في قضية فارغاش. إننا لا نعرف إن كانت لديه ميولات غريزية نحو الانتحار. لو كانت لديه مثل هذه الميولات لكنّا على علم بها، لأن من خاصيات أصحاب هذه الميولات أنهم يشيرون إليها في كثير من الأحيان، كما يشيرون إلى عمليات انتحار أقدم عليها آخرون. إن الميّال إلى الانتحار بالغريزة، إن صحَّ التعبير، يُكثِر من الإشارة إلى الانتحار، لأن ذلك يشكِّلُ واحداً من انشغالاته. يمكن أن تتوقف هذه الإشارات عندما، بدل أن تكون انشغالاً عابراً للخيال، تتجسد

مكتبة الرمحي أحمد

لتصير انشغالاً خالصاً بالانتحار. لكن، قبل هذا، يكون العازم على الانتحار قد قدّم إشارات كثيرة إلى ذلك طوال حياته.

ولا يبدو كذلك أنه كان ثمة سبب ذو طبيعة خارجية ملحّة دفع كارلوس فارغاش إلى الانتحار. مرض مزمن ومؤلم أو مرض عضال، لا شكّ أنه لم يكن يعاني من أي شيء كهذا؛ ليس فقط لأن الشهادة المباشرة العادية لا تعرف شيئاً عن هذا الأمر، بل أيضاً لأن الشهادة العلمية، شهادة التشريح، الموجَّهة بالتحديد نحو البحث في مثل هذه الأمور، لم تكشف عن أي شيء يذكر.

بقيت لدينا الفرضية القائلة إن كارلوس فارغاش ربما انتحر بتأثير من اندفاع مفاجئ، ناتج عن خطر أو عن خوف مفاجئ، ربما يكون قد قلب بشكل نهائي غريزة بقائه ومكبوتاته الطبيعية. وبالفعل، فإن مكان وساعة الانتحار، بالإضافة إلى الشهادات التي تستبعد السببَين الآخرين للانتحار، تدفع إلى القبول بهذا الحل باعتباره الحل الوحيد الذي يمكن أن يرتبط به الانتحار.

يبقى إذاً لو أن كارلوس فارغاش انتحر، فإنه قد فعل ذلك تحت تأثير اندفاع مفاجئ، ونظراً إلى سبب مباغت، إلا إذا أردنا أن نفترض أنه تعرض لنوبة جنون مفاجئة، وهو ما لا يسعفنا ماضيه الخاص في أن نتوقعه أو أن نقبل به. ما هي، في ضوء الشهادات التي بحوزتنا، المعطيات التي سبقت بقليل فاجعة طريق بروشا؟ إنها كما يلي: تناول فارغاش العشاء للتو في بيت القبطان بافيا مِندش -وهذا أكيد-، ولم يحدث أي أمر غير عادي أثناء العشاء -وهو ما تؤكده شهادة بافيا مِندش، ولها قيمتها كذلك- وأنه بعد أن غادر بيت هذا الأخير، تحدّث لبضع دقائق، عند مخرج الطريق الذي مات فيه،

مع شخص لا نعرف من يكون، ظهر بدقة مشبوه في أمرها ولم يصعد الطريق معه.

وفي غياب معطيات دقيقة وواضحة حول الدافع الذي ربما يكون حمل كارلوس فارغاش على الانتحار، علينا أن نختار بطريقة افتراضية، من بين الدوافع النادرة التي نتوفر عليها، الدافع الأكثر احتمالاً. ويبدو، من دون شكّ، أن الحديث الذي جرى بينه وبين الشخص المجهول ينطوي على كل العناصر التي تزيد من قوة احتماله. أولاً، يتعلق الأمر -وفق ما نعلم- بالواقعة التي سبقت الانتحار مباشرة. ثانياً، جرى ذلك الحديث في ظروف غير عادية تماماً، مثل الظروف التي ظهر فيها هذا الشخص. ثالثاً، ثمة شيء ما كان يجب التستر عليه في هذا اللقاء، ما دام أن الشخص المجهول لم يرغب قط في الكشف عن نفسه، رغم الأشياء الكثيرة التي كشفت عنها الصحف بخصوص هذه القضية، والنداءات المباشرة التي أطلقتها الشرطة.

إذا كان فارغاش قد انتحر، نستنتج أنه فعل ذلك بدافع انفعال مفاجئ، تولّد عن شيء حدث أثناء حديثه مع الشخص المجهول الذي التقى به عند مخرج الطريق. إنها الفرضية الأرجح.

لكن، ما الذي يكون قد حدث خلال هذا الحديث حتى يتملّك فارغاش فجأة اكتئاب عميق جداً أو رعب قوي للغاية ويدفعه للانتحار؟ يستحيل تعداد الفرضيات الممكنة. ومع ذلك، وبالاعتماد، قدر الإمكان، على ما نعرف من الأشياء الثانوية القليلة المرتبطة بهذه القضية، لا نجد غير شيء واحد يمكنه أن يدلنا: تصاميم غواصة القبطان بافيا مِندش. إنها العنصر الوحيد الذي لدينا من بين الوقائع التي سبقت الانتحار المفترض مباشرة. وهذا هو

مكتبة الرمحي أحمد

الموضوع الصريح الذي تمَّ تناوله في بيت بافيا مِندش. وربما كان الشخص المجهول على علم، بطريقة لا نعرفها، بموضوع اللقاء في بيت بافيا مِندش، وبسبب هذا الموضوع يمكن أن نسلّم بأنه ربما كان ينتظر فارغاش عند خروجه من بيت المهندس البحري.

قبل كل شيء، يجب أن نترك جانباً أنه قد عُثر على الجثة فارغة الجيوب. من السهل جداً -وحتمياً، تقريباً- أن يتعرض رجل أنيق وممدود جثة هامدة على قارعة الطريق، للنهب من طرف أي أحد من المارة، إلا إذا كان أول المارة إنساناً طيباً، والذي لا نملك الحق، منطقياً، دون معرفة كافية، في أن نقرنه بالقتل والسرقة.

في حالة السرقة، وإذا كان فارغاش يحمل معه -كما هو محتمل- تصاميم الغواصة، هناك أكثر من فرضية واحدة. ثمة أربع فرضيات: سرقة شاملة نفّذها مجرم -في حالة جريمة قتل- ربما قتل الضحية من أجل السرقة؛ سرقة شاملة نفّذها شخص مجهول عثر على الجثة بالصدفة؛ سرقة التصاميم من تنفيذ مجرم أو شخص مجهول، وتنفيذ باقي السرقة من شخص مجهول آخر؛ سرقة التصاميم من تنفيذ مجرم سرق أيضاً بقية الأشياء الأخرى، حتى يعطي الانطباع بأنه لم يقم بجريمة القتل إلا من أجل التصاميم.

كل هذا يبيّن لنا أنه علينا أن نترك جانباً مسألة السرقة، على الأقل مؤقّتاً، لنفحص فقط مسألة القتل. إذا ما توصلنا إلى استنتاج افتراضي محتمل، ربما يكون ذلك مناسبة، في ضوء هذا الاستنتاج، كي نعيد النظر في مسألة السرقة ونرى أي فرضية من الفرضيات الأربعة، التي سبق أن حدّدناها لتفسير السرقة، تتناسب أكثر مع هذه الفرضية الأساسية».

الفصل الحادي عشر

تطبيق الطريقة التاريخية. (معركة...).

[...][1]

(1) لم نعثر على وثائق خاصة بهذا الفصل. (محقّقة النص آنا ماريا فريتاش)

الفصل الثاني عشر

تطبيق الطريقة السايكولوجية (سايكولوجيا الأمراض).

- إن الإنسان، شأنه شأن كل الحيوانات، له حياة نفسية، أو ذهنية، تتكون من عنصرَين متناقضَين: العنصر الذي يُعرف في العادة، اختزالاً، بعبارة «الحواس»، ويدخل بواسطته في اتصال مع العالم المسمّى خارجي، يتعرّف إليه، وينسج معه روابط؛ والعنصر الذي يمتد من الوعي بالذات إلى الفكرة المجردة، ويدخل بواسطته في اتصال مع العالم المسمّى داخلي، وهو عالم ذكرياته، وأفكاره، وكيانه كما يفكر فيه وكما يُحسه.

إن هذين العنصرين ضروريان لحياة الإنسان، وكلاهما ضروريان بنسبة متساوية، أي أنهما يشتغلان بحدّة متساوية، لأنه إن لم يكن كذلك يحدث خلل. لكن، حتى يحصل توازن بين شيئين لا بدَّ من وجود علاقة بينهما. كي يحدث توازن بين جسمين فوق كفّتي الميزان، لا بدَّ من وجود الميزان. هذا يعني، في الحقيقة، أن الحياة النفسية للإنسان لا تتكون فقط من هذين العنصرين اللذين نلاحظهما لأول وهلة، بل من ثلاثة عناصر. وهي هذان العنصران وعنصر ثالث، سنسميه الحس العلائقي.

ويمكن لأي عنصر يدخل في تكوين شخصية الإنسان، بل حتى الحيوان، أن يوجد بدرجات مختلفة، تشكّل الدرجات المتوسطة

منها ما نسميه «الحالة السوية»، بينما تشكِّل الدرجات الأعلى أو الأقل منها «الشذوذ»، والمرض «الحالة المرضية». وهذا صحيح بالنسبة إلى الجسد كما هو بالنسبة إلى العقل، مع فرق بسيط يتمثل في أنه، في الجسد، الذي يشكل مجموعة معقّدة للغاية، لدينا كم هائل من العناصر المتعددة التي علينا أخذها بعين الاعتبار، بينما في العقل، ونظراً إلى بساطته وطبيعة تكوينه، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار فقط العناصر الثلاثة التي تكونه وتحدِّده: الحس الموضوعي، الحس الذاتي والحس العلائقي.

وبما أن الحس الموضوعي والحس الذاتي يتعارضان بطبيعتهما، فإن أي إثارة مرضية لأي واحد منهما تتجلى، عكسياً وبشكل موازٍ، في اكتئاب مرضي لدى الآخر، أو العكس بالعكس. وتبقى الظاهرة هي نفسها تماماً: إنها تشتغل في الاتجاه المعكوس في الطرفَين النقيضَين للتركيبة الكيميائية. أما الحس العلائقي بدوره فيمكن، مع ذلك، ما دام موجوداً، أن يتأثر بالمرض أو الشذوذ؛ وبما أنه يوجد لربط العنصرَين الآخرَين بينهما، فإن نتيجة مرضه ستتمثل في خلل يصيب العلاقات بين الحس الموضوعي والحس الذاتي، دون أن تحدث بالضرورة إثارة هذا الحس أو ذاك، وعكسياً دون أن يكون هناك اكتئاب أو إثارة للحسّ المقابل، إلا إذا كان انعدام التوازن هذا يوجد بمعزل عن مرض الحس العلائقي.

هكذا، لدينا أربعة أنواع من الحالات المرضية التي تصيب الإنسان: الحالة الأولى، حين يثور الحس الموضوعي، وعكس ذلك يكتئب الحس الذاتي؛ الحالة الثانية، حين يثور الحس الذاتي، ويكتئب الحس الموضوعي عكس ذلك؛ الحالة الثالثة، حيث تثور العلاقة؛ والحالة الرابعة، حيث تكتئب العلاقة.

مكتبة الرمحي أحمد

الحالة الأولى، العادية لدى الحيوان، الذي يفوق حسه الموضوعي حسه الذاتي بكثير، توافق، عندما تظهر عند الإنسان، المعتوه أو الأبله. وتوافِق الحالة الثانية المجنون، وهو المخلوق الذي تثور حياته الذاتية لدرجة أنه يفقد معها المفهوم الموضوعي للأشياء. وتوافق الحالة الثالثة الإنسان العبقري، لأن العبقرية، في نظري، وبحسب هذا الاستدلال، هي الإثارة المرضية للحس العلائقي، وهي إثارة مرضية لها أثر غريب يكمن في توليد توازن مفرط، ضرب من مرض ثقابة الفكر الذي ليس سوى ثقابة فكر. وأخيراً، توافق الحالة الرابعة المجرم. ويمكنني أن أقول، إذاً، إن المجرم أحمق علائقي.

إن المجرم ليس مجنوناً، رغم أنه قد يكون مجنوناً، لأنه، كما قلتُ، يمكن لمرض يصيب الحس العلائقي أن يتزامن مع مرض يصيب الحِسَّين الموضوعي والذاتي. والمجرم ليس هو المعتوه ذهنياً، رغم أنه كما في الحالة الأخرى يمكن أن يكون معتوهاً ذهنياً. من النادر، إلا استثناء، أن يكون المجرم إنساناً عبقرياً، بالمعنى الحقيقي للكلمة، لأنه، كما عرضتُ ذلك، ترتكز الجريمة على الظاهرة العقلية المختلفة تماماً عن تلك التي ترتكز عليها العبقرية. ما قد يحدث هو أنه يمكن أن تكون ثمة لحظات، ظواهر عابرة لاكتئاب الحس العلائقي، كما يمكن أن يحدث بالنسبة إلى الإنسان العادي. وأظن، من جهة أخرى، أن الحالة الوحيدة التي نجد فيها ما يشبه اقتران العبقرية الحقيقية بالجريمة هي **حالة** بينفينوتو سيليني[1].

(1) بينفينوتو سيليني (1500-1571): نحّات إيطالي أنجز عدة أعمال خالدة في فرنسا وإيطاليا. (المترجم)

كما أن كل هذه الظواهر التي وصفتُها يمكن أن تكون نظامية أو عرضية. إن ظروفاً ترتبط بالتربية، والوسط، وأخرى عابرة أكثر منها بعض الشيء، يمكنها، إلى درجة ما، أن تجعل من إنسان، قد يكون من دونها عادياً، إنساناً أبله. وهناك ظروف أخرى، يمكن إثارتها بسهولة، تستطيع أن تجعل من إنسان عادي إنساناً مجنوناً. وثمة ظروف أخرى، بالإضافة إلى بعض المنشطات، بعض لحظات الإثارة الروحية، وغيرها من نفس الطبيعة، يمكنها أن تولِّد، في دماغ غير عبقري، شرارات قد تكون هي العبقرية، إن ظلت ثابتة. إن إنساناً كهذا، سوي بطبيعتة، وعادي إذاً، لكنه ذكي، سيكتب في لحظة معيّنة سونيته، هي الوحيدة التي كتب، ستبقى في إحدى الأنطولوجيات الشعرية. وثمة إنسان آخر -وهذا أكثر تداولاً- قد يقول نكتة يمكن أن ننسبها بطيبة خاطر إلى فكر عبقري حقاً. إن النكتة هي أحد الأمثلة الأكثر غرابة عن الظاهرة النادرة للعبقرية العرضية: يجدر أن نلاحظ أنها تنشأ عن محفِّز اجتماعي، عن الخمرة، أو شيء آخر من هذا القبيل.

تماماً كما أن هناك، كما نعرف جميعاً، ظروفاً عرضية يمكنها أن تجعل من إنسان، قد نقول عنه إنه سوي، وهو كذلك فعلاً، جانياً. فهذا رجل، له حس أخلاقي عادة، لكنه ضعيف، يرتكب اختلاساً تحت ضغط ظروف مشوشة وفي مناسبة خدّاعة. وآخر، لا يقل بصفة السوي، يقتل زوجته في نوبة غضب انتقاماً لخيانتها. إن هذه الحالات، التي ليست حالات استثنائية حقاً، هي كذلك أكثر مما قد نظن مع ذلك. في حالات متعددة لجناية عرضية في الظاهر، نجد، إن نحن بحثنا جيداً، عمقاً يمثل الشذوذ، ربما يكون غامضاً، ربما نادراً، لكن ظرفاً عرضياً، عنيفاً واستثنائياً نجح في أن جعله

مكتبة الرمحي أحمد

يطفو إلى السطح من جديد. ومع ذلك، وهذا واضح بالنسبة إلى الجميع، فإن ما يميِّز الجاني بالفطرة -إن صحَّ التعبير- عن الجاني العرضي، مهما كان لدى هذا الأخير من عمق مرضي، هي واحدة من الخصائص الثلاث: التفاوت بين الحافز ورد الفعل الإجرامي؛ معاودة الجريمة بشكل مستمر؛ وسبق الإصرار.

ومع ذلك، فإن الجناية، عرضية كانت أم لا، تبقى دائماً جناية. وبما أن الجناية العرضية، مع ذلك، وتحديداً لأنها عرضية، تبيِّن بشكل أكثر جلاء ووضوحاً، بما أنها تظهر مع خلفية غير جنائية أو أقل جناية، آلية الجناية، وبما أن الإنسان السوي، أو شبه السوي، الذي تظهر عنده، يبدو لنا أكثر سهولة للفهم من الإنسان غير السوي، فإن الطريقة المثلى لدراسة آلية الجناية، وبالتالي روح الجاني أيضاً، تتمثل في تحليل طريقة ظهور اندفاع ناجح أو محاولة ارتكاب جناية في ذهن سوي أو شبه سوي.

إن التفاوت بين الحافز وردّ الفعل الإجرامي خاصية من خاصيات الجاني المجنون، أي إما من خاصيات المجنون الذي أصبح جانياً، وإما من خاصيات الجاني الذي يتوفر على عنصر ملازم للجنون. إن الاستمرار في الممارسة الجنائية من خاصيات الجاني الأبله، أو الجاني ذو النية العدوانية، وهو صنف يتكرّر بكثرة، أو الجاني الذي لديه عنصر ملازم للدونية الذهنية. وفي الجريمة مع سبق الإصرار حيث يظهر مثال الجناية الكاملة، بل قد أقول النموذج الأمثل للجاني. وبما أنه، لدى هذا النوع من الجاني، لا يقترن العَتَه العلائقي بأدنى ظاهرة من الظواهر المرضية الناتجة عن الحواس المتضاربة وعدم توازنها الخاص، وبما أنه لدى هذا النوع

من الجاني ينشأ المرض الذي يجعل منه جانياً فقط عن **خلل في الحس العلائقي**، فلا يجب أن نندهش إن وجدنا في بعض الجنايات العلائقية شيئاً ما يشبه العبقرية. ذلك أنه، في كل مرض، ثمة إلى حدٍّ ما مخطّط لشيء متأرجح: في العبقرية، هناك الانطوائية، التي تمثل نفس الشيء الذي يمثله أساس الجريمة، لكن بدرجة أقل فقط: لدى الجاني الذي يرتكب جنايته مع سبق الإصرار، هناك الإثارة ووضح التخطيط الذي يجعل منه أحياناً **مُخَطِّطاً حقيقياً**، مع أنه ينجز خططه في ميدان محدود. من جهة أخرى، وبخصوص هذا الموضوع، لكن بين قوسَين، ستكون لي الفرصة لاحقاً لأتطرّق للمُخَطِّط بإسهاب أكبر.

* * *

«لنحاول أن نعرف الآن، قال الدكتور كْواريشْما، ما هي روح المجرم، أي بعبارة أخرى، ما هي الظواهر التي تميزه عن الإنسان السوي والتي تختلج في هذه الروح وتجعل منها ما هي عليه.

لكن، لدراسة ما هو غير عادي، سنكون على الطريق الصحيح لو أننا انطلقنا مما هو عادي، لأنه شيء نعرفه. قد يبدو من الصعب أن ننطلق من العادي نحو غير العادي، عموماً، وخصوصاً أن ننطلق من الروح المسالمة للإنسان العادي نحو روح المجرم. لكن الأمر ليس كذلك. من السهل، من العادي أن نستنتج أن هناك حالة جنون لدى الإنسان العادي: يكفي أن نُسكره. من السهل، من العادي أن نستنتج أن هناك نزوعاً إلى القتل لدى الإنسان العادي: يكفي أن نرسله إلى الحرب. إن السكّير يتصرف مثل المجنون، والجندي مثل المجرم. وفي كلتا الحالتين يكون الشذوذ عرضياً. في كلتا الحالتين

مكتبة الرمحي أحمد

يكون الشذوذ ناتجاً عن شيء خارج عن الفرد؛ كالخمر في الحالة الأولى، والأعراف والضغط الاجتماعي في الحالة الثانية. ما يجب أن ندرسه هو ما يلي: ما هي بالضبط الظواهر التي تجعل السكر يشبه الجنون؟ ما هي بالضبط الظواهر التي تجعل من الجندي قاتلاً؟ بعد معرفة هذه الظواهر، يكفي أن نعتبرها دائمة، عوض أن تكون عرضية، وأن نضع أسبابها داخل الفرد لا خارجه، حتى نحصل على معرفة دقيقة عن روح المجنون وعن روح القاتل.

لنأخذ، كمثال للتوضيح، حالة المقارنة بين السكر والجنون. إن الشبه بين الحالتين، بعد إزاحة الاختلافات الخارجية، مطلق: نفس غياب التحكم في الذات، نفس النزعات المقموعة تظهر، بسبب غياب هذا التحكم، نفس غياب التنسيق بين الأفكار، والمشاعر والحركات، أو تنسيق خاطئ بين هذه وتلك. لنعتبر، بواسطة مجهود ذهني لا يمثِّل أي صعوبة، أن هذا السكر دائم: لدينا، بالحدس الشخصي، لأننا جميعاً سكرنا ولو مرة واحدة، معرفة شخصية بطريقة اشتغال روح المجنون. إننا نملك هذه المعرفة دون دراية بتفاصيلها الأساسية: فقدان الشعور بالكبت، اختلال المشاعر، غياب العلاقة مع العالم الخارجي.

لنفحص الآن الجندي. لماذا يَقتلُ الجندي؟ بسبب اندفاع مفروض عليه من الخارج يُعطِّل في داخله تماماً كل المفاهيم العادية المتعلِّقة باحترام الحياة والقانون؛ ويمكن لهذا الاندفاع الخارجي أن يكون هو الوطن، الواجب، أو مجرد الخضوع لعرف من الأعراف، لكن الحقيقة أنه يشبه تماماً الكحول الذي جعل من الآخر مجنوناً، شيئاً وارداً من الخارج. إن الحرب حالة جنون جماعية، لكنها تختلف عن السكر في ما تتركه من عواقب على الفرد: السكر يفسد

أخلاقه، والحرب تجعله ثاقب الفكر بشكل غير عادي، بسبب إلغاء المكبوتات الأخلاقية. إن الجندي شخص ممسوس: في داخله ومن خلاله تشتغل شخصية مختلفة، لا أخلاق لها ولا قانون. إن الجندي شخص ممسوس، أو تحت تأثير مخدِّر من تلك المخدِّرات التي تمنح الذهن وضوحاً مصطنعاً، وحدة لا يجب أن تكون له أمام وفرة ما يقدّمه الواقع.

بل أستطيع القول إنه لن يكون من الخطأ التأكيد بأن كل الرجال النشطاء مصابون بالمسّ، وأنه لا مكان للوضوح الحقيقي والسليم إلا في البحث العلمي والفكر المترتِّب عنه. والغريب أن نلاحظ أن هذه المهن الذهنية، حين تُمارَس بشكل كامل، تنحو نحو إضعاف الإرادة، والتقليل من جدوى الفعل. كلنا مصابون بالمس، بطريقة ما، والانعتاق منه يصيبنا بالاكتئاب كما يصيبنا بالاكتئاب انعدامُ المخدِّر الذي نقع تحت تأثيره.

كما أن هذه الظواهر التي تظهر لدى الجندي، والتي يتحول بسببها الإنسان السوي إلى قاتل، لها شبه قوي بظواهر التنويم المغنطيسي، والتي تكمن بالضبط في أن ذهنية غريبة تتسلل إلى داخل الفرد. والحال أن ظواهر التنويم المغناطيسي يمكن أن تظهر بسهولة لدى الأفراد الذين يعانون من الهستيريا، أي الذين يعانون من الذُّهان العصبي الذي نسميه هستيريا.

إنني لا أولي اهتماماً كبيراً لمصطلح «الهستيريا». يمكنكم أن تسموها كيفما شئتم. لكن ثمة، من دون شكّ، حالة عصبية على قدر كبير من الحركية وعدم الاستقرار، يحدث أثناءها إيحاء خارجي قوي يشتغل بسهولة كبيرة، لأنه لا يجد أي مقاومة من الكبح، ولا من أي استقرار مزاجي.

مكتبة الرمحي أحمد

في حالة الجندي، يجب أن نلاحظ أن الإنسان العادي لا يعاني من أي هستيريا، لكن الحرب تجعله كذلك -كل شخص يمكن أن يصبح هستيرياً- وتخضعه للإيحاء التنويمي في الوقت ذاته.

في حالة القاتل، كما هو الحال بالنسبة إلى المجنون مقارنةً مع السكّير، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن الاندفاع لديه خارجي بدل أن يكون داخلياً. فالقاتل، إذاً، هستيري خضع لإيحاء تنويمي من الداخل.

ويمكن أن يوافق هذا الداخل ثلاثة أشياء: اندفاعاً انفعالياً وعرضياً؛ أو استعداداً عميقاً للمزاج؛ أو -وأثير انتباهكم إلى هذه النقطة!- تشكُّلاً ذهنياً وعاطفياً يخلق في داخل الفرد كائناً له القدرة على القيام بالإيحاء التنويمي.

في الحالة الأولى، لدينا القاتل الانفعالي، بالمعنى الدقيق للكلمة؛ أعني ذلك الذي يقتل تحت تأثير اندفاع مباشر، دون سبق إصرار، أي أنه «يفقد رشده» كما يُقال. في الحالة الثانية، لدينا القاتل بالطبيعة، ذلك الفرد الذي تعطّلت ميزاته الأخلاقية الأساسية منذ الولادة. في الحالة الثالثة، لدينا قاتل لم يعره أطباء النفس وعلماء الإجرام ما يستحق من اهتمام: القاتل بواسطة الإيحاء التنويمي الطويل.

إذاً، إذا اعتبرنا أن القاتل هستيري سطحي يُحرِّكه اندفاع شبه صَرَعي، علينا أن نقبل بأن أي قاتل هو هستيري صرعي.

في هذه الحالات من الذهان العصبي المختلط هناك أمر ينبغي أن نتفحّصه: أن تقدير الذهانيين العصبيين يختلف لدرجة أن الهستيريين الصرعيين -مثلهما مثل المصاب بالنوراستينيا- ينتميان إلى عدد كبير من الفئات والأنواع.

هكذا، لدينا ثلاثة أنواع من العلاقة بين الصرع والهستيريا عند الفئات الثلاثة من القتلة. لدى القاتل الانفعالي، هناك نزوع هستيري يشكّل ظرفياً هستيريا صرعية، بحكم ضغط الصرع الظرفي. أما لدى القاتل مع سبق الإصرار، فتكون الهستيريا الصرعية جذرية ومتزامنة، إن صحَّ التعبير. لا وجود للحظة يتم وصمها بطابع الهستيريا، ولا وجود للحظة يتم وصمها بطابع الصرع: هناك تراكم بطيء للاندفاعات الخارجية، المكبوتة في تفاعلها المباشر، أو أفكار تصبح مثل اندفاعات خارجية.

إن ذهنية القاتل مع سبق الإصرار تتقاسم عدة أوجه شبه مع ذهنية المُخَطِّط. فكل الجنرالات الكبار كانوا يعانون من شبه الصرع؛ كما يمكن أن نتأكد من ذلك في كتابات سيرتهم. لكن عظام المخططين كانوا هستيريين كبار، بالمعنى الحصري للكلمة. هذا ما نراه في العناصر الأنثوية المدهشة لدى فريدريك الأكبر، بطريقة فاحش [. . .]، وفي عقلية الممثل التي يتميز بها نابليون (Tragediante! Comediante! كما كان الباب يصيح في وجهه).

وداخل الهستيريا الصرعية، بالمعنى الحصري، أي الجذرية والمتوازنة، يمكن أن نميز ثلاثة أنواع مختلفة. نوع يطغى فيه الصرع على الهستيريا ويصبغها بلونه، إن صحَّ التعبير. وهذا نوع يتوازنان فيه جيداً لدرجة أنهما يعطيان الانطباع بوجود شيء ثالث، على غرار الأزرق والأصفر، اللذين، إن مُزجا، يخلقان شيئاً جديداً نسميه اللون الأخضر.

في الجريمة التي تهمنا، نظراً إلى ما يميزها من سبق الإصرار والدقة في الإنجاز، نحن في مواجهة قاتل هستيري صرعي جذري. لكن، نظراً إلى تعقيدات الاستعداد، كما يتضح، على ما يبدو، من

مكتبة الرمحي أحمد

الصعوبة التي كان عليه أن يتجاوزها، نحن أمام إنسان يجمع بين الأدب والفعل، أي أمام هستيري صرعي جذري يهيمن عليه العنصر الهستيري».

[. . .]

* * *

[. . .]

«إن التوازن يوجد بفضل تكافؤ عنصرَين متقابلَين. هكذا، فإن إنساناً يتمتع بقدر متساوٍ من الانفعال والذكاء هو إنسان متوازن، مهما كانت درجة كل مكون من مكونات روحه. وفي درجة عليا، فإنه إنسان يتمتع بعبقرية الشعر، ومن السهل أن نرى لدى شكسبير ذلك التوازن العميق بين العاطفة الحادة والعميقة والذكاء المدرك والمعبّر. ونجد لدى بو تطوراً متساوياً بين الخيال والاستدلال.

فهذا المجرم الذي ارتكب جريمة دون خطأ، دون عيوب، دون خلل في الإنجاز، إنسان متوزان، في إطار شذوذ توازنه. وهو، على طريقته، إنسان عبقري، فنان كامل في فعل القتل.

احترام عاطفي للحياة، هذا ما يحول دون القتل. وهو ما يشعر به البوذي؛ وما قد يشعر به المسيحي، لو كان فعلاً كذلك.

إن من لا يستطيع أن يقتل إنساناً غير قادر كذلك على أن يقتل دجاجة. وعلى العكس من ذلك، من يقدر على قتل دجاجة يستطيع أن يقتل إنساناً؛ يكفي أن نوفّر له الشروط الخارجية التي تجعل من بقية البشر دجاجاً في نظره، أو إنساناً مصمَّماً، أي أن الشروط الخارجية يمكن أن تُغشي ذهنه، ليس بعاطفة الوجود (التي توجد

مغشاة سلفاً لدى من يستطيع القتل) بل بمفهوم الهوية الخاص بحياة إنسانية أخرى كما غشيت هويته (وهو ما يغشى لدى من يقتل فعلاً).

إن الجرائم العاطفية هي جرائم حب أو كراهية: إنها جرائم ترتكب لفرض عقاب الحب أو الانتقام. والحال أن الحب هستيريا، ولو كان هستيريا عادية. (شأنه شأن الحمل، الذي يعتبر في الوقت ذاته ظاهرة عادية وغير عادية، سليماً ومرضياً).

في حالة الجندي، لدينا مسلسل هستيريا ينضاف إليه مسلسل صرع. إن الهستيريا والصرع ظاهرتان مختلفتان ومتطابقتان.

في حالة المجرم العاطفي، لدينا هستيريا تصل إلى حدّ الصرع.

في حالة المجرم بالطبيعة، أو المزاجي، لدينا تعايش بين الهستيريا والصرع، لكنهما ينصهران ويتداخلان. وهما يتداخلان لأنهما فطريان ولم يتم استنتاج أي واحد منهما، كما في حالة الجندي (حيث يتم استنتاجهما معاً) أو في حالة المجرم العاطفي (حيث يُستنتج واحد منهما فقط، الصرع).

ووفقاً لانصهار الهستيريا والصرع، نجدُ لدى المجرم بالطبيعة نوعين، بحسب شكل الصعقة، إن كانت صعقة هستيرية أو صعقة صرعية. فإن كانت الصعقة هستيرية، وهي الأكثر شيوعاً، نكون أمام المجرم الذي يقتل من أجل المصلحة، أي القاتل الذي ينضاف إليه اللص. وإن كانت الصعقة صرعية، نكون أمام حالة القاتل الخالص الذي يشمئز من السرقة.

هناك ثلاثة أنواع من الذُّهان العصبي: النوراستينيا، والهستيريا والصرع. لا يهم كيف يسميها أطباء الأمراض العقلية، أو كيف سيسمونها في المستقبل. إن عالم النفس يجد الأنواع الثلاثة المختلفة

مكتبة الرمحي أحمد

من العصاب النفسي. إن أطباء الأمراض العقلية نادراً ما يكونون علماء نفس، ولا يكونون كذلك أبداً لأنهم فقط ولهذا السبب الوجيه أطباء. إن الأطباء يهتمون بالأعراض أكثر من الكل، وهو ما ليس مزعجاً في الأمراض الجسدية، لأن الأعراض هي التي نستدل بها على المرض؛ أما في حالة الأمراض النفسية، فإننا نـ[. . .] الأعراض. (إذا أردت أن تعرف ما هي الهستيريا العصبية، مثلاً، فلا تقرأ مؤلَّفاً عن طب الأمراض العقلية؛ اقرأ **هامليت**. إذأ ردت أن تعرف ما هو الجنون الأقصى فلا تقرأ مؤلَّفاً عن طبّ الأمراض العقلية؛ اقرأ **الملك لير**. ثمة، في كلتا الحالتَين، وفي المسرحيتَين كما نعرفهما، غموض ما في الحالة النفسية ناتج عن بقاء مادة سابقة عن شكسبير، حافظ عليها المعلم الكبير، بتقصيره المعهود).

وتمثِّل هذه الأنواع الثلاثة من الذُّهان العصبي ثلاث درجات من نفس الذُّهان العصبي، لكنها درجات جد متفاوتة حتى أنها تشكِّل ثلاثة أنواع مختلفة. ما يسمح لنا أن نرى أن الأمر يتعلق بدرجات هو أن هناك وهناً عصبياً هستيرياً متميزاً، وهستيريا صرعية مختلفة. أما النوراستينيا الصرعية فلا وجود لها وهذه الكلمة المركّبة مضحكة ويستحيل تكوينها.

إن النوراستينيا هي التعب البسيط الذي يستطيع أن يؤثِّر على الأعصاب. كل واحد مرَّ بهذه الحالة المرضية، أو على الأقل بالحالات الضعيفة أو الناقصة منها.

أما الهستيريا فهي وهن يصيب التناسق والكبت، يجعل الذهن يتردد، ويحرِّر الاندفاعات العرضية. إن نوبة الهستيريا هي تعبير عن الرغبة في الإشارة الحركية، في التضوُّع، وفي الامتناع عن قمع الذات.

والصرع هو وهن يصيب الشخصية نفسها، وما يميز نوبة الصرع هو فقدان الوعي بالذات، الذي يُعتبر الطابع المميز للشخصية.

كل هذه الظواهر التي توصف بأنها لا إرادية نفسية، وتعبِّر عن ازدواج الشخصية، ظواهر صرعية، نفسية خالصة ربما، لكنها صرعية.

إن العُصاب النفسي يظهر عند «نقطة الالتقاء» بين الروح والجسد؛ لهذا، وعكس الأمراض التي تصيب الجسد فقط، وتلك التي تصيب الذهن لا غير، فإن الذُّهان يتخذ شكلين: شكل بدني وآخر ذهني.

يمكننا أن نميز ثلاثة أنواع من العصاب النفسي: الصرع، والهستيريا والضّعف العصبي. إن أطباء الأمراض العقلية وأطباء الأمراض العصبية يجدون منها أنواعاً أخرى، وهو ما يشكل منفعة طبّية، لكنه لا يمثل أي قيمة نفسية. يمكن اختزالها، كما يمكن البرهنة على ذلك، في ثلاث درجات من الأنواع الأساسيّة التي ذكرتها، أو في تنسيقات بين هذه وتلك من بينها مع أشكال من الذُّهان أو بداية أشكال من الذُّهان، أو حتى مع آلام جسدية. لكن هذا الأمر لا أهمية له بخصوص ما يهمنا، وهو ما لا يتمثل في تأليف بحث حول العصاب النفسي.

وبتحليل منطقي بسيط، يمكن أن نرى بسهولة أن العصاب النفسي يتكوّن طبعاً من ثلاثة أنواع أساسية. وفي اشتغال أي عضو، جسدي أو ذهني، هناك ثلاث تشوشات ممكنة: تشوش بفعل الإفراط، تشوش بفعل الغياب وتشوش بسيط، أي ما يعكس استعمال كلمة تشوش مع اللواحق اللغوية Hiper، Hipo وPara،

مكتبة الرمحي أحمد

التي تفيد تباعاً إما صيغة المبالغة وإما صيغة التقليل وإما صيغة التوازي وإما الترادف.

نظن أنه لا بدَّ من وجود عصاب نفسي أساسي عن كل نوع. إذا نظرنا إلى المسألة من الناحية الجسدية، فإن الصرع هو العصاب النفسي بصيغة المبالغة، لأن نوبة الصرع تتميز باندلاع هيجان عضلي، نوع من الإثارة التشنجية التي تحدث في الجسد؛ أما الضّعف العصبي فهو ذُهان بصيغة التقليل، لأن الاكتئاب العضلي، والنزوع نحو التعب، يشكل، في هذه الأجسام، ميزتها الأولى؛ والهستيريا، التي تجمع بين إثارة الصرع واكتئاب الضّعف العصبي، فهي العصاب النفسي بصيغة التوازي، أي العصاب النفسي الناتج عن تشوش بسيط، وهو بذلك متعدِّد الأشكال والطرق. وإذا نظرنا إلى المسألة من الناحية الذهنية، باستثناء الهستيريا، التي ما زالت تتموقع بين الآخرين، وهي دائماً العصاب النفسي بصيغة التوازي، فإن العكس هو ما يحدث. إن الصرع، ذهنياً، عصاب نفسي بصيغة التقليل، لأن النوبة تعني إلغاء الوعي، والضّعف العصبي، ذهنياً، هو عصاب نفسي بصيغة المبالغة، لأن حالة الضّعف العصبي تضاعف من حدّة مرض الوعي والقدرة على التفكير.

وبما أننا نتناول حالات العصاب النفسي في جانبها الذهني، نحتفظ بالملاحظة الثانية نظراً إلى جدواها: في الحالة التي تهمنا، هناك ثلاثة أنواع من العصاب النفسي: العصاب النفسي بصيغة المبالغة، وهو الضعف العصبي؛ العصاب النفسي الموازي، وهو الهستيريا؛ والعصاب النفسي بصيغة التقليل، وهو الصرع.

بما أن هناك تدرُّجاً من الضّعف العصبي إلى الهستيريا ومن

الهستيريا إلى الصرع، فإن ما يحدث هو أن هناك نزوعاً نحو الهستيريا في حالة الضعف العصبي، تحت ضغط الظروف الخارجية خصوصاً ونزوع نحو الضعف العصبي، وأنه في حالة الهستيريا، هناك دائماً نزوع نحو الصرع تحت ضغط الظروف الخارجية خصوصاً ونزوع نحو الهستيريا. وبالعكس، وخصوصاً، هناك في كل صرع لمسات من الهستيريا، وفي كل هستيريا لمسات من الضّعف العصبي. (نظرية الدكتور فيري ومسألة أن حركات المصابين بالهستيريا تشبه حركات من يعانون من الوهن). إن شكل وقوع نوبة الصرع غريب: تبدأ بمقدمة هستيرية، تتحول إلى نوبة صرع بالمعنى الحصري للكلمة، تتلوها حالة شبه وعي (يقوم خلالها المصاب بأفعال عبثية، مما نسميه لا إراديةُ حالة ما بعد الصرع)، وتكون هذه الحالة حالة صرع مرتفعة بشكل جلي، ثم تخبو فتصبح تعباً هستيرياً، يتلوه في النهاية وهن من نوع الضّعف العصبي. إننا نرى، إذاً، في الصرع الجسدي، المسار الداخلي للأعصاب، لأنهما يشكلان شيئاً واحداً في نهاية الأمر، ونرى، بالتالي، الدليل المطلق على التحليلي النفسي الذي عرضته أمامكم للتو.

الجندي يقتل تحت تأثير هستيريا حاصلة بالاستنباط.

إن الإلهام الشعري أو الفني ظاهرة من الهستيريا العليا. نجد فيها نفس خاصية المسّ التي تميز الصرع».

* * *

«إن طبيب الأمراض العصبية عالم نفساني سيّئ لأن اختصاصه هو الطب. وتكمن عقلية الطبيب، نظراً إلى طبيعة تكوينه، في دراسة الأعراض واستنتاج المرض من مُجمل الأعراض. لكن المرض ليس

مكتبة الرمحي أحمد

مجملاً بل تركيباً من الأعراض؛ أو، للتعبير عن ذلك بطريقة أخرى، الأعراض لا تشكِّل المرض، بل تكشف عنه. في الأمراض الجسدية، هذا الأمر لا أهمية له، لأنه لا يهم أن نعتبر المرض هو الأعراض أو الأعراض هي المرض. وهذا لا أهمية له كذلك في الأمراض النفسية، حين تُعتبر أمراضاً وليس حالات نفسية. لكن حين تُعتبر الأمراض النفسية حالات نفسية، فإن الإجراء الطبي يكون لا فائدة منه».

* * *

«إن العبقري، والمجنون والمجرم يمثِّلون ثلاث حالات لعدم التكيّف. ويكون عدم التكيّف لدى العبقري ذا طبيعة فكرية: إنه إنسان لا يفكر ولا يمكن أن يفكر مثل الآخرين. ويكون عدم التكيُّف عاطفياً عند المجنون: إنه إنسان لا يحس ولا يمكن أن يحس مثل الآخرين. ويتعلق عدم التكيُّف بالإرادة لدى المجرم: إنه إنسان لا يريد ولا يمكن أن يريد مثل الآخرين.

ففي الذكاء نكون نحن بذواتنا بشكل أكبر، وعدم التفكير مثل الآخرين يعني **إفراطاً** في الذكاء، وهنا يكمن تفوق العبقري: إنه، إن صحَّ التعبير، عادي فوق العادة، وإن بدا مريضاً، فلأن غير العادي فوق العادة هو غير عادي بالضرورة. وفي العاطفة، نكون، إن صحَّ التعبير، جزئياً نحن وجزئياً الآخرين: لذا فألا نحس مثل الآخرين يعني **اختلال التوازن** الروحي، وهو أمر، ما دام لا يمثِّل لا تفوقاً ولا دونية فإنه [. . .].

وفي الإرادة، نكون غرباء عن ذواتنا: لذا فألا نريد مثل الآخرين يعني **ضعفاً** في الإرادة.

يبدو، لأول وهلة، أن المجنون شخص لا يفكر مثل الآخرين. وهذا خطأ. يمكن أن تكون أفكار المجنون غير منظَّمة، لكنها تبقى دائماً أفكاراً مبتذلة. إن اختلال الأفكار لا علاقة له بالأفكار في حدّ ذاتها. وما يميز المجنون أنه لا يحس مثل الآخرين. هذا ما نراه بوضوح في الجرائم التي يرتكبها المجانين بشكل خاص. فالمجنون، مثلاً، قد يقتل أعز شخص لديه.

ويعاني المجرم من مرض الإرادة. يرغب الإنسان بشدة في الحصول على المال. فإن كان إنساناً عادياً، فإن نتيجة هذه الرغبة القوية سوف تتمثل في العمل بكثرة، والتفاوض بعناية، أو شيء من هذا القبيل. وهذه طريقة عادية في ممارسة **فعل الإرادة**. وإن تعلَّق الأمر بمجرم، فإنه سرعان ما يفكر في القتل، والتزييف. يبدو من الواضح، أن إرادته، طريقته في ممارسة فعل الإرادة هي التي طالها التشويه.

أحياناً، نخلط بين المجنون والمجرم لأن العاطفة لها ارتباطات جوهرية بالإرادة.

يريد البعض، ممن لديهم شعور غامض بأن هناك تشابهاً بين عدم تكيُّف المجرم وعدم تكيُّف العبقري، أن يروا في المجرم شخصاً قوياً، يشبه المتمرد إلى حدٍّ ما. وهو ليس كذلك. فالمجرم شخص ضعيف بكل بساطة. ومهما كانت خصاله في مجال الشجاعة، والإصرار، بل حتى في شكل معيّن من أشكال الذكاء، فإن المجرم يبقى دائماً ضعيفاً، مثل المجنون، رغم أنه يفكِّر بشكل رائع مثل من يعاني من الهذيان، فإنه دائماً في رتبة دنيا».

* * *

موضوعية - الإنسان العادي بمستويين: المستوى العادي والمستوى الثقافي.

ذاتية - غير العادي المجنون وغير العادي الأبله.

علائقي - العبقري والقاتل.

علاقة ممكنة بين المستويين

1) مجرم + عادي من رتبة دنيا

2) مجرم + أبله

(لكن، ماذا عن القاتل المجنون؟)

1) عبقري + عادي متفوق

2) عبقري + مجنون

فحص مفهوم «الذاتية»

1) ذوات واعية - مجانين بفعل إثارة الوظائف الذهنية

2) ذوات غير واعية - مجانين بفعل اكتئاب الوظائف الذهنية

ثلاثة أنواع من المجرمين:

1) بإيحاء من الخارج والعادة (اعتيادي)

2) بسبب جنون سُفلي (اندفاع ذاتي)

3) مع سبق الإصرار (يشبه هذا الأخير العبقري لأن لديه خاصيتين في الوقت ذاته، إذ أنه يفكر ويكون عدواً)

ذاتية	علائقية	موضوعية
مجنون متفوِّق	عبقري	عادي متفوِّق (مثقف)
مجرم من رتبة دنيا		عادي من رتبة دنيا (مبتذل)

هناك وجهان مختلفان للجنون: إثارة المراكز الدماغية العليا، وإثارة المراكز الدماغية السُّفلى.

إن الابتذال الذهني هو خاصية المجرم؛ وهو بذلك يلتقي مع العادي من الدرجة الدنيا والجاهل.

ذاتي

1) مجانين بفعل إثارة القوى العليا - مثاليون، مصابون بجنون العظمة

2) مجانين بفعل إثارة القوى الدنيا - مضطهدون، بلهاء، مهووسون

يعاني الأبله من الإثارة - **هنا إثارة لقوى الغريزة والخمول**.

من الواضح أن هذا التمييز بين مختلف أنواع الجنون هو **تمييز أقوم به أنا**: لا يضمنه أي طبيب نفساني، ولست في حاجة تُذكر إلى أي ضمانة. إنهم تقنيون، أي أن الممارسة قد أفسدتهم، والممارسة هي أكبر متحكِّم في الأطباء العقليين.

1) المجرم بالابتذال والعادة

2) المجرم بالاندفاع العبثي والأدنى

3) المجرم مع سبق الإصرار (علاقة المجرم والنموذجَين الأسفلَين من الجانبين من (3)، نوع المجرم نفسه).

[. . .]

5) = خسمة أنواع من المجرمين

1) مع سبق الإصرار الخالص (2)

2) مع سبق الإصرار + ابتذال (2+3)

3) مع سبق الإصرار + جنون (2+1)

4) شذوذ + ابتذال (2+3)

5) شذوذ + جنون (2+1)

Id est (بعبارة أخرى)

1) سبق إصرار

2) حساب وابتذال

3) عادة وجنون

4) عادة وابتذال

5) جنون.

* * *

«وهناك ثلاثة أنواع من الجرائم: جرائم ناتجة عن المزاج، جرائم ناتجة عن الاندفاع، وجرائم ناتجة عن الفرص. فأما الجرائم الناتجة عن المزاج فهي التي لا تنشأ عن ظروف خارجية يمكن أن تبررها، لا أقول أخلاقياً -لأنه ما من شيء يبرِّر الجريمة أخلاقياً- بل فكرياً؛ أعني الجرائم التي لها مبرِّر وجود لا يناسبها إطلاقاً. إن الإنسان الذي يقتل إنساناً آخر لسبب تافه، والإنسان الذي يسرق دونما حاجة واضحة إلى المال أو يستطيع، لو أنه بذل مجهوداً بسيطاً، أن يحصل على المال بطرق شريفة. هذان النموذجان من الناس يرتكبان جرائم ناتجة عن المزاج. أما الجرائم الناتجة عن الاندفاع، فهي تنشأ عن ظروف خارجية تبرِّرها من الناحية الفكرية؛ فالرجل الذي يقتل زوجته الخائنة، والرجل الذي يسرق المال الذي لا يستطيع الحصول عليه بأي وسيلة من الوسائل المشروعة، أو بوسائل شرعية تفرضها السرعة المطلوبة في الأداء، هؤلاء يرتكبون جرائم ناتجة عن الاندفاع. وأما الجرائم الناتجة عن الفرص فهي

تلك التي لا يكفي دافعها لتبرير الجريمة فكرياً بل تبرز فيها ظروف خارجية تُمارِسُ على الفرد غواية لا يستطيع مقاومتها.

لدينا هنا ثلاث درجات من الجُرمِيَّة الخفية. نعم، لأنه حتى لدى المجرم بالاندفاع، لا بدَّ من وجود جُرمِيَّة خفية. فمن بين الرجال الذين ينجذبون نحو النساء قليل منهم فقط يقتلهنّ، في نهاية الأمر؛ ومن بين الناس الذين يواجهون حاجة إلى المال، قليل منهم من يسرقون، في نهاية المطاف. إذاً، لا بدَّ أن تتوفر في المجرم بالاندفاع بعض ملامح المجرم بالمزاج؛ والفرق بينهما أن الإثارة يجب أن تكون قوية جداً -أو، بعبارة أخرى، أن يكون الدافع قوياً للغاية- حتى تحقِّق الجريمة. وأما لدى مجرم الفرصة، فإن الاستعداد يجب أن يكون أكثر قوة لأن الإثارة أو الظروف الخارجية لا تملك ما يكفي من القوة لتُحدث الجريمة، إن صحَّ التعبير. وعليه يجب أن نسلِّم بأن مجرم الفرصة هو مجرم مزاج يظهر لديه، طبعاً، كبتُ النزوع نحو الجريمة، وهو ما تعمل ظروف خارجية على إزالته فجأة. وبعبارة أخرى، فإن مجرم الفرصة مجرم مزاج عانى مزاجه من الكبت.

لنفحص، في البداية، طبيعة المجرم المزاجي. أولاً، المجرم شخص غير عادي؛ فما هو الشخص غير العادي؟ شخص غير عادي هو كائن لا يتصرف عادة مثل بقية الكائنات من جنسه؛ هذا يعني أنه ليس مثل بقية الكائنات من جنسه، لأن تصرفه المعتاد ينشأ من طبيعته. إن الوظائف الذهنية -أو صفات الروح، إن شئنا أن نعبِّر عن ذلك هكذا- يمكن أن تصنَّف ضمن ثلاث فئات مختلفة: العقل، الإحساس والإرادة. فشخص غير عادي، إذاً، هو فرد لا يفكر مثل الآخرين، لا يحس مثلهم، أو لا يريد مثلهم، إلا إذا راكم أكثر من تفاوت واحد من بين هذه التفاوتات البعيدة عن القاعدة.

مكتبة الرمحي أحمد

والحياة أساساً هي الفعل، والفعل ينشأ عن الإرادة. وبدورها، تنشأ الإرادة عن الإحساس، لأن الفكرة البسيطة، أو التمثُّل، لا تُولِّد الإرادة إلا بواسطة الإحساس الذي هو علة وجود الفعل.

وترتبط وظائف الفكر هذه في ما بينها على النحو التالي: يظهر تمثُّل، أو فكرة (عقل)؛ وتُنتج هذه الفكرة إحساساً ما، يولد هذا الإحساس فعلاً، أي أنه يثير اندفاعاً في الإرادة، ويكون الفعل إما بسيطاً وإما مركّباً، إما ضعيفاً وإما قوياً، إماً موجّهاً نحو هذه الوجهة وإما تلك، وفقاً للإحساس الذي أثاره التمثُّل، لكن شريطة أن يشتغل العقل، والإحساس والإرادة بشكل عادي. وبما أن الحياة أساساً هي الفعل، فإننا ننتمي إلى الحياة بالإرادة، وبتعبير آخر، فإننا بالإرادة نرتبط بالآخرين، ويمكن أن نقول، باستعمال جملة مفارقة، نحن بالإرادة آخرون. وبواسطة العقل، الذي يقع في الطرف الآخر، لدينا ارتباط أقل بالآخرين؛ وبواسطة تمثُّلاتنا الخاصة نكون نحن أكثر بذواتنا، لأننا كذلك بطريقة لا يمكن نقلها... ويقع الإحساس في الوسط.

هكذا، نلاحظ أن المجرم ضعيف على مستوى الإرادة. ولا يتعلق الأمر بالإرادة الوظيفية، كما قد يكون من هو مصاب بضعف عصبي، بل بالإرادة الجوهرية. ليست قوة الإرادة هي العليلة لدى المجرم، كما هو الحال بالنسبة إلى من يعاني من ضعف عصبي، بل بنية الإرادة نفسها هي المريضة.

فما هي العواقب المترتبة عن مرض بنيوي يصيب الإرادة؟».

* * *

«مكبوتات:

1) الخوف
2) ضعف الإرادة
3) الأخلاق

في هذا الحالة لا يمكن أن يكون الكبت هو الأخلاق، لأن الجريمة لم تكن لترتكب، أو، لو ارتكبت، لتعلّق الأمر بجريمة تحت تأثير الاندفاع. ولا يمكن أن يكون الخوف أيضاً، لأن الخوف كان سيكبر مع صعوبة التنفيذ، وقد يكون هناك، في حالة فرضية الجريمة، صعوبة كبرى في التنفيذ. أما مجرم الفرصة، فغالباً ما يرتكب جريمة بسيطة، مثل اختلاس الأموال... إلخ.

يبقى ضعف الإرادة. يتعلّق الأمر، إذاً، بمجرم مزاجي مكبوت بضعف كبير على مستوى الإرادة.

هكذا، هناك ثلاثة أصناف من الإرادة: 1) الإرادة تحت الاندفاع، 2) إرادة الكبت، 3) إرادة العزم أو الخيال. ليست إرادة العزم ما كان ينقص المجرم، لأن هذه الجريمة كانت نتيجة إرادة تنظيمية. ما كان ينقص هذا المجرم هو الإرادة تحت الاندفاع».

* * *

ذاتي	علائقي	موضوعي
مجنون	عبقري	إنسان مثقف (مقاصد ثقافية)
مجنون متبصّر	مجرم بالعزم	إنسان عادي متحضّر (غرائز عادية)
أبله	مجرم عادي	متوحّش (غرائز غير عادية) ← المتوحّش أبله عادي.

مكتبة الرمحي أحمد

«الحياة أساساً هي الفعل، لذلك فإن الصفات التي تساهم في الفعل، أي الصفات الموضوعية، هي التي تساهم في توازن الحياة.

والمجرم الذي يتعمّد ارتكاب الجريمة ينظّمها كما ينظّم الإنسان العادي حياته».

* * *

«في حالة هذا الإنسان، لا يتعلق الأمر بغياب إرادة ناتج عن الكبت، لأن غياب إرادة ناتج عن الكبت كان سيؤدي به إلى ارتكاب الجريمة قبل ذلك. ولا يتعلق الأمر أيضاً بغياب إرادة في التنسيق، لأن الخطة المعقّدة، التي نفِّذت بعناية تامة، تنم عن وجود هذا النوع من الإرادة على أعلى مستوى. ونستنتج من ذلك أن مرتكب هذه الجريمة يعاني من ضعف في الإرادة تحت الاندفاع، ومن ثم الكبت المزاجي لغريزته الإجرامية، وانطلاقاً من هذا، كذلك، يبدو أن هذه الغريزة لم تظهر إلا بإلحاح من ظروف عابرة أثّرت على غريزة مشوَّشة تعاني من الكبت باستمرار. لكن، عليكم ألا تنسوا أنه، بموازاة غياب إرادة بسيطة، يمكن أن تكون ثمة قوة إرادة في التنسيق. لا تنسوا ذلك، لأن هذا الأمر لا يستبعد بالضرورة الأمر الآخر.

وهناك ثلاثة أنواع من الناس يعانون من غياب الإرادة تحت الاندفاع. مثل الساذج المعتوه، والأبله أو الأحمق، الذين تغيب لديهم الإرادة تحت الاندفاع (رغم وجود الاندفاع [. . .] نظراً إلى الوهن العام الذي يصيب العقل».

* * *

1) نوع من الكبت: أ) خوف (لا)، ب) أخلاق (لا)، ضعف الإرادة (نعم).

2) ضعف الإرادة: أ) ضعف الإرادة تحت الاندفاع (نعم)، ب) ضعف الإرادة تحت تأثير الكبت (لا)، ت) ضعف إرادة التنسيق (لا) استعداد عكسي لهذه (أي عكس ب، ت وأ).

3) ضعف الإرادة تحت الاندفاع: بسبب ضعف مرضي، كما لدى الأحمق أو الأبله، ولدى المجنون الذي يعاني من الاكتئاب أو المتخلِّف عقلياً؛ ب) بسبب ضعف بنيوي، كما لدى المتشرِّد (هذا الأخير قادر على اندفاعات مباغتة، لكنه عاجز عن أي اندفاع متواصل، وعن أي إرادة في التنسيق)؛ بسبب إفراط في النشاط الذهني (هذا القصور يكون موازياً لوجود إرادة في التنسيق، ولا تغيب هذه الإرادة إلا بغياب إحساس قوي يمدها بعنصر يدفعها من الخلف)، ويقصي الاستدلال أ) و ب)؛ ويبقى ت).

4) أي نوع من النشاط الذهني يمكن أن ينتج عن غياب الإرادة تحت الاندفاع؟ هناك ثلاثة أنشطة: المزاج التخييلي والتأملي (وهذا الأخير يكون أكثر عجزاً عن أي مجهود تنسيقي منه عن أي مجهود تحت الاندفاع، وهو بذلك يشبه المتشرد). **انظر أعلاه**؛ ب) المزاج الفني والأدبي، حيث تكون الإرادة موجّهة نحو الباطن (انظر ليوناردو دا فينشي، هامليت)؛ (ت) المزاج المُركَّز ببساطة. وهذه الأمزجة تختلف بحسب ما إذا أ) لا يؤثر المزاج التخييلي والتأملي إلا عابراً في أشياء يومية ومحدودة، حيث يكون المجهود منعدماً تقريباً، أو بحسب رغبة نوبات من الحماس المصطنع؛ ب) ولا يؤثر المزاج الفني والأدبي بشكل صحيح إلا في الباطن، في أعمال أدبية أو فنية، حيث يستعرض كل اندفاعه الغامض وإرادته في التنسيق، بل

مكتبة الرمحي أحمد

يمكن أن يتخلى عنها في كثير من الأحيان نظراً إلى إفراطه في الحيرة الجمالية أو العقلية؛ ت) ولا يؤثر المزاج المُركَّز ببساطة إلا في فكرة وحيدة، استحوذت بقوة على ذهنه وبلغت نضجها، وحتى في هذه الحالة، لا يقوم بذلك إلا بعد أن تكشف له ظروف خارجية عن هذا النضج. فنموذج المزاج (أ) مشتت بطبعه، ونموذج المزاج (ب) شخص يُركِّز الأشياء، ونموذج المزاج (ت) شخص يركِّز فكرياً.

5) أنواع التركيز: ما هو التركيز؟

هل هو تثبيت كل القوى العقلية حول عنصر واحد؟

هناك التركيز حول (أ) فكرة، (ب) إحساس، (ت) قصد. ينجز الأول شخص يتأمل أمراً ما، ولا يتحقق هذا الأمر إلا إذا أتيحت له فرصة واضحة، ما دام أنه يعاني من غياب إرادة. . .

ويقوم بالتركيز الثاني شخص يحس بقوة بأمر ما، ولا يتحقق هذا الأمر إلا إذا أتيحت له فرصة يمكنها، أولاً، أن تسمح له بأن يعي بذاته ما يشعر به، ثم، بعد ذلك، يحرَّك بقوة إرادته، ما يجعله ينتقل إلى فئة التركيز من نوع (أ). ويقوم بالتركيز الثالث شخص له عزم راسخ، يبحث له عن فرصة. وفي هذه الحالة، يتعلق الأمر بالحالة (ب).

6) أنواع التركيز العاطفي: (أ) عن طريق إحساس الجاذبية (كتلك التي تتمثل في اشتهاء امرأة)، (ب) عن طريق جاذبية التنافر (كتلك المتمثلة في كره شخص ما)، (ت) عن طريق الإحساس المجرد أو الفكري، والذي لا ينتمي إلى أي فئة من هذه الفئات، ويشتمل على إحساس ديني أو تصوف سياسي. . . إلخ. ويتعلق الأمر في هذه القضية بالنموذج (ب).

7) أنواع الإحساس التنافري: (أ) هجومي، (ب) دفاعي، (ت) تركيب من الاثنين (كما يحدث عندما نريد مهاجمة شخص ما كي نتخذ لنفسنا موقعاً). هنا، (ب).

8) أنواع الإحساس الدفاعي: (أ) عادي، أي هذياني (مستبعد في هذه القضية)؛ (ب) عرضي (مستبعد في هذه القضية نظراً إلى التعمّد. . . إلخ)؛ (ت) مزيج من الاثنين، مع قوة العادي واندفاعية العرضي. إن مزاج (ت) يمثِّل تشابهاً جوهرياً مع مزاج الهذياني، وتشابهاً سطحياً مع العرضي. إنه هذياني متبصِّر تماماً، أي أنه يتوفر على كل شروط البارانويا باستثناء الهذيان المركزي، الذي يشكِّل البارانويا فعلاً.

(وإذا سُمح لي باستعمال مفارقة، سأقول، في نهاية هذا الاستدلال، أن مرتكب هذه الجريمة شخص يعاني من البارانويا ويتمتع بالبصيرة).

إن أعراض البارانويا الأساسية ثلاثة على الأقل: الأهمية المفرطة التي يوليها الشخص لذاته والتركيز المبالغ فيه على الأنا؛ التنظيم الزائف والعبثي للوقائع وفقاً لهذا التركيز؛ [. . .].

إنها بارانويا مركزية، تترك المؤهلات الذهنية سليمة من أي تأثير؛ إنه هذياني أَنَوي، حيث أفكار الفرد وأحاسيسه تمثل كل شيء بالنسبة إليه؛ إنها بارانويا دفاعية [. . .].

هذا يعني، تابع كْواريشْما، أن مرتكب هذه الجريمة له شبه كبير بشخص يعاني من البارانويا، إلا أنه ليس مجنوناً. ولا بدَّ أن عقليته

مكتبة الرمحي أحمد

تشبه تماماً عقلية من يعاني من البارانويا إذا ما استثنينا ما يرتبط بها مباشرة من جنون. يمكن أن نقول إنه يمكن أن نتصور أن عقلية من يعاني من البارانويا بكاملها تنشأ عن الجنون. لكن الأمر ليس كذلك: البارانويا نوع معيّن من الجنون، يختلف عن أنواع أخرى، ويشكل بذلك هذا النوع. تشبه الأنواع الأخرى في ما يتعلق بالجنون؛ وتختلف عنها في ما يتعلق بالهذيان. وهنا تختلف عن الأنواع الأخرى، وهنا يكمن هذا الجزء من عقلية المريض بالبارانويا والتي لا تنتج عن الجنون.

إن عقلية المصاب بالبارانويا الذي يتمتع بالبصيرة، كما سميتُه، تحتوي على عناصر أقل من عقلية المصاب بالبارانويا فقط، وهي العناصر التي تنتج لدى هذا الأخير عن الجنون؛ إنه يتوفر على أشياء مشابهة، هي تلك التي تشكِّل عقلية المصاب بالذهان، بوصفه مجنون يختلف عن بقية المجانين، ويمكن أن يتوفر أيضاً على أشياء زائدة، ناتجة عن غياب الجنون أو، إن أردتم، حضور الوضوح، ولا أجرؤ على أن أقول الصحة الذهنية.

لنبدأ بتحديد مفهوم الجنون، أي ما هو المشترك بين كل أنواع الجنون، من جنون البارانويا الصريح، مثل الهَوَس الحاد، إلى الجنون المنطقي ظاهرياً، مثل الهذيان، من جنون الحماس إلى جنون الاكتئاب، ومن الجنون الناتج عن جلطات دماغية أو جلطات تصيب الدماغ والعمود الفقري إلى ذلك الجنون الذي لا يرجع، على الأقل بشكل واضح، إلى هذا السبب. ويمتاز الجنون بتعطيل عمل المراكز الدماغية -أو الذهنية- العليا، بينما تظل المراكز السفلى نشيطة. أثناء النوم، أو عند حدوث إغماء، أو تماماً أثناء الإغماء، أو فقط من أجل الفعل، كما يحدث أثناء النوم المصحوب بالأحلام، ومن

المحتمل أن كل نوم هو نوم مصحوب بالأحلام، رغم أن النائم لا يذكر أنه قام بها حين يستيقظ من نومه.

ما إن يُلغى عمل المراكز الدماغية العليا، أي عمل الكبت -أو المكبوتات-، والتنسيق والمقارنة التي تميز بين الذاتي والموضوعي، حتى يفقد الفرد السيطرة على اندفاعاته، ويكف عن وضع روابط بين أفكاره، ويخلط بين ما يراه وما يحلمه، بين ما يتخيله وما يفهمه. إن الاندفاعات التي لا تُكبت يمكن أن تنتمي إلى دائرة الإثارة أو الاكتئاب، والأفكار غير المتناسقة يمكن أن تكون قوية أو غامضة، والخلط بين الذاتي والموضوعي يمكن أن ينتمي إلى دائرة الهلوسة (مثلاً، عندما يكون للفرد إحساس، بصري أو من نوع آخر، «بأشياء» لا وجود لها)، أو التأويل (كما يحدث عندما يُنسِبُ إحساساً حقيقياً إلى هلوسة باطنية تُلحق كل شيء بنفسها وتدمج كل شيء في خطتها المغلوطة). إن الفروق الثانوية لا تمثل أهمية كبيرة: كل أنواع الجنون تشترك في أنها تتقاسم هذه الظواهر.

كل شكل من أشكال الجنون ينزع، مع ذلك، إلى تغليب هذا العنصر السلبي على العنصرَين الآخرَين، رغم أنهما دائماً حاضرَين، بدرجة أو بأخرى؛ وعليه، فإن الجنون يمكن تصنيفه منطقياً إلى ثلاث فئات. فعن إلغاء الكبت تنتُج أساساً أشكال الجنون من النوع العصابي أو السوداوي، حيث يمتاز المرض بعدم قدرة الفرد على السيطرة على اندفاعاته، بسبب الإثارة أو الاضطراب، كما في الحالة الأولى، أو بسبب الاكتئاب أو الرفض، كما في الحالة الثانية. وعن إلغاء التنسيق بين الأفكار تنشأ أساساً أشكال الجنون حيث، من دون عنف كبير ولا اكتئاب، أو من دون أي عنف أو اكتئاب عاديَين أو نموذجيَّين، يحدث الارتباك الذهني، إما بسبب

مكتبة الرمحي أحمد

بروز عنيف لأفكار قوية، تتدافع فيما بينها، كما في البارانويا بالمعنى الحصري للكلمة، أو بسبب الخلط بين أفكار غامضة، كما في العته والبلاهة. وعن غياب القدرة عن التمييز بين الذاتي والموضوعي تنشأ أساساً أشكال الجنون حيث لا تكون الإثارة أو الاكتئاب شيئاً بارزاً، أو، لو كانت كذلك بالصدفة، فإن ذلك لا يكون إلا عرضياً ونظراً إلى أسباب منطقية ظاهرياً، لأن المريض يفسِّرها لنفسه بنفسه؛ وحيث لا وجود لبارانويا أو اضطراب واضحَين؛ وحيث، إن لم نكن قادرين على الملاحظة الجلية للهذيان، خارجياً كان أو باطنياً، لأنه لا يبدو عبثياً بشكل واضح، لأننا لم نباغت المريض في فترة إثارة أو اكتئاب هذياني بشكل جلي، أو لأننا لا نملك معرفة مباشرة بما يمثله الهذيان، بغضّ النظر عمّا يؤكده المريض، فقد نعتبر هذا الأخير، بسهولة، شخصاً سليماً، أو على الأكثر، شخصاً متوتِّراً أو متحمِّساً بشكل عادي. لقد ميزت في هذه الفئة الأخيرة بين النوع الهلوسي والنوع التأويلي، أي بين البارانويا الخارجية والبارانويا الباطنية، كما كررتُ ذلك لاحقاً؛ والحال أن البارانويا (وحالات البارانويا، لأن الملاحظة والعقل تجعلنا نقبل بحالات بارانويا ناقصة) تشكِّل، لوحدها، البارانويا التأويلية الناتجة عن بارانويا باطنية.

إن البارانويا الباطنية، بحكم أنها باطنية، تتعلق بالحياة الذاتية، الخاصة بباطن الفرد؛ وتنطوي دائماً على فكرة ذات طبيعة هذيانية تتعلق بشخصيته نفسها. ويمكن النظر إلى الشخصية في حدّ ذاتها، في تجلياتها الباطنية -أي الأفكار-، أو في علاقتها مع الآخرين. ومن ثم يوجد ثلاثة أنواع مختلفة من البارانويا. فهناك، أولاً، تلك التي تنبني على نظرة مبالغ فيها للذات، أو بشكل هوسي في هوس العظمة، كما يحدث حين يعتبر الفرد نفسه إلهاً، ملكاً، أو عبقرياً؛ أو

بشكل اكتئابي، كما يحدث عندما يعتبر نفسه أكبر صياد بين الصيادين أو أكبر مجرم بين المجرمين، أو أي شيء آخر من هذا القبيل. هناك إذاً البارانويا التي تنبني على تصور مبالغ فيه عن الأفكار الخاصة، كما يحدث للمريض حين يظن أنه يعتنق ديناً أسمى خاصاً به هو فقط، أو يؤمن بفلسفة نهائية خاصة به لا غير؛ فمؤسِّسو الأديان (لا يهم إن نجحوا أم لم ينجحوا في فرض ذواتهم، لأن النتيجة الموضوعية لا علاقة لها بالظاهرة الذاتية) كلهم يمثلون حالات من البارانويا، وبما أنني أعرف هذه الحالات من البارانويا، أظن (والمعطيات الواردة في سيرهم تدعم رأيي) أن معظم الفلاسفة والفنانين ممن تسيطر عليهم أفكار حول الفن ربما يعانون من نفس المرض. وهناك، أخيراً، البارانويا المبنية على تصور مبالغ فيه للأهمية والاهتمام اللذان يوليهما الآخرون للفرد. إن ردّ فعل الجسم، سواء كان جسدياً أم نفسياً، أمام محيطه هو ردّ فعل دفاعي ضدّ هذا المحيط، ويكون الدفاع إما بالتأقلم معه، وإما بمناهضته بشكل عنيف. إن التأقلم، الذي ينطوي على مفهوم التوازن بين الجسم ومحيطه، أو، في حالة نفسية، بين الذاتي والموضوعي، شيء مستحيل بالنسبة إلى شخص مجنون. فالوسط أو الآخرون يبدون له ليس كحواجز جامدة عليه أن يجتازها، بالتأقلم معها، بل كأعداء عليه أن يحاربهم، ما داموا يزعجونه ويقضّون مضجعه. وبحسب طبيعة الفرد، وطبيعة جنونه، إن كانت ذات اكتئاب حاد أو متهوِّس، قد يكون ردّ الفعل عويلاً، شكوى، احتجاجاً، مع فترات عنف محتملة عندما تحتدّ وطأة الهذيان، أو أعمال عنف. لدينا، في الحالة الأولى، المضطهَد العادي، وفي الحالة الثانية، المضطهَد المضطهِد.

إن النوع الأول من البارانويا، أي بارانويا المبالغة الإيجابية أو

مكتبة الرمحي أحمد

السلبية للذات، هو، كما يمكن أن نلاحظ، أساس كل أنواع البارانويا الأخرى، وهو أساس البارانويا في حدّ ذاتها. لا يمكن لأي أحد أن يُكَوِّن رأياً مبالغاً فيه عن أفكاره الخاصة دون أن يُكَوِّن رأياً مبالغاً فيه عن الشخصية التي تصدر عنها تلك الأفكار، وهكذا فإن عنصراً من عناصر هوس العظمة هو الأساس الملموس لكل أشكال الهذيان التأويلية المجردة، سواء كانت دينية، أو فلسفية، أو من أي طبيعة أخرى. ولا يمكن لأي أحد أيضاً أن ينسب إلى الآخرين انشغالاً قوياً ومستمراً بشخصيته دون أن يجد في هذه الشخصية سبباً لهذا الانشغال القوي أو المستمر عند الآخرين. في حالة التهوُّس السلبي للشخصية، إن صحّ التعبير، نلاحظ نفس الشيء. إن من يعاني لا إرادياً ليظن نفسه أكبر صياد في العالم ينشغل لا إرادياً بنفسه كثيراً.

والحال أن الجنون حالة، أو وضع من أوضاع العقل البشري: إنه يشترك مع العقل البشري في بعض خصائصه، رغم أن ذلك يكون بطريقة مبالغ فيها، وبطريقة مرضية لهذا السبب. إن ما يميز حالة جنون عن حالة عادية تشبهها بالتحديد، هو المبالغة والاستمرار في هذه المبالغة. إننا جميعاً نمر بفترات تهوُّس واكتئاب. كلنا نعاني من لحظات اضطراب ذهني، لحظات شكّ وفقدان ثقة في الذات، لحظات استدلال منظَّم بشكل اعتباطي. لكن هذه اللحظات، لدينا نحن الأسوياء، تكون عرضية وأقل حدة، وهي بذلك غير نموذجية. لكنها، لدى المجنون، تكون مستمرة وحادة، وبالتالي نموذجية.

لكن، لو كانت ثمة جريمة، لا بدَّ أنها جريمة خُطِّط لها بعناية فائقة. في هذه الحالة، كيف نفسِّر العبثية الظاهرة التي تتمثل في

تصنُّع انتحار في مكان مثل ذلك المكان وساعة مثل تلك الساعة؟ كي نسلِّم بالجريمة، وإذا كان علينا أن نسلِّم بأن شخصاً واحداً هو الذي كان بإمكانه أن يرتكبها، لأنه الوحيد الذي كان بإمكانه أن يحاول ذلك من دون عقاب، وهو شخص مقرّب جداً من الضحية، فإن السبب الوحيد الممكن لتصنُّع انتحار في ظروف غريبة كهذه، والذي يقتضي عدم وجود أي فرضية أخرى، يصبح لاغياً: فقد يكون شخص مقرّب من الضحية قد حصل على طريقة لخلق ظروف أخرى، أكثر احتمالاً؛ والبراعة التي تمَّ بها التخطيط للجريمة تستبعد غياب البراعة للحصول على هذه الظروف، والحصول عليها بشكل جيد؛ أن تكون الجريمة، إن ارتكبت، متعمّدة بالضرورة يستبعد الفرضية الثانوية التي تقول بأن المجرم ربما يكون قد استفاد من ظروف غير منتظرة.

لو كان الأمر يتعلق بجريمة خطِّط لها بكل براعة وإتقان، فإن كل هذه الظروف العبثية ظاهرياً، إذاً، يجب أن تكون جزءاً من المخطط، لأنها لا يمكن أن تكون طارئة. فما الهدف من ذلك؟ لنتصور عدة فرضيات. من أجل هدف، أو أكثر من هدف، من بين ثلاثة أهداف ممكنة: تعقيد الواقعة بطريقة تعوق التحقيق؛ اغتنام فرصة تتناسب مع كل هذا وتكون مواتية له؛ إضفاء احتمال ممكن على عملية الانتحار، نظراً إلى عبثيتها، لأنها لا يمكن أن تكون محتملة لولا ذلك، نظراً إلى طبيعة كارلوس فارغاش غير الميّالة إلى الانتحار. ومع ذلك، لو كان هذا صحيحاً، يدل كل هذا لدى القاتل المفترض عن عقلية تخطيطية غير عادية. لدينا هنا براعة تركيبية عند المُخطِّط، تتمثل في تجميع مجموعة من الظروف المتباينة في حدث واحد، واستعمالها كما لو أنها كلها من ابتكاره.

مكتبة الرمحي أحمد

لدينا هنا براعة نفسية عند المُخطِّط تتمثل في افتعال واقعة، نظراً إلى طبيعتها المتعددة، لديها القدرة، بحكم تناقضها، بالإفلات من أي تأويل (والذي هو العدو، في هذه الحالة)، شريطة ألا تُأخذ في الاعتبار العقلية التخطيطية لمن كان وراءها. ولدينا هنا، أيضاً، البراعة العملية للمُخطِّط، والتي تتمثل في وضع الأمور بطريقة تُصعِّب الهجوم التأويلي، والتصرف بشكل يجعل غياب المعطيات منذ البداية يحرم هذا الهجوم من أي يقين. وبعبارة أخرى، فالواقعة وُضعت بطريقة تجعلها تعجُّ بالمعطيات الغامضة، وتخلو من الوقائع والمعطيات الواضحة، وتكون المعطيات الغامضة والواضحة متناقضة ومتضاربة.

تلك هي عقلية المُخطِّط. لذا علينا أن نفحص 1. ما هي عقلية المجرم بصفة عامة؛ 2. ما هي عقلية المجرم المُخطِّط بصفة خاصة؛ 3. إن كانت عقلية كوشتوديو بورجِس توافق العقلية الخاصة للمجرم المُخطِّط. أي إنه ينبغي أن نستعمل الطريقة السايكولوجية. إذا كانت موافقة، فإن الطريقة السايكولوجية سوف تؤكد نتائج الطريقة الافتراضية ونتائج الطريقة التاريخية، ويكون للبرهنة القوة التراكمية لكلتيهما، وهي ليست قوة ناتجة عن عملية جمع، بل، بشكل أدقّ، عن عملية ضرب. وقد نحصل حينئذ، لا أقول على اليقين، بل على الاحتمال المكعّب.

فلا وجود، إذاً، لعقلية المُخطِّط، ولا لعقلية الكاتب المسرحي، ولا لعقلية الميتافيزيقي. لكن، هناك عقلية المجرم مع سبق الإصرار، وعقلية الممثل وعقلية المصاب بالبارانويا، لأن هذه

هي الأشكال **الخاصة** بهذا النزوع، لأن الأشكال الأخرى هي أشكال **عامة**.

بورجِس يمتلك بشكل قوي، عقلية المجرم الذي ينفِّذ جريمته مع سبق الإصرار (وليس عقلية المُخطِّط)،

[...]

بورجِس له عقلية المُخطِّط، لأنه مجرم يتعمّد جريمته.

وكما هو شأن الكاتب المسرحي، فإنه يوجد في منزلة بين المصاب بالبارانويا والفيلسوف [...].

إن المجرم الذي يقدم على جريمته مع سبق الإصرار يوجد في منزلة بين المصاب بالبارانويا والممثل.

إن عقلية المجرم الذي ينفِّذ جريمته مع سبق الإصرار تمثل **الحالة المرضية** لعقلية المُخطِّط، كما أن عقلية المصاب بالبارانويا هي الحالة المرضية للميتافيزيقي.

كاتب مسرحي	ميتافيزيقي
مُخطِّط	مجرم مع سبق الإصرار
ممثِّل	مصاب بالبارانويا 2 (مثال)

لماذا مجرم وممثِّل؟ هل هو عنصر **التظاهر**؟

مُخطِّط	ميتافيزيقي	ميتافيزيقي (أ)
مجرم مع سبق الإصرار أو	كاتب مسرحي	كاتب مسرحي (ب)
مصاب بالبارانويا	ممثِّل	مُخطِّط (ت)
		مجرم مع سبق الإصرار (ج)
		مصاب بالبارانويا (د)

مكتبة الرمحي أحمد

(ب) له عقلية (أ) + (ت)
(ت) له عقلية (ب) + (د)
(د) له عقلية (ت) + (د)

المُخطِّط والكاتب المسرحي
المجرم مع سبق الإصرار
العبقري والمجنون
فيلسوف مصاب بالبارانويا

كيف تنتظم المجموعات؟ هكذا أو:
المُخطِّط والفيلسوف
الممثِّل والكاتب والمسرحي
المصاب بالبارانويا والمجرم مع سبق الإصرار
أو
في صحة جيدة: المُخطِّط، الكاتب المسرحي، والممثل
مرضى: الفيلسوف، المجرم مع سبق الإصرار، المصاب بالبارانويا.

إن التماثل بين الفيلسوف والمصاب بالبارانويا يعود إلى ما ينتجانه بشكل مترابط من معطيات ناقصة وخاطئة. (وهناك تماثل بين المُخطِّط والمجرم مع سبق الإصرار، كما يوجد تماثل بين الكاتب المسرحي والممثل).
البارانويا هي أساساً هذيان تأويلي.

إن المُخطِّط العملي، الذي يشتغل في ظروف الحرب، هو إلى حدٍّ ما رجل السياسة، والدبلوماسي؛ إن المُخطِّط الفكري هو الكاتب المسرحي، وإلى حدٍّ ما بعض الروائيين؛ ومن بين هؤلاء نجد المُخطِّط العملي المحدود (المجرم والممثل).

على المُخطِّط أن يمتلك: الرؤية [. . .]

والمجنون غالباً ما يكون متصنِّعاً، ويحدث هذا لأنه، وعندما، يُولِّد الجنون بداخله هستيريا باطنية؛ ومن سمات الهستيريا المميزة الإيحاء الذاتي الذي يمنحه الجنون. لذا نجد تصنُّعاً في كل أنواع الجنون حيث يمكن أن تكون ثمة بصيرة (نسبية) وجريمة. ولا توجد في الحالات الأخرى.

لو سلّمنا أنه وقعت جريمة قتل في هذه الحالة، وأنها قد نُفِّذت بالطريقة التي تصورتُها، فكيف يمكن أن تكون عقلية القاتل، سواء تعلق الأمر ببورجِس أو بغيره؟

[. . .]

علينا أن نبحث عمّا يمكن أن تكون عليه عقلية المُخطِّط عامة؛ عمّا يمكن أن تكون عليه عقلية المُخطِّط عندما تُطبَّق خطتُه، ليس على معارك وتجمعات بشرية كبيرة، بل على واقعة بسيطة وعلى إنسان واحد؛ وأخيراً، عمّا يمكن أن تكون عليه هذه العقلية الخاصة، عندما يكون النشاط الخاص الذي تُطبّق عليه عملية قتل. لو لاحظنا أن عقلية بورجِس، أو بعض العناصر منها، توافق أو تتأقلم مع عقلية المُخطِّط، أو مع بعض العناصر التي يمكن أن تُنسب إلى المُخطِّط بشكل خاص، أولاً كمُخطِّط محدود، ثم كمجرم، يمكن أن نعتبر فرضيتنا، وفقاً لطبيعتها، مطابقة لحقيقة فرضية ما.

مكتبة الرمحي أحمد

كما قلتُ من قبل، عندما تحدثتُ عن القيمة التراكمية لطرق الاستدلال المجرّد، عندما تتوافق طريقتان أو ثلاثة طرق، فإن قوتها تزداد بقوة التوافق، ليس عن طريق الجمع بل عن طريق الضرب.

وهناك سؤال أولي علينا أن نجدَ له جواباً. تحدّثتُ عن «عقلية المُخطِّط»، وعندما تحدّثت عن «عقلية المُخطِّط» كنتُ أقصد ضمنياً -وهذا ما ظننتُ أنه ينبغي أن يكون- بـ«العقلية»، في هذه الحالة وفي هذه المناسبة، ليس فقط العقلية الفكرية للمُخطِّط، أي السيرورة الفكرية في ممارسة الذكاء الاستراتيجي، بل أساساً الفروع غير الفكرية لهذا الذكاء، أي المزاج والصفات غير الفكرية التي ينبغي أن تكون مرتبطة طبيعياً بالذكاء الاستراتيجي. لكن السؤال الذي يفرض نفسه علينا بالضبط هو التالي: هل توجد مثل هذه الصفات بالضرورة؟ هل يعني امتلاكُ الذكاء الاستراتيجي بالضرورة امتلاكَ بعض الصفات، كصفات الإحساس، والإرادة، وصفات الذكاء الاستراتيجي؟ هل يمكن أن يُحدَّد بعقلية نسبية بسيطة، بهذا المعنى، نوع ما من «العقلية» العامة أو الخاصة جداً، إن صحّ التعبير؟ ألا يمكن للمُخطِّطين، مثل جميع الأشخاص الآخرين المتخصّصين فكرياً أو مهنياً -كانوا شعراء أو بنّائين- أن يكون لهم، بالإضافة إلى التشابه الذي بينهم فقط لأسباب مهنية أو فكرية، أمزجة عامة، وميولات طبيعية مختلفة تماماً؟ هذا هو السؤال الذي ينبغي لنا أن نجيب عنه قبل أي شيء.

والحال أن الميولات المهنية، إن صحّ التعبير، ثلاثة أنواع. فهناك المهنة البسيطة، التي يتخذها الفرد لنفسه بسبب تأثير خارجي -تربية، عادة، أو أي شيء آخر- دون أن يكون له ميل عميق نحو هذه المهنة. أو أن المهنة بسيطة وليس لها أي ميزة خاصة، مثل مهنة

الحفّار، والمستخدَم أو الموظَّف في المكتب ولا تستوجب عقلية خاصة، ولا شيء غير العادة، وغياب لعدم التكيُّف المطلق (أو بسبب موهبة أخرى تمّت معاكستها، أو بسبب عدم التكيُّف العام المرضي)؛ فيمكن للفرد العادي أن يمارسها بكفاءة دون أن يكون بينه وبين مهنته أدنى علاقة ذهنية؛ أو تكون المهنة متخصِّصة لكنها بسيطة، ويكون من يمارسها قد تابع تعليماً مطوّلاً، يسمح له بممارستها، ليس بطريقة عالية -لأن هذا يستوجب الإبداع- بل بما يكفي من الكفاءة التي تفي بالأغراض العملية لهذه المهنة. وهنا أيضاً لا نجد علاقة ذهنية بين الفرد ومهنته، لأن المهنة تكون، في هذه الحالة، عادة خارجية عند الفرد، إن صح التعبير. فلا توجد ذهنية الحلّاق، ولا توجد ذهنية البنّاء؛ ونقصد الحلّاق العادي، والبنّاء العادي. إن وجود موهبة طبيعية، وميول باطني، لأي مهنة من هذه المهن، أو لأي مهنة أخرى تقتضي تخصُّصاً بسيطاً مشابهاً، تدخل في فئة أخرى من الظواهر ليست هي الفئة التي تعرضنا لها إلى حدّ الآن.

وبعد ممارسة مهنة ما بالعادة، لدينا ممارسة مهنة ما بالموهبة. إن الموهبة لا توجد، بالضرورة، إلا من أجل مهن متخصِّصة، لأن الموهبة تعني التخصُّص؛ فموهبة ممارسة أي شيء تناقض في المفاهيم، وهي في الأكثر تسمية خاطئة تُطلق على القدرة على التكيُّف، التي لا تمثِّل موهبة، بل استعداداً مزاجياً. والموهبة نوعان: موهبة غريزية وأخرى فكرية. يمكن أن نسمّي الأولى، أيضاً، براعة أو مَلَكة؛ أما الثانية فلا يمكننا أن نسميها غير الموهبة، إلا إذا أردنا أن نسميها، في الحالات العليا أو الأنشطة العليا،

مكتبة الرمحي أحمد

القريحة أو حتى العبقرية. هذان النوعان من الموهبة يختلفان فيما بينهما نظراً إلى أن الغريزي، مثل كل ما يتعلق بالغريزة، غير قادر على الإبداع، لأن الغريزة عادة نفسية فطرية، وككل العادات فإنها خنوعة وتكرارية؛ بينما الموهبة الفكرية إبداعية، لأن الذكاء يبدع حين يمارس وظيفة نشيطة (والموهبة تعني الفعل، أو على الأقل إمكانية الفعل) وليس وظيفة سلبية فقط، مثل الفهم. علينا ألا نبالغ في معنى كلمة «إبداعية»؛ لأنها لا تتعلق بالعبقرية فحسب. إنها، بالفعل، تشمل العبقرية والقريحة، بل تضم حتى الذكاء البسيط الموجِّه، كذلك الذي يتوفر عليه وكيل تجاري جيد أو صحافي ممتاز. علينا، إذاً، ألا نبالغ في هذا المعنى، لكن علينا ألا ننساه.

كما تعرف، طبعاً، سيدي القاضي، إن الظاهرة المعروفة باسم الوراثة تتجلى بطريقتَين: الوراثة بالمعنى الحصري للكلمة، والتي وفقاً لها، يشبه فرد ما والديه وأجداده، وما يسمى التنويع، أي ما يختلف فيه معهم، قليلاً أو كثيراً. يمكن أن نجدَ نوعاً من التنويع المصطنع، إن صحّ التعبير، ينشأ عن تأثير الوسط. لكني، لا أعني هذا، بل أقصد التنويع الطبيعي، هذا الاختلاف مع الأجداد الذي يولد مع الفرد، وهو الذي يشكِّل فَرديته. والغريزة، مثل العادة، شيء يُكتسب، أي أنها بشكل ما غريبة عن الفرد بصفته فرداً؛ مع فرق أن العادة تُكتسب من الوسط وعلى مدى الحياة، بيما تُكتسب الغريزة من الوراثة وتولد معنا. وبما أن الذكاء -الذكاء الإبداعي، لاحظ معي، وليس ذكاء الفهم- بطبيعته يناقض الغريزة، وبما أن الصفات الطبيعية الفطرية مصدرها الوراثة والتنويع، فإن ما يترتب عن ذلك هو أن الذكاء الإبداعي، بما أن الغريزة تنشأ عن الوراثة، يصدر بالضرورة عن التنويع، أي ما يشكل الفرد، وما يمنحه فَرديته ويحدّدها.

– لحظة، يا دكتور، قاطعه القاضي. إن فهمتُك جيداً، الذكاء الإبداعي ليس وراثياً، ولا يمكن أن يكون كذلك؟ هل هو دائماً تنويع؟

– نعم، أجاب كْواريشْما، لكن علينا أن نتفاهم جيداً. ليس الذكاء الإبداعي بظاهرة بسيطة: إنه يتكون من ثلاثة عناصر: ذكاء الفهم، الذي يشكِّل أساسه؛ الذكاء النقدي، الناتج عن تطوير ذكاء الفهم؛ والذكاء الإبداعي، بالمعنى الحصري للكلمة. للحصول على موهبة عالية -أي إبداعية- في الفلسفة، ينبغي أن يتوفّر الفرد على فهم طبيعي للفلسفة؛ لا أقصد معرفة موسوعية بالفلسفة، وإن كان ذلك يساعده -لأن الموسوعية عنصر صادر عن «الوسط» وليس عن الوراثة-، بل فهماً طبيعياً للمصطلحات المجرّدة التي تلعب بها الفلسفة. وللحصول على ذكاء إبداعي، يتعين على الفرد، بعد ذلك، أن يعرف كيف يقارن بين تلك المصطلحات التي يفهمها بالحدس، وهنا، ومهما ساعده أيضاً ذلك العنصر الذي نسميه معرفة موسوعية، فإنه لا يفيد سوى في أنه يغذّي نقداً لا يستطيع إنتاجه. لكن الذكاء النقدي لا يتجاوز ما يفهمه؛ فقط يفهم بشكل أحسن من الفهم بالغريزة. لذلك فإن النقّاد، وحتى كبار نقّاد الأدب والفن، قد أخطأوا بشكل فادح في ما يتعلق باكتشاف وفهم عباقرة الأدب والفن. إن الناقد يقارن بين الأشياء الموجودة؛ لكن العبقري يأتي بما لا وجود لها. فإما أن يكون ما أتى به العبقري قريباً مما يوجد، ويمكن أن يُقارن معه، بسهولة قد تكبر أو تصغر، وإما أن يكون بعيداً عنه كل البعد. في الحالة الأولى، يمكن لناقد ذي ذكاء عالٍ ومجرّد من الحماس، فعلاً، أن يكتشف العبقري، لأن العبقري، في هذه الحالة، هو بالأحرى موهبة من أعلى الدرجات، أي عبقري

مكتبة الرمحي أحمد

نقدي بدوره إلى حدٍّ ما، وليس مبدعاً بالمعنى الحصري. في الحالة الثانية، لا ينتبه الناقد إلى قيمة العمل الفني، الذي يبدو له خارج القواعد، وهو نتيجة أحد شَكلي الشذوذ المتعلقة بالدونية أو الجنون. فالنقّاد، عموماً، اعتبروا العباقرة إما منحطين وإما مجانين، على الأقل في بداية مشوارهم، وقبل أن يصبح أسلوبهم أو طريقتهم شيئاً عادياً جداً، أي، باختصار، «شيئاً موجوداً».

ورغم أن الذكاء ليس غريزياً بطبيعته، وهو يشكل بذلك نتاجاً للتنويع وليس للوراثة، فإن هذا لا ينطبق بنفس القدر على العناصر الثلاثة التي تكونه. وذكاء الفهم، بحكم أنه ليس إبداعياً، غريزي بدوره مثلما الغريزة. لذا فإنه، أو يمكن أن يكون، ذو طبيعة وراثية. يمكن لفرد ما أن يرث ميولاً غريزياً نحو الرسم، وهو ميول يتمثل في الغريزة التي تدفعه نحو الرسم. ويمكن أن يرث، إلى جانب هذا الميول نحو الرسم، ميولاً غير نشيطة لفهم الرسم أو الإحساس به. يمكن أن «يكون موهوباً» كي يرسم، دون أن يتوفر على أدنى فهم لفن الرسم. يمكنه أن يتوفر على هذا الإدراك الجمالي دون أن يعرف كيف يرسم خطّاً مستقيماً.

وبما أن ذكاء الإدراك غريزي في جوهره، فهو خاص أساساً، ويرتبط بالموهبة. إننا نفهم بعض الأشياء تماماً، وأخرى لا نفهمها كما يجب. أنا، مثلاً، يمكنني أن أتابع أي حجة أو استدلال. . .

– لا أشك في ذلك، قال القاضي مبتسماً.

– . . . قد أتابع بشكل غير تام، وأنا أخطأ تماماً، استدلالاً رياضياً.

- إنك متخصص في الأمور العامة، يا دكتور. . .

- شيئاً ما، نعم، إلا إذا كانت المفارقة تحرّف معنى هذه الجملة. إنك تشير إلى ذكاء فهم الأمور العامة. فهذا الأخير هو إما الذكاء النقدي في حدّ ذاته، باعتباره بعيداً عن العلاقة التي تربطه بأي ذكاء فهم يرتكز عليه، وإما الذكاء الفلسفي، الإداركي، الذي يدرك الأمور العامة والحجج، والذي لا ينبغي خلطه بالذكاء الميتافيزيقي، الذي حتى إن بدا أعلى منه -ويمكن أن يكون أعلى منه- يبقى مع ذلك دونه، باعتباره ذكاء إدراكياً، لأنه أكثر تخصُّصاً في نهاية الأمر.

والذكاء النقدي هو ما نعنيه في حديثنا العام عن الذكاء الأعلى أو حين نتحدث ببساطة عن «الذكاء»، ونعني ضمنياً أنه ذكاء نشيط، أي أنه يتجاوز الفهم، دون أن نقصد أنه يضاهي العبقرية.

والذكاء النقدي يرتكز على ذكاء الفهم، لأنه عليك أن تفهم كي تمارس النقد.

ونطلق كلمة «موهبة» على درجة عليا من درجات الذكاء النقدي.

* * *

«(أ) والذكاء فرعي في جوهره، لأنه دائماً مرتبط بشيء آخر، لا علاقة له بالذكاء، يشكل أساسه، بدءاً بالمعنى الذي تقدِّمه له المعطيات.

(ب) ويرتبط ذكاء الفهم بالغريزة (المتعلقة بالموهبة)، ويرتبط الذكاء النقدي بذكاء الفهم، الذي هو غريزي (وله علاقة بالموهبة). فبأي شيء يرتبط الذكاء الإبداعي؟ وعن أي معطيات يشتغل؟ ومن يزوّده بالمعطيات التي يشتغل عليها؟

مكتبة الرمحي أحمد

(ت) إنه يرتبط بشيء غريزي، لكنه ليس كذلك في هذه الحالة، لأن الذكاء الإبداعي يتناقض تماماً مع الغريزة. إنه يرتبط بشيء له علاقة بالحواس، لكنه لا يصدر عن الحواس. إنه يرتبط بشيء عفوي، لكنه يتعلق أكثر بالخارج. وهذا يعني أن الذكاء الإبداعي يشتغل على معطيات **الخيال**.

(ج) إن الذكاء الإبداعي، بالمعنى الحصري، ذكاء تخييلي. وكما أن الذكاء النقدي يرتكز على الفهم الذي هو غريزة وبالتالي نتاج للوراثة، فإن الإبداع يرتكز على الخيال، الذي يشكِّل جوهر روحنا -لأننا في الخيال، وفي أحلامنا نكون نحن بشكل عميق- وهو، بالتالي، قابل للتنويع بشكل أوضح.

(د) وفينا الخيال هو الذي يشكِّل جوهر ذواتنا، فإن ما يترتب على ذلك هو أن النقد الإبداعي يرتبط بفَردِيتنا الأكثر عمقاً. وما يشكِّل الموهبة في النقد الإبداعي يترتب، إذاً، ليس من موهبة خارجية، إن صحّ التعبير، بل عن موهبة تشكل جوهر كياننا».

* * *

«يشترك المجرم والمجنون في معاداتهما للمجتمع، ويختلفان في شكل هذه المعاداة. فالمجنون يعادي المجتمع بالإحساس (أو الذكاء)، والمجرم يعاديه بالإرادة (الذكاء).

إن القابلية الاجتماعية يمكن تلخيصها (وهذا ما يقع فعلاً) في غريزتين، تناقضان الغرائز الأنانية أو الحيوانية، وهما غريزة التكيُّف وغريزة المحاكاة. فبواسطة الأولى ننزع طبيعياً لنتلاءم مع الآخرين؛

وبواسطة الثانية ننزع طبيعياً للتصرف مثل الآخرين، ولو لم نشاركهم نفس الإحساس. إن الغريزة الثانية تعتبر امتداداً للغريزة الأولى؛ ويشترك الإنسان والحيوان في الغريزة الأولى، بينما ينفرد الإنسان بالغريزة الثانية.

ما يفتقده المجنون هو غريزة التكيف؛ وما يفتقده المجرم (مثل الشخص العبقري) هو غريزة المحاكاة».

* * *

«فلا غرو أن نجد الخمول يميز شخصاً ذا طبيعة منظَّمة ونشيطة. إذ أن كل كبار المُسيطرين والمنظِّمين كانوا مطيعين ومنتظمين عندما كانوا في وضعية دنيا. فنابليون كان نافد الصبر بشكل حاد ومرضي، لكنه كان ضابطاً منتظماً جداً. ولم يكن فريدريك الأعظم ابناً مطيعاً فحسب، بل إمّعَة في الإذعان.

إن القوة نفسها التي تصلح لإلغاء فَرديتنا هي نفسها، إن قلبناها، تصلح لتفرض شخصيتنا. والتركيز قاسم مشترك بين الخضوع والسيطرة. وهذا هو المفتاح السايكولوجي للمسألة.

وهذا ما يفسر هذه الحالة الغريبة، التي طالما وقعت عبر التاريخ، وتتمثل في أن رجلاً لا يعتبر دون شخصية، متواضعاً ولا قيمة له، سرعان ما يظهر كأنه القائد الفكري لجيل من الأجيال أو زعيم بلد من البلدان. وهذا ما يُفسر، لنفس السبب، لماذا يكون علماء الرياضيات في أحيان كثيرة أشخاصاً عمليين كبار».

* * *

مكتبة الرمحي أحمد

«تكبُّر - خُيَلاء مكبوت.

إن الخُيَلاء المكبوت هو خُيَلاء كائن ذكي (وغير نشيط).

إنه إنسان ذكي -بل ذكي جداً- ذو إرادة ضعيفة، ولهذا السبب فهو قليل العمل، مزهوٌّ لكنه يعاني من خُيَلاء بسبب عدم الاعتراف بذكائه. ويعود سبب عدم الاعتراف بذكائه إلى أنه لا يقوم بأي مجهود للتعريف به. وباعتباره إنساناً ذكياً ومزهواً، عليه أن يعمل على استخدام ذكائه؛ وباعتباره إنساناً يفتقد الإرادة، لن يستطيع القيام بذلك بطريقة تبهر الآخرين. فأية وسائل يمكنه استعمالها؟ لو كان يملك الإرادة لكانت وسيلته هي المدح، والدراما، ومن الأفضل أن تكون الدراما، لأن الكاتب المسرحي أكثر ميولاً إلى الخُيَلاء من الكاتب. وإلا كانت وسيلته هي المقهى، والجريدة والمسرح».

* * *

- وهذا هو استنتاجي. إن فكرة قتل فارغاش قد برزت بسبب الفرصة التي أُتيحت لقتله، نظراً إلى هذه التوافقيات. هذا يعني أن القاتل لم يفكِّر بشكل واعٍ في اغتيال فارغاش. أُتيحت الفرصة، فطفت فكرة القتل إلى السطح. لذلك انقضَّ المجرم على الفرصة، رغم كل الصعوبات، وكل الأمور اللامعقولة.

فأي نوع من المجرمين لدينا هنا؟ إنه **مجرم عرضي مع سبق الإصرار**. عرضي، لأن الفرصة هي التي صنعت منه مجرماً؛ ومع سبق الإصرار، لأن هذه الجريمة (إن كانت ثمة جريمة) هي جريمة متعمّدة في جوهرها. وقد تعمّدها المجرم بكل دقة وعناية ودون أدنى تردُّد.

وبعد أن توصّلنا إلى هذه النتيجة، يمكننا أن نتصور شريط أحداث قضية فارغاش بكل تفاصيلها. يمكننا أن نرى، كما لو أننا رأيناه فعلاً، شريط الأحداث الجزئية، التي تشكل هذه الجريمة في رمتها.

. . . ثم إنه، من جهة أخرى، ليس سوى إنسان يتمتع بصفات فريدة، وضعته الظروف في حالة توتر، فأفرج عن هذا التوتر بواسطة جريمة ذكية، مطهّراً نفسه في الآن ذاته من ضغط الانفعال وضغط الذكاء.

- إنه قاتل، هذا كل ما في الأمر، قال القائد غيديش بنبرة لاذعة.

هزّ كْواريشْما كتفَيه.

- جزئياً. . . أجاب دون أية إضافة.

الفصل الثالث عشر

قضية فارغاش

لم يتكلم أحد لبضع لحظات. أخيراً، ابتسم القاضي وخرج من شروده المتيقّظ، ثم أخرج من فمه سيجارة كانت جزءاً من سلسلة لا تنتهي من السجائر.

- إن برهنتك جد كاملة، من الناحية المنطقية، دكتور كْواريشْما. شيء واحد يجعلني أتردّد في تقديم التهاني، صراحة. وهو أنني لا أعرف بالضبط إن سمعت استدلالاً بشرياً، أو عرضاً بشرياً لما أنجزته به آلة استدلال.

فعلاً، تابع فونسيكا وهو يلتفت بشكل واضح نحو كْواريشْما الذي كان يبتسم، أجد شيئاً مرعباً وشيطانياً في استعمالكم لهذا الشيء المسكين الذي هو رأسُنا، الذي، في أغلب الأحيان، يخدعنا بثقابة فكر عوض أن نصل إلى نتيجة ما حقيقية. أشعر أنني شهدت عرض أعمال سحرية معقّد للغاية، مع الظروف المشدَّدة المتمثلة في أنه بينما كان يُنجز كان يعرض أمامي طبيعته. وفي الأخير، كان العرض مدهشاً لدرجة أن خباياه ظلت دائماً خفية. لا أستطيع أن أقول لك أكثر من هذا، دكتور كْواريشْما، ثم إنني لا أستطيع أن أقول لك أكثر من هذا لسببَين: لا أستطيع أن أقول لك أكثر من هذا للحديث عمّا قمت بعرضه للتو، ولا أستطيع أن أقول لك أكثر من هذا لأهنئك.

أطرق كْواريشْما برأسه مبتسماً في ارتباك.

- وأنا أشعر بسعادة أكبر لأنني نجحت في القيام بعرض واضح، لدرجة، يبدو لي، أنني أقنعتك، سيدي القاضي.

ونظر القاضي مرة أخرى إلى كْواريشْما بنفس الابتسامة الشاردة، لكن في أعماق عينَيه المبتسمتَين ظهرت ابتسامة ثانية، إضافية، اندرجت في الأولى. فحص كْواريشْما عينَي محاوره، وبدا أنه لاحظ الأمر من تعبير خفيف صدر عن حاجبيه.

- دكتور كْواريشْما، استأنف القاضي كلامه فجأة، سأقول لك شيئاً ربما يفاجئك، لكنني أتمنى منذ الآن ألا تظن أنه يؤثر في أي شيء في الرأي، الصريح تماماً، الذي أبديتُه بشأن عرضك.

إن براهينك تشكل إثباتاً منطقياً. (سكت القاضي وابتسم وهو يزيد من عرض ابتسامته الثانية) لكنها لا تثبت شيئاً من الناحية القانونية.

دكتور كْواريشْما، لقد بيّنت لي، بطريقة منطقية لكنها ليست إخبارية، أن كارلوس فارغاش قد قُتل، ومن كان قاتله. لا شيء أكثر من هذا، من وجهة نظر قانونية. ما يتوجب علي أنا القيام به الآن هو أن أتأكد إن كان كوشتوديو بورجِس هو القاتل. أعرف ذلك، ويجب أن أرى إن كنتُ أعرف ذلك. أعرف ذلك بصفتي إنساناً؛ لكن علي أن أرى إن كنت أستطيع أن أعرف ذلك بصفتي قاضياً.

- إنني لا أفهم جيداً، قال كْواريشْما.

- سأشرح لك، قاطعه فونسيكا. لقد قمتَ بعرض علمي، أي أنك قدّمتَ عرضاً يستند إلى براهين، كما في الرياضيات [. . .].

لكن البراهين لا تشكِّلُ إثباتات أمام المحكمة، دكتور كْواريشْما. لو أنك، عوض ذلك العرض الرائع، وجدت لي شاهداً

يكون قد رأى بورجِس وهو يقفز فوق سور بيته ويتجه نحو بينفيكا في ساعة معيّنة من الليل، وشاهداً آخر يكون رأى بورجِس يقطع مزرعة كينتا بيكينا، سيكون لهذين الشاهدين، رغم أنهما من الناحية المنطقية أضعف بكثير من أدنى برهان من براهينك، وزن أكبر بكثير أمام المحكمة من كل برهنتك، وأكثر من كل البراهين التي يمكنك أن تقدّمها طوال حياتك.

إن المسألة تُطرح بالشكل التالي، دكتور كُواريشْما: أنت تفكر بطريقة علمية، أما أنا فأفكر بطريقة قانونية. إن برهنتك قد تقنع الجميع، إلا القاضي. يمكن لأي واحد، وفقاً لبرهنتك، أن يعتبر بورجِس جانياً، إلا القاضي. أمام المحكمة، يمكن لأقل محامي الدفاع براعة أن يلغي كل هذه المجهودات، التي هي أكثر من مدهشة. وقد يدمِّرها بحجة علمية سخيفة، لكنها رائعة من الناحية القانونية: أثبت ذلك. إن «الإثبات» في هذه الحالة، يعني «تقديم شهود يبرهنون على ذلك». من الواضح، دكتور كُواريشْما، أن لديك براهين قوية، لكنها لا تتوفّر على أدنى شاهد.

اسمح بأن أضيف هذا الشيء: بصفتي إنساناً، لا يمكن أن أكون أكثر اقتناعاً بحقيقة حججك. لكن، بصفتي قاضي، أنا ما زلت كما كنتُ عليه قبل الاستماع إليك.

أفهمتَ، دكتور كُواريشْما: ذكاؤك علمي وليس قانوني. والحال أن القضايا يحكمها قضاة أمام محاكم وليس في مختبرات. ما له قوة الثبوت في المنطق ليس هو بالضبط ما له قوة الثبوت في الحكم. لا أقول إن هذا يدافع عن مهنتي، ولا عن المحاكم، لكنه هكذا.

* * *

- [. . .] هل فهمت وجهة نظري، يا دكتور؟

- فهمتُها تماماً. لم يخطر ذلك على بالي، ليس لأنني لا أستطيع التفكير، بل لأن غريزتي دفعتني فقط لأفكِّكك شفرة قضية فارغاش، وليس أن أترافع في دعوة. لم أفكر بهذا الشكل.

. . . طبعاً، لأنك لم تكن مجبراً على القيام بذلك. لكن، بالنسبة إلينا نحن أهل القضاء، هكذا نرى القضية.

غيديش:

- لكن كيف يعقل أن يكون لمحاجة ما أي قيمة دون اعتراف المتهم؟ هل سيعترف المتهم إن استجوبناه؟

- إنك تقدِّم هنا، يا دكتور، دليلاً سايكولوجياً خاطئاً: هل سيعترف أم أنه لن يعترف؟

ابتسم كْواريشْما، ثم فكر لحظة.

- لو أُخذ على حين غرة، سيعترف؛ وإلا فإنه لن يعترف. إن بورجِس هذا ينتمي إلى فئة العقلانيين -على طريقته، وبمستواه، طبعاً- لكنه عقلاني وإنسان تمثل الخُطّة بالنسبة إليه شيئاً أساسياً، وهو ما يميز لدى العقلانيين بين المستوى العالي والمستوى الدوني، بين الفيلسوف والمجرم المنحرف الموهوب كما في هذه الجريمة.

علينا أن نعتبر أنه يوجد الآن في حالة تخلت فيها إرادته عن كل احتراز. لا بدَّ أن هذه الأيام الأخيرة كانت بالنسبة إليه أيام قمع فظيع للانفعال، وأيام مجهود كبير للإرادة على الانفعال. بما أنه يعتبر أن الخطر قد زال، لا بدَّ أن إرادته قد خبت بعض الشيء، ولم يعد توتره شبه الصرعي مسيطراً. إن الجانب الهستيري من شخصيته هو

مكتبة الرمحي أحمد

المهيمن الآن. إن شبه الصرع، الذي يشكل صلابة الفرد وإرادته، قد استُنفذ. يجب مهاجمتُه من هذا الجانب، إن كان ذلك ممكناً.

لكن، يجب أن نشدِّد على أن لدى بورجِس حجة غياب مكتملة بشكل لافت. ولاحظوا، أنه، من جهته، متحفِّظ وقليل البوح. احتاط ألا يبالغ في الأمور؛ وضمن لنفسه شهادة الحارس الليلي لكل ما يفيده، لكنه، فيما يخصه، لم يقل الأشياء إلا بإيجاز. وهذا، بالإضافة إلى أنه ينم عن براعة لافتة، ينبّه إلى براعة أكثر من لافتة، إنه حساب مضبوط ودقيق، يعرف مداه وحدوده.

- لكن، هل سيعترف؟ سأل القاضي وهو يرفع حاجبيه. يبدو لي أن لديه من الدهاء ما يمنعه من السقوط في هذا الفخ، وإن كان يعرف أي شيء عن قيمة الشهادة في الحكم، فأنا شبه متأكِّد بأنه لن يعترف. صحيح... دكتور كْواريشْما، أنت الذي حدّدت عقلية بورجيس، ولديك فكرة واضحة عنها، يمكن أن تقول لنا شيئاً بخصوص هذا الموضوع... هل يمكن أن يعترف هذا الرجل؟ وإن كان كذلك، ففي أي ظروف قد يعترف؟ بعبارة أخرى، هل يمكننا أن نستدرجه إلى الاعتراف؟ هلا نوَّرتنا بهذا الخصوص، يا دكتور؟

- نعم، بكل تأكيد. كما برهنتُ على ذلك، بورجِس إنسان ضعيف، وعصبي له ردود أفعال حادة وسريعة، وهو كذلك رجل ذكي ذو فكر ثاقب. إذا أردنا أن نستدرج شخصاً من هذا النوع من المزاج ليعترف بشيء، لا توجد غير وسيلة واحدة، تنتمي إلى القرون الوسطى. إنها التعذيب.

ارتجف القاضي. كان يهم بأن يبتسم، لكن، بعد ذلك، علا وجهه احمرار خفيف، وهو يسحق سيجارته في المرمدة.

- إننا لم نعد في العصور الوسطى، قال.

ثم لزم صمتاً قصيراً وأضاف:

- أتمنى أنك لم تنصت، يا دكتور، إلى ما يُحكى هنا وهنالك من حكايات تتحدث عن سوء معاملة السجناء لحملهم على الاعتراف هنا، في غرفة التحقيق هذه. هذا...

لكن كْواريشْما قاطعه، وهو يبتسم بشكل صريح.

- إن ذلك لم يخطر على بالي حتى، ولم أسمع أي شيء... لقد أجبتك بشكل مباشر. إن الوسيلة الوحيدة للحصول على اعتراف من شخص مثل بورجِس هي التعذيب. وبما أنه اليوم لم يعد هناك تعذيب جسدي، أو أنه لا يجب أن يكون، فإن الحل الوحيد هو التعذيب النفسي.

- التعذيب النفسي؟ كيف ذلك، التعذيب النفسي؟ هذا الأمر لا يروقني أيضاً.

- ربما سأشرح الأمر أحسن لو قلتُ «التعذيب الذهني».

* * *

ابتسم الدكتور كْواريشْما، وأومأ بإشارة إلى أعلى الطاولة.

- هذه هي قضية فارغاش.

[...]

ولأول مرة في حياته كان يشبه حمامة. سقط مثل حمامة.

[...]

- لقد قلتَ، يا دكتور، قبل قليل إنه لا وجود للوقائع أمام

مكتبة الرمحي أحمد

البراهين. لكن، أمام المحكمة، لا هذه الجملة ولا تلك الجملة الأخرى المتداولة التي وضعتها في مقابل هذه صحيحتان. إن الوقائع والبراهين تشكِّل في القضاء كتلة واحدة، لكن الشهادة -كيف أعبِّر عن ذلك- هي التي تحدِّد شكل الكتلة. لو تعلّق الأمر فقط بإقناعي أنا، لانتهت القضية بسرعة، لأنني مقتنع تماماً بما قُلتَه. لكن، وأنا أعترف لك باقتناعي، لا أحدّثك بصفتي قاضي تحقيق، وينبغي أن يتولى هذه القضية قاضي آخر، هو من يترأس الجلسة وهيئة الحكم؛ إنني لا أحدّثك إلا بصفة خاصة، بصفة رجل له ثقافة معيّنة أصغى إليك باهتمام كبير، وأقول لك هذا بكل صراحة، وإعجاب شامل.

* * *

فرنسيشكو دا فونسيكا إلى كُواريشْما:

- أشكرك... لم يسبق أن شعرت بمثل هذه الإهانة في حياتي، لكن، صدقني، لقد كانت إهانة ممتعة.

الفصل الرابع عشر[1]

طبق سمك الغادُس على طريقة غيديش

(1) لم نعثر على وثائق تتعلق بهذا الفصل، باستثناء هذا المقطع القصير: «إنه لا يملك جسماً يحتمل تعذيب ثلاثة حراس»، قال البقال حائراً (عن غيديش، خمارة). (محقّقة النص آنا ماريا فريتاش)

الفصل الخامس عشر
الشهادة النهائية

- لكن، هناك. . . كان علي أن أفتح هذا، قال غيديش بتردُّد عابر.

ثم وضع الظرف مرة أخرى مع بقية الأظرفة وأومأ بمواصلة [. . .]. أوقف حركته الإيمائية لحظة.

- إنك تعرف ما في داخل هذا الظرف، أليس كذلك؟

ولمع في عيني بورجِس وميض من الشكّ.

- نعم، نعم، تقريباً. أعرف أنه شيء يخصني، أتاني من عائلتي.

- حسناً، أنا شخص أكتم الأسرار وجدير بالثقة، قال غيديش. لا يهم أن ألقي عليه نظرة.

أخذ الظرف من بين الأظرفة الأخرى، مدَّ يده نحو مقص كان في متناوله.

وصدر عن جسد بورجِس الممدود شيء ما يشبه الصياح. نظر إليه غيديش محدِّقاً، جامداً، والمقص فوق الظرف. فرأى وجهاً شاحباً، وعينَي شخص تائه.

ثم أدخل المقص في الجزء العلوي من الظرف ومزّقه بضربة واحدة. وأخرج ورقة -ورقة واحدة- كانت في داخله ثم طواها.

كانت تصريح القبطان بافيا مِندش الذي يقدِّم بموجبه عشرين في المئة. . . إلخ، لمن يأتيه بهذه الورقة.

ثم حدّق القائد غيديش في بورجِس.

- حسناً، إنه الشيء الوحيد الذي كان ينقصني. شهادة جارك في الشارع. . . ذاك الذي رآك وأنت تغادر البيت من الباب الخلفي. شهادة حارس البلدية الذي تعرّفك من مشيتك بوصفك الشخص الذي رآه يتحدث إلى فارغاش عند زاوية الشارع. شهادة جار أرتور رامااليو الذي كان يستعد للنوم في غرفة عائلة فيغا عندما تأخَّرتَ. كل هذا يمثل شيئاً كثيراً، لأن الشرطة أكثر فعالية مما نعتقد. لكني أنا، كنتُ أريد أن يكون كل شيء كاملاً، وحتى يكتمل كل شيء، كان لا بدَّ من وضع اليد على هذه الوثيقة. لقد أنجزتَ الأمور بعناية من يشعر بالذنب، لكنك لم تكن محظوظاً فعلاً. في كل مكان، هناك شهود رأوك؛ ولم تطأ مكاناً لم ترَك فيه عيون الآخرين [. . .]، أليس كذلك؟

هزّ بورجِس كتفيه ولم يعد تقريباً سوى ظلٍّ لظلِّه.

- لكن، ثمة أشياء ليست واضحة. عندما أخبرتني أنك غير ذاهب إلى بورتو اليوم، ذهبتُ بسرعة أبحث عن الملف. لكن كل شيء قد اكتمل الآن [. . .].

* * *

- سوف تنكر، أليس كذلك؟ هيا، قل من كان ذلك الرجل ذو اللحية السوداء، تكلم؟

لكن، في الوقت ذاته، وفي نوبة توتر عصبي، واسترخاء. . .

مكتبة الرمحي أحمد

– ما الجدوى من النكران، ما دمتَ تعرف كل شيء. . .؟ لكن تابع. . .! أكِّد. . .

وفجأة مدّ غيديش يده اليسرى الكبيرة وبعدوانية محسوبة ألقاها على كتف بورجِس الذي، كما لو أن هذه اللمسة أحالته رماداً، انهار، خائراً ومرتجفاً، فوق مقعد الكرسي الذي كان وراءه.

– إنني أوقفك بتهمة قتل متعمّد، قال غيديش بصوت قوي وصارم. هل ما زلت مصرّاً على أن تنكر؟

– لسبب ما، لا أملك علماً ولا ذكاء لتفسيره، لا يرتبط الفكر والإحساس في ذاتي. ربما لهذا السبب، ورغم أنني كنتُ دائماً أرغب في أن أكون شاعراً أو فناناً، لم أفلح في ذلك قط. في داخلي، لا تغزو أقوى المشاعر دائرة الفكر، ولا تقدِّر أقوى الأفكار على غزو دائرة الإحساس. كنتُ دائماً أشعر أن في داخلي فردان: فرد يفكِّر، وفرد يشعر. أكاد أرى في روحي الفضاء المفتوح بين الاثنين.

[. . .]

أعترف أنني تردّدت قليلاً، في طويّتي، حتى في وضع الخطة نفسها. بدا لي أنني كنتُ بصدد وضع واحدة من تلك الخطط التي يدفعنا الأرق إلى وضعها، خطط بالغة الوضوح في أدنى تفاصيلها، متناسقة جداً في كل عناصرها، لكنها، ما أن تمر لحظة الأرق وتبزغ شمس يوم جديد، حتى تتبخر مثل كل الأشياء العبثية التي يستحيل أن نظن أننا تجرأنا وآمنا بإمكانية تحققها. لكني، بعد ذلك، قلتُ مع نفسي إنه هذه الخطط المرسومة، حين لا ننام، غالباً لا تشكِّلُ

سخافة بالمعنى الحصري للكلمة، بل جرأة. تذكرتُ بعض الأشياء التي فكرت فيها على هذا المنوال، ولم أفكر في إنجازها بعد ذلك، لكن في الحقيقة كان بإمكان شخص آخر أن يحققها. فقلتُ مع نفسي إن الواقع لا يضع أمامنا عراقيل فحسب، بل إنه يجرّدنا من الإرادة.

لقد علمتني تجارب الحياة أنه لا ينبغي أن نضع خططاً ملموسة أو بالغة الدقة لما يأتي من فرص في المستقبل. ما ينبغي أن نقوم به هو أن نضع خطة عامة، مجردة، تستند بقوة إلى خطوط كبرى تُرسم بشكل يحصر كل إمكانات الحدوث، وبعد ذلك، وفق ما ينبثق عن ذلك من تفاصيل، نمر إلى الملموس بحسب الفرصة المادية المتاحة.

كانت خطتي العامة تتمثل في الإيحاء دائماً بلغز الانتحار. إن الإيحاء بلغز الانتحار هو إيحاء بالانتحار، لكنه إيحاء ضمني. قد لا أقول «هل انتحر؟»؛ بل قد أقول: «لكن لماذا انتحر؟». ربما لن أؤكد: قد أعبِّر عن الدهشة. قد أسلِّم بفكرة الانتحار، وأنا أوحي بها على هذا الشكل؛ لكني قد لا أندهش منها، حتى تبدو كأن شخصاً آخر هو من يؤكِّدها؛ وقد أخلقُ مشكلة، لغزاً تكون له جاذبية كل الألغاز وسحر كل المسائل.

إن المشكلة السايكولوجية هي التي تهيمن على البشرية. إن معظم النميمة هي عادة كلام عن المميزات النفسية للآخرين. فمن الأسهل أن نلفت الانتباه إلى المشلكة السايكولوجية «لماذا انتحر؟» أكثر من المشكلة المادية المحضة «لماذا قتلوه؟»، لو كان ممكناً طرح هذا السؤال الأخير، أو كان ينبغي علي أن أثيره.

فكرتُ أن أتخذ موقفاً من الأشخاص الأذكياء، وموقفاً آخر من

مكتبة الرمحي أحمد

الأشخاص الأقل ذكاء. لكن كيف لي، فجأة، أن أميّز لدى أشخاص أراهم لأول مرة، ولأول وهلة، إن كانوا أذكياء أو لا؟

لكن ثمة صفة تميزني، وإن كنت لا أتوفّر على سواها من الصفات. إن عقليتي تمتاز ببرودة دم مطلقة. يمكن أن أغلي حقداً، وأرتجف رغبة، وأرتعش خوفاً، لكني لا أفقد السيطرة على نفسي ولا على حركاتي. لا يغشى ذهني أي شيء حين ألاحظ، ولا أقوم بأية زلّة أبداً. وشيء غريب أنني، حتى عندما أكون في قمة السكر، لا أترنّح في مشيتي ولا أتلعثم في كلامي أبداً، بل حتى في عز الدوخة، إن كنت لا أنطق بكلام حصيف، فإنني لا أقول ما أنا عاجز عن قوله. وهذا لا علاقة له بقوة الإرادة: إنه شيء طبيعي، له علاقة بمزاجي.

كان همّي الأساسي، أو بالأحرى الهمّان الأساسيان لدي، أن أجعل الآخرين يعتقدون بأن الأمر يتعلق بانتحار، وأن أبعد عن نفسي أي شبهة، مهما كانت صغيرة. لهذا الغرض، كنت أعرف منذ البداية، على الأقل، ما الذي يجب علي ألا أقوم به. كان علي ألا أوحي بالانتحار. إن إلحاحاً على الانتحار، حتى إن كنت أوحي به فقط، قد يجعلني مشبوهاً، أو، على الأقل، قد ينزع في لحظات عصيبة إلى أن يحولني إلى شخص مشبوه. فبعد أن يصبح المرء مشبوهاً، من يدري ما قد تؤول إليه الأمور لاحقاً، لأنه من الممكن في الحكايات البوليسية أن تزول الشبهة عن المرء، لكن ذلك لا يحدث في الحياة.

وطرحت على نفسي الإشكال التالي: هل يمكن أن أحمل

الشرطة على أن تعتقد بأن الأمر يتعلق بانتحار، دون أن أجعلها تشك، بأي شكل من الأشكال، أن لدي مصلحة في أن أجعلها تعتقد ذلك؟

منذ البداية، كانت القضية تقريباً موجهة بشكل يدفع للتفكير في انتحار. وكانت خطوتي الأولى، التي كنت أحرص على أن تكون مُقنعة تماماً، هو ألا نستطيع الاعتقاد بأن الأمر يتعلق بانتحار. بعد ذلك، وبعد أن يلاحظ الأطباء أن الأمر يتعلق بانتحار، قد يكون موقفي هو أن أظهر دهشتي، وأن أُعَقِّد المسألة التي يثيرها انتحار في مثل هذه الملابسات.

ومنذ اللحظة التي سأقدِّم فيها الانتحار كمسألة أو لغز، ستنتهي القضية، ثم كلما كان المحقِّق ذكياً، كلما كان ذلك سهلاً. إذ إن التلاعب بعقلية إنسان ذكي دائماً أكثر سهولة من التلاعب بعقلية إنسان أبله. ودليل ذلك عندي جديد: فلا الدكتور كْواريشْما ولا قاضي التحقيق كان بإمكانهما أن يخدعانني كما فعل القائد غيديش. . .

إن جاذبية اللغز أقوى من أي شيء.

إن البداية الأولى للجريمة، أحياناً، شيء غير قابل للتقدير. ربما لو أن كارلوس فارغاش لم يعاملني بتلك الطريقة المتعجرِفة المُهينة وغير المقصودة، بذلك الازدراء الجزئي الذي كان أسوأ من الازدراء الكامل -لأن هذا الأخير قد يتضمن، على الأقل، شيئاً ما، شيئاً من الاهتمام- لم تكن فكرة القتل لتخطر على بالي، لا في الحلم، ولا في يقظة التفكير. أذكر أنه حين خطرت هذه الفكرة على بالي، شعرت بلذة لم تكن لها، ظاهرياً، أية علاقة بالفكرة في حدّ

مكتبة الرمحي أحمد

ذاتها، والتي كان لها هدف محدّد، نفعي، وتستبعد اللذة كما تستبعد الشفقة. وها أنذا الآن حبيس في هذا السجن، مريض، منحطّ، متيقن من العقوبة القصوى والمنفى. حسناً، أكرِّر ذلك: أنا نادم على عبثية الجريمة في مجملها؛ لكن في ما يتعلق بالجريمة في حدّ ذاتها، فأنا لست نادماً.

كانت فكرتي الأولى هي أن أجعل جريمة القتل هذه تبدو كأنها انتحار. لكن، بعد طول تفكير، قلت مع نفسي إنه حتى لو نجحت في تطبيقها بشكل تام، فإن هذه الطريقة قد تشكِّل عقبة خطيرة، لن يستعصي فهمها على عالم نفساني لا يشتغل بشكل سطحي. ما أن يصبح الانتحار موضع شكّ -وقد يشك أحدهم في الانتحار- قد تصبح فرضية الجريمة ممكنة، وما أن تصبح فرضية الجريمة ممكنة حتى نجد أنفسنا نسلك طريقاً لا نعرف بالضبط إلى أي حد قد تقودنا. لا: كان أبسط حل هو افتعال انتحار يشبه جريمة، حتى يكشف تحقيق معمق أن الجريمة الظاهرة كانت انتحاراً «حقيقياً»؛ ولا يفكر أحد أن الأمر يتعلق بجريمة، ولا يشك أحد في أن الأمر يتعلق بانتحار. لقد تخلينا عن فكرتنا الأولى، لكنا لم نتخلَّ عن فكرتنا الثانية. إن الزهو البشري يمكن أن يذعن بمعنى أنه يمكن أن يشك في ذاته؛ لكنه قد يكون من الصعب التشكيك في ما كان من قبل موضع شك. بإمكاننا أن ننأى عن الانطباع الأول، لكننا لا نستطيع أن نبتعد عن الانطباع الثاني.

لم تكن الظروف ملائمة لتحقيق مشروعي الخفي فحسب، بل كانت تجعله قابلاً للتحقيق إيجابياً بشكل كامل. وأي شيء يتوافق أكثر مع ما كنتُ أرغب فيه أكثر من انتحار وسط طريق! سيلاحظ

الجميع أن الأمر يتعلق بجريمة؛ ثم سيقول الجميع مع نفسه، بعد تفكير، وتدبر في الوقائع، إن الأمر كان يتعلق بانتحار. باستثناء ما سبق لي أن فكرتُ فيه، كان هذا الأمر يضيف مسألة أن أكثر شيء إلغازاً هو أن الأمر يتعلق بانتحار، هنا، في هذه الساعة، وفي هذا المكان. وقد تقود رومانسية البشر التي لا تخطئ الجميع إلى أن يفضِّلوا الاعتقاد بأنه انتحار، ما دام أنه كان يبدو كذلك، بدل التفكير في جريمة، لأن لغز الانتحار أقوى من لغز الجريمة.

كنتُ دائماً أتمتع بصفة طبيعية وثابتة: برودة دم كبيرة تطبع عقلي، وهدوء كبير في التفكير. ورغم أنني لست شجاعاً، ولا أتصورني قادراً على أن كون كذلك، فإنني أتمتع بصفة غريبة تتمثل في أنني لا أترك عقلي يتشرّد لما ينطوي عليه ذلك من خطر، بل أقول أكثر من ذلك، بسبب الخوف. يمكن أن أرتجف مثل ورقة، لكني أفكر مثل سيف حاد.

كنتُ هادئاً. هدوء كان يغضبني في نهاية الأمر، لأنه كان هدوئاً مصطنعاً وطبيعياً في الآن ذاته.

أخذت معي إلى البيت أربعة مجلدات -من المجلدات الضخمة- من **تاريخ البرتغال** لبينيرو شاغاش. ودخلت أحملها إلى المكتب، لأن تركَها هناك كان مبرراً وجيهاً كي أعود إلى المكتب، في حالة ما إذا رآني أحدهم أو اهتم بالأمر. خرجت أرتدي المعطف وأحمل أشياء أخرى وضعتها في حقيبة سفر رب العمل. قد أعود في الغد صباحاً مع كل شيء؛ وقد آخذ المجلدات الأربعة. كان لا بدَّ أن أسلِّمها لأحد ما. قد أتركها في مقهى مونتانيا، حيث يعرفونني، وأطلب منهم أن يحتفظوا لي بها. هكذا، سيكون ذهابي إلى المكتب

مكتبة الرمحي أحمد

ورجوعي منه مرتين شيئاً مبرَّراً. أما الحقيبة فلن يعيرها أي أحد اهتماماً. ثم إنه لن تنقص أي حقيبة في المكتب.

* * *

«. . . كما لو أن دهشتي تَمثُل أمامي فأرى فجأة، بكل وضوح، مسرح الجريمة.

لكن، مع ذلك، لا أستطيع أن أقول ما الذي فهمته، فجأة، في ذاتي. لم يخطر ببالي قط، إلى غاية تلك اللحظة، أن أقتل فارغاش. كانت لدي أسباب كثيرة لأتذمّر، لكنه كان دائماً بداخلي شيء ما غامض. كانت خفّة ما في مزاجي هي التي تجعلني لا أفكر من قبل فيما تعرضت له من إهانات فكنتُ أنساها. كأنني كنتُ أنساها أحياناً في الوقت الذي كانت تؤلمني. لكن ما شعرت به في ذلك اليوم لم يكن نية مفاجئة في قتل فارغاش، بقدر ما كان شيئاً جديداً. لا: شعرت أنني، أخيراً، وجدتُ الفرصة لتحقيق شيء طالما تمنّيتُه منذ زمن، كما لو أن فكرة قتل فارغاش كانت تقبع منذ زمن، مختبئة أو متنكرة، في خبايا ذهني. أحسستُ بها بالاستذكار، وأنا أعود إلى الوراء: أحسست أنني كنتُ دائماً أرغب في قتل فارغاش، دون أن أشعر بذلك ودون أن أعرفه.

اندهشتُ لذلك لكني لم أتأثر. وكنتُ أنظر إلى نفسي كما لو أنني أنظر إلى أي منظر طبيعي اكتُشف تحت البحر عند أحد منعطفات الطريق. و منذئذ -أظن أن ذلك بدأ منذ أن بدأتُ أحلل نفسي بهذا الشكل- بدأتُ تلقائياً -أنا، أو أنا الآخر- (هل أقول بدأتُ أم تابعتُ) في وضع خطة قتل فارغاش بكل تفاصيلها المستقبلية.

أحسست أن ذاتيتي قد ضاعت. لم يكن ذلك يشبه حتى كوني أضع حبكة مسرحية. لو كان كذلك لشعرتُ بحماس أكبر. كنتُ فاتر الهمّة، كما في الأرق عندما نشعر بالرغبة في النوم لكن الذهن يظل ساهراً، يلفّه نوم الجسد، كضوء يعكس ظل مائدة فوق الأرض. لم يحزنني أن أفكر بهذا الشكل إلا عابراً، لكني لا أعرف لماذا.

لكن، كما لو أنني أفكر وأرى بشكل منفصل، رأيتُ شريط الجريمة يمر أمام خيالي. بدوت كأنني كنتُ أرى بطريقة تنبؤية ما كان سيحدث دون أن أتدخل بدل أن أخطط ما كنتُ شخصياً على وشك تنفيذه. عادة، هذا الموقف هو الذي يتخذه محدودو الذكاء، المحكوم عليهم منذ الولادة ألا يقوموا بأي حركة فقط لأنه يجب البدء في إنجازها. لكن، وأنا أفكر في كل هذا، لم أكن أفكر فيه. شيء ما غامض كان يخبرني أن هذا لا علاقة له بتخييلات الأرق، التي يستحيل تطبيقها تحت ضوء النهار بسبب غياب الجرأة والإرادة المركّبة. كان يبدو أن حركة تردُّد في داخلي كانت تأخذني، كما لو أنني كنتُ على متن قطار، يتردد لكنه يسير، نحو تحقق لا محيد عنه، سهل، تفرضه إرادة القدر الإضافية على غياب إرادتي.

توحّدت في النهاية (كما لو أن ما تمَّ تحضيره في استسلام في الظل يظهر، متيقظاً وكاملاً تحت ضوء الشمس).

بدأت أتساءل كيف يمكنني أن أحقّق عملياً ما كنت أنوي القيام به. كان دماغي واعياً كما لو أنه دماغ شخص آخر. ليس لأنني لست واعياً بعض الشيء عادة، لكنني لا أستطيع أن أصف بطريقة أخرى

مكتبة الرمحي أحمد

ذلك الوعي الذي كنتُ أشعر به. لم يكن وعياً شاذاً: كان وعي شخص آخر.

بدأت أفحص أخطار وصعوبات ما كنتُ أنوي القيام به. لكن -وهذا غريب!- لم تكن الأخطار تبدو لي مثل أشياء تثير الخوف، بل فقط كأشياء يجب تحاشيها؛ أما الصعوبات فكانت تبدو لي مثل وقائع أي شريط، ذهني فحسب. وتساءلت في النهاية، بشكل غامض، في فترة فراغ لا أعرف طبيعتها، إن لم أكن مجنوناً؛ لكنني شعرتُ تقريباً وكأنني أبتسم، مطمئناً، وأنا أشعر بكل كياني ينزلق مضطراً وبسهولة على سطح منحدر لا تعتريه خشونة. تذكرتُ تجربة قديمة عشتها، وخلالها عرفت، بطريقة متكرّرة، هذا الشكل من التوسُّطية التي يسمونها التوسُّطية الكتابية أو الكتابة التلقائية... فكان ذهني بكامله يوجد الآن في ساعدي الأيمن، الذي فقد حسه، وهو لا يزال في ملكي، لكنه صار هوائياً، سريعاً، يتمتع بشخصيته الخاصة.

بقيت على هذا الحال المضطرب من الوضوح لست أدري كم من الوقت. وحين نكون في هذه الحالة الذهنية، فإن الوقت يصبح عنصراً لا نستطيع ضبطه. وعندما طفوتُ من تأملاتي الفكرية، كما يحدث حين ننهض من النوم، لاحظتُ أن أحداً -أنا شخصياً، ربما- قد وَضَعَ مكاني، بينما كنتُ عابثاً مستهتراً، الخطة الكاملة للجريمة.

وقد بدت لي تلك الخطة بطريقة غريبة، بصرية أساساً، على شكل ملابس سبق لي أن رأيتها، ومنازل، وزوايا أزقة ليلية، والحارس الليلي، وعودتي أنا أيضاً إلى البيت، أو ضوء الغاز الذي ظلَّ يحترق، بعد أن نَفَدَ كل شيء.

لن أخوض في تفاصيل الخطة. سوف تُعرض بكل تفاصيلها عند

التنفيذ. بعبارة أخرى، بسرد طريقة تنفيذها سوف أبيّن كيف كانت، ولن أضطر لتكرير نفس الشيء مرتين. ثم إنه لا يوجد فرق بين الخطة وتنفيذها. لقد تأملتها جيداً، ولم يظهر لي، لحظتها، أي ظرف عارض وغير متوقع يجبرني على تعديل أدنى جزئية مما توقعت القيام به.

كان مُشَغِّلي قد وضع في الأسفل، في مكتبه الذي كنتُ واحداً ممن يملكون مفاتيحه، معطفاً داكناً، صُنع من ثوب جميل، ولفافات، وقفّازين، قبّعة رخوة داكنة، وحقيبة سفر صغيرة. كانت لديه ملابس أخرى، لكنني لم أرَها في خيالي، لأنني كنتُ أرى تلقائياً ما كنتُ في حاجة إليه. كان لدي في البيت نظاراتان تدرّجيتان استعملتهما ذات مرة في المسرح، وشاربان سوداوان، كنت أملكهما لنفس الغرض، كانا يكملان هذا المظهر الخارجي الذي كان علي أن ألتقي به مع فارغاش في بينفيكا. كانت قامتي وبدانتي تختلفان قليلاً عن قامة وبدانة مُشَغِّلي، لكنه كان اختلافاً طفيفاً».

* * *

«إن التكتيك الذي استعمله القائد غيديش ليقبض علي يمثل نموذجاً مؤسفاً لتفوّق الحيلة على الذكاء في اللحظات القصوى، ولحظات التوتر القوي. لا أظن أن الدكتور كْواريشْما، الذي توفر له من الذكاء ما استطاع أن يكشفني به، كان قادراً، إن لم أرغب في ذلك، أن يهزمني بذكائه».

* * *

«ربما ينبغي أن أضيف إلى هذه الشهادة النهائية ملاحظة سريعة

مكتبة الرمحي أحمد

من أجل إكمال هذه الرواية. في ما يتعلق باختراع بافيا مِندش، ثبت أنه ينطوي على خطأ ارتكب بنيّة مبيّتة في نقطة من نقطتَيه الأساسيتَين. أما النقطة الأخرى فكانت صحيحة، لكن سبق وأن اختُرعت سنة قبل ذلك من طرف السيد جوزي برانكو. وهو ما يترتب عنه أن اختراع بافيا مِندش لم يكن قابلاً للتسويق».

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

الفهرس

مقدمة 5

الرّق المسروق 17

Tale X / موت دون جواو 85

الرسالة السحرية 117

سرقة في مزرعة داش فِنياش 171

اختفاء الدكتور ريبيش غومش 209

قضية القفل الثلاثي أو سرقة في بنك غاليسيا 231

قضية الغرفة المغلقة 251

جريمة 297

المتواطئان أو المحكمة 323

قضية فارغاش 357

مكتبة الرمحي أحمد

فرناندو بيسوا

كواريشما، فكّاك الرموز

في الروايات القصيرة التي يضمُّها هذا الكتاب، يكتشف القارىء وجهاً آخر من أوجه بيسوا: كاتب يؤلِّف بسهولة في جنس الأدب البوليسي كما يكتب نصوصه الباروكية والطلائعية. ويكتشف أيضاً شخصية فريدة: كُواريشْما، المدعو فكّاك الرموز، وهو رجل تحرّي غير عادي، يعيش في مدينة لشبونة، وحيداً مع أفكاره المجردة، يدخِّن السجائر ويتأمّل غرائب هذه الدنيا، ويشعر، مثل الكاتب، بالراحة في اللغة أكثر من الواقع. ويا لها من طريقة غريبة تلك التي يتبعها كُواريشْما في تحرياته! إنه يفضّل أن يعتمد على منطقه الفكري وطريقته في الاستدلال بدل النبش في مسرح الجريمة، بل إنه لا يتدخّل إلا إذا وصلت تحريات الشرطة إلى الباب المسدود. حينئذ يستنجد صديقه، المفوَّض مانُويلْ غيديشْ، بهذا الفكر المتجسِّد في شخص غريب الأطوار، الذي يتحدث عنه بيسوا في مقدمة الكتاب كما يلي:

«أبيلْيو كُواريشْما، 'طبيب غير ممارِس وفكّاك ألغاز'، كما كان يُعرِّف نفسه بكل بساطة ودقّة، سنحت له الفرصة ليتدخل ويجد الحل لعدة ألغاز من ألغاز الحياة الواقعية، التي دائماً ما تكون أكثر غرابة، وغالباً ما تكون أكثر ذكاء من ألغاز **روزنامة الذكريات**، الذي كان أحد كُتُبه المفضّلة. وبعد أن ناقشتُ مطوّلاً المسألة مع المفوَّض غيديشْ، عن الشرطة الجنائية، وهو صديق لكُواريشْما أيضاً، قررتُ أن أصوغ كل هذه الروايات، بأدقّ طريقة متاحة، وأن أحكي هذه المغامرات الفكرية التي صنعت من كُواريشْما كائناً استثنائياً في نظري».

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

ISBN 978-9953-68-875-6
9 789953 688756